

الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

قسم التاريخ

دراسة سياسية لأوضاع القدس

١٩١٤ - ١٨٣١

دراسة لنيل درجة الدكتوراه في

تاريخ العرب الحديث و المعاصر

إشراف

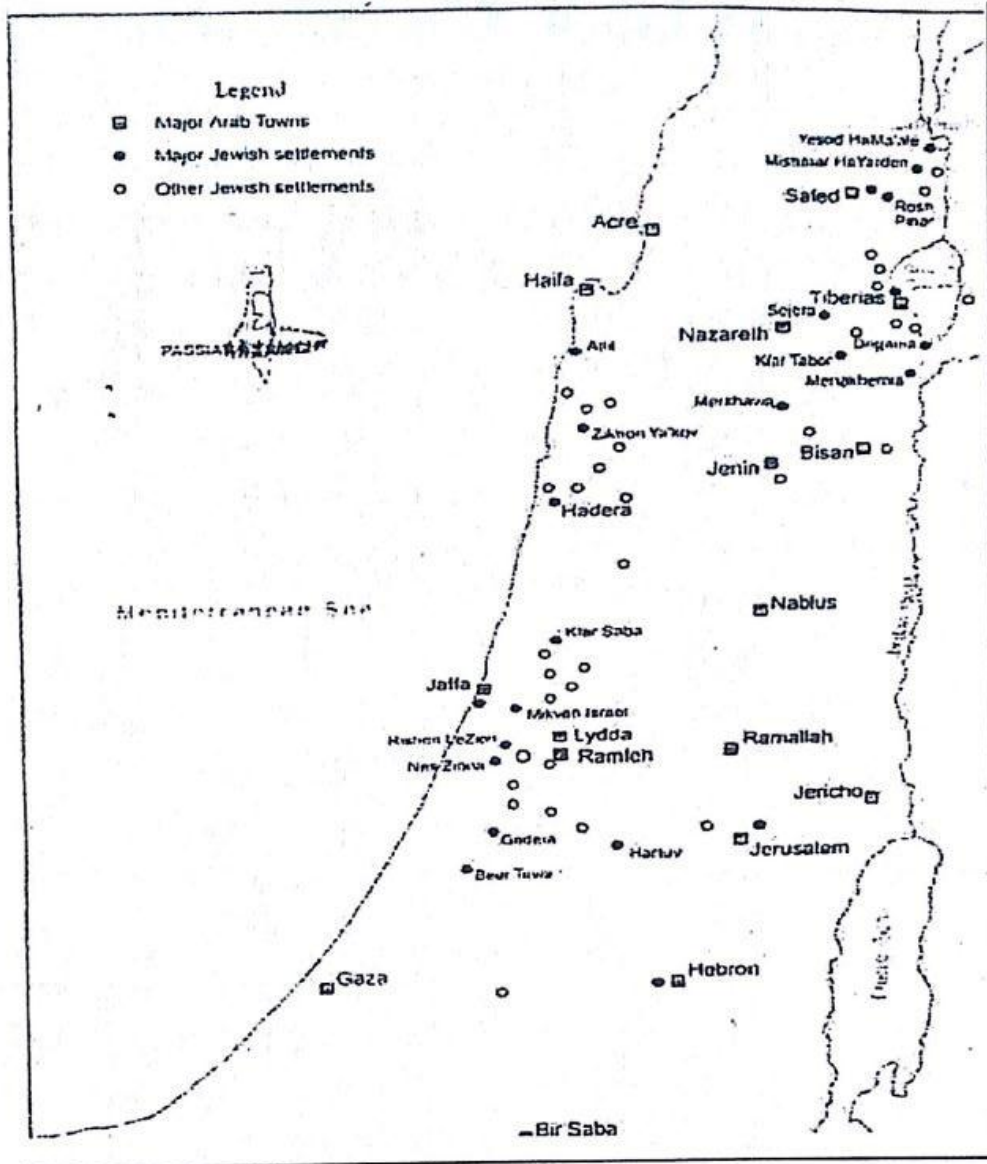
أ.د: يوسف نعيسة

إعداد

الطالبة: ديانا أنطونيوس نادر

٢٠١٦ - ٢٠١٥

خريطة لفلسطين ١٨٨١-١٩١٤م



عن موقع الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشئون الدولية / القدس

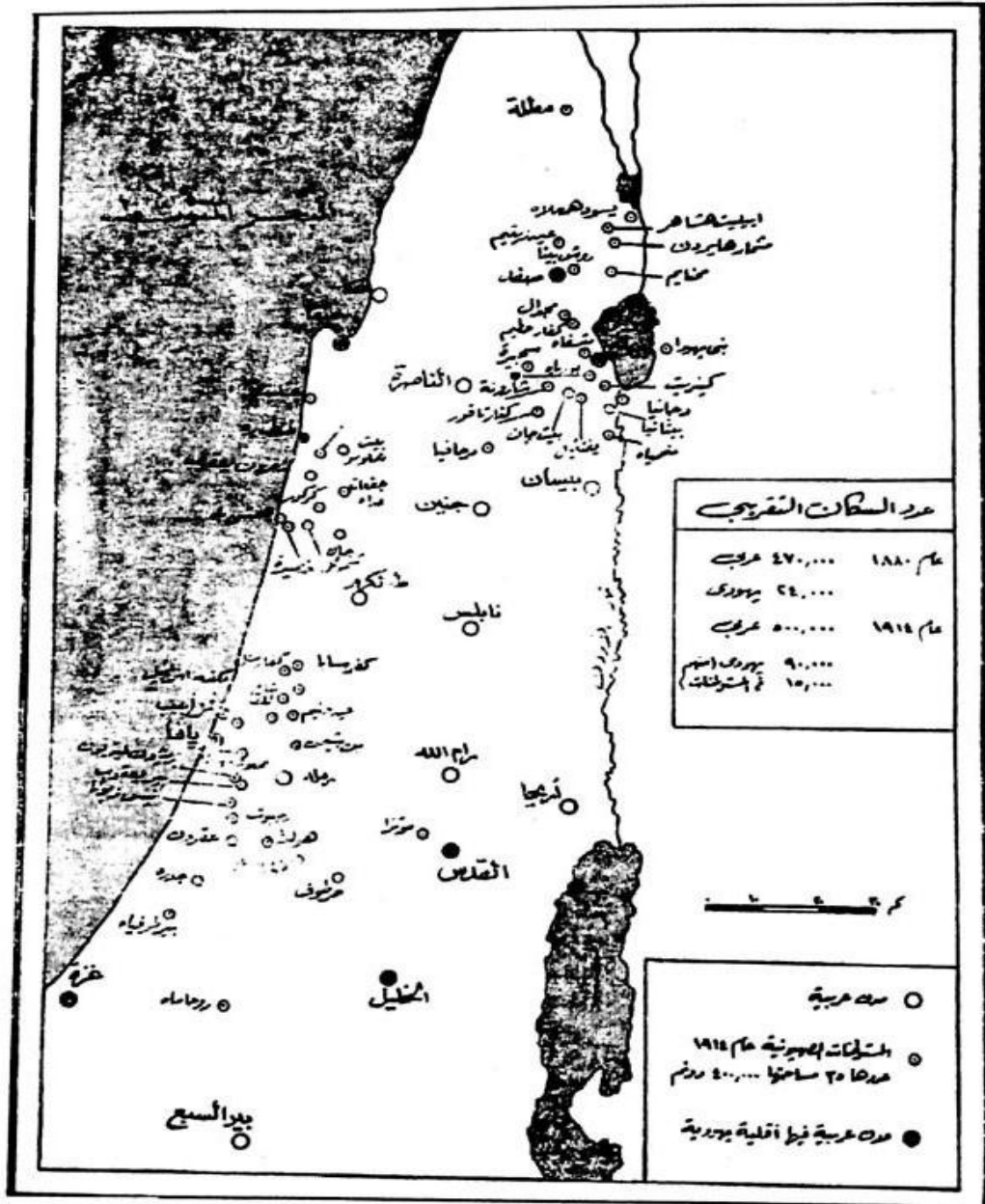
www.passia.org

انظر الخريطة: مناطق كان يسكنها اليهود في مطلع القرن التاسع عشر



منقولة عن: الصراع العربي الإسرائيلي في خرائط، إعداد وإشراف الدكتورة خيرية قاسمية / معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٩م، القاهرة

انظر الخريطة: تبين مواقع المستوطنات الصهيونية حتى عام ١٩١٤م



منقولة عن: الصراع العربي الإسرائيلي في خرائط، إعداد وإشراف الدكتورة خيرية قاسمية / معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٩م، القاهرة

الإهداء

إلى الأرواح الطاهرة في دنيا الخلود.....

والدي ووالدتي

لهم كل الحب.....

إخوتي

إلى من شجعني على متابعة البحث والتعلم.....

إلى رفيق دربي

مراد

زُهيراتي.....

رهف وماريا

إلى كل محبٍ للعلم.....

فهرس الرسالة

المقدمة.....	٨
الفصل الأول: الأوضاع السياسية للقدس ١٧٧٠ - ١٨٢٩.....	١٧
أولاً: الأوضاع العامة للقدس قبيل مجيء محمد علي باشا ١٧٧٠ - ١٨٢٩.....	١٨
١- القدس ومحيطها: (تاريخياً وجغرافياً).....	١٨
٢- الحملة الفرنسية على بلاد الشام وأهميتها ١٧٩٨ - ١٨٠١.....	٢٧
٣- الأماكن المقدسة في القدس.....	٢٧
٤- الواقع الديمغرافي للقدس.....	٣٠
ثانياً: الحدود السياسية للقدس.....	٣٢
١- أهم القرى التابعة للواء القدس.....	٣٢
٢- أهمية مقدسات اللواء.....	٣٣
ثالثاً: أوضاع القدس بعد الحملة الفرنسية ١٨٠٢.....	٣٤
١- موقف أهالي القدس من الصراع بين الجزائر وأبي المرق ١٨٠٢ - ١٨٠٣.....	٣٥
٢- موقف الجزائر من علماء القدس وأعيانها.....	٣٦
٣- حركات الانكشارية في القدس.....	٣٨
٤- حكم سليمان باشا للقدس ١٨١٠ - ١٨١٢.....	٤١
٥- وصول محمد علي باشا إلى الحجاز وانعكاس ذلك على القدس ١٨١١.....	٤٢
رابعاً: عبد الله باشا حاكماً للقدس ١٨٢٠.....	٤٥
١- موقف الدولة العثمانية من الثورة اليونانية وانعكاساتها على القدس ١٨٢١.....	٤٦
٢- توتر واضطراب القدس ١٨٢٥ - ١٨٢٦.....	٤٨
٣- القدس قبيل مجيء الحملة المصرية ١٨٢٩ - ١٨٣٠.....	٥٣
الفصل الثاني: القدس تحت الاحتلال المصري ١٨٣١ - ١٨٤٠.....	٥٨
أولاً: الاحتلال المصري والأسباب البعيدة لمجيئه.....	٦٠
١- الأوضاع العربية والدولية قبيل الاحتلال المصري.....	٦٠
٢- أوضاع الدولة العثمانية التي ساعدت على مجيء محمد علي.....	٦١
ثانياً: الأسباب القريبة للاحتلال المصري ١٨٣١.....	٦٢
١- علاقته مع عبد الله باشا ١٨٢٣.....	٦٢
٢- الحاجة الملحة إلى تحديد الدولة العثمانية وإصلاحها.....	٦٢
ثالثاً: الأسباب الحقيقية لاحتلال سوريا وهي.....	٦٤
أ- موقف السلاطين العثمانيين من محمد علي.....	٦٤
ب- سعي محمد علي للاستقلال بشؤون مصر عن السلطان.....	٦٥
ت- السبب الاقتصادي.....	٦٥
رابعاً: موقف الدول الأوروبية من مشروع محمد علي ١٨٣١.....	٦٦

٦٧	خامساً: مجريات الاحتلال المصري.....
٦٧	١- ابراهيم باشا يترأس الحملة.....
٦٩	٢- أوضاع القدس أثناء حصار عكا.....
٧٠	٣- دور العثمانيين في دعم أهالي القدس ضد حصار محمد علي باشا.....
٧١	سادساً: سياسة ابراهيم باشا في القدس ١٨٣٢.....
٧٣	١- السياسة العسكرية للمصريين في القدس.....
٧٣	أ- سياسة التجنيد الإلزامي.....
٧٥	ب- نزع الأسلحة من أهالي القدس.....
٧٦	ت- رد فعل أهالي القدس على احتلال محمد علي.....
٧٨	سابعاً: القدس والقنصليات الأوروبية ١٨٣٨.....
٧٩	١- العوامل الرئيسية لإقامة القنصليات في القدس ١٨٣٨.....
٨٢	٢- فتح أبواب القدس أمام الأوروبيين.....
٨٢	أ- المستوى السياسي.....
٨٢	ب- المستوى غير الحكومي.....
٨٥	ت- مشروع مونتيغوري في القدس وموقف محمد علي منه ١٨٣٩.....
٨٦	ثامناً: الأسباب العامة لثورة القدس.....
٨٦	١- الأسباب الدينية والسياسية.....
٨٨	٢- الدوافع الاقتصادية.....
٩٠	تاسعاً: ثورة ١٨٣٤ في القدس.....
٩٢	١- شرارة الثورة تبدأ من القدس.....
٩٥	٢- موقف ابراهيم باشا من التطورات الجديدة في القدس.....
٩٥	٣- نتائج ثورة ١٨٣٤.....
٩٩	الفصل الثالث: الإدارة العثمانية للقدس بعد رحيل محمد علي ١٨٤٠ - ١٩١٤.....
١٠٣	تمهيد.....
١٠٤	أولاً: أجهزة الحكم والادارة.....
١٠٤	١- الوضع الاداري.....
١٠٦	٢- الجهاز الاداري في اللواء.....
١٠٦	أ- المتسلم.....
١٠٧	ب- المحاسب.....
١٠٧	ت- مدير الأوقاف.....
١٠٨	٣- مجلس الادارة.....
١٠٨	أ- مجلس شورى القدس.....
١٠٩	ب- مجلس إدارة اللواء.....
١٠٩	ت- مجلس بلدة القدس.....

١١٠	ث - اختصاصات مجلس البلدية.....
١١٠	ثانياً: القضاء.....
١١٠	١ - القضاء الشرعي: أعضاء السلك القضائي.....
١١٠	أ - القاضي وصلاحياته.....
١١١	ب - نائب القاضي.....
١١٢	ت - الباشكاتب.....
١١٢	ث - الكاتب.....
١١٢	ج - المترجم.....
١١٣	ح - محضر باشي.....
١١٣	٢ - المحاكم الشرعية في القدس.....
١١٤	٣ - جهاز الافتاء.....
١١٤	٤ - القضاء النظامي والمحاكم النظامية.....
١١٤	أ - القضاء النظامي.....
١١٥	ب - المحاكم التجارية.....
١١٦	ثالثاً: الحياة العسكرية والأمن.....
١١٦	١ - الجهاز العسكري.....
١١٧	٢ - التجنيد.....
١١٩	رابعاً: أجهزة الأمن.....
١١٩	١ - الضبطية.....
١١٩	٢ - الباش بوزق.....
١٢٠	٣ - أهم الانظمة التي عالجت جهاز الأمن.....
١٢٠	أ - نظام الولايات ١٨٦٤.....
١٢٠	ب - تعليمات ١٨٦٧.....
١٢١	ت - نظام عساكر الضابطه ١٨٦٩.....
١٢٢	خامساً: محاولة الدولة العثمانية فصل القدس عن ولاية سوريا عام ١٨٧٢.....
١٢٢	١ - أسباب إتباع القدس للسلطنة مباشرة.....
١٢٥	٢ - الأوضاع الاجتماعية في القدس وارتباطها بالأوضاع السياسية.....
١٢٦	٣ - العائلات المتنفة في القدس في العهد العثماني.....
١٢٨	سادساً: التعليم في القدس ١٨٦٩.....
١٢٨	١ - المدارس.....
١٢٨	أ - المدارس الأهلية.....
١٢٩	ب - المدارس الحكومية.....
١٢٩	٢ - الصحافة في القدس.....
١٣٢	٣ - المساواة بين المسيحيين والمسلمين في العهد الدستوري.....

سابعاً: المسيحيون في القدس.....	١٣٣
١- أهم الطوائف المسيحية في القدس.....	١٣٣
أ- الروم الأرثوذكس.....	١٣٣
ب- الأرمن.....	١٣٥
ت- طائفة الكاثوليك.....	١٣٥
ث- اللاتين.....	١٣٥
ج- الموارنة.....	١٣٦
ح- البروتستانت.....	١٣٧
٢- المنازعات الطائفية.....	١٣٧
٣- الإجراءات الأمنية التي اتخذتها الدولة حيال النزاع الطائفي في القدس ١٨٥٢.....	١٣٩
٤- المدارس التبشيرية في القدس.....	١٤٠
أ- مدارس الروم الأرثوذكس.....	١٤١
ب- مدارس الكاثوليك.....	١٤١
ت- مدارس البروتستانت.....	١٤٢
١- المدارس الانكليزية.....	١٤٢
أ- مدارس جمعية لندن.....	١٤٢
ب- مدارس إرسالية طابيشا.....	١٤٢
٢- المدارس الألمانية.....	١٤٢
أ- مدرسة طاليتا قومي.....	١٤٢
ب- مدرسة دار الأيتام السورية.....	١٤٣
٣- مدارس الإرساليات الأمريكية.....	١٤٣
ثامناً: التدخل الأجنبي في القدس ١٨٣١- ١٩١٤.....	١٤٣
١- الامتيازات الأجنبية.....	١٤٤
٢- الإرساليات الأجنبية.....	١٤٥
٣- تأسيس القنصليات ١٨٣٨.....	١٤٦
تاسعاً: الوسائل التي اتبعتها الدول الأوروبية لتدعيم وجودها في القدس.....	١٤٧
١- الوجود الانكليزي ١٨٣٨.....	١٤٧
أ- تأسيس القنصلية الانكليزية.....	١٤٨
ب- تأسيس الأسقفية الانجليكانية.....	١٥١
١- جمعية يهود لندن ١٨٠٩.....	١٥١
٢- جمعية التبشير الكنائسي ١٧٩٩.....	١٥٣
٣- جمعية القدس الأدبية ١٨٤٩.....	١٥٤
٢- الوجود الروسي ١٨٣٣.....	١٥٥
أ- الإرساليات:.....	١٥٦

١٥٨	-الجمعية الفلسطينية ١٨٥٨
١٥٩	ب- تأسيس القنصلية الروسية ١٨٥٨
١٥٩	٣- الوجود الفرنسي ١٥٣٥
١٦٠	أ- حرب القرم: أسبابها- نتائجها ١٨٥٤
١٦٢	ب- تأسيس القنصلية الفرنسية ١٨٤٣
١٦٣	٤- الوجود الألماني ١٨٤٠
١٦٤	أ- تأسيس القنصلية الألمانية ١٨٤٢
١٦٤	ب- إقامة المستوطنات ١٨٥٨
١٦٥	ت- المدارس
١٦٦	١- مدرسة طاليثا قومي ١٨٥١
١٦٦	٢- مدرسة دار الأيتام ١٨٥٦
١٦٦	٥- الوجود الأمريكي ١٨١٩
١٦٦	أ- الإرساليات الدينية
١٦٧	ب- تأسيس القنصلية الأمريكية ١٨٥٧
١٦٨	٦- القنصليات الأخرى
١٦٨	أ- القنصلية الإيطالية ١٨٧٢
١٦٨	ب- القنصلية النمساوية المجرية ١٨٥٤
١٦٨	ت- القنصلية اليونانية ١٨٦٢
١٦٨	ث- قنصلية سردينيا ١٨٤٣
١٦٨	ج- قنصلية المكسيك ١٨٦٦
١٦٨	ح- قنصلية النرويج ١٨٥٣
١٧٠	الفصل الرابع: بدايات هجرة اليهود إلى القدس.
١٧٢	أولاً: الوجود اليهودي في القدس
١٧٢	١- الدور الفرنسي في المشروع الصهيوني وأهدافه
١٧٤	٢- يهود أوروبا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين
١٧٥	٣- أوضاع اليهود في القدس
١٧٦	أ- السفارديم
١٧٦	ب- الاشكنازيم
١٧٧	٤- موقف الدولة العثمانية من هجرة اليهود إلى القدس
١٧٩	٥- مبررات الدولة العثمانية في قرار منع اليهود من الدخول إلى القدس
١٨١	٦- جهود هرتزل لدى السلطان العثماني عبد الحميد ١٨٩٦
١٨٤	ثانياً: تبلور أطماع الحركة الصهيونية ١٨٩٩
١٨٦	١- موقف هرتزل من شروط السلطان
١٩٠	٢- موقف حكومة الحرية والائتلاف من الحركة الصهيونية ومبرراتها

١٩١	٣- تغير الموقف العثماني إزاء الحركة الصهيونية.....
١٩٢	ثالثاً: مراحل استقرار اليهود في القدس.....
١٩٣	١- مرحلة الاستيطان العشوائي.....
١٩٣	أ- مشروع مونتفيوري.....
١٩٤	ب- مشروع لورانس اوليفانت.....
١٩٧	٢- مرحلة الاستيطان المنظم.....
١٩٨	رابعاً: أجهزة الاستيطان الصهيوني.....
١٩٨	١- الوكالة اليهودية.....
١٩٩	٢- الصندوق القومي اليهودي: الكارن كايتم.....
١٩٩	٣- الصندوق التأسيسي اليهودي: الكارن هايسود.....
٢٠٠	٤- الشركة الانكليزية الفلسطينية.....
٢٠٠	٥- شركة تطوير الأراضي الفلسطينية المحدودة.....
٢٠١	خامساً: سياسة الحركة الصهيونية في إدارة المستوطنات اليهودية.....
٢٠٢	١- أنواع المستوطنات الصهيونية في فلسطين.....
٢٠٢	أ- مستوطنات تعمل بنظام أجر يومي.....
٢٠٢	ب- مزارع تعاونية أو جماعية "كيوتزيم".....
٢٠٢	ت- قرى تعاونية أو جماعية "موشافيم".....
٢٠٣	٢- الصعوبات التي واجهتها المستوطنات اليهودية.....
٢٠٦	سادساً: مؤتمر كامبل بانرمان وانعكاساته على القدس.....
٢١٠	سابعاً: التنبه القومي وردود الفعل العربية ضدّ النشاط الصهيوني.....
٢١٣	١- دور العرب في القرارات العثمانية الخاصة بمنع الاستيطان في القدس.....
٢٢٧	٢- محاولات التفاهم والاتفاق بين العرب والحركة الصهيونية.....
٢٢٩	٣- مؤتمر باريس ١٩١٣.....
٢٣٤	٤- موقف عرب فلسطين من محاولات التفاهم والاتفاق.....
٢٣٧	خاتمة البحث.....
٢٤٣	ثبت المصادر والمراجع.....
٢٥٦	الملاحق.....
٣٠٠	ملحق باللغة الفرنسية.....

فهرس الملاحق

الصفحة	الموضوع	الملحق
٢٥٢	١٩١٤ - ١٨٨١ خريطة لفلسطين	١ .
٢٥٣	خريطة لمناطق يسكنها اليهود في مطلع القرن التاسع عشر	٢ .
٢٥٤	١٩١٤	٣ .
٢٥٥	اسماء القناصل الفرنسيون في القدس	٤ .
٢٥٦	١٩١٤ - ١٨٣٩ اسماء القناصل الانكليزيون في فلسطين	٥ .
٢٥٧	١٩١٤ - ١٨٤٠ اسماء القناصل الألمان في القدس	٦ .
٢٥٨	اسماء القناصل الروس في القدس	٧ .
٢٥٩	رسالة من وزارة الخارجية الانكليزية لأعضاء الحماية الانكليزية ليهودي في القدس	٨ .
٢٦٠	شهادة اثبات من القنصلية الانكليزية في القدس لتسهيل مهمة انكليزي يهودي في التنقل في الدولة العثمانية	٩ .
٢٦١	١٠ . رد الخارجية الانكليزية الى القنصل العام في القدس برفض الحماية الانكليزية لليهود المقيمين في مناطق حكم السلطنة العثمانية	
٢٦٢	١١ . صورة عن جواز سفر مزور لمهاجر من رومانيا من اليهود المتمتعين بالحماية الانكليزية	
٢٦٣	١٢ . صور لجواز سفر مزور صادر عن القنصلية الانكليزية في القدس ليهودي مغربي يتمتع بالحماية الانكليزية وعائلته	
٢٦٤	١٣ . رسالة من السفارة الانكليزية في استانبول إلى قنصلها في القدس لتسجيل اليهود كرعايا انكليزيين	
٢٦٥	١٤ . رسالة من وزارة الخارجية الانكليزية إلى يهودي بالموافقة على منح الحماية الانكليزية	
٢٦٦	١٥ . مذكرة جلب لأحد الرعايا اليهود المتمتعين بالحماية الانكليزية والمنتبهة مدة إقامتهم في فلسطين وجاري البحث عنهم لترحيلهم	
٢٦٧	١٦ . رسالة من القنصل الانكليزي في القدس إلى السلطات العثمانية تطلب حماية يهودي تعرض للسرقة	
٢٦٨	١٧ . رسالة من مفتش الصحة تثبت أن اليهود الداخلين إلى القدس "حاليين من الأمراض"	
٢٦٩	١٨ . رسالة من السفارة الانكليزية في استانبول لأعفاء جمعية يهود لندن في يافا من الرسوم	
٢٧٠	١٩ . منشور كتب بخط اليد ووزع على المواطنين في أنحاء فلسطين تنبههم من الخطر الصهيوني	
٢٧١	٢٠ . خطاب من السيد مصطفى القاضي بمحكمة القدس الى الخاخام اليهودي	
٢٧٣	٢١ . أمر إلى قاضي القدس ونقيب الأشراف ومتسلم القدس برفع التكاليف والمرتبات على جميع معابد وأديرة النصارى في القدس	
٢٧٥	٢٢ . مكاتبة للتحقيق فيما أحدثه اليهود في كنائس القدس	
٢٧٧	٢٣ . من أقوال ومواقف السلطان عبد الحميد	
٢٧٨	٢٤ . صور القدس إبان العهد العثماني	

المقدمة

القدس ليست مدينة تاريخية قديمة فحسب، بل هي من أقدم وأقدس المدن التي عرفها التاريخ. واسمها هذا القدس معناه في اللغة الطهر والبركة والقداسة وقد استهنا هذه وإن كانت قد رفعت قدرها وشرفت اسمها وأذاعت في الخافقين صيتها، إلا أنها في الوقت نفسه، كانت - ويا للأسف - السبب في معظم البلايا والمحن التي أصابتها !! فكم وكم من مرة في التاريخ - القديم والحديث - هوجمت، استبيحت! لا لسبب، سوى أنها مقدسة!

وراح الناس من جميع أطراف المعمورة يفدون إليها، يريدون امتلاكها ! غير مكتفين بالصلاة والعبادة! ... وكان القول الفصل، في أغلب الأحيان للسيف والمدفع!

لذا تم البحث في معظم الكتب التي صُنِّفت في تاريخ هذه المدينة، سواء أكانت تلك الكتب مطبوعة أو لاتزال مخطوطة إلى أن تجمع مع طول الوقت من أخبارها الشيء الكثير بعضه متمم للبعض الآخر. وإن كان البعض واضحاً، لا لبس فيه ولا إبهام والبعض الآخر من الغموض بحيث يحتاج إلى إيضاح وتحديد وقد تم إيضاحه قدر المستطاع.

تمثل فترة موضوع البحث ١٨٣١-١٩١٤ فترة مهمة على صعيد تاريخ القدس، وتكمن أهميتها في أنها تبدأ بدخول المصريين إلى القدس وتنتهي مع اندلاع الحرب العالمية الأولى.

كثيراً ما يمتدح الحكم المصري على أنه البادئ بالتحديث في فلسطين، ولهذا السبب تلقى تلك الفترة اهتماماً خاصاً لدى الدارسين الغربيين واليهود. وينطلق هؤلاء المؤرخون من فرضية أن المجتمعات المحلية غير نشيطة، وتحتاج إلى محفزات خارجية لتغييرها وتحريكها، غير أنه من الضروري التأكيد هنا أن فرض الحكم المصري على القدس لم يكن سوى أحد عوامل التغيير. فمن حيث الواقع، كان المجتمع الفلسطيني وخاصة مجتمع القدس ديناميكياً باستمرار، إذ تغير بفعل أوضاع خارجية وداخلية سياسية واقتصادية، فمنذ النصف الأول من القرن الثامن عشر، وقبل فترة طويلة من الحكم المصري، لم تكن القدس بلداً معزولاً، وإنما جسدت وشاركت في التحولات الجارية باستمرار داخل الامبراطورية العثمانية والنظام الدولي، وخاصة بعد أن بدأت الهجرات اليهودية بالتوجه إلى القدس بشكل ملحوظ عام ١٧٧٧ وتم تأسيس الطائفة الاشكنازية لأول مرة في تاريخ القدس عام ١٨١٢، وبالتالي يمكن القول أن بدايات التركيبة السكانية للمدينة بدأت تتبلور خلال القرن التاسع عشر، وكانت الهجرة اليهودية الأولى إلى القدس آنذاك نتيجة عوامل عديدة أهمها:

العامل الدولي الذي تمثل في الأحداث التي كانت تقع في مناطق مختلفة، حيث كان اليهود جزءاً من مجتمعات عديدة في هذا العالم، وبالتالي كانوا يتعرضون في بعض الأحيان لاضطهاد أو مضايقات، لأسباب عدة، وكانت مثل هذه الأحداث تسهم في دفع أعداد منهم إلى الهجرة من كل أوروبا في اتجاهات مختلفة، منها ما كان يتجه إلى فلسطين بحكم العواطف الدينية وأكثرهم كان يتجه إلى أماكن أخرى وقد هاجر اليهود بأعداد كبيرة من اسبانيا عام ١٤٩٢ حيث خرجوا في أعقاب سقوط الأندلس، واضطهاد الإسبان للعرب فاتجه القسم الأكبر من يهود الأندلس إلى المغرب العربي ووصل البعض منهم إلى فلسطين، وحاول الاستقرار فيها. تكررت مثل هذه الحوادث في التاريخ، وكان من أبرزها فرار مجموعات من يهود روسيا بعد محاولتهم اغتيال القيصر اسكندر الثاني عام ١٨٨١، وعلى إثر ذلك انتقلت موجة العداء لليهود إلى دول مجاورة مثل بولونيا ورومانيا ودول أخرى في وسط أوروبا مما تسبب في فرار مئات الآلاف من اليهود إلى خارج هذه الدول حيث اتجه القسم الأكبر منها إلى الغرب، وآثر معظمهم الهرب إلى أمريكا وقسم صغير من هؤلاء اتجه إلى فلسطين، واختاروا العيش في عدد من مناطق الحكم العثماني وعلى رأسها القدس الشريف.

ومن المفيد الإشارة إلى ضعف الدولة العثمانية وفساد المسؤولين عن القدس، حيث أدى هذا الفساد إلى تهاون المسؤولين في دخول اليهود إلى القدس واستقرارهم فيها، فرغم وجود قوانين ولوائح وأوامر عليا تمنع اليهود من السكن في القدس أكثر من ثلاثة أشهر ورغم الموقف الصلب الذي تبناه السلطان عبد الحميد الثاني تجاه قيام وطن قومي لليهود في فلسطين، ورغم المغريات المادية الكثيرة التي عرضت عليه إلا أنه كان هناك على ما يبدو عدد غير قليل من المسؤولين العثمانيين الذين لم يقاوموا الرشاوى التي كانت تعرض عليهم لتسهيل تسلل اليهود إلى القدس واستقرارهم فيها.

ورغم السرية والتكتم الذي كان يحيط بعمليات التسلل نتيجة مخالفتها للأعراف والقوانين، إلا أنها كانت تفلت في كثير الأحيان عن نطاق السيطرة وينكشف أمرها، وغالباً ما كانت تثير ردود فعل غاضبة عند أهل القدس الذين لم يتوانوا عن إيصال صوتهم في كثير من الأحيان إلى عاصمة الخلافة وإلى مسامع السلطان نفسه.

وهنا يتوضح عامل آخر وهو العامل الاستعماري، المتمثل في قرار الحكومة الصهيونية بالتركيز على فلسطين كوطن قومي لليهود، والسعي لإقامة دولة يهودية فوق هذه الأرض لتكون مجمعاً لليهود العالم، وقد أعلنت الحركة عن هذا المشروع الاستعماري في المؤتمر الذي عقدته في مدينة بازل بسويسرا عام ١٨٩٧، حيث قامت منذ ذلك التاريخ بتسخير كافة امكانياتها ونفوذها في سبيل دفع يهود العالم نحو الهجرة إلى فلسطين، تمهيداً لتنفيذ القرار الذي اتخذته المؤتمر الصهيوني ببناء الدولة الصهيونية بواسطة اليهود.

إن ضعف الدولة العثمانية فتح الباب على مصراعيه للدول الكبرى لتغلغل نفوذها في أرجاء الدولة، وكانت القدس من أبرز المواقع التي طغى فيها هذا التنافس، وبدأت تتجلى من خلالها الأطماع السياسية لهذه القوى، وكان الصراع بين محمد علي باشا والعثمانيين، من الأمور التي سرعت كثيراً في تجسيد التغلغل الأجنبي في القدس على وجه التحديد، حيث حاول محمد علي كسب ود الدول الأوروبية ليحول دون وقوفها إلى جانب السلطان العثماني، فعمل على تشجيع نشاط الأوروبيين في بلاد الشام عامة وفي القدس خاصة، وقد سمحت هذه الأجواء في الثلاثينات من القرن التاسع عشر للدول الأوروبية أن تؤمن حمايتها ودعمها لليهود والمسيحيين، وتوسيع نشاط مؤسساتها الخيرية والثقافية. ويرى المحللون أن فتح قنصلية لانكلترا في القدس سنة ١٨٣٨ كان تنويعاً لسياسة فتح الأبواب أمام النفوذ الأجنبي في المنطقة، وعلى نفس الطريق استمر السلطان العثماني بعد استرجاع بلاد الشام من محمد علي، فتم افتتاح قنصلية روسية في القدس سنة ١٨٤٢، ثم فرنسية سنة ١٨٤٣، ثم أمريكية سنة ١٨٤٤، ويمكن القول: إنه منذ ذلك الحين بدأت القوى الكبرى تنظر إلى الصهيونية من الزاوية السياسية، وتستخدم اليهود للغطاء الديني، وكانت لكل دولة من تلك الدول ارتباطات دينية بالقدس يصعب عليها الفكك منها أو تجاهلها في سبيل تحقيق أهداف سياسية، بل إنه كان من المستحيل على هذه القوى أساساً أن تصل إلى اتفاق فيما بينها لتحقيق هذه المصالح دون طرف آخر من خارج الدائرة، ونؤكد أن حرب القرم سنة ١٨٥٤ بين الدول الأوروبية الكبرى إنما وقعت على خلفية الصراع الديني في القدس بين الأرثوذكس واللاتين، مما أظهر اليهود في نظر معظم هذه القوى وكأنهم الجهة التي يمكن من خلالها تحقيق مثل هذه الأهداف في الأراضي المقدسة تحديداً دون نزاعات وصدامات غير معروفة النتائج.

فرنسا كانت ترتبط بعلاقات تاريخية مع المسيحيين الكاثوليك في المنطقة، أما روسيا فكانت هي الراعية التقليدية لمصالح المسيحيين الأرثوذكس وأماكنهم الدينية، أما انكلترا وبروسيا اللتان كانتا سباقتين في فتح قنصليات لهما في القدس، فركزتا الاهتمام على رعاية ودعم الكنيسة البروتستانتية ونشاطاتها

ونستنتج من ذلك أن القوى الكبرى نشطت في الأراضي المقدسة من خلال قوالب وصور عقائدية، كانت في الحقيقة بمثابة قيود ثقيلة تكبلها وتحد من قدرات بعضها البعض في العمل السياسي والعسكري، وقد فهم اليهود والحركة الصهيونية فيما بعد هذه الحقائق، وأحسنوا استغلالها بما يضمن مصالحهم ويحقق أطماعهم في فلسطين.

إن ما شهدته القدس من تغييرات له الأثر الواضح في اختيار هذا البحث، ففي هذا القرن دخل محمد علي باشا إلى القدس وأقامت الدول الأوروبية الكبرى قنصلياتها فيها وازداد الاهتمام بالتعليم وبدأت الهجرة اليهودية إليها تأخذ شكلاً أكثر تنظيماً وشموليةً وعقدت عدة مؤتمرات صهيونية كانت القدس محورها، وبخاصة الهجرة إليها موضوعاً على درجة من الأهمية، وعليه سعت الدراسة والرجوع إلى الوثائق المنشورة منها وغير المنشورة وأخرى

مصورة وذلك للتوصل إلى نتائج مهمة حول سياسات الدول الاستعمارية في القدس في الفترة بين عامي ١٨٣١-١٩١٤. وقد تم تقسيم الدراسة والتي جاءت تحت عنوان "دراسة للأوضاع السياسية في القدس ١٨٣١-١٩١٤" إلى أربعة فصول مع مقدمة وتمهيد وخاتمة.

تناول التمهيد حالة القدس مركز اللواء، وبحث الفصل الأول أهمية القدس جغرافياً ودينياً، وأهم الأماكن المقدسة وأوضاعها بدءاً من الحملة الفرنسية واختص الفصل الثاني بالحلقة الأولى من حلقات البحث وشمل الحكم المصري، في حين تناول الفصل الثالث أجهزة الحكم والإدارة في القدس، إضافة للسياسات الأجنبية فيها والوسائل التي اتبعتها الدول الأوروبية للتدخل في شؤونها وجعلها نقطة انطلاق إلى أرجاء فلسطين كافة، أما الفصل الرابع فقد سعى لإلقاء الضوء على الهجرة اليهودية إلى القدس بأسبابها وأشكالها والطرق التي اتبعتها اليهود للدخول إلى الأراضي المقدسة وردود الفعل عند أهالي القدس وإدراكهم خطورتها.

وكان اختيار الفترة الزمنية بين عامي ١٨٣١-١٩١٤ نظراً لأهميتها، ولأهمية الأحداث التي جرت فيها وتباين المواقف التي اتخذت حيال فلسطين عامة والقدس خاصة وتحديد موقف السلطان العثماني عبد الحميد من مشروع هرتزل الإستيطاني، ومن الوسطاء الأوروبيين لإدراكه خطورة ما يبني لفلسطين وللدولة العثمانية لأن القدس مقدسة مثل مكة.

ومن المفيد الوقوف عند ردود الفعل العربية، وما كان لها من تأثير بارز على موقف السلطان بعد أن شكلت ضغطاً متواصلاً وعبرت عن ذلك بعدد من الاحتجاجات والمظاهرات والعرائض والمجمعات على اليهود القادمين إلى فلسطين وعلى مستوطناتهم الزراعية.

ينتهي البحث عند عام ١٩١٤ حين شهدت القدس مرحلة أخرى من مراحل تاريخها، وهي اندلاع الحرب العالمية الأولى وسعى البحث للإجابة على عدة تساؤلات منها:

- أسباب احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام (فلسطين)؟
 - ما هي السياسات التي اتبعتها محمد علي وابنه ابراهيم في القدس؟
 - كيف كانت ردات الفعل العثمانية والأوروبية على هذا الاحتلال؟
 - كيف كانت الهجرة اليهودية إلى القدس، وما المراحل التي مرت بها؟ ما هودور الدول الأوروبية بالتحريض على هذه الهجرة؟ ولماذا القدس على وجه الخصوص؟
- فالكثير من المؤرخين اهتموا وكتبوا عن تاريخ فلسطين لكن تاريخ القدس السياسي لم يُفرد له بحثٌ خاص إنما كتب عن جغرافيتها وأهميتها الدينية كأى مدينة من مدن فلسطين.

فقد قدم **وليم فهمي** رسالة ماجستير بعنوان: الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، وركز بصورة واضحة على الهجرة اليهودية ونشاط يهود العالم لتحقيق فكرة الوطن القومي في فلسطين دون البحث (إلا ما ندر) في الهجرة إلى القدس على وجه الخصوص، كما أن رسالة الدكتوراه المقدمة من **حسن صبري الخولي**: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، ركزت بصورة أساسية على المحاولات العديدة المبذولة من قبل الدول الاستعمارية والمنظمة الصهيونية لاستيطان فلسطين دون التطرق للتاريخ السياسي للقدس وما جرى على أرضها من تنافس الدول الأوروبية.

أما **لطيفة سالم** فقد تناولت موضوع الحكم المصري لفلسطين لكن في السياق العام لبلاد الشام وليس للقدس بالتحديد، فعلى الرغم من اعتبار تلك الدراسة إحدى أهم الدراسات عن الموضوع إلا أنها انطلقت من أن الحكم المصري جلب التقدم لبلاد الشام. وقد حاولت المؤلفة إثبات فرضيتها بعرض أحداث منتقاة فقط، وبالاعتماد على الأرشيف المصري وبعض وثائق الخارجية الانكليزية المتوفرة في مكتب الأرشيف العام في لندن وقد استفدت من هذا البحث في بعض المواد العلمية لدراستي.

وكان **أسد رستم** أول من جمع المواد الأرشيفية المصرية التي تعود إلى فترة الحكم المصري في بلاد الشام، على نحو شبه تام وصنفها ولخصها في كتابه المعنون "المحفوظات الملكية المصرية" الذي نشر بين سنتي ١٩٤٠ و ١٩٤٢ في أربعة مجلدات تحتوي على ٦٦٧١ وثيقة والوثائق في معظمها عبارة عن رسائل متبادلة بين محمد علي وشخصيات مركزية في الادارة العسكرية والمدنية والمالية في سوريا، وخصوصاً مراسلاته مع ابنه ابراهيم باشا.

وكان رستم وهو مؤرخ لبناني في القرن العشرين، أول من سمح له برؤية الأرشيف المصري واستخدامه. فجمع الوثائق المحلية ذات العلاقة بالحكم المصري، بما في ذلك الأوراق العائلية وسجلات المحاكم الشرعية والمصادر التاريخية المحلية والوثائق القنصلية، ولاسيما القنصلية الانكليزية، ومواد أخرى، ونشرت هذه المجموعة أول مرة سنة ١٩٢٩ في خمسة مجلدات بعنوان "الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا". وقد عدت أكثر من مرة إلى هذه المواد في دراستي، إذ كرس رستم جل جهده على جمع المعلومات عن الحكم المصري في سوريا، وقدم خدمة لا تقدر بثمن للباحثين الذين يدرسون تلك الفترة.

ومن أهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث منها العربية ومنها الأجنبية ويمكن عرض بعضها على سبيل المثال لا الحصر منها:

١- **المفصل في تاريخ القدس**: وهو كتاب فريد لا نظير له في اللغة العربية ولا في اللغات الغربية والسبب في ذلك أن مؤلفه (**عارف العارف**) قد شغل مناصب عالية، وخاصة رئاسة بلدية القدس مدة خمس سنوات فتحت أمامه الأبواب المغلقة في وجه غيره فاستعان بعدد كبير من الوثائق في الأديرة والجوامع والمكتبات القديمة وخاصة

الحجج الشرعية كما هو واضح من الحواشي المثبتة في الكتاب، وكذلك اطلع على عدد كبير من المخطوطات والمطبوعات في مختلف اللغات. ترجع أهمية هذا الكتاب إلى التزام مؤلفه المنهج العلمي الحديث الذي يوجب إثبات المراجع والمصادر بأمانة ودقة وعرض الأحداث بأسلوب موضوعي بريء من العصبية الفردية.

٢- **يوميات هرتزل**: تعد هذه اليوميات بمثابة وثائق صهيونية أساسية على قدر كبير من الأهمية، لأنها تسجل آراء وأفكار وممارسات أحد رواد الحركة الصهيونية، وكان قد دوّنّها يوماً بيوم. ولا بد لكل باحث لنشاط الحركة الصهيونية من الرجوع إلى هذه اليوميات، لكن يجب ألا يعتمد عليها منفردة وبشكل مسلّم به لأن واضعها له ميوله الخاصة باعتباره المؤسس للمؤتمرات وللصهيونية السياسية، إلا أنها بدون أدنى شك تبقى مصدراً أولياً وهاماً.

٣- **ولاية بيروت - القسم الجنوبي لـ: محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت الأثري**، يعد هذا الكتاب من المصادر المهمة نظراً لدقة المعلومات الواردة فيه، لأنها جاءت نتيجة لمشاهدات شخصية ومعلومات من مصادر عربية وأجنبية موثوقة. وتعود أهمية الكتاب إلى أنه يشرح الأوضاع السياسية والاقتصادية لفلسطين ويتطرق في كثير من الأحيان للقدس، وقد تحدث عن الصهيونية والهجرة اليهودية، وقد اعتمد المؤرخان على مصادر مهمة، مثل تاريخ أورشليم - القدس الشريف - لخليل سركيس وتاريخ سوريا للمطران يوسف الدبس وتاريخ سوريا لجرجي يني الطرابلسي.

أما المقالات التاريخية التي أفاد البحث منها والمعاصرة لفترة الدراسة فيأتي في مقدمتها ثلاثة مقالات الأول: أسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة محمد روجي الخالدي، والثاني: السر المصون في شيعة الفرمايون للويس شيخو، والثالث: الإسرائيلية في جمعية الاتحاد والترقي لمؤلف مجهول.

- **محمد روجي الخالدي المقدسي** - نائب القدس ١٩٠٨ - أسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة (١٩٠٨) وقد تحدث الخالدي في هذا المقال عن الظروف السياسية التي أحاطت بالقدس في بداية القرن العشرين، ولما كان الكاتب معاصراً للأحداث فقد جاءت معلوماته فريدة ومهمة ودقيقة، لاسيما وأنها جاءت من رجل مثقف ودبلوماسي في الوقت نفسه، باعتباره كان سفيراً للدولة العثمانية في بوردو بفرنسا ونائباً عن القدس الشريف بعد ثورة ١٩٠٨. ومن خلال دراسة المعلومات الواردة في المقال إثبات التدخل الدولي والصهيوني في أوضاع القدس بالإضافة إلى الاستفادة من معلومات هامة أخرى في مجال البحث.

- **أما لويس شيخو (١٨٥٩-١٩٢٨)** فقد كتب مقالاً بعنوان: السر المصون في شيعة الفرمايون، (بيروت ١٩١١) ويعد من أهم المقالات الخاصة بدراسة الصهيونية، والذي أكد فيه أن أهم أهداف اليهود هو استيطان فلسطين واتخاذ القدس مركزاً لهم، والسيطرة عليها بواسطة المنظمة الصهيونية.

- وكذلك كاتب مجهول لمقال بعنوان: الإسرائيلية في جمعية الاتحاد والترقي (نخضة العرب ١٩٠٩)، ويعد هذا المقال من أهم المقالات المعاصرة التي تكشف بوضوح عن أهداف الصهيونية في إنشاء "مملكة إسرائيل" في فلسطين.

أما المصادر الأجنبية التي أفاد منها البحث نذكر بعضها على سبيل المثال:

١- N.Azouri: Le Reveil de la Nation Arabe dans LAsie Turque, (Paris- 1905)

يعد هذا المصدر من أهم المصادر التي تدرس يقظة القومية العربية والحراك الذي حدث في القدس والمحاولات المبذولة لاستقلال الشعب العربي في إطار الحكم العثماني وتعود أهمية هذا الكتاب إلى أن نجيب عازوري كان قريباً جداً من الأحداث ومعاصراً لها وكان مطلعاً على الأحداث الجارية في القدس كونه موظفاً في إدارة القدس، وما لبث أن طرد منها بعد خلاف بينه وبين السلطات العثمانية، إلا أنه عاد من باريس إلى فلسطين بعد إعلان الدستور عام ١٩٠٨.

٢- N.SokoLow: History of Zionism 1600- 1918 (London 1919)

يعد هذا الكتاب من المصادر المهمة ويعد مؤلفه أحد الزعماء الصهيونيين الذين ساهموا مساهمة فعالة في خلق المنظمة الصهيونية وقد أمدني هذا الكتاب بمعلومات مهمة عن محاولات هرتزل مع السلطان عبد الحميد للحصول على موطن قدم لهم في فلسطين، إلا أنه يجب ألا يؤخذ بكل ما جاء فيه من معلومات نظراً لأنه يمثل وجهة النظر الصهيونية البحتة.

وكان من المفيد الاعتماد على الصحف والدوريات المعاصرة. فقد اطلعت خلال فترة إعداد البحث على أرشيف مكتبة الأسد الوطنية وما احتوته المكتبة الظاهرية وقد أمدتني مؤسسة القدس الدولية في دمشق ومركزها الرئيسي في بيروت بالكثير من المراجع التي أغنت هذا البحث، واستطعت الاطلاع على دور الكتب الكبرى في لبنان، ومكتبات جامعة بيروت العربية والجامعة الأمريكية والجامعة اليسوعية، فضلاً عن أهمية الكتب الوطنية العامة في بيروت والأردن وقد استطعت الحصول على مجموعة من الصحف والدوريات الصادرة في الفترة نفسها.

واجه البحث الكثير من الصعوبات من أهمها فقدان أعداد كثيرة من هذه الصحف والدوريات، فما هو موجود في هذه المكتبة مفقود في تلك. ومن هذه الصحف التي اطلعت عليها: الأهرام، ثمرات الفنون، الكرمل..... والواقع أن البحث لا تستكمل مادته العلمية إلا بالاطلاع على الوثائق لاسيما غير المنشور منها. ومن أجل ذلك كانت وثائق البحث تنقسم إلى قسمين: وثائق منشورة، ووثائق غير منشورة، ويأتي في مقدمة الوثائق المنشورة:

١- مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني (Hatira Defteri) والتي أمدتني بمعلومات قيمة عن موقف

السلطان عبد الحميد من الاستيطان اليهودي في فلسطين.

٢- **المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان ١٨٤٠-١٩١٠** وهي الوثائق التي جمعها فيليب الخازن وفريد الخازن وهي بمثابة تقارير للقناصل الأجانب في الدولة العثمانية، وقد تمكن البحث من خلال دراسة وثائق المجلدات الثلاث الكشف على وثائق مهمة تتعلق بالقدس وهي بذلك تنشر للمرة الأولى في بحث يختص بالهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة.

أما الوثائق غير المنشورة الخاصة بالبحث والتي عانيت الكثير للحصول عليها فيأتي في مقدمتها:

١- **وثائق مديرية الوثائق التاريخية بدمشق:** وهي غير مصنفة، وقد عثرت فيها على بعض سندات بيع الأراضي في القدس في عهد السلطان عبد الحميد.

٢- **وثائق المكتبة الظاهرية بدمشق:** وتضم وثائق ومخطوطات عدة منها:

١. محمد عارف الحسيني: أعظم المآثر السلطانية العثمانية السكة الحديدية الحجازية الشامية. وتعود أهمية

هذا المخطوط إلى أنه يلقي الضوء على موقف عبد الحميد تجاه القدس.

٢. مؤلف مجهول: مخطوط سلاطين آل عثمان، ج ٢٣ الخاص بالسلطان عبد الحميد، ويوضح فيه المؤلف سياسة عبد الحميد مع الدول الأوروبية.

لقد حاولت في هذا البحث أن أقدم قراءة وثائقية جديدة لأوضاع القدس السياسية ١٨٣١-١٩١٤ معتمدة الأسلوب العلمي الوثائقي الذي يخدم العلم.

وأخيراً إذا كنت قد وفقت في عملي ورأى فيه طلبة العلم ما ينفعهم في بحوثهم لدراسة تاريخ هذه المدينة المقدسة كان ذلك ما أبغى، وإذا فاتني شيء مما كان ينبغي أن أضيفه ولم أفعل أو قصر الجهد عن إخراجه على الوجه الأمثل، فشفيعي في زلي طيب قصدي ورحم الله العماد الأصفهاني الذي قال: "إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه، إلا قال في غده، لو عُيِّرَ هذا لكان أحسن... ولو زيدَ كذا لكان يُستحسن... ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل... ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل... وهذا من أعظم العبر، وهو دليلٌ على استيلاءِ النقصِ على جملةِ البشر".

ولا يسعني في هذا المجال إلا أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم الإمتنان إلى الأستاذ المشرف الدكتور يوسف نعيسة على رعايته للبحث وإشرافه الدقيق على تفاصيله، حيث كان لتوجيهاته الفضل الأكبر في إيصال البحث إلى ما وصل إليه كما أشكر كل من أعانني على إخراج هذا البحث وأخص بالذكر أساتذتي في قسم التاريخ وموظفي دور الوثائق والمتاحف والمكتبات الجامعية والخاصة في دمشق، ومؤسسة الدراسات الفلسطينية ومؤسسة القدس الدولية في دمشق ومركزها الرئيس في بيروت، وأسأل الله تعالى أن يسكن الأستاذ أكرم العلي فسبح جناته الذي لم يتوان لحظة في تقديم النصح أثناء الإعداد لهذا البحث.

الفصل الأول

الأوضاع السياسية للقدس ١٧٧٠ - ١٨٢٩

أولاً: الأوضاع العامة للقدس قبل مجيء محمد علي باشا ١٧٧٠ - ١٨٢٩:

- ١- القدس ومحيطها: (تاريخياً وجغرافياً).
- ٢- الحملة الفرنسية على بلاد الشام وأهميتها ١٧٩٨ - ١٨٠٢.
- ٣- الأماكن المقدسة في القدس.
- ٤- الواقع الديمغرافي للقدس.

ثانياً: الحدود السياسية للقدس:

- ١- أهم القرى التابعة للواء القدس.
- ٢- أهمية مقدسات اللواء.

ثالثاً: أوضاع القدس بعد الحملة الفرنسية ١٨٠٢:

- ١- موقف أهالي القدس من الصراع بين الجزائر وأبي المرق عام ١٨٠٢ - ١٨٠٣.
- ٢- موقف الجزائر من علماء القدس وأعيانها.
- ٣- حركات الانكشارية في القدس.
- ٤- حكم سليمان باشا للقدس ١٨١٠ - ١٨١٢.
- ٥- وصول محمد علي باشا إلى الحجاز وانعكاس ذلك على القدس ١٨١١.

رابعاً: عبد الله باشا حاكماً للقدس ١٨٢٠:

- ١- موقف الدولة العثمانية من الثورة اليونانية وانعكاساتها على القدس ١٨٢١.
- ٢- توتر واضطراب القدس ١٨٢٥ - ١٨٢٦.
- ٣- القدس قبيل مجيء الحملة المصرية ١٨٢٩ - ١٨٣٠.

أولاً: الأوضاع العامة للقدس قبل مجيء محمد علي باشا ١٧٧٠-١٨٢٩:

١- القدس ومحيطها: (تاريخياً وجغرافياً)

نعمت بلاد الشام عامة، والقدس ونواحيها خاصة، بفترة طويلة من الازدهار والاستقرار بعد أن أصبحت جزءاً من السلطنة العثمانية. وكان عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) بمثابة العصر الذهبي لتلك الامبراطورية. فانعكس ذلك على العاصمة استنبول وكذلك على الولايات المترامية الأطراف من شمال افريقيا إلى شرق أوروبا مروراً بالمشرق العربي.^(١) وعلى الرغم من التحولات الكثيرة التي طرأت على أوضاع الدولة العثمانية، منذ أواخر القرن السادس عشر وخلال القرن الذي يليه، فإن سكان المنطقة العربية ظلوا ينعمون بنوع من الاستقرار بعيداً عن الحروب والقتال. رغم الهزائم التي مُني بها الجيش العثماني في أواسط أوروبا التي أسفرت عن تقلص حدود الدولة بدلاً من استمرار توسعها مع نهاية القرن السابع عشر، فإن منطقة بلاد الشام لم تتأثر بذلك مباشرة. وقد سمح ضعف الدولة العثمانية العسكري والسياسي بنشوء نخب محلية أدت دوراً مهماً في إدارة الولايات لدرجة تحدث أحياناً السلطة المركزية ووكلاءها أو ممثليها الرسميين. وفي فلسطين كان أبرز مثال لهذه الظاهرة نشوء حكم الزيدانة في الجليل ثم تحدي ضاهر العمر الزيداني في الربع الثالث من القرن الثامن عشر أوامر الدولة وحكامها المجاورين لمعقله وعاصمة حكمه في عكا.^(٢)

وعلى جبهات القتال واجهت الامبراطورية العثمانية تحديات أوسع خلال القرن الثامن عشر نقلتها من موقع الهجوم إلى خندق الدفاع غير الناجح في مواجهة أعدائها. حيث تقدمت جيوش روسيا القيصرية من جهة، وجيوش الامبراطورية النمساوية الهنغارية من جهة أخرى، ودحرت الجيوش العثمانية واحتلت مناطق جديدة كانت تابعة للعثمانيين.

وعلى الرغم من أهمية هذه الأحداث وانعكاساتها على أحوال الامبراطورية عامة بما فيها البلاد العربية، فإن تلك الأخطار ظلت بعيدة عن القدس جغرافياً، حتى أواخر القرن الثامن عشر وما شغل السلطات العثمانية في المنطقة العربية كان ازدياد نفوذ النخب المحلية، وتحديها للإدارة العثمانية سياسياً وعسكرياً إلى درجة الاضطرار إلى إرسال جيوش الدولة لمحاربتها من حين إلى آخر. أما أبرز مثال في بلاد الشام عامة، وفلسطين خاصة، فكان تحالف

(١) للتوسع في أحوال فلسطين السكانية والاقتصادية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، يمكن العودة إلى: عادل مناع، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني ١٧٠٠-١٩١٨ م (قراءة جديدة)، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩، ص ٨٥.

(٢) لمزيد عن الزيدانة وحكم الشيخ ضاهر العمر، يمكن العودة إلى: معمر توفيق، ضاهر العمر، الناصرة، ط٢، ١٩٩٠، ص ٣٥، وعادل مناع، تاريخ فلسطين.....، ص ٤٧، ٧٥.

ضاهر العمر حاكم الجليل مع علي بك الكبير حاكم مصر، وخروجهما معاً للسيطرة على بلاد الشام وطرده العثمانيين منها.

كان لتحالف علي بك الكبير مع ضاهر العمر الزيداني، وخروج جيوشهما معاً لاحتلال دمشق وبقية نواحي الشام، أثراً كبيراً في زعزعة كيان الإدارة العثمانية في هذه المناطق. في تلك الأيام كانت الدولة العثمانية تواجه تحديات خارجية صعبة للغاية حين قرر هذان الحاكمان عصيان أوامر السلطان. ففي تموز ١٧٧٠ هُزم الاسطول العثماني أمام الأسطول الروسي الذي عبر البحر الأسود أول مرة إلى البحر الأبيض المتوسط بالقرب من جزيرة "خيوس" اليونانية. والأدهى من ذلك أن هذين الحليفين اتصلا بقائد الأسطول الروسي في البحر الأبيض المتوسط وحصلوا على تعهد منه بأن يقوم بمساعدتهما إذا اقتضت الضرورة. لكن حلم علي بك الكبير كان أن يعيد حكم المماليك في مصر وبلاد الشام، فاستعان بضاهر العمر على تحقيق هذا الحلم وكان على استعداد لقبول مساعدة روسيا القيصرية وأسطولها في سبيل ذلك.

وقد خرجت جيوش علي بك يقودها محمد بك أبو الذهب في اتجاه بلاد الشام أواخر سنة ١٧٧٠، فلم تلقَ مقاومة تذكر في فلسطين، والتقت جيوش حاكم عكا وحلفاؤه ثم زحفت إلى دمشق واحتلتها في حزيران ١٧٧١^(١) وتفصيلات هذه الحملة معروفة لا مجال هنا للخوض فيها لكن خروج أبو الذهب من دمشق وعودته إلى مصر ومحاربه لسيدته علي بك الكبير وتغلبه عليه، الأمر الذي أخرج موقف ضاهر العمر وحلفائه. وأهمية ذكر هذه الحملة هي للتدليل على ازدياد المخاطر الداخلية على استمرار الحكم العثماني في المنطقة واستقراره. وبعد مدة طلبت الدولة العثمانية من محمد بك أبو الذهب أن يخرج بجيشه مرة أخرى إلى المنطقة من أجل القضاء على حكم ضاهر العمر هذه المرة، فوافق أبو الذهب على طلب السلطان وخرج على رأس جيش كبير في نيسان ١٧٧٥ لتنفيذ المهمة التي أُلقيت على عاتقه.

هكذا تحولت مناطق الساحل الفلسطيني مرة أخرى خلال أقل من خمسة أعوام، إلى ساحة معارك بعد عبور قوات عسكرية كبيرة لم تشهد البلاد مثلها منذ مدة طويلة.

إن مرض أبو الذهب فجأة قبل وصوله إلى عكا ووفاته في حزيران عام ١٧٧٥ أسفر عن نجات ضاهر العمر وحكمه إلى حين، وعادت الجيوش المصرية إلى بلادها. لكن الدولة العثمانية كانت مصممة على التخلص من ضاهر العمر، فاستمرت قواتها البرية، بالتعاون مع الأسطول العثماني، في محاصرة عكا حتى سقوطها بعد مقتل

(١) لمزيد عن أحوال دمشق في تلك الفترة يمكن مراجعة، عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦-١٧٩٨، دمشق، ١٩٦٨، ص ٢٦.

حاكمها ضاهر العمر بعد شهرين من موت أبي الذهب.^(١) وبعد مدة وجيزة عيّنت الدولة أحمد باشا الجزار على ولاية صيدا كلها.

كان القضاء على ضاهر العمر في عكا بداية النهاية السريعة لحكم الزيادة في الجليل، وبداية حكم الجزار الذي استمر نحو ثلاثة عقود (١٧٧٥ - ١٨٠٤) وعلى الرغم من أن الجزار عُيّن حاكماً على ولاية صيدا رسمياً، فإنه مثل سلفه، فضّل إبقاء عكا معقله، ومركز جهاز حكمه، وأقام حكماً شديداً المركزية وأعاد الاستقرار إلى المنطقة بنسبة كبيرة، لكن بضمن باهظ من البطش، والظلم دفع ثمنه الأهالي الذين اعتادوا المشاركة، والتعاون مع الزيادة، وخصوصاً في منطقة الجليل. أما من وجهة نظر الدولة العثمانية، فما قام به الجزار من قضاء على الزيادة وإعادة المنطقة لحكم الدولة العثمانية كان دليلاً على أن تحديات النخب المحلية المشاركة في إدارة الولايات لا تهدد، مهما عظمت استمرار حكم السلطان أو شرعيته.

كان بإمكان العثمانيين أن يتجاوزوا بارتياح، مرحلة انتهاء القرن الثامن عشر الميلادي، لولا خروج نابليون بحملته على مصر سنة ١٧٩٨. وقد كانت هذه الحملة الأوروبية، بعكس مثيلاتها في البلقان وعلى الحدود الروسية، موجهة إلى قلب العالم العربي لا إلى أطراف الامبراطورية، فمصر وبلاد الشام لم تشهدا احتلالاً أوروبياً منذ أن استولى المماليك على آخر المعاقل الفرنجية في القرن الثالث عشر الميلادي. لذا لم يكن غريباً أن تعيد الحملة الفرنسية إلى أذهان العثمانيين والسكان المحليين ذكرى الاحتلال وتجدد الصراع مع الأوروبيين بشأن حكم البلاد المقدسة وما حولها.^(٢) وبالتالي عكست ردات الفعل الأولية على حملة نابليون مدى المفاجأة، وعدم توقع مثل هذه الحملة بعد استتباب الحكم الاسلامي في هذه المنطقة أكثر من خمسة قرون.

وقد عبّر المؤرخ المصري المعاصر لتلك المرحلة عبد الرحمن الجبرتي عن الهزة العميقة التي أحدثتها هذه الحملة وتداعياتها أصدق تعبير فقد استهل تاريخه لعام ١٢١٣ هـ الموافق لـ ١٧٩٨ - ١٧٩٩ بقوله: "هي أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وتراشق الأمور وتوالي الحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال، وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها صالحون".^(٣) هذه أوصاف ومصطلحات تليق بطوفان أو بركان لا باحتلال أجنبي للبلاد المصرية استمر نحو ثلاثة أعوام.

(١) رافق، بلاد الشام ومصر...، ص ٣٨.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٣ أجزاء، بيروت دار الفارس، ج٢، ص ٢.

(٣) الجبرتي، عجائب الآثار...، ص ٥.

حركت الحملة الفرنسية مشاعر هذا المؤرخ العالم، وهزت أركان إيمانه بشكل جعله يعبر عن عمق الصدمة التي تركتها تلك الحملة، ولاسيما في أوساط النخب السياسية والدينية والثقافية. وإذا كان الجبرتي قد عبر عن صدمة النخب المصرية جرّاء هذا الحدث فإن سجلات المحكمة الشرعية في القدس حفظت عشرات الوثائق التي عبّرت عن مشاعر العثمانيين ومواقفهم من الحملة الفرنسية عند وصولها إلى الأراضي المصرية وبعد خروجها من هناك لاحتلال فلسطين سنة ١٧٩٩^(١). وإحدى تلك الوثائق رسالة من أهالي مصر إلى أهالي القدس بشأن الحملة الفرنسية، يشير فيها علماء القاهرة إلى الأخبار التي وصلتهم "من طرف أهالي ثغر الاسكندرية" بأن مراكب الفرنسيين وعددها ٣٠٠ مركب تقريباً أحاطت بتلك المدينة، ثم هاجمها الجنود الفرنسيون واحتلوها. هذه الأخبار نشرت الرعب والأراجيف بين سكان القاهرة. ثم يضيف علماء مصر في محضرهم لأهالي القدس أن عليهم أخذ الحيطة والحذر وخصوصاً من "الكفرة المقيمين بين أظهركم لأن ضرر الاسكندرية غالبه كان من المقيمين معهم كما وردت الأخبار بذلك".^(٢)

على الرغم من عدم خروج الفرنسيين من مصر مباشرة لاحتلال بلاد الشام عامة، والأراضي المقدسة خاصة، فإن مشاعر حكام البلاد وأهلها، ومخاوفهم أيضاً لم تهدأ لأشهر عدة. إذ أصبحت ألوية فلسطين الجنوبية (القدس وبافا وغزة) مناطق حدود مع العدو الفرنسي، وأصبحت مدنها تغوراً يجب تحصينها لمواجهة غزو فرنسي مرتقب. وكما اضطرت الأمور في القدس وغيرها من مدن فلسطين، عاشت دمشق أيضاً فترة من الكرب، واختلال الأحوال منذ صيف سنة ١٧٩٨. ولمواجهة هذا الخطر الداهم عينت السلطات العثمانية أحمد باشا الجزار في نهاية تلك السنة والياً على الشام إضافة إلى حكمه في عكا، وكذلك منح حكم ولاية طرابلس وقيادة الجيوش لمحاربة الفرنسيين،^(٣) وهكذا تم توحيد معظم بلاد الشام، وألوية فلسطين كلها تحت سلطة أقوى حكام هذه المنطقة، وهي مؤشرات قوية إلى أن الحملة الفرنسية قادمة لا محالة. وبالتالي فإن الحملة الفرنسية، صورت بأعين معاصري ذلك الحدث منعطفاً تاريخياً مهماً حرك المشاعر، والمخاوف أشهراً وأعواماً، وترك آثاراً بعيدة المدى في مصر والمشرق العربي، صحيح أن المؤرخين يختلفون في شأن تقويم الآثار بعيدة المدى لهذه الحملة على بلاد الشام (بعكس مصر)، لكن لا خلاف في أن حملة نابليون تشكل مفصلاً تاريخياً مهماً بين أواخر القرن الثامن عشر

(١) إن الوثائق المحلية وأهمها سجلات محكمة القدس الشرعية تكشف مواقف السلطات العثمانية والأهالي، وتعكس جوانب سياسية واجتماعية واقتصادية تتعلق بحملة نابليون على فلسطين.

(٢) سجل القدس رقم ٢٧٩، ص ١٥٢، في ٧ صفر ١٢١٣ هـ / ٢١ تموز ١٧٩٨.

(٣) لمزيد عن تاريخ أحمد باشا الجزار ودوره في وقف الحملة الفرنسية وإفشالها أمام أسوار عكا، يمكن العودة إلى: أحمد حيدر الشهابي، تاريخ أحمد باشا الجزار، ٣ أجزاء، بيروت، ١٩٥٥، ج١، ص ١٦، مناع، تاريخ فلسطين...، ص ٧٧، ص ١٠٣.

وأوائل القرن التاسع عشر. وكان من أبرز سمات الفترة الجديدة، التي بدأت بالحملة الفرنسية، توسع النفوذ الأوروبي في الدولة العثمانية، وزيادة التنافس بين الدول الأوروبية لسيطرتها على الأماكن المقدسة. ونستنتج مما سبق أن الحملة الفرنسية عدت خطوة مهمة لبدء الدراسة والبحث في تاريخ القدس لاسيما فترة حملة محمد علي باشا على بلاد الشام عام ١٨٣١ حتى ١٩١٤ هذه الحملة التي عدت أيضاً حداً زمنياً واضحاً لمرحلة تاريخية يمكن تمييزها بسهولة مما قبلها ومدخلاً حقيقياً لعهد جديد، وخصوصاً فيما يتعلق بدور ونفوذ أوروبا في هذه المنطقة.

أظهر محمد علي، على عكس غيره (من الولاة) في الولايات المجاورة، اهتماماً ببلاد الشام ورغبة في التدخل في شؤونها الداخلية في مطلع سنة ١٨١٠، كي تنسجم مع مصالحه. إذ يبدو أنه لم يكن راضياً قط بحكم مصر وحدها، فاتخذ منها قاعدة للتوسع وثمة ما يكفي من القرائن على اهتمامه ببلاد الشام دون سواها من الولايات التي احتلها منذ توليه منصبه.^(١) وعلى الرغم من أن نفوذ محمد علي امتد ليشمل كريت والحجاز فإن سلطته في هذه الولايات كانت فخرية.^(٢)

وفي سنة ١٨١١-١٨١٢ استغل محمد علي حالة العداء بين سليمان باشا والي صيدا وكنج يوسف باشا والي دمشق، باتخاذ قرار الاصطفاف مع الأخير فتدخل لدى الباب العالي للصفح عن كنج يوسف باشا وإعادةه إلى الباشوية، وإزاحة سليمان باشا. وقال: "إنه كان يصبر على هذا المنصب لتسهيل شؤون الحجاز" وعلى الرغم من أن محمد علي نجح في الحصول على عفو عن الوالي فإن هذا الأخير لم يعين والياً على ولايته^(٣) ويبدو أن محمد علي قد خطط لاستخدام كنج باشا ركنية لمشروعه في سوريا.

وفي سنة ١٨١٢ تحدث محمد علي مع القنصل الانكليزي وأفصح له عن نيته "السيطرة على فلسطين فور سماح الأوضاع بذلك" وفي العام التالي، وبينما كانت قواته تواجه صعوبات في إخضاع الوهابيين في الجزيرة العربية، كتب رسالة إلى الصدر الأعظم أخبره فيها استعداداه لتعويض الانتكاسات التي مني الجيش بها في الجزيرة العربية فقط إذا تم منحه ولاية الشام (سورية) بالإضافة إلى مصر.^(٤) وبعد عامين من ذلك كرر محمد علي الطلب نفسه عندما أصبحت خطوط إمداده أطول فأطول في أثناء حربه ضد الوهابيين. وكى يعود إلى الهجوم الأخير على الدرعية، عاصمة الوهابيين، كان يدرك أنه بحاجة إلى ٢٠٠٠٠٠ جمل على الأقل، توفر لديه منها ٣٠٠٠ فقط من سورية،

(١) قسطنطين بازيللي، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، موسكو، ١٩٨٩، ص ١٠٧.

(٢) بازيللي، سوريا...، ص ١١٠. خط همايون رقم ٢٠٠٢٨، رقم ٢٠٣٥٣.

(٣) رستم، المحفوظات...، المجلد الأول، ص ١-٥.

(٤) أمين سامي، تقويم النيل، ٣ مجلدات، القاهرة، ١٩٢٨، المجلد الثاني، ص ٢٤٤.

على الرغم من وعود والي دمشق المتكررة بالمساعدة. وقد أرسل محمد علي رسالة أخرى إلى نجيب أفندي وكيله في استانبول، وطلب منه أن يحاول إقناع المسؤولين الكبار في العاصمة بإعطائه ولاية دمشق، لكن العثمانيين تجاهلوا مطالبه.^(١) أظهر محمد علي باشا مرة أخرى سنة ١٨٢١ اهتماماً بشؤون بلاد الشام عندما طلب عبد الله باشا والي صيدا، وساطته لدى الباب العالي لإعادة تعيينه في ولايته بعدما خرج من دائرة اهتمام السلطان بسبب عدايته لوالي دمشق.^(٢)

فحث محمد علي الباب العالي على الصفع عن عبد الله باشا، فعفا عنه وأعادته إلى منصبه^(٣) ويبدو أن عبد الله باشا كان قطع على نفسه وعوداً ذات طبيعة سياسية وعسكرية لقاء الخدمات الجليلة التي قدمها له محمد علي باشا. ففي واحدة من رسائله الموجهة إلى هذا الأخير أعلن أن ولايته ستكون تحت إمرة محمد علي، وأن قلعة عكا ستكون الحصن المنيع لحاكم مصر.^(٤)

قام محمد علي بالشيء نفسه مع الأمير بشير الشهابي، فاستقبله وأسكنه في مصر وطالب بالعفو عنه، وبناءً على وساطته أعفي عنه واسترد حكمه،^(٥) ورأى محمد علي في سياسته استكمالاً لتوظيف هذا الفضل والعرفان في تعزيز نفوذه وتحقيق مصالحه،^(٦) وقد يكون محمد علي اتفق مع الأمير بشير على أن يكون الأخير مساعداً له إن غزا بلاد الشام.^(٧) واستمرت العلاقة بين بشير ومحمد علي في السنوات التالية، وتوسط الأخير في بعض الأحيان لدى عبد الله باشا من أجله.^(٨) بالإضافة إلى ذلك، دعم محمد علي مصطفى آغا بربر، والي طرابلس وتوسط لدى الباب العالي للعفو عنه، وأسكنه لاحقاً في مصر، كما رافقه إبراهيم باشا عندما غزا بلاد الشام.

(١) سامي، تقويم النيل...، ص ٢٥٠.

(٢) الشهابي، لبنان في...، ص ٣١١-٣١٦، وأيضاً انظر رستم، المحفوظات...، المجلد الأول، ص ٣٣-٤٠، أرقام ٩٣، ٩٤، ٩٥.

(٣) رستم، المحفوظات...، ص ٤٧، رقما ١١٢، ١١٣، الشدياق، كتاب أخبار...، مج ٢، ص ٤٢٦-٤٢٧. سليمان أبوعز الدين، إبراهيم باشا في سوريا، بيروت، ١٩٢٩، المطبعة العلمية، ص ٤٨، بازيلي، سوريا وفلسطين...، ص ١٠٦.

(٤) رستم، المحفوظات...، مج ١، ص ٤٩-٥٠، رقم ١١٧، ص ٥٢، رقم ١٢٠.

(٥) الشهابي، لبنان...، مج ٣، ص ١٠٠١-١٠٠٢. الشدياق، كتاب أخبار...، ص ٤٢٣-٤٢٧.

(٦) الشدياق، كتاب أخبار...، ص ٤٣٠.

(٧) الدمشقي، تاريخ حوادث...، ص ١٤٢، بازيلي، سوريا...، ص ١٠٦، الشدياق، كتاب أخبار...، مج ٢، ص ٤٢٦.

(٨) الدمشقي، تاريخ حوادث...، ص ١٤٤، سالم حشي، تاريخ الأمراء الشهابيين بأقلام أحد أمرائهم من وادي التيم، بيروت، بيروت، ١٩٧١، ص ١٩٩، وأيضاً انظر: رستم، المحفوظات...، مج ١، ص ٥٩، ٦١، أرقام ١٤٠-١٤٤. وبازيلي، سوريا...، ص ١١٩.

وفي سنة ١٨٢٣ أرسل محمد علي وفداً إلى عكا لحل النزاع بين عبد الله باشا والباب العالي. وكانت مهمة الوفد سرية لجذب أهل عكا إلى محمد علي، ولإيجاد مناصرين له يعتمد عليهم عند الحاجة، فعلم عبد الله باشا بذلك وقابل الوفد خارج عكا ليمنعه من أي تواصل بالسكان.^(١)

وقد عكس هذا التصرف شكوك عبد الله باشا حيال وساطات محمد علي، لكن على الرغم من ذلك واصل الأخير وساطته خلال عشرينيات القرن التاسع عشر بين عبد الله باشا والمسؤولين لديه وحتى بين سر عسكر^(٢) عكا. كما حاول محمد علي بناء علاقات طيبة مع العديد من المسؤولين والشيخ والتجار في بلاد الشام بصورة عامة وفي فلسطين بصورة خاصة.^(٣)

قال محمد علي في مقابلة صريحة وجريئة مع أحد مستشاريه العسكريين الفرنسيين سنة ١٨٢٥: أنا الآن أهم رجل في الامبراطورية العثمانية كلها.... سيقوم ساعدي الأيمن ابني ابراهيم بغزو المورة.... سأصل بقواقي مرة أخرى، وأجند محاربين جددًا، وأكمل بناء أفواجي العسكرية، ومن ثم سأحتل باشاوية دمشق وعكا، لن أتوقف إلا عندما أصل دجلة والفرات.^(٤)

في سنة ١٨٢٦ أرسل ثوار القدس رسالة إلى محمد علي والسلطان وعبد الله باشا بينوا فيها الإجراءات التي سيقومون بها.^(٥) ويقال إن محمد علي استطاع بقوة نفوذه أن يساعد عبد الله باشا في وضع حد للثورة في القدس.^(٦)

في سنة ١٨٢٧، وفي مقابلة مع هنري سولت، القنصل الانكليزي العام في بيروت، لم يعرض محمد علي نفوذه في بلاد الشام فحسب، بل أيضاً مدى وعيه بسلطته الشخصية. وقال في المقابلة: "إن عبد الله باشا يقف إلى جانبي، كما يقف الدروز إلى جانبي، وبذلك أستطيع قيادة عرب الصحراء".^(٧)

وفي السنة نفسها، وخلال حرب المروة، كان في الواقع قد طالب بإعطائه الباشاويات السورية الأربع (حلب- دمشق- بيروت- القدس) لتنميتها وتأمين طريق الحج، كأفضل مكافأة له. فَوُعِدَ بمنحه الباشاويات، لكن مع

(١) أبوعز الدين، ابراهيم...، ص ٩٤.

(٢) كلمة تركية معناها قائد الجيش، وهي مؤلفة من كلمتين: (سر) فارسية، ومعناها الرأس. و (عسكر) عربية، ومعناها الجند، وهذا القائد أرسل من استانبول ليخرج ابراهيم باشا وجنده من فلسطين. العارف، المفصل...، ص ٤٤٠.

(٣) عادل، مناع، أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني، ١٨٠٠-١٩١٨، القدس، ١٩٨٦، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٤) رستم، المحفوظات...، ص ٥٠، رقم ١١٩.

(٥) رستم، المحفوظات...، ص ٥١، رقم ١٢٢.

(٦) رستم، المحفوظات...، ص ٩٠، رقم ٢١٣.

(٧) مناع، أعلام فلسطين...، ص ٢٩٠.

إحياء نفوذ خسرو، تجاهل الباب العالي هذا الوعد، برر السلطان رفضه محاججاً في شكوكه في انسحاب محمد علي من بلاد الشام فيما لو عينه والياً عليها وأقاله لاحقاً.^(١)

وافق محمد علي سنة ١٨٢٨ على مساعدة السلطان في حربه مع روسيا لكنه طلب إرسال قواته إلى الأناضول عبر سورية. إلا إن معرفة السلطان بنيات محمد علي حدثه على رفض الطلب، واقترح إرسال القوات بحراً.^(٢) بالإضافة إلى ذلك اقترح محمد علي سنة ١٨٣٠ إرسال ٦٠٠٠٠ كيس (في كل كيس يوجد ٥٠٠ قرش) إلى استانبول في مقابل تعيينه والياً على سورية، لكن الاقتراح رفض. فراح محمد علي يجهز للاحتلال بعدما فشل في أخذ سوريا بالطرق السلمية، وقد انتظر اللحظة الملائمة للقيام بذلك بالقوة.^(٣)

ومن المفيد أن نربط هذه الأحداث بالموقع الجغرافي للقدس الذي يراه البعض معروفاً لا يحتاج إلى وصف أو توضيح. فموقع القدس الجغرافي، وخصوصاً البلدة القديمة، ثابت لم يتغير جغرافياً منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى الآن، لكن تحديد مكان الدراسة ليس مجرد وصف جغرافي، وذكر لمعالم المدينة وما حولها. فالمقصود هنا هو تحديد علاقات هذه المدينة بما حولها، ورسم معالمها في الإطار العام للدولة العثمانية، والإطار المحلي للألوية فلسطين في ذلك العهد. فالمكان -وإن كان ثابتاً جغرافياً- متحول من حيث التنظيم الإداري فقط.

احتفظت "البلدة القديمة" للقدس بمعالم المدينة، التي شكلت محور هذه الدراسة، كما كانت عليه في أوائل القرن التاسع عشر. فأسوار القدس القائمة حتى الآن تم إعادة بنائها أيام السلطان سليمان القانوني، ووضعت بمحيطها وأبوابها الحدود الرئيسية لهذه المدينة ومعالمها المهمة.

منذ أواسط القرن السادس عشر حتى أواسط القرن التاسع عشر سكن معظم المقدسيين لثلاثة قرون متتالية في حارات المدينة، وبيوتها القائمة داخل هذه الأسوار أغلبية أيام السنة، وقام أعيان القدس ببناء بعض الأحياء والسكن فيها مثل: حي باب الساهرة، حي المصراة، حي الشناعة، حي القطمون. وقد شذّ عن هذه القاعدة بعض العائلات التي شيدت خارج الأسوار بيوتاً صيفية حصينة سكنتها على الأقل خلال أشهر الصيف الحارة،^(٤) الحارة،^(٤) كما أن عائلات أخرى عملت في الزراعة، وفي تربية المواشي في مناطق البقعة، ووادي الجوز، والشيخ

(١) رستم، المحفوظات...، مج ١، ص ١٠٠ - ١٠١، أرقام ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١.

(٢) رستم، المحفوظات...، مج ١، ص ١٠٦، رقم ٢٥٧، ص ١٠٩، أرقام ٢٦٣، ٢٦٤.

(٣) نوفل، كشف اللثام...، ص ٢٧٨، ثابت، محمد علي...، ص ١٦٥، وانظر أيضاً: رينيه قطاوي، وجورج قطاوي، محمد علي علي والعروبة، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٩٤.

(٤) ذكرت هذه القصور التي كانت قائمة في مناطق متعددة خارج أسوار القدس، وخصوصاً في الجهة الشمالية والشمالية الشرقية الشرقية (وادي الجوز والصوانة). ويمكن مطالعة تاريخ بعض هذه القصور في: شعون لندمان، أحياء أعيان القدس خارج أسوارها في القرن التاسع عشر، ترجمة سليمان مصالحة، تل أبيب ١٩٨٤، ص ٢٤.

جراح وغيرها، فبنت العرائش والبيوت الزراعية في كرومها. وقد اشتهرت عائلة الوعري بأن أبنائها الذين اشتغل معظمهم بتربية المواشي عاشوا خارج الأسوار في منطقة البقعة وجوارها معظم أيام السنة، لكن ارتباط هذه العائلات المقدسية بالمدينة القديمة بقي قوياً جداً نظراً للارتباط الروحي بالأماكن المقدسة وأنشطتهم التجارية فيها،^(١) عدا ذلك فإن الأغلبية العظمى من سكان القدس الذين تقدر أعدادهم بأكثر من ١٠٠٠٠ نسمة عاشت داخل الأسوار، أي ما يعرف بالبلدة القديمة.

ازدادت كثافة السكان والبيوت خلال القرنين الماضيين (الثامن والتاسع عشر)، كما أُقيمت مبان جديدة كثيرة، وهدمت مبانٍ أخرى، ومع ذلك لا يصعب حتى اليوم رسم معالم المدينة الرئيسية في الجهة الشمالية، باب العمود ينزل في اتجاه وادي الطواحين أو طريق الوادي الذي يقود إلى منطقة الحرم، لكنه يصل أيضاً إلى حارة المغارة في الجهة الجنوبية. يقسم طريق الوادي المدينة قسمين: شرقي، يضم منطقة الحرم كلها والحارات الآهلة بأغلبية مسلمة، وغربي، يضم حارات المسيحيين والأرمن وبعض اليهود. أما طريق خان الزيت الذي يتفرع أيضاً من حارة باب العمود ومدخلها، فإنه يشق المدينة من الشمال إلى الجنوب ليصل إلى أسواق المدينة الرئيسية، مثل اللحامين والعطارين والخضار، ثم يمتد هذا الطريق إلى باب النبي داود. وأما باب الخليل في الجهة الجنوبية الغربية فالداخل منه إلى جوار القلعة يستطيع أن يسير شرقاً كي يصل إلى باب السلسلة المؤدي إلى ساحات الحرم. وبالإضافة إلى الأبواب المذكورة تجدر الإشارة إلى باب الأسباط القريب من منطقة الحرم الشمالية والمؤدي إلى الجهة الشرقية من المدينة وما حولها، وكذلك إلى باب النبي داود المؤدي إلى منطقة جبل صهيون.^(٢)

سكن معظم أهالي القدس المسلمين في الحارات الشمالية، والشرقية القريبة من منطقة الحرم القدسي، مثل باب العمود وباب حطة وحارة السعدية، وحارة المغارة. أما أغلبية المسيحيين فسكنت في حارتي النصارى والأرمن، بينما سكن اليهود في المنطقة التي سميت لاحقاً باسمهم، حارة اليهود، وقد عمل اليهود فيما بعد على تأسيس أحياء خاصة بهم نذكر منها: حي بيت يعقوب عام ١٨٧٠، حي غلات نصون عام ١٨٩٣، حي بيت حوليم عام ١٩٠٦، حي عزرات يسرائيل عام ١٨٩١، إضافة لمحاولتهم إيجاد موطنٍ قدم لهم داخل المدينة المقدسة.^(٣) وعلى الرغم من هذا التقسيم القائم على أساس التجمع حول المباني، والمؤسسات الدينية المعروفة، والمشهورة لأبناء

(١) سكنت عائلة الوعري خارج أسوار القدس في الجهة الجنوبية منها على الطريق السالك إلى بيت لحم ودخولها إلى المدينة لأسباب متعددة وظل أفرادها في تلك المنطقة فسجلوا بعض أراضيها أملاكاً خاصة، وأقاموا في جوار البقعة والكولونية الألمانية حارة عرفت باسمهم أيام الانتداب الإنكليزي. انظر: سليم تماري، القدس ١٩٤٨، الأحياء العربية ومصيرها في حرب ١٩٤٨، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٥، ٣٢، ٧٢.

(٢) تماري، القدس ١٩٤٨...، ص ٧٥.

(٣) محمد عيسى صالحية، مدينة القدس، السكان والأرض، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٢٨.

الديانات الثلاث، فإن الفصل السكاني لم يكن قائماً بشكل قاطع بين الأهالي على أساس ديني، فقد كان هناك مناطق سكانية مختلطة كما أن المسلمين سكنوا في شتى أنحاء المدينة مع أن أغليتهم الساحقة تجمعت في الحارات القريبة من منطقة الحرم.^(١) شهدت القدس ١٨٣١ - ١٩١٤ تطوراً كبيراً فقد ارتبطت مع المدن المجاورة كيافا ورام الله والخليل وبيت لحم بطرق واسعة ويذكر عارف العارف أن أول سيارة رأتها القدس كانت في عام ١٩٠٨، وكانت ألمانية الصنع وكانت هذه واسطة النقل المعروفة فيها.^(٢) وقد تم مد خط سكة حديد عام ١٨٩٢ ما بين القدس وميناء يافا لنقل الحجاج والزوار والبضائع من ميناء يافا إلى القدس وإلى مدن أخرى،^(٣) كما ربطت المدينة بخطوط التلغراف مع مصر وبيروت وأوروبا. وفي عام ١٩١٢ هبطت في القدس أول طائرة وكانت فرنسية الصنع، هبطت في البقعا فوقاً غربي جبل المكبر، ولم يكن في القدس يومئذ مطار.^(٤)

٢ - الحملة الفرنسية على بلاد الشام وأهميتها ١٧٩٨ - ١٨٠٢ :

شكّلت الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام في بداية القرن التاسع عشر مؤشراً واضحاً لبداية مرحلة جديدة، أسفرت عن تقلص حدود الدولة العثمانية في المنطقة العربية نتيجة التفوق الأوروبي العسكري والاقتصادي. أما احتلال جيوش محمد علي لبلاد الشام وحكمها عشرة أعوام كاملة، فكانا مؤشراً إلى الخطر الذي سيحوق بالإمبراطورية العثمانية وتمثل في نشوء تحديات داخلية جديدة لشرعية حكم السلطان، ومحاولات الانسلاخ عن دولته.

صحيح أن الحكم العثماني عاد إلى بلاد الشام بعد عشرة أعوام، لكن قيام دولة محمد علي باشا شبه المستقلة، كان دليلاً واضحاً على تدهور أوضاع الدولة العثمانية وضعفها وبالتالي فإن عام ١٨٣١ كان بداية زمان هذه الدراسة التي سترسم حداً طبيعياً لمرحلة سيحاول هذا البحث الكشف عن معالمها، وخصوصاً فيما يتعلق بالقدس سياسياً.

٣ - الأماكن المقدسة في القدس:

أبرز المباني والأماكن المقدسة فتشمل، منطقة الحرم الشريف التي تحتوي على قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وبقية المدارس والأبنية المحيطة بمنطقة الحرم، وخصوصاً من الجهتين الشمالية والغربية. ثم كنيسة القيامة من أهم الأماكن المسيحية المقدسة فكان لها دور مهم جداً. في حياة المقدسيين اليومية، وسياحة الحجاج والزوار الذين أتوا لزيارتها.

(١) تماري، القدس ١٩٤٨...، ص ٧٧.

(٢) العارف، المفصل...، ص ٤٦٠.

(٣) صالحية، مدينة القدس...، ص ١٨.

(٤) العارف، المفصل...، ص ٤٦٠.

ولا يتسع المجال هنا لذكر الأماكن المقدسة جميعها لأبناء الديانات الثلاث، والموجودة داخل أسوار البلدة القديمة وخارجها، فهي معروفة ومذكورة في مراجع ومصادر كثيرة غنية عن التعريف.^(١)

هذا العدد الكبير من الأماكن المقدسة للمسلمين والمسيحيين واليهود هو سر أهمية هذه المدينة على مر العصور. فالقدس إذاً للمسلمين، هي أولى القبلتين وثالث الحرمين، ومن هنا جاء الاهتمام بعمارته وحمايته، وعدت للمسيحيين واليهود مدينة الأنبياء والأولياء الصالحين، الأمر الذي جعلها تشمل أهم المواقع والأماكن المقدسة بالنسبة لهم وبسبب أهمية المدينة الدينية الفاتكة للديانات السماوية الثلاث، فقد ارتبطت معيشة وكسب رزق معظم سكانها بالأماكن المقدسة بشكل أو بآخر في أوائل القرن التاسع عشر.

فعدا دور العبادة حوت البلدة القديمة عدداً كبيراً من المدارس الدينية والأديرة والزوايا الصوفية ودور إطعام الفقراء، ومنها مؤسسة التكية العامرة أو خاصكي سليمان. أما المباني الأساسية لشؤون الإدارة والحكم فكان مبنى القلعة المجاورة لباب الخليل أهمها على الإطلاق، بالإضافة إلى أسوار المدينة وأبوابها. ومن المباني الأخرى التي تجدر الإشارة إليها منزل حاكم المدينة أو السرايا، ثم المدرسة العمرية فيما بعد، القريبة من عمارة خاصكي سلطان. وأما بناء المدرسة التنكيزية في باب السلسلة فكان في فترة هذه الدراسة، ديواناً ومكاتب للمحكمة الشرعية التي عدت أهم مؤسسة إدارية في المدينة.^(٢)

هذه المباني الثلاثة، القلعة والسرايا والمحكمة الشرعية، كانت مسكن رموز السلطة العثمانية وممثليها. أما البيوت المطلة على مداخل الحرم وساحاته هي المنازل المفضلة لدى أبناء عائلات الأعيان والعلماء، فسكن العديد منهم في هذه المناطق.

وفي أوائل القرن التاسع عشر، كانت القدس مدينة حصينة حمتها أسوار منيعة وأبراج وقلاع، ويهتم السلاطين والحكام بها لأهميتها الدينية المتوارثة. لكنها كانت في الوقت نفسه مدينة متواضعة من ناحية عدد سكانها (نحو ١٠٠٠٠٠ نسمة) قياساً بعواصم كبيرة، كحلب (١٥٠٠٠٠ نسمة) ودمشق (١٠٠٠٠٠ نسمة) والقاهرة (أكثر من ٢٠٠٠٠٠ نسمة). أما بالمقارنة بمدن فلسطين وعواصم ولايات أخرى في المنطقة وخارجها، فكانت القدس متوسطة مثل طرابلس وعكا،^(٣) وهي كلها عواصم ولايات. وعلى غرار القدس هناك مدن تاريخية مهمة داخل حدود الامبراطورية العثمانية كأثينا، لم يسكنها أكثر من ١٠٠٠٠ نسمة. وأما مدن فلسطين الكبرى الأخرى فكانت بالحجم نفسه تقريباً، مثل نابلس وغزة. وإن كانت عكا تفوقت على القدس سياسياً منذ أواخر

(١) ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث الشام ولبنان ١٧٨٢ - ١٨٤١م، تحرير أحمد غسان سبانو، دمشق، ١٩٨١، ص ٤٣.

(٢) طنوس الشدياق، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، لبنان، مجلدان، مج ١، بيروت، ١٩٧٠، ص ٦٨.

(٣) نادر العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، مجلدان، مج ١، دمشق، ١٩٦٢، ص ٧٢.

القرن الثامن عشر حتى حملة محمد علي، فإن القدس ظلت متفوقة عليها طوال العهد العثماني بأهميتها الروحية الدينية، فضلاً عن أهميتها الإدارية من خلال مكانة قاضي المحكمة الشرعية ومكانة نقيب الأشراف.^(١)

ظلت القدس حتى أوائل القرن التاسع عشر على مكانتها الدينية المهمة بالنسبة إلى أبناء الديانات السماوية الثلاث، بينما كانت عاصمة لواء، أوسنجقاً تابعاً لولاية الشام وعاصمتها دمشق، سياسياً وإدارياً. أما حدود اللواء- الذي كانت القدس عاصمته- فامتدت من قرية سنجل على الطريق بين رام الله ونابلس شمالاً حتى بداية صحراء النقب ومنحدرات جبال الخليل جنوباً. وأما من الشرق فكان نهر الأردن حداً طبيعياً واضحاً لهذا اللواء، ومن الغرب كانت منحدرات جبال القدس وبداية السهل الساحلي هي الحدود بين لواء القدس وناحيتي اللد والرملة التابعتين لسنجق غزة ويافا.^(٢) وبالإجمال فإن أراضي لواء القدس الآهلة كانت جبلية في معظمها، ما عدا المنطقة الصحراوية التابعة للواء القدس والمحاذية لغور الأردن ضمت قرية أريحا آنذاك.^(٣)

خرج من القدس أربعة طرق رئيسية ربطت المدينة بأكنافها القريبة، وبعواصم وبلدان لها أهمية كبيرة في حياة السكان ومعيشتهم. فمن باب العمود خرج الطريق الرئيسي شمالاً إلى نابلس وجنين ومنها إلى الناصرة وطبرية وإلى دمشق الشام. ومن باب الخليل خرج جنوباً طريق إلى بيت لحم ومنها إلى برك سليمان التي زودت المدينة بمياه الشرب ومنها إلى مدينة الخليل. ومن باب الخليل نفسه- الذي يسميه الأجانب باب يافا- خرج الطريق الذي يقود إلى الساحل الفلسطيني وميناء يافا الذي عُدد بوابة الأراضي المقدسة إلى العالم الخارجي. وإلى الشرق خرج الطريق من باب الاسباط عن طريق أبو ديس والعيزرية إلى مقام النبي موسى وإلى نهر الأردن أو الشريعة، أحد الأماكن المقدسة التي زارها الحجاج والزوار من المسيحيين،^(٤) وكانت هذه الطرق جميعها، حتى أوائل القرن التاسع عشر، ممرات ضيقة للمشاة والفرسان، إذ لم تستعمل العربات ووسائل المواصلات الحديثة الأخرى في المنطقة قبل النصف الثاني من ذلك القرن.

تتحصنت القدس بأسوارها وقلاعها وأبراجها وبواباتها التي كانت تغلق ليلاً فحمتها من الأخطار الخارجية، لكن لم تكن المدينة وسكانها في عزلة عن المناطق المجاورة اقتصادياً واجتماعياً. إذ قدمت المدينة الخدمات الضرورية لأهالي القرى المجاورة الذين باعوا إنتاجهم من المحاصيل الزراعية في أسواقها. كما أن الأماكن المقدسة لأبناء الديانات

(١) عبد الكريم غرابية، سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠-١٨٧٦، القاهرة، ١٩٦١-١٩٦٢، ص ٥٩.

(٢) هنري غي، بيروت ولبنان في نصف قرن، بيروت، ١٩٤٩، ص ٧٨.

(٣) زياد المدني، مدينة القدس وجوارها خلال الفترة ١٨٠٠-١٨٣٠، عمان، ١٩٩٦، ص ٢٧.

(٤) إن خروج متسلم اللواء ووكيله مع عساكر لحماية زوار تلك الأماكن المقدسة كانت من أهم وظائف حكام اللواء طوال العهد العثماني بما في ذلك فترة هذه الدراسة. لمزيد عن تاريخ مقام النبي موسى والاحتفالات (مواسم) والزيارة لهذا المقام، يمكن مراجعة: كامل العسلي، مواسم النبي موسى في فلسطين: تاريخ المواسم والمقام، عمان، ١٩٩٠، ص ٣٩.

السماوية الثلاث داخل أسوار المدينة وخارجها كانت أساساً متيناً لعلاقات التعاون والمصالح المشتركة المتعلقة بتقديم الخدمات للحجاج وزوار تلك الأماكن أيام الأعياد والمواسم المتنوعة.

٤- الواقع الديمغرافي للقدس:

من الصعوبة بمكان تقرير احصاءات أكيدة لسكان القدس من ١٨٣١-١٩١٤ وذلك لعدم توفر السجلات الاحصائية الرسمية. فيما عدا دفاتر النفوس العثمانية الخاصة بالمدينة لا نجد إلا تقديرات أو تخمينات لعدد من الرحالة الغربيين وبيانات يهودية ضمنت في متون بعض التقارير والدراسات التي كانت تُعد للمؤتمرات والهيئات والأفراد الذين يتولون تمويل المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين والتي لا يمكن الركون إليها، إذ كانت تُعد بهدف دفع الأثرياء من اليهود والجمعيات والمؤسسات الغربية للتبرع بالمزيد من الأموال لمشروع الاستيطان. أما دفاتر النفوس العثمانية فكانت تسجل فيها المعلومات بصورة دقيقة إلى حد ما، لأنها يترتب عليها التزامات مالية واجبة الجباية والتحصيل والسداد، فالرعايا من اليهود والنصارى يترتب عليهم جزية وهي مستحقة على كل قادر^(١).

إن ما توفر من سجلات رسمية عثمانية تقدم الأرقام التالية لعدد سكان القدس:

السنة	مسلمون	مسيحيون	يهود	المجموع الكلي للسكان في مدينة القدس
١٨٤٩	٦١٤٨	٣٧٤٤	١٧٩٠	١١٦٨٢
١٨٧١-١٨٧٢	٦٥٧٢	٤٤٢٨	٣٧٨٠	١٤٧٨٠

ويذكر الدكتور صالحة نقلاً عن الكساندر شولش Alexander Scholch أن سكان القدس عام ١٨٤٩ كانوا كالتالي:

السنة	مسلمون	مسيحيون	يهود	المجموع الكلي للسكان في مدينة القدس
١٨٤٩	٣٠٧٤	١٨٧٢	٨٩٥	٥٨٤١

ويفسر شولش سبب قلة عدد سكان القدس إلى انعدام الأمن نتيجة الحروب الأهلية بين السكان وغارات القبائل البدوية على المدينة، إضافة إلى العواض الطبيعية التي أصابت المدينة. وأما سبب قلة المسيحيين فيرجعه إلى

(١) صالحة، مدينة القدس... ص ٤٣.

المضايقات التي تعرضوا لها بعد حملة نابليون، والعلاقات المتردية بين أهل القدس وطائفة الروم، أما اليهود فحيث لا كسب مادي ولا ربح وفير فإنهم يرحلون ويبحثون عن مصادر المال^(١).

لكن المقدسيين لم يعيشوا في عزلة عما يجري خارج أسوار مدينتهم، وخصوصاً في القرى والمناطق القريبة من تلك الأسوار. فمن الشمال والغرب اتصلت أراضي قرية لفتا بكروم مزارع أهالي القدس في مناطق الشيخ جراح وجبل المشارف والمصرارة ومنطقة الميدان (المسكوبية). وكذلك قرى شعفاط والطور والعيسوية وسلوان القريبة من باب المغاربة وبيت صفافا وغيرها.

وكانت العلاقات الزراعية والتجارية وحتى الاجتماعية بين المقدسيين والفلاحين المجاورين قوية جداً، فأراضي عدد من هذه القرى هي أوقاف يتولاها بعض علماء القدس وأعيانها، وبعضها الآخر إقطاعات يجبي ضرائبها أصحاب الزعامات والتميمار الذين يسكنون المدينة. لكن الجديد الذي تشير إليه الوثائق هو علاقات المصاهرة (القليلة) بين فلاحين وحضرين.^(٢)

وكانت تلك العلاقات العادية وفي شتى مجالات الحياة بين الريف والمدينة هي التي تفسر أيضاً علاقات التعاون والتعاقد الاجتماعي والسياسي أيام الأزمات والثورات. فمنذ ثورة نقيب الأشراف في القدس (١٧٠٣ - ١٧٠٥) استعان علماءها وأعيانها بقوى الفلاحين للدفاع عن مدينتهم في وجه عساكر الحكام والسلطين. وتكررت هذه التجربة في أوائل القرن التاسع عشر أيام تمرد ١٨٢٥. ووصلت أوجها في ثورة أهالي فلسطين سنة ١٨٣٤ ضد حكم محمد علي باشا.^(٣) حيث سمح أهالي القدس خلال تلك الأحداث للقوى من الفلاحين بأن يدخلوا مدينتهم. وبأن يعيشوا معهم أياماً وأسابيع دون خوف من العواقب. الأمر الذي يؤكد أن أسوار المدينة وأبوابها لم تكن عائقاً لنشوء علاقات التعاون اليومية بين سكان المدينة وأهالي الريف المجاورين في الأيام العادية كما في أيام الطوارئ والأزمات.

(١) صالحية، مدينة القدس.....ص٤٥.

(٢) أبرز حالات المصاهرة كانت زواج بشير نجل "عمدة المشايخ المعظمين جبر أبوغوش متسلم القدس حالاً عام ١٨٣٤ بمخطوبته أمونة بنت محمد يوسف عويضة البكر البالغ على صداق قدرة ثلاثة آلاف قرش معجل إضافة إلى ٥٠٠ قرش مؤجل" وقبل ذلك ذكر في سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٢٩١ زواج محمد ندوة بن اسماعيل من قرية عين كارم بمخطوبته صالحية بنت خليل الشوا. وفي سجل رقم ٢٩٤ تم تسجيل زواج سليمان بن سلمان من قرية حوسان من مخطوبته فطوم بنت نصر عواد المرأة الكاملة، سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٢٩١، رقم الوثيقة ٩، ٢٠ صفر ١٢١٣هـ، ص١٦، وانظر أيضاً: سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٢٩٤، ص٤٤، رقم الوثيقة ١١، ٩ صفر ١٢١٤هـ.

(٣) لمزيد عن ثورة نقيب الأشراف، راجع: مناع، تاريخ فلسطين...، ص ٢١-٤٠. وأيضاً أحداث ١٨٢٥ - ١٨٣٤، مناع، تاريخ فلسطين...، ص ١١٥ - ١٢٢.

ثانياً: الحدود السياسية للقدس:

لم تكن حدود لواء القدس حدوداً بالمعنى الجغرافي والسياسي، فالسنجق هو وحدة إدارية فقط ضمن الإطار الأوسع للإمبراطورية العثمانية المقسمة إلى ولايات. وكانت بلاد الشام كلها مقسمة حينذاك إلى أربع ولايات من الشمال إلى الجنوب هي: حلب وطرابلس ودمشق وصيدا. أما فلسطين بكاملها فكانت مقسمة إلى خمسة ألوية في أوائل العهد العثماني تابعة لولاية الشام ومنها لواء القدس. ولما أنشئت ولاية صيدا، وصارت عكا مقراً للوالي أيام ضاهر العمر الزيداني، ثم أيام خلفائه الجزار ومماليكه، طرأ بعض التغيرات الإدارية،^(١) لكن لواء القدس وسكانه لم يتأثرا بهذه التغيرات وظلوا تابعين إدارياً لولاية الشام علي الرغم من ازدياد نفوذ حكام عكا في المنطقة خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

١- أهم القرى التابعة للواء القدس:

كانت القدس مركز اللواء تتبعها الخليل التي قدرت المصادر عدد سكانها بنحو ٥-٦ آلاف نسمة آنئذٍ. أما بقية أهالي القدس فسكنت القرى الكبيرة منها والصغيرة. وقد ذكر روبنسون في بداية ثلاثينات القرن التاسع عشر أن ناحية الخليل لوحدها ضمت ٢٤ قرية أهلة أهمها الضاهرية وهوج وعراد. وضمت ناحية القدس ١٦٢ قرية أهلة كان أكبرها قرى رام الله والبيرة وبيت لحم وبيت جالا.

وقدر مجموع سكان تلك القرى في اللواء بنحو ٤٠.٠٠٠ - ٥٠.٠٠٠ نسمة. فإذا أضفنا إليهم أهالي القدس والخليل يكون مجموع سكان اللواء ٦٠.٠٠٠ نسمة. إضافة إلى ذلك، فإن أطراف لواء جبل القدس، وخصوصاً المناطق الشرقية من بيت لحم وغيرها من المناطق القريبة من غور الأردن، سكنها أو تنقل فيها أبناء القبائل البدوية ومنهم التعمارة والسواخرة وغيرهم.^(٢)

وكان لواء القدس بالإضافة إلى جبل نابلس، من أكثر مناطق فلسطين الأهلة في ذلك الزمان. وربطت أهالي القدس شبكة من العلاقات الاقتصادية بالفلاحين في القرى المجاورة، وكذلك بسكان المدن القريبة، كنابلس ويافا والخليل وغيرها.

(١) ميخائيل الصباغ، تاريخ الشيخ ضاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد، بيروت، دون تاريخ، ص ١٧.

(٢) عبود الصباغ، الروض الزاهر في أخبار ضاهر، عمان، ١٩٦٥، ص ٥٣.

كما أن بعض عائلات الخليل سكنت القدس أيضاً، وأتقلت في سكنها بين المدينتين ويستنتج من ذلك أن أهالي مدينة القدس لم يكونوا معزولين عن بقية سكان اللواء أو عن أهالي المدن الفلسطينية المجاورة وحتى البعيدة منها.^(١)

٢- أهمية مقدسات اللواء:

لا يكتمل الحديث عن لواء القدس وسكانه بمعزل عن ذكر أهمية الأماكن المقدسة للديانات السماوية الثلاث، والحجاج أو الزوار إليها في كل عام فمثلاً كانت تعج أيام الأعياد المسيحية، وبخاصة عيد الفصح، بآلاف الحجاج والزوار من الأرثوذكس والأرمن وغيرهم.

ولما كانت زيارة مقام النبي موسى في مواسمه حددت في أسبوع عيد الفصح نفسه، فقد كان مئات وأحياناً آلاف المسلمين أيضاً يتجمعون في القدس وينزلون لزيارة "موسى الكليم"، ثم يعودون إليها ويغادرونها مع مغادرة الزوار المسيحيين. عدا ذلك كان بعض حجاج المسلمين إلى الأماكن المقدسة في الحجاز (مكة والمدينة) وبخاصة المغاربة منهم يعرجون على القدس في طريقهم لأداء مناسك الحج والعمرة، سواء في الذهاب أو الإياب فيزورون الحرمين "القدس والخليلي". وكان بعض الحجاج والزوار يطيل إقامته بالقدس لأشهر وأعوام يمضيها في العبادة والدرس أو التدريس... إلخ، في الأقصى والمدارس الكثيرة في المدينة.^(٢) هذه الآلاف من الحجاج والزوار للقدس وأكنافها على مدى أشهر السنة، كانت جزءاً مهماً من حياة أهل القدس والقرى المجاورة لها وخصوصاً من الناحية الاقتصادية. كما أن هذه الآلاف المضافة إلى السكان الدائمين أيام المواسم والأعياد ألقت على عاتق الدولة العثمانية وإدارتها المركزية والمحلية مهمات تتعلق بالمحافظة على الأماكن المقدسة وتأمين زوارها على مدار أشهر السنة.

كان سكان القدس ولواؤها من مدينتي القدس والخليل، وفلاحين يسكنون أكثر من ١٨٠ قرية، والبدو الذين سكن بعضهم في أماكن ثابتة، ومنهم التعامرة والسواخرة، تنقل بعضهم في المناطق القريبة من الأغوار. وإذا كان أهل الذمة من المسيحيين واليهود شكلوا جزءاً كبيراً من سكان القدس. فإن الأغلبية الساحقة من سكان اللواء كانت من المسلمين، فاليهود لم يسكنوا مناطق الريف قط. وعدا القدس سكنت بعض عائلاتهم مدينة الخليل، أما المسيحيون فسكنوا مناطق الريف مع المسلمين في حين كان سكان بعض القرى أغليبيتهم من النصارى. ومن أكبر تلك القرى وأشهرها بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور وكذلك رام الله والطيبة وبيزيت وغيرها في الجهة الشمالية من لواء القدس.

(١) ميخائيل مشاققة، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، القاهرة، ١٩٠٨، ص ٧٨.

(٢) أمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٤ مجلدات، بيروت، لا تاريخ، ص ٢٩.

بغض النظر عن الانتماء الديني فإن اللغة العربية وثقافتها كانت السائدة بين الجميع، أما عدد غير العرب الذين سكنوا لواء القدس في تلك الفترة فكان قليلاً. برز منهم الأرمن واليونانيون من المسيحيين، وبعض الأتراك والعساكر من أصول ألبانية (أرناؤط) وأكراد وغيرهم.^(١)

يبقى البحث في تاريخ القدس والتعريف بسكانها في أوائل القرن التاسع عشر ناقصاً إذا لم نضعها في سياقها التاريخي الأوسع للإمبراطورية العثمانية، وإقليمياً ضمن ولايتي الشام وصيدا. فحكام دمشق المسؤولون إدارياً عن لواء القدس من جهة وحكام عكا منذ أيام الجزائر (١٧٧٥ - ١٨٠٤) من جهة أخرى، كانوا أصحاب النفوذ الأكثر تأثيراً في حياة أهالي القدس،^(٢) سواء ساد جو من التعاون والود بين حكام عكا ودمشق، أو حالات من الصراع والخلافات، فقد كان لمواقف هؤلاء وسياساتهم تأثيراً كبيراً في سكان لواء القدس. فلواء القدس كان وحدة إدارية هي جزء لا يتجزأ من النظام السياسي الإداري العثماني في أقاليم بلاد الشام.

ثالثاً: أوضاع القدس بعد الحملة الفرنسية ١٨٠٢ :

نجح أحمد باشا الجزائر، الذي حصن عاصمته عكا ودافع عنها بمساعدة الأسطول الانكليزي، في صد المحاولات المتكررة التي قام بها العساكر الفرنسية بقيادة نابليون لاحتلال المدينة. وانسحبت القوات الفرنسية من أمام أسوار عكا والساحل الفلسطيني في أواخر أيار ١٧٩٩، ووصلت إلى القاهرة في أواسط حزيران من السنة نفسها. لكن العاصفة التي أثارها الاحتلال الفرنسي لمصر لم تنتهِ بعد هذا الانسحاب وفشل الحملة على فلسطين وبلاد الشام عامة. لقد ارتفعت أسهم حاكم عكا عند الدولة والأهالي فكيّلت له المدائح، ونظم بعض الشعراء قصائد التهئة والتعظيم لأحمد باشا الجزائر.^(٣) بصفته والياً على صيدا وطرابلس والشام وقائداً للجيش العثمانية في المنطقة طلبت الدولة منه أن يقوم بملاحقة الفرنسيين ومحاربتهم لإخراجهم من بلاد النيل. لكن أحمد باشا الجزائر لم تحدده الكلمات المعسولة، فقرر الاكتفاء بالدفاع عن حكمه في عكا.

كان الصدر الأعظم يوسف ضياء باشا قد وصل إلى القدس في أواخر آب ١٧٩٩ على رأس الجيش العثماني الزاحف من استنبول لمحاربة الفرنسيين. أما الجزائر، الذي فهم أن تعيينه على الشام انتهى، فقدم استقالته التي قبلها الصدر الأعظم، وقام بتعيين عبد الله باشا والياً على دمشق مرة أخرى.^(٤)

(١) نوفل، نوفل، كشف اللثام عن محيا الحكومة والحكام في اقليم مصر وبر الشام، تحرير ميشيل أبو فاضل وجان نخول، طرابلس، دون تاريخ، ص ٣٦.

(٢) عيسى اسكندر المعلوف، دواني القطوف في تاريخ بني معلوف، لبنان، ١٩٠٨، ص ٤٥.

(٣) المعلوف، تاريخ الشيخ ضاهر العمر الزيداني، لبنان، ص ٥٣٩ - ٥٦٠.

(٤) أسعد منصور، تاريخ الناصرة، القاهرة، ١٩٢٣، ص ٥٩.

وبعكس أحمد باشا الجزائر وجد الصدر الأعظم ترحيباً كبيراً وتعاوناً من أحد أعيان غزة، وهو محمد باشا أبو المرق الذي انضم إلى حاشيته ووضع نفسه ورجاله في تصرف الدولة. وقد أعجب يوسف ضياء باشا بنخوة أبي المرق وكرمه فجعله وكيل خرجته، أي مسؤولاً عن الذخيرة والمؤن، ثم عينه بعد ذلك متصرفاً على ألوية القدس ويافا وغزة التي كانت تحت حكم الجزائر مدة قصيرة قبل ذلك. بهذا انتزع الصدر الأعظم هذه المنطقة من نفوذ الجزائر وحكمه ووضعها تحت حكم أبي المرق ليكون مركز ثقل سياسي منافساً لحاكم عكا. لم يكتفِ يوسف ضياء باشا بهذا التعيين مكافأة لأبي المرق، بل قام بترقيته والحصول له على رتبة الباشوية ليصير نداً ومنافساً للجزائر الذي لم يخفَ عليه مغزى هذه الترقية والتعيين. وقد ظلّ محمد باشا أبو المرق مرافقاً للصدر الأعظم يوسف ضياء باشا في منطقة العريش، ودخل معه مصر في أعقاب الاتفاق مع الفرنسيين بشأن انسحابهم من الأراضي المصرية. خلال كل هذه الفترة التي كان أبو المرق متصرفاً على لواء القدس عينَ وكيلاً عنه (متسلم) لإدارة اللواء.^(١)

وبعد أن استعادت الدولة العثمانية حكمها في البلاد المصرية، عاد الصدر الأعظم يوسف ضياء باشا إلى استنبول ماراً بسواحل فلسطين سنة ١٨٠٢ وأبو المرق برفقته. وفي هذه الأثناء عينَ محمد باشا أبو المرق متصرفاً على ألوية القدس ويافا وغزة مدى الحياة. وأراد الصدر الأعظم بعد وصوله إلى استنبول مكافأة أبو المرق وتعزيز مكانته في المنطقة فعينه والياً على الشام.^(٢)

لكن الجزائر عمل بسرعة لإفشال هذا التعيين، فأرسل جيشه لمحاصرة أبي المرق في يافا ومنعه من الخروج إلى دمشق. وكان موسم الحج قد اقترب، فعدلت الدولة عن تعيين أبي المرق وأعادت تعيين عبد الله باشا العظم لتعيين قافلة الحج الشامي في موعدها، كما طلب السلطان من والي الشام مساعدة أبي المرق المحاصر في يافا، لكن هذا لم يحرك ساكناً بهذا الشأن، إذ اتفقت مصالحه مع مصالح الجزائر في التخلص من أبي المرق كي يعود لواء القدس جزءاً من ولاية الشام.^(٣)

١- موقف أهالي القدس من الصراع بين الجزائر وأبي المرق ١٨٠٢-١٨٠٣:

كان أهل القدس يراقبون هذا التنافس والصراع بين الجزائر وأبي المرق بجذر في البداية. لكن سرعان ما اتخذوا موقفاً مؤيداً لوالي عكا بعد أن حاصرت قواته مدينة يافا، وعلى الرغم من الفرمانات السلطانية المتكررة بوقف ذاك

(١) لمزيد عن محمد باشا أبو المرق، يمكن مراجعة: مناع، أعلام فلسطين ...، ص ٤٢ - ٤٥.

(٢) مناع، تاريخ فلسطين ...، ص ١٠٢.

(٣) بشأن أبو المرق وعائلته الغزية، انظر: عثمان مصطفى الدباغ، تحاف الأعزة في تاريخ غزة، ٤ مجلدات، غزة، مطبعة البازجي، ١٩٩٩، المجلد الرابع، ص ١٨١ - ١٨٧.

الحصار. بعد عودة أبو المرق من مصر برفقة الصدر الأعظم وحصوله على الباشوية والتعيين، كان بحاجة إلى الأموال الكثيرة لتغطية مصاريفه ونفقاته المتعددة، ففرض ضرائب باهظة على السكان بمن فيهم أهالي القدس. أثقلت هذه الضرائب كاهل السكان وعلى رأسهم علماء القدس وأعيانها الذين لم يعتادوا دفع مثل تلك الأموال لولاة الشام ومتسلميهم، لذا وجد هؤلاء في أحمد باشا الجزار حليفاً لهم، فقاموا بتقديم الشكاوى والعرائض إلى رجال الدولة العثمانية في استنبول. وتوجه اثنان من علماء القدس إلى عكا (علي أفندي عرفة زادة والسيد عبد السلام أفندي الفتياي) وقدموا شكوى إلى الجزار نفسه. وقد بالغ الأهالي في الشكوى ضد المتصرف ورجاله فاتهموه باستباحة العرض والمال.^(١)

٢- موقف الجزار من علماء القدس وأعيانها:

كافأ الجزار علماء القدس وأعيانها على موقفهم منه بإرسال أقوى مساعديه سليمان باشا إلى القدس مدعياً "أنه يسعى لتسكين الفتن ولتوفير راحة الأهالي ورفاهيتهم من كل الوجوه"،^(٢) وقام سليمان باشا، الذي وصل إلى القدس فعلاً، بمصادرة أموال محمد باشا أبي المرق في المدينة بحضور الأفندية والأعيان ومعرفة كتبخدا المتصرف المذكور. بعد ذلك تم ضبط وتسجيل الأسلحة والأمتعة والأشياء التي بداخل سرايا القدس وخزائنه العامة.^(٣) ولم تؤثر الأوامر السلطانية التي أعلنت في عصيان الجزار فاستمرت عساكره في محاصرة يافا عاماً تقريباً. وبعد هذا الحصار الطويل اضطر أبو المرق إلى الهرب بجرأ فوصل إلى قبرص ومنها إلى اللاذقية حتى وصل أخيراً إلى حلب. وقد أרך الجبرتي لتلك الأحداث. فروى وصول الأخبار من الجهات الشامية في أوائل آذار ١٨٠٣ بهروب محمد باشا أبي المرق من يافا بعد حصاره فيها عاماً وأكثر واستيلاء عساكر أحمد باشا الجزار عليها.^(٤)

لم تمض مدة طويلة بعد هذا الحدث حتى صفحت الدولة العثمانية عن أحمد باشا الجزار الذي وصفته الأوامر السلطانية بأنه صار عاصياً "ومغضوب الدولة". فقد أثبت الجزار، قبل وفاته بقليل، مرة أخرى، أنه أقوى حكام بلاد الشام. وكانت الأخبار وصلت سنة ١٨٠٣ عن تقدم الوهابيين من نجد في اتجاه مكة والمدينة في الحجاز، فارتفعت أسهم الجزار مرة أخرى أمام هذا الخطر الداهم. لذا تم الصفح عما فعله لأبي المرق ومنح في العام الأخير من حياته حكم ولايتي طرابلس والشام إضافة إلى ولاية صيدا.^(٥)

(١) يذكر الجبرتي أن مكاتبات وصلت إلى مصر من أهالي القدس ويافا والخليل يشكون ظلم محمد باشا أبو المرق ومظالمه ويستغيثون برجال الدولة، وكذلك عرضوا أمرهم على أحمد باشا الجزار. انظر: الجبرتي، عجائب الآثار...، ج٢، ص ٥٢٧-٥٢٨.

(٢) الجبرتي، عجائب الآثار...، ج٢، ص ٥٣٦.

(٣) الجبرتي، عجائب الآثار...، ج٢، ص ٥٣٩.

(٤) الجبرتي، عجائب الآثار...، ج٢، ص ٥٥١.

(٥) إبراهيم العورة، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، صيدا، ١٩٣٦، ص ٩.

ولما كان الجزار حينها مريضاً وهرماً، عين نائبه وساعده الأيمن سليمان باشا، لتسيير قافلة الحج الشامي ومحاربة الوهابيين سنة ١٨٠٣ - ١٨٠٤.

أما الجزار نفسه فظلّ طريح فراش المرض حتى وفاته في نيسان ١٨٠٤. وبذلك اختفى عن الساحة السياسية في بلاد الشام أقوى حكام هذه المنطقة الذي شاعت شهرته بصورة خاصة بعد أن أفشل حملة نابليون أمام أسوار عكا.

وباشتداد تحدي الوهابيين لحكم العثمانيين في أقدس البقاع الإسلامية من جهة أخرى، عاد محمد باشا أبو المرق مرة أخرى إلى المنطقة كمتصرف لألوية غزة ويافا والقدس في سنة ١٨٠٦.

وعلى غرار موقفه من الصدر الأعظم أيام الحملة الفرنسية، تقدم إلى الدولة العثمانية باقتراح أن يقوم بتجهيز حملة عسكرية على بلاد الشام من غزة. وطلب من أجل تسهيل مهمته تلك، إضافة إلى تعيينه حاكماً على المنطقة، مساعدة مادية قدرها ٧٥٠٠ كيس^(١) لتغطية بعض نفقات الحملة العسكرية التي وعد بها. وقد جاء في الأوامر التي أرسلت إلى أهالي البلاد أن رتبة الوزارة أعيدت إلى أبي المرق وأنه عين أيضاً والياً على الحبشة وجدة ومشيخة الحرمين لتسهيل مهمة محاربة الوهابيين.^(٢)

أثارت عودة أبي المرق إلى فلسطين مخاوف علماء القدس وأعيانها. فحين كانت هذه المخاوف معروفة لوالي الشام ابراهيم باشا حاول تهدئة الأهالي وتطمينهم بمراسيم أرسلت إلى المتسلم يحيى بك وأهالي المدينة عامة، جاء فيها أن أبا المرق عين فقط "والياً على جدة وشيخ الحرم النبوي" إضافة إلى التزام يافا واللّد وتوابعها. ختم الوالي مرسومه بقوله: "يجب أن تسكنوا روع الأهالي والفقراء ولا تمكنوهم أن يتوحشوا من هذه الظنون التي لا ثمة لها".^(٣)

أما أبو المرق نفسه، الذي حضر إلى غزة وتظاهر بالتحضير للحملة العسكرية فإنه بالغ في التأجيل والتسويق حتى صدرت الأوامر إلى سليمان باشا، والي عكا بأن يقوم بإلقاء القبض عليه وإعادة أموال الدولة.^(٤) فلما عرف أبو المرق بهذه الأوامر التجأ إلى يافا وتحصن وراء أسوارها. وقام بمهمة احتلال يافا في النهاية محمد آغا أبو نبوت، أمين جمرك عكا، في سنة ١٨٠٧، وعين بعدها حاكماً على لواء غزة ويافا. وقد صار هذا اللواء منذ ذلك الوقت تابعاً لحكم ولاية عكا، وظلّ أبو نبوت هذا حاكماً على يافا التي أعاد إعمارها وأقام فيها حكماً مستقراً مدة طويلة (١٨٠٧ - ١٨١٩).^(٥) وبهذا تعزز حكام عكا في لواء القدس أيضاً. لما هو معروف عن أهمية يافا ومينائها

(١) الكيس يساوي ٥٠٠ قرش: العورة، تاريخ ولاية...، ص ١١.

(٢) العورة، تاريخ ولاية...، ص ١٣.

(٣) محمد مراد، مسألة الأرض في المشرق العربي في ظل السلطنة العثمانية، دمشق، ٢٠١٠، ص ٤٣ - ٨٨.

(٤) ميخائيل مشاققة، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحزاب، بيروت، ١٩٥٥، ص ٨٢.

(٥) مشاققة، منتخبات...، ص ٩٣.

ومينائها في حياة الأراضي المقدسة الاقتصادية والاجتماعية. أما أبو المرق فقد فرّ من يافا ثانية قبل أن تقوم العساكر المحاصرة باحتلالها وذلك من طريق البحر، فوجد ملجأً هذه المرة إلى محمد علي باشا حاكم مصر وأقام في القاهرة مدة قصيرة ثم سافر منها إلى حلب.

٣- حركات الانكشارية في القدس:

كان السلطان مشغولاً بالقضاء على حركة الوهابين وتوقف طريق الحج، شهدت العاصمة العثمانية في سنتي ١٨٠٧ - ١٨٠٨، أحداثاً مثيرة ارتبطت بمحاولات السلطان سليم الثالث بإجراء إصلاحات، وخصوصاً في صفوف جند الانكشارية. وقد صارت استنبول مسرحاً للقتال بين مؤيدي السياسة الجديدة ومعارضتي الإصلاح، الذين عزلوا السلطان ثم أعدموه. لكن مؤيدي سياسته كسبوا الرهان في النهاية ونصبوا محمود الثاني سلطاناً جديداً، فتابع إصلاحات سليم الثالث، في وقت كانت التحديات الخارجية للدولة من أعدائها الأوروبيين ومن الوهابين مازالت قائمة. فطريق الحج كان مازال مقطوعاً، بسبب اعتداء الوهابيين. وكان لا بدّ من حملة عسكرية ضدهم لتأمين قافلة الحج ووصولهم إلى الديار المقدسة. وفي تلك الأثناء تولى الكنج يوسف باشا حكم دمشق خلفاً لعبد الله باشا العظم، وأضيف إلى ولايته حكم طرابلس، دعماً له في مواجهة الوهابين، الذين بدؤوا يزحفون إلى المناطق الجنوبية من شرق الأردن. في دمشق ازداد نفوذ الشيخ طه الكردي، شيخ الطريقة النقشبندية، الذي فرض سياسة دينية متمتعة على المسلمين وضيق على أهل الذمة في المدينة.^(١)

تلك الأحداث والصراعات السياسية في استنبول ودمشق وغيرها من المناطق المجاورة، تركت آثارها المباشرة على أحوال القدس حينذاك. ففي ٣٠ أيلول ١٨٠٨ شبّ حريق في كنيسة القيامة دمر جزءاً كبيراً من القسم الغربي منها. بدءاً من المنطقة المخصصة لطائفة الأرمن، الذين اتهموا مباشرة بالمسؤولية عن اشتعاله،^(٢) وأدى ذلك إلى نصب رؤساء مختلف الطوائف المسيحية الخيام في ساحة الكنيسة لحراستها، من النهب والتعديات. وتذكر بعض المصادر أن كبار علماء القدس وأعيانها من المسلمين، قد شاركوا بأنفسهم في عملية الحراسة، وكان من بين هؤلاء، مفتي الحنفية حسن أفندي الحسيني، ونقيب الأشراف عمر أفندي الحسيني وغيرهما. وطلب رؤساء الطائفة الأرثوذكسية من السلطان أن يسمح لهم بترميم الكنيسة وإعادة بنائها. فحصلوا على فرمان يأذن لهم في ذلك في أوائل سنة ١٨٠٩.^(٣)

(١) حيدر أحمد الشهابي، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، ٣ أجزاء، بيروت، ١٩٣٣، ج٢، ص ٥٢٤ - ٥٢٥، وانظر أيضاً: عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر، ٣ أجزاء، دمشق، ١٩٦٣، ج٣، ص ٦٠٠.

(٢) شحادة ونقولا الخوري، تاريخ كنيسة اورشليم الأرثوذكسية، القدس، ١٩٢٥، ص ١٧٩.

(٣) الخوري، خلاصة التاريخ...، ص ١٧٩ - ١٨١.

ولما باشر أبناء الطائفة العمل في أيار من السنة نفسها عارضهم رؤساء طائفتي الأرمن والكاثوليك. وحرصوا بعض المسلمين على منع بناء الكنيسة بالقوة. فتوقفت أعمال الترميم وسادت القدس أجواء مشحونة بالتوتر الطائفي، وانفلات زمام الأمور من أيدي الحكام، وبعد مدة وجيزة تغلب الأرثوذكس على المعارضة المحلية وحاولوا متابعة العمل في الكنيسة، لكن رجال الإنكشارية هذه المرة اعترضوا العمال بسلاحهم ومنعوا استمرار العمل في الكنيسة على الرغم من فرمان السلطان وأوامره. ولما حاولت الدولة التدخل ثانية وفرض استمرار أعمال الترميم أعلن جنود الإنكشارية الثورة على المتسلم وطردوه من المدينة وسيطروا عليها وعلى قلعتها.^(١) ويمكن تفسير ذلك بضعف سلطان استنبول وازدياد نفوذ الإنكشارية.

بعد أن أوقف جنود الإنكشارية أعمال الترميم بقوة السلاح، توجهوا إلى رؤساء الطائفة الأرثوذكسية طالبين منهم التوسط لدى والي الشام من أجل قبول مطالبهم التي كانت:

- ١ - نقل الحامية العسكرية (في القلعة) التي أرسلها والي الشام مؤخراً إلى خارج المدينة.
 - ٢ - عزل متسلم اللواء مصطفى آغا الذي طردوه مؤخراً من المدينة وتعيين آخر مكانه.
- كان والي الشام في ذلك الوقت، مشغولاً بقمع حركات العصيان والتمرد التي قامت ضده في طرابلس وجبال العلويين فطلب المساعدة من سليمان باشا والي صيدا في القضاء على حركة الإنكشارية في القدس. فأرسل الأخير من جانبه أوامره من عكا إلى علماء المدينة وأعيانها يطالبهم بـ"ردع العوام عن طائفة الروم وتدعوهم يبادروا بعمار القيامة بحسب الأمر السلطاني"، وقد أعيد ترميمها في مطلع عام ١٨١٠ وانتهى في أيلول من العام نفسه.^(٢)
- ويشير حاكم عكا في مرسومه إلى مطالب الثوار المذكورة أعلاه بقوله: "والحال هذا مخالف للرسم والقانون لأن الأمر ليس بأيدي الرعايا النصارى لكي يعزلوا ويولوا".^(٣) لكن تدخل سليمان باشا ومحاولاته تخجيل أهالي القدس من جهة وتهديدهم من جهة أخرى، بأنه إذا استمر الحال على ذلك المنوال فعواقبه غير محمودة، إلا أن مسعاه لم يجد نفعاً، بل قام العصاة بالهجوم على دير الروم الأرثوذكس وكنيسة القيامة "وخرجوا ونهبوا وأبدوا حركات غير مرضية" ولم تردعهم كلمات التوبيخ أو الوعيد.

يبدو أن حركة العصيان هذه التي قادها جنود الإنكشارية في القدس لم تستقطب تأييد أغلبية أهالي المدينة. فقد قام والي الشام وطرابلس والكنج يوسف باشا في النهاية، بإرسال فرقة عسكرية بقيادة ضابط مغربي هو الحاج

(١) أرخ الجبرتي لأحداث كنيسة القيامة وحريقها ثم اعتراض الإنكشارية على أعمال البناء والترميم في آذار ١٨١٠، انظر: الجبرتي، عجائب الآثار...، ج٣، ص ٢٩١.

(٢) عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ط٣، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٣٦٥.

(٣) العورة، تاريخ ولاية...، ص ٨٨، ٨٩، تحت عنوان "عصاوة وثورة القدس".

محمد آغا أبو ذريعة لتنفيذ مهمة إخماد العصيان. وتبين من الأوامر والمراسيم الكثيرة المرسلة إلى القدس من دمشق وعكا واستنبول أن أسباب التمرد لم تكن إعادة بناء كنيسة القيامة، وإنما وضع عساكر والي الشام الجديدة في القلعة. ويذكر الجبرتي أن يوسف باشا والي الشام وطرابلس هو الذي أرسل فرقة من عسكره عن طريق غور الأردن، وهو مسلك موصل إلى القدس قريب المسافة وقامت تلك الفرقة بتجنب الطريق المعتاده إلى القدس، خلاف الطريق وداهمت المعارضين على حين غفلة، وحاصرتهم وقتلتهم عن آخرهم وهم نيف وثلاثون نفرًا.^(١)

ويتطابق تقرير الجبرتي هذا مع مصادر أخرى أشارت إلى أن محمد آغا أبي ذريعة فاجأ الثوار بإلقائه القبض على بعضهم وفرار آخرين واختبائهم في دير الأرمن. ثم استسلامهم بعد أيام قليلة فقام أبو ذريعة بمحاكمتهم جميعاً بالاتفاق مع المتسلم الذي أعيد إلى منصبه، فنفذ حكم الإعدام الفوري في ٣٨ شخصاً من العصاة.^(٢)

بعد إخماد حركة عصيان الإنكشارية رجع مصطفى آغا متسلم القدس، الذي طرده المتمردون إلى مزاوله وظيفته بالتعاون مع محمد آغا أبي ذريعة. وقام الاثنان بملاحقة الهاربين من العصاة وإعادة الأشياء المنهوبة من دير الروم وكنيسة القيامة من جهة أخرى.^(٣)

وكان لإعدام العشرات من عساكر الإنكشارية ومؤيديهم من الأهالي أثراً شديداً في سكان المدينة. عند ذلك قام والي الشام ووكلاؤه في القدس بملاحقة العصاة، والتشديد على عدم السماح لهم بالعودة إلى السكن فيها، وإعادة الهدوء والاستقرار إلى المدينة. فبعد إصدار والي الشام مرسوماً إلى علماء المدينة وأعيانها لإعادة الاطمئنان وتطبيب الخواطر، أصدر أمراً إلى متسلمه مصطفى آغا بـ"إطلاق المحبوسين في ذلك الطرف" بسبب إصداره عفواً عنهم^(٤).

وفي الوقت نفسه، شدد الوالي في مرسوم آخر على عدم السماح "للذين تجاهروا بالفساد بطرفكم وفروا هاربين إلى نواحي مصر وبافا وغيرها" بالعودة إلى القدس.

إذ منذ يوم خروجهم "لم تزل بلدتكم سارة مارة بالأمان وعدم المفاسد، لذا يجب منعهم من دخول البلدة" لكيلا يجسد الفساد القديم ويصير ثقله إلى رعايا البلدة.^(٥)

(١) الجبرتي، عجائب الآثار...، ج٢، ص ٢٩١، ويؤكد الخوري مثل هذا العدد فيقول إن عدد الثوار كان خمسة وثلاثين. انظر الخوري، خلاصة تاريخ...، ص ١٥٦.

(٢) تختلف الأرقام من مصدر إلى آخر، فيقول العورة، مثلاً، إن أبا ذريعة هو الذي أخذ العصيان وأعدم ٤٦ شخصاً. ويجعل أبا ذريعة هذا وجنوده من رجال سليمان باشا والي عكا. العورة، تاريخ ولاية...، ص ٨٩. بينما تتفق المصادر الأخرى في معظمها على أنه كان مبعوث يوسف باشا والي الشام.

(٣) الشهابي، لبنان في عهد...، ج٣، ص ٥٤٩ - ٥٥٠.

(٤) الشهابي، لبنان في...، ج٣، ص ٥٥١ - ٥٥٢.

(٥) الشهابي، لبنان في...، ص ٥٧٦.

لقد نجح والي الشام يوسف كنج باشا في إعادة المياه إلى مجاريها في القدس بعد عامين من اختلال الأمن فيها. لكن مشكلات أخرى ظلت تشغله لا تقل أهمية عن أحوال القدس، منها العصيان في منطقة البقاع، وارتفاع الأسعار وهروب العشائر البدوية أمام تقدم الوهابين ووصولهم إلى حوران.^(١) وظلت مشكلة الحجاز واستعادتها من يد الوهابيين هي الأهم على جدول أعمال السلطان وولاته في بلاد الشام عامة، وفي دمشق خاصة.

في سنة ١٨١٠ وافق حاكم مصر، محمد علي باشا، على القيام بحملة عسكرية ضد الحجاز لاستعادة مكة والمدينة المنورة من أيدي الوهابين.^(٢) على هذه الخلفية، كما يبدو، قررت الدولة العثمانية تعيين والي صيدا سليمان باشا على ولايتي طرابلس ودمشق. وقد حاول يوسف كنج باشا ممانعة عزله، لكنه لم يستطع الوقوف أمام جيش سليمان باشا، فاضطر إلى الهرب، ووجد ملجأ له في مصر حيث نزل ضيفاً على محمد علي باشا.^(٣)

٤- حكم سليمان باشا للقدس ١٨١٠-١٨١٢:

استمر سليمان باشا في تولي ولاية الشام، إلى جانب حكمه في عكا وطرابلس، أقل من سنتين ١٨١٠-١٨١٢. في هذه الفترة أصبح لواء نابلس والقدس تابعين لحكمه رسمياً، فعين موسى بك طوقان متسلماً على لواء نابلس، وكنج أحمد آغا متسلماً في القدس.^(٤) خلال هاتين السنتين عاد الاستقرار إلى هذه المنطقة بعد فترة غير قصيرة من

(١) الشهابي، لبنان ...، ج٣، ص ٥٥٤-٥٥٦، أيضاً الشهابي، تاريخ أحمد باشا الجزائر، ص ٢٠٣-٢٠٧، العورة، تاريخ ولاية...، ص ١٠٠-١٠١.

(٢) العورة، تاريخ ولاية...، ص ١٢٩. أيضاً: أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ٤ أجزاء، بيروت، ١٩٤٠، ج١، ص ١. وقد قام محمد علي حاكم مصر بجهود كثيرة لإعادة حليفه يوسف كنج باشا إلى حكمه في دمشق، لكن من دون نجاح. رستم، المحفوظات...، ص ٤-٨.

(٣) تولى محمد علي باشا الألباني الأصل حكم مصر بتكليف من السلطان العثماني لمدة خمسة أعوام حتى برز كحاكم من نوع جديد في المنطقة. فقد نجح في ضبط أمور مصر بسرعة، وتغلب على معظم منافسيه، وبنى جيشاً قوياً كان الوحيد القادر على محاربة الوهابيين في الحجاز. لقد كان محمد علي والياً طموحاً، عمل بسرعة لمد نفوذه خارج مصر التي جعلها معقله الأساسي. وأخذت الأنظار في بلاد الشام تتطلع إليه كمركز ثقل سياسي له دور في شؤون المنطقة كلها. فكما هرب محمد باشا أبو المرق إلى مصر من وجه سليمان باشا، كذلك هرب يوسف كنج باشا والي دمشق سنة ١٨١٠. وبهذا بدأت حلقة جديدة من الصراع تفتح أبوابها في المنطقة بين ولاة عكا ومصر هذه المرة والتي وصلت إلى أوجها. سنة ١٨٣١ حين وصلت جيوش محمد علي إلى عكا فاحتلتها وقضت على مكانتها السياسية التي اكتسبتها منذ أيام حكم ظاهر العمر. أما بالنسبة إلى القدس وما جاورها من المناطق الفلسطينية، فإنها صارت تتأثر منذ بداية العقد الثاني من القرن التاسع عشر، بدور محمد علي في البلاد المجاورة لمصر بصفته أقوى الحكام المحليين. عمر سعادة، فلسطين في التاريخ الإسلامي، دمشق، ٢٠٠٨، ط ١، ص ٥٦.

(٤) إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، دمشق، ١٩٣٨، ج١، ص ٢٥٠، العورة، تاريخ ولاية...، ص ١٣٦-١٣٧. ويذكر الشهابي أن كنج أحمد آغا عين قبل ذلك متسلماً في دمشق، لكن الأهالي اعتزضوا وطردوه من المدينة، انظر الشهابي، لبنان ...، ج٣، ص ٣٦٠.

القلاقل والمناوشات التي ميزت العقد الأول من القرن التاسع عشر. وكان كنج أحمد آغا هذا صهر متسلم يافا وغزة محمد أبو نبوت، وهذا ما سهل عليه ضبط أمور الحكم في لواء القدس إذ قام أبو نبوت، الذي حكم يافا منذ سنة ١٨٠٧، علاقات تعاون مع آل أبو غوش وغيرهم من العائلات المتنفة في المنطقة ما بين يافا والقدس.^(١) كما أقام علاقات وثيقة بعلماء القدس وأعيانها وكذلك بالعائلات النابلسية القوية. وبالتالي أخذت يافا تنعم بالاستقرار والازدهار تدريجياً منذ وصول أبو نبوت إليها. الأمر الذي انعكس إيجاباً على أحوال القدس هذه الفترة، وخصوصاً بعد افتتاح كنيسة القيامة لزوار الأراضي المقدسة.^(٢)

كان استمرار تسلط الوهابين على مدن الحجاز المقدسة واجتياحهم للمناطق الجنوبية من بلاد الشام، من العوامل الأساسية التي دفعت الدولة العثمانية إلى ضم ثلاث ولايات في بلاد الشام (ما عدا حلب) إلى حكم سليمان باشا العادل.

وقد أشارت فرمانات التعيين التي أرسلت إلى والي عكا إلى هذه المسألة بالقول إنه عيّن أيضاً أميراً لقافلة الجردة وذلك من أجل "تطهير الحرمين الشريفين من الخارجين على الإسلام". ثم تكرر مثل تلك العبارات في مرسوم سليمان باشا إلى علماء القدس وأعيانها، فذكر أن تعيينه من الدولة العلية شمل "إمارة الحج الشريف وسر عسكرية الجردة.... عن واجب هذه السنة المباركة سنة ١٢٢٥".^(٣) وعندما جددت الدولة العثمانية تعيينه على الولايات الثلاث في السنة التالية جاء في الأوامر أنه عيّن أيضاً قائداً لقافلة الجردة.^(٤)

لم تكن الدولة غافلة في ذلك الوقت عن أن محمد علي باشا كان يجهز جيشه للخروج إلى الحجاز لمحاربة الوهابين واستعادة مكة والمدينة من أيديهم. لكن هذا لم يقلل أهمية توحيد بلاد الشام الجنوبية تحت سيطرة أقوى حكام هذه المنطقة ممثلة بالوالي سليمان باشا العادل.

٥- وصول محمد علي باشا إلى الحجاز وانعكاس ذلك على القدس ١٨١١:

بعد أن وصلت عساكر محمد علي باشا إلى الحجاز سنة ١٨١١ وبدأت بمحاربة الوهابين، ازدادت الآمال بفتح طريق الحج ثانية. وفي بلاد الشام عين حاكم جديد على ولاية دمشق، وظلت ولايتا صيدا وطرابلس تحت سيطرة سليمان باشا العادل. ولما وصلت الأخبار، في أوائل سنة ١٨١٣، من مصر إلى سليمان باشا والي دمشق بأن

(١) كان أبونبوت أيضاً صهراً لموسى بك طوقان، متسلم لواء نابلس، انظر النمر، تاريخ جبل...، ج١، ص ٢٨٨.

(٢) لمزيد عن أبي نبوت وحكمه في يافا، راجع: مناع، تاريخ فلسطين...، ص ١١٩ - ١٢٣.

(٣) مناع، تاريخ فلسطين...، ص ١٣٠.

(٤) مناع، تاريخ فلسطين...، ص ١٣٦.

الجيش المصري، بقيادة طوسون بن محمد علي، أخذ المدينة المنورة ثم مكة وجدة من أيدي الوهابيين وبدأت الاستعدادات لخروج قافلة الحج الشامي من جديد.

ففي مرسوم من والي دمشق إلى علماء القدس وأعيانها جاء فيه: "إننا بعد الاتكال على المولى قد صممنا وعزمنا في هذه السنة على الحج إلى بيت الله الحرام..... بكافة قوافل الحجاج"^(١). لذا فإن والي دمشق عاد فذكر الأهالي بما هو مطلوب منهم "لاسيما الشمع الأبيض العائد إلى الحجرة الشريفة لأن ذلك فرض عين لا يمكن التراخي به"^(٢)، وفعلاً تجددت قافلة الحج في السنة نفسها ١٢٢٨ - ١٨١٣ بعد أن أعاد محمد علي سيطرة السلطان على مكة والمدينة.

وكان والي الشام سليمان باشا عزل كنج أحمد آغا صهر أبي نبوت، وعيّن مكانه عبد الكريم آغا متسلماً من طرفه على لواء القدس. ومن الجدير بالإشارة هنا إلى أن عبد الكريم آغا ظلّ في الحكم مدة طويلة نسبياً (١٨١٢ - ١٨١٨)، على الرغم من تبدل الحكام والولاة في دمشق في تلك الفترة. هكذا حظيت القدس خلال هذه الفترة باستقرار نسبي للحكم والإدارة بلا قلاقل ولا اضطرابات. وكان لسليمان باشا العادل وسياسته في المنطقة أثر إيجابي بلا شك، إذ إن لواء غزة ويافا ظلا طوال تلك الفترة تحت حكم متسلمه محمد آغا أبي نبوت.

ومن المفيد هنا أن نذكر أن تأثير حكم سليمان باشا الإيجابي في القدس لم ينحصر في قضايا استقرار الأمن فحسب، بل تعداه أيضاً إلى أعمال البناء والإعمار.

في أواخر سنة ١٨١٦ حضر كوسا كيخيا نائب الصدر الأعظم (كتخدا) لأداء فريضة الحج عن طريق الشام، ومنها إلى عكا لزيارة القدس، كما جرت عادة بعض الحجاج. ولما وصل إلى القدس ودخل مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى هاله ما رأى من أحوال هذين المكانين المقدسين. فلمّا سأل أعيان المدينة وعلماءها عن السبب تشكى هؤلاء من محدودية إيرادات الأوقاف التي لا تكفي للمصاريف الضرورية للمسجد الأقصى وما حوله.^(٣) ومن جهة أخرى كانت كنيسة القيامة قد تم ترميمها وإعادة بنائها قبل أعوام بعد الحريق الذي شبّ فيها فكان ذلك، كما يبدو، أحد العوامل التي دفعت العلماء إلى مطالبة الدولة بإعمار هذا المكان المقدس للمسلمين. ولما عاد كوسا كيخيا إلى العاصمة العثمانية فإنه سعى فعلاً لما وعد علماء القدس به، أي تدبير الأموال لأعمال التصليح والإعمار في الأقصى.

(١) النمر، تاريخ جبل...، ج١، ص ٢٥٦.

(٢) العورة، تاريخ ولاية...، ص ٢٦١، ٢٦٤.

(٣) العورة، تاريخ ولاية...، ص ٢٦٦ - ٢٦٨.

حسن عند السلطان ورجال الدولة أن يقوم سليمان باشا والي عكا بهذه المهمة لما عرف عنه من اقتدار مادي وأعمال خيرية. وفعلاً، أصدر السلطان فرمانات والأوامر إلى سليمان باشا بأن يقوم بتعمير "محلات عرش الله الأدنى" وترميمها.^(١) لم يستطع والي عكا رفض طلب السلطان على الرغم من التكلفة الباهظة للمهمة التي أُلقيت على عاتقه على حساب خزينته الخاصة. لذا أرسل سليمان باشا من طرفه أحد ضباطه المقربين إلى القدس ليكون مسؤولاً عن تنفيذ هذه المهمة ومعه عشرات الصناع، وأيضاً المواد الضرورية للبناء والترميم لمباشرة العمل وقد أحضر بعض المواد، مثل الأخشاب، من جبل لبنان بمساعدة بشير الشهابي، وكذلك تم شحن الجسور والألواح وغيرها من ميناء بيروت إلى ميناء يافا ثم إلى القدس،^(٢) وقد حضر بعض الصناع المهرة من الشام واستنبول وأماكن أخرى بحسب طلب سليمان باشا. وهكذا تمت عملية الترميم وإعادة التعمير بعد نحو عامين من التخطيط والتجهيز ثم التنفيذ. وسجل محضر أرسله أهالي القدس إلى الدولة العثمانية عرفاناً وامتناناً.^(٣)

وقبل الانتهاء من أعمال الترميم والبناء في قبة الصخرة والمسجد الأقصى، تقدم خدام مقام النبي داود في القدس بالتماس استرحام لتعمير تربة المقام وترميمها. ومرة أخرى وافق سليمان باشا على الطلب، وأمر بعمل اللازم. وقد امتد العمل في تعمير هذه الأماكن الإسلامية في القدس أكثر من واحد وعشرين شهراً. أما التكلفة على خزينة والي عكا فزادت على أربعة آلاف كيس، أي أكثر من مليوني قرش.^(٤)

ورغم بعض المبالغة بهذا الرقم فإن مثل هذا العمل الذي قام به حاكم عكا كان بلا شك فريداً في نوعه في ذلك العهد. وقد كان هذا العمل الخيري من أواخر أعمال سليمان باشا لأنه توفي بعد أشهر قليلة من إتمام هذه الخيرية سنة ١٨١٩.

على الرغم من بعض الاضطراب الذي خيم على المنطقة أيام حكم سليمان باشا العادل (١٨٠٥ - ١٨١٩) بسبب حركة الوهابيين أو غيرهم، فإن سياسته كانت تميل إلى التهدئة والاستقرار بصورة عامة.

وقد انعكست هذه السياسة على لواء نابلس والقدس، كما على مناطق أخرى في فلسطين وخارجها. إذ زاد نفوذ حاكم عكا في القدس، وخصوصاً بعد أن أضيف لواء غزة ويافا إلى حكمه، فمنحه لمحمد أبي نبوت مدى الحياة (مالكانة). وقد قام الأخير خلال فترة حكمه بتقليد حكام عكا في تعمير المساجد والأسواق وتحسين

(١) العورة، تاريخ ولاية...، ص ٢٩٣، أيضاً: الشهابي، لبنان...، ج٣، ص ٦٣٣.

(٢) العورة، تاريخ ولاية...، ص ٢٩٥.

(٣) العورة، تاريخ ولاية...، ص ٢٩٩.

(٤) العورة، تاريخ ولاية...، ص ٢٩٧.

أسوار يافا وأبراجها. وانعكس هذا الاستقرار في يافا أيضاً إيجابياً على أحوال القدس، لكون مينائها محطة الحجاج والزوار الأولى في طريقهم إلى زيارة الأماكن المقدسة في مدينة القدس ونواحيها.

رابعاً: عبد الله باشا حاكماً للقدس ١٨٢٠:

لم تغير وفاة سليمان باشا العادل شيئاً في موازين القوى المحلية بين ولاية عكا وولاية الشام. لقد استلم الحكم في عكا عبد الله باشا، ابن علي بك أحد كبار ممالك الجزائر، والذي كان قد أُعِدَّ بالتدريج لشغل هذا المنصب.^(١) لكن ما قيل عن بروز محمد علي باشا كأقوى الحكام المحليين في المنطقة، أصبح أكثر صحة في العشرينيات من القرن التاسع عشر، وانعكس ذلك على القدس أيضاً.

إن الدولة العثمانية اضطرت إلى طلب مساعدة محمد علي عندما ثار أهالي اليونان ضد حكم السلطان في بلادهم. ففي سنة ١٨٢١ بدأ اليونانيون ثورتهم ضد الحكم العثماني التي كان لها أثر مباشر في علاقات المسلمين بهم في شتى أنحاء الإمبراطورية بما فيها القدس. وفي استنبول نفسها تم إعدام بطريرك الروم الأرثوذكس في أعقاب الحوادث الدموية في اليونان، فكان لهذه الأحداث تداعياتها في دمشق وشتى أنحاء بلاد الشام.^(٢)

وصلت أخبار الثورة على السلطان في اليونان إلى القدس بسرعة عن طريق زوار الأماكن المقدسة من تلك البلاد، ثم أرسلت الأنباء الرسمية من استنبول ودمشق فازداد التوتر في المدينة وصارت طائفة الروم الأرثوذكس هدفاً للنقمة والتعديات، كما أصدر والي الشام أوامر تفرض على أبناء هذه الطائفة ملابس معينة تميزهم عن غيرهم. وقد استمرت المضايقات والتعديات على أبناء تلك الطائفة أشهر عدة إلى أن وصلت الشكاوى إلى دمشق واستنبول. فأصدر والي الشام أمراً إلى متسلمه سليمان أفندي وإلى علماء القدس وأعيانها بأن يعملوا يداً واحدة لإعادة الهدوء والاستقرار إلى المدينة، بما في ذلك المحافظة على أمن المسيحيين وأملاكهم.^(٣) لكن استمرار أعمال العنف في اليونان حرك التوتر مجدداً في شتى أنحاء الإمبراطورية، فأرسلت الأوامر إلى السكان المسلمين في القدس بأن يستعدوا للجهاد ضد اليونانيين. هذه الأوامر، ووصول أخبار أعمال القتل والعنف المتبادلة بين اليونانيين والمسلمين في المورة وغيرها من أنحاء اليونان، عكرت أجواء التعايش والتسامح السائدة عادةً في القدس لعدة أشهر.

على خلفية استمرار ثورة اليونانيين ضد حكم السلطان، صدرت الأوامر إلى والي صيدا عبد الله باشا بأن يعزز تحصينات القدس ويحميها من أي تعديات محتملة. وبناء على الأمر السلطاني المتضمن "تفويض محافظة القدس

(١) شغل عبد الله باشا بعد وفاة والده علي بك منصب كتحدا والي، أي نائبه ومعاونه الأول، وقد أُعِدَّ بالتدريج ليخلف سليمان باشا في الحكم منذ سنة ١٨١٤. انظر: العورة، تاريخ ولاية...، ص ٢٥٠-٢٥٨.

(٢) العورة، تاريخ ولاية...، ص ٢٦٢.

(٣) العورة، تاريخ ولاية...، ص ٢٦٥.

الشريف إلى عهدتنا" أرسل عبد الله باشا إلى القدس عساكر بقيادة كل من ضابط الفرقة الألبانية في عكا الحاج محمد آغا نعمان والضابط قاسم آغا من أجل الإقامة بقلعة القدس. كما أمرت تلك العساكر بأن تقوم بحراسة أبواب المدينة "والقيام بأمر المحافظة والانتباه ليلاً نهاراً".^(١)

عندما نشبت الثورة في اليونان ضد الحكم العثماني سنة ١٨٢١ كان سليمان أفندي متسلماً على القدس، لكنه عزل بعد أشهر من بداية الأحداث في اليونان، وعين بدلاً منه الحاج علي أفندي في أيلول ١٨٢١.^(٢) وتجدر الإشارة إلى أن هذا المتسلم عيّن بعد فترة وجيزة من استلامه الحكم في القدس، على لواء يافا وغزة أيضاً. وقد مكّن هذا التعيين والي الشام درويش باشا من أن يتحكم في منطقة جنوب فلسطين كلها والتي تشكل حلقة الوصل بين مصر وبلاد الشام بما فيها ولاية صيدا. فطلب درويش باشا الذي كان حينها يحاول طرد عبد الله باشا من معقله، من متسلمه في القدس أن يمسك بزمام الحكم في لواء غزة ويافا بنفسه. لكن هذا التعيين لم يستمر طويلاً، لأن عبد الله باشا نجح في البقاء في عكا فعاد لواء غزة ويافا تابعاً لوالي صيدا كما كان سابقاً.

١- موقف الدولة العثمانية من الثورة اليونانية وانعكاساتها على القدس ١٨٢١:

يبدو أن ثورة اليونانيين أثارت قلقاً حقيقياً عند الدولة العثمانية فيما يتعلق بالقدس والأماكن المقدسة فيها. وقد أشار عدد لا يستهان به من الفرمانات والأوامر إلى ضرورة أخذ الاحتياطات الضرورية لحماية المدينة من الأخطار الخارجية.

فبالإضافة إلى العساكر في القلعة والتشديد على حفظ أبواب المدينة ليلاً نهاراً. تحدثت إحدى الوثائق عن إرسال ١٨ مدفعاً من عكا لوضعها في القلعة والأبراج. كما أرسل مع المدافع ١٠١ برميل بارود مع عربات مدافع وكامل طقمهم.^(٣) وفي الفترة نفسها تقريباً تم الكشف على ما هو موجود في مخزن القلعة من سلاح (الجبخانه العامرة في قلعة القدس) بمعرفة المتسلم ويوسف آغا الجاعوني الجبهه جي باشي.

تبين من الكشف بوضوح وصول المدافع الجديدة ١٨ مدفعاً من عكا. إضافة إلى المدافع القديمة. وبعد ذلك بشهر تقريباً، كشف على أعمال التعمير والترميم في القلعة والأبراج بحسب أوامر الدولة العثمانية السابقة، والتي تبين أنها كلفت مبالغ باهظة قدرت أكثر من ٣٠.٠٠٠ قرش.^(٤)

(١) العارف، المفصل...، ص ٣٥٥.

(٢) إن الإشارات إلى استمرار مضايقة الروم الأرثوذكس في القدس بعد هذا التاريخ بمبادرة سليمان أفندي هذا، وإعادة ذلك إلى أصوله اليهودية هي غير دقيقة على أقل تقدير. راجع في هذه المسألة: العارف، المفصل...، ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٣) النمر، تاريخ جبل...، ص ٩٢.

(٤) نوفل، كشف اللثام...، ص ٦٩.

كان للصراع الذي نشب بين عبد الله باشا وجيرانه ولاية الشام وحلب تأثير واضح في عدم استقرار أمور الحكم في لواء نابلس والقدس المجاورين. فقد حاول هؤلاء الولاة جذب القوى المحلية المتنفذة كل إلى جانبه، خلال فترة ذلك الصراع ١٨٢٣ - ١٨٢٤.

لكن الأهم من ذلك هو أن عبد الله باشا المحاصر في عكا، بأوامر من الدولة العثمانية والولاة المجاورين، لم يجد بداً من التوجه بطلب المساعدة من حاكم مصر القوي محمد علي باشا، الذي كانت مكانته ارتفعت عند السلطان بعد نجاحه في إخراج الوهابيين من الحجاز، بل محاربتهم في نجد أيضاً. كما أن الدولة احتاجت إلى مساعدة والي مصر مجدداً بعد فشل العساكر العثمانية في إخماد الثورة في اليونان، فتوجهت إليه من أجل إرسال جيشه في هذه المهمة. ولما كان عبد الله في عكا يدرك هذه الأمور، فإنه عرض حاله على محمد علي والتمس المساعدة بكل ثمن والتوسط لمصلحته عند السلطان.^(١) وقد تدخل حاكم مصر عند السلطان فعلاً وحصل له على العفو في مقابل دفع مبلغ كبير من المال في استنبول.^(٢)

بهذا التدخل المباشر في خلافات ولاية بلاد الشام وصراعاتهم يكون محمد علي باشا خطا خطوات كبيرة إلى جعله أقوى مركز قوة سياسياً وعسكرياً في هذه المنطقة العربية باعتراف السلطان وولاته المحليين في بلاد الشام. في تلك الأثناء، كانت الثورة مستمرة في شبه جزيرة المورة وغيرها من الجزر اليونانية. وكان محمد علي حاكم مصر قدم منذ سنة ١٨٢٢ أعداداً من العساكر للمحاربة إلى جانب جيش السلطان في محاولات متكررة لإخماد ثورة اليونانيين. وبعد فشل هذه المحاولات لأعوام طلب السلطان منه أن يرسل جيوشه لإخماد الثورة في شبه جزيرة المورة. وهكذا نزل نجل محمد علي، إبراهيم باشا، بقيادة الجيش المصري وأسطوله إلى جزيرة كريت سنة ١٨٢٤ ثم إلى اليونان نفسها، ونجح في التغلب على اليونانيين المتمردين في معارك متتالية سنة ١٨٢٥، هذا النجاح كان مؤشراً جديداً إلى أن الجيش الحديث الذي أنشأه محمد علي في مصر كان أقوى من جيوش السلطان. لكن نجاحه حرك مشاعر بعض الأوروبيين ومصالح دولهم فقرروا التدخل في هذه المسألة لمصلحة اليونانيين. إن ثورة اليونان معروفة ومدونة تخرج عن نطاق هذا البحث. وما يهمنا من ذكر هذا الموضوع هنا أمران: الأول: أن استمرار تلك الثورة في العشرينيات من القرن التاسع عشر أوقف إلى حد كبير سيل الزوار والحجاج من تلك البلاد إلى القدس ونواحيها.

أما الأمر الثاني: فيتعلق بطموحات محمد علي باشا التوسعية. وكان أن ادعى حاكم مصر بوعد السلطان العثماني له بحكم بلاد الشام، إضافة إلى مصر، مكافأة على إرسال جيشه لإخماد ثورة اليونانيين. بهذا فإن الدولة العثمانية

(١) المجلد، دواني القطوف...، ص ١١٥.

(٢) المجلد، دواني القطوف...، ص ١٢٣.

أبدت استعداداً مشروطاً لأن يحقق حاكم مصر طموحاته في هذه المنطقة، وهو ما حصل عليه محمد علي باشا في النهاية بالقوة.

٢- توتر واضطراب القدس ١٨٢٥-١٨٢٦:

عندما انتهت مسألة عبد الله باشا في عكا، تفرغ والي الشام الجديد مصطفى باشا (الذي كان والي حلب سابقاً) لجباية الضرائب من لواء نابلس والقدس. ولم يكتف بالضرائب العادية المطلوبة كل عام، بل، كما يبدو، طلب أضعافها لتغطية مصاريف صراعه السياسي والعسكري مع والي صيدا. إذ ادعى والي الشام أن الأموال الإضافية المطلوبة لمصاريف الحج لسنة ١٨٢٥، وشدد على متسلمه في القدس إسماعيل بك كما على أعيان المدينة وعلمائها جميعاً، أن يعملوا يداً واحدة لجمع الأموال المطلوبة.^(١) لكن الأهالي رغم لهجة الوعيد والتهديد التي تضمنتها أوامره المرسلة إلى القدس، رفضوا التعاون مع المتسلم ودفع الضرائب الباهظة المطلوبة من أهالي اللواء. لذا قام الوالي أولاً بتغيير المتسلم وعيّن بدلاً منه الحاج عثمان آغا.^(٢) وكان على هذا المتسلم الجديد أن يقوم بما فشل به سلفه، أي تحصيل الأموال الميرية. بل إن أوامر مصطفى باشا كانت واضحة أيضاً بضرورة معاقبة من يتأخر في دفع الضرائب.^(٣)

"ومن حسن الحظ أن راهباً قبرصياً من سكان القدس ترك لنا تسجيلاً مفصلاً لأحوال القدس في تلك الأيام المضطربة. فقد أرسل والي الشام مع متسلمه الجديد جنوداً يعتمد عليهم لأداء المهمات الملقة على عاتقه، ذكر أن عددهم كان مئة أنزلهم في قلعة القدس. لكن المتسلم الجديد لم ينجح في مهمته، لأن الفلاحين طردوا رجاله الذين وصلوا إلى القرى لجباية الأموال المطلوبة منهم فلما علم مصطفى باشا بهذه الأخبار خرج بنفسه على رأس جيش تعداده خمسة آلاف جندي لجباية الضرائب من لواء القدس ونابلس".^(٤) وعلى الرغم من آلاف العساكر التي رافقت والي الشام، والأوامر المشددة بتجهيز الأموال والذخائر المطلوبة قبل وصوله إلى المنطقة، فإنه واجه صعوبات وعقبات جمة في جبال جنين ونابلس. وبعد أن انتهى مصطفى باشا من جمع الضرائب من جبل نابلس تقدم جيشه إلى القدس ووصل قريباً من أسوارها الشمالية حيث عسكر جنوده هناك.

أمام تصميم مصطفى باشا على جباية الضرائب الباهظة، والحشود الكبيرة التي حضر بها إلى القدس، قرر أهالي بعض القرى ولاسيما القرى القريبة من المدينة، الخضوع وجمع الأموال المطلوبة منها. وكان ضمن هذه القرى سلوان

(١) العارف، المفضل...، ص ٣٥٩.

(٢) العارف، المفضل...، ص ٣٦٥.

(٣) العارف، المفضل...، ص ٣٦٧.

(٤) العارف، المفضل...، ص ٣٧٠.

وعين كارم والمالحة والولجة وبيت حنينا وصور وباهر وبيت صفاقا وغيرها، أما العديد من القرى الأخرى وخصوصاً البعيد منها عن القدس، فهرب سكانها من وجه الوالي أو قرروا المقاومة.

وكان ضمن من قرر القتال وعدم الاستسلام أو الهرب أهالي بيت لحم وجيرانهم التعامرة ولاجئون فروا من قراهم ووصلوا إلى هذه المنطقة. أما القرى التي لم تقدم ما هو مطلوب منها من ذخيرة وضرائب فقرر الوالي معاقبتها بشدة.

ولما وصل جيش الوالي إلى بعض القرى وجدها فارغة من السكان عاث الجنود فساداً في بيوتها ومزروعتها. ولما علم الباشا أن كثيرين من أهالي قرى المنطقة خبؤوا أموالهم وجواهر نسائهم في أديرة مار سابا ومار الياس والمصلبة وغيرها، فإنه حاصر تلك الأديرة وفتشها حتى وجد بعض ما أودعه الفلاحون فيها.^(١)

ولما كانت بيت لحم معقلاً لعدد كبير من المتمردين، فإن مصطفى باشا توجه مع عساكره إليها قاصداً تدميرها، ووجد كثير من الفلاحين المتمردين ملجأ في أديرة المنطقة. وخوفاً من نتائج الحرب بين الطرفين على الأديرة والأماكن المقدسة المسيحية. توسط رؤساء الطوائف بين الطرفين للصلح، فوافق الباشا على أن يدفع هؤلاء العصاة لخزينته مبلغاً كبيراً هو ١٠٠٠٠٠ قرش وبعد انتهاء مسألة بيت لحم صلحاً، انسحب الباشا مع عساكره تاركاً فيها فرقة عسكرية للمراقبة والحراسة. أخيراً وبعد ابتزاز مصطفى باشا أموالاً كثيرة من الأهالي، وخصوصاً من رؤساء الأديرة غادر منطقة القدس تاركاً متسلمه ومعه نحو مئة جندي مرابطين في القلعة.^(٢)

نتيجة قمع الباشا للسكان، مسلمين ومسيحيين، مدنيين وفلاحين، ولعشيرة التعامرة توحد موقف هؤلاء ضد متسلم القدس الذي حاول الاستمرار في جباية الضرائب بعد ابتعاد والي الشام وعودته إلى دمشق للخروج في قافلة الحج. رفض الأهالي التعاون مع المتسلم، وقام التعامرة مع أهالي بيت لحم بمهاجمة الفرقة العسكرية التي تركها الوالي في البلدة فقتلوا بعض عناصرها وطردوا الآخرين. ولما طلب المتسلم مساعدة الوالي مرة أخرى أخبره الأخير أنه سيخرج قريباً مع قافلة الحج فعليه تدبر الأمور بنفسه. وخرج المتسلم مع جنوده لمحاربة أهالي بيت لحم تاركاً في القدس جندياً فقط في قلعتها. وتغلب المتسلم وجنوده على الاستحكامات في منطقة بيت صفاقا، وتقدم في اتجاه بيت لحم وبيت جالا. في هذه الأثناء دخل عشرات من أهالي القدس ذوي الخبرة العسكرية إلى القلعة فتغلبوا على الحامية الصغيرة (١١ شخصاً) وسيطروا على القلعة وأبواب البلدة وقرروا منع المتسلم وجنوده من العودة إلى المدينة.^(٣)

(١) سعادة، فلسطين...، ص ٨١.

(٢) سعادة، فلسطين...، ص ٨٥.

(٣) العارف، المفضل...، ص ٣٨٢.

وعندما علم المسلم بما جرى في القدس قفل راجعاً إليها في محاولة لمعالجة هذه المسألة بأي شكل من الأشكال. لكن أهاليها الذين توحدوا حول رفع راية العصيان ضد المتسلم والباشا الذي يقف من ورائه في دمشق منعوه وجنوده من دخول المدينة. ولما رجاهم المتسلم أن يدخل السرايا فقط من أجل أخذ حوائجه وأغراضه لم يجد بين المتمردين من كان مستعداً لقبول رجائه. فلم يجد المتسلم مخرجاً من الأزمة التي وقع فيها إلا الوصول إلى الرملة ومنطقة الساحل بإذن آل أبو غوش المتحكمين في طريق القدس - يافا. ولم يكتفِ أهالي القدس، الذين شقوا عصا الطاعة، بعدم السماح للمتسلم بدخول مدينتهم، بل ألقوا بجنود القلعة القليلين وحراس السرايا إلى السجن أيضاً. ثم لاحق أهالي القدس كل جندي عثماني وحتى حراس المدنيين من أتراك وألبان وغيرهم من الأعراب وطردوهم من المدينة.^(١)

بعد أن سيطر المتمردون في القدس على أنحاء المدينة جميعها عقدوا اجتماعاً بحضور عدد كبير من العلماء والأعيان، واختاروا يوسف آغا الجاعوني الجبهه جي باشي، وأحمد آغا العسلي دزدار القلعة سابقاً، ليكون قائدي هذه الحركة.

وتصرف أعيان القدس في هذه الفترة تصرف الحكام، فقرروا إعفاء الفلاحين من الضرائب المفروضة عليهم، كما تم خفض الضرائب والرسوم المطلوبة من الأديرة والكنائس بشكل كبير، هكذا نعم أهالي القدس ونواحيها، ولو إلى حين، بحكم ذاتي وشعور طاغ بالحرية والسرور.^(٢) ومما تجدر الإشارة إليه بشأن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين العرب في القدس. وبشكل أوضح في القرى المجاورة كبيت لحم ورام الله وغيرهما، أن الأهالي عملوا يداً واحدة ضد الحكام الظالمين. بل إن المسيحيين في الريف في جبال القدس وغيرها كانوا جزءاً عضواً منه ومهماً من التركيبة الاجتماعية والسياسية. فشاركوا في الانقسام إلى قيس وبين بغض النظر عن الانتماء الطائفي، رغم حرص الأوروبيين على خلق الطائفية منذئذٍ وهو ما نراه ونعانيه اليوم. هذه الظاهرة التي لاقت استغراب بعض المراقبين الأوروبيين من رحاله وقناصل وغيرهم، لم تلق اهتماماً كافياً حتى الآن من الباحثين في تاريخ فلسطين.

تخوف علماء القدس وأعيانها من ردة فعل الدولة العثمانية على حركة العصيان فقرروا شرح موقفهم وأسباب تمردهم للسلطان ورجال حكومته، وكذلك لحاكم مصر محمد علي وعبد الله باشا والي صيدا. وقد رد السلطان محمود الثاني بفرمانات دعا فيها الأهالي وزعماءهم إلى إنهاء الفتنة والرجوع عن العصيان.^(٣) أما سياسة العنف

(١) العارف، المفضل...، ص ٣٦١.

(٢) لمزيد عن يوسف آغا الجاعوني وأحمد آغا الدزدار، انظر الفصل الثالث من الكتاب: مناع، أعلام فلسطين...، ص ٧٥ -

١٨٠ - ١٨٢.

(٣) مناع، تاريخ فلسطين...، ص ١٢٢ - ١٢٥.

والبطش التي اتبعها مصطفى باشا في المنطقة فأدت إلى ازدياد التذمر من حكمه في دمشق أيضاً، خصوصاً من فئة التجار. فرفع أهالي دمشق شكوى ضد هذا الباشا إلى الدولة العثمانية، كما شكاه الحجاج الذين تدمروا من قلة المؤن وعدم تأمين حماية القافلة، لذا، قررت الدولة العثمانية الاستغناء عن خدماته بعدما عاد مع الحجاج إلى دمشق، فعزل عن وظيفته وعيّن بدلاً منه ولي الدين باشا في أيلول ١٨٢٥.

لم ينجح ولي الدين باشا في إعادة الهدوء إلى المنطقة، كما فشل في تأمين قافلة الحج، التي هوجمت في طريق عودتها من الحجاز.^(١) أما السلطان محمود الثاني الذي كان مشغولاً بإجراء الإصلاح العسكري وبناء الجيش النظامي الجديد بعد القضاء على الانكشارية سنة ١٨٢٦. فإنه توجه إلى عبد الله باشا والي صيدا طالباً منه بلهجة صارمة أن يقوم بإخماد العصيان في القدس. ووافق حاكم عكا على تقديم هذه الخدمة للسلطان، وأرسل جيشاً قوامه ٢٠٠٠ من عساكره مع سبعة مدافع. وتوقف قائد هذه الحملة، وهو نائب الوالي ومساعدته الأول (الكتخدا أو الكيخيا) في الرملة واتصل بآل أبو غوش. في قرية العنب، لتأمين مرور جيشه من دون معارضة أو مقاومة من جهتهم. ووصل جيش عبد الله باشا وفرض حصاراً عليها وأرسل إلى علماء القدس وأعيانها أن يستسلموا حقناً للدماء في الأراضي المقدسة، لكن زعماء التمرد، الذين خافوا من العقاب رفضوا طلب دخول فرقة من هذا الجيش إلى القلعة والسرايا رمزاً للخضوع وانتهاء العصيان. ويشير الراهب اليوناني، الذي ترك لنا تفاصيل دقيقة عن الأحداث، إلى أن الأهالي في القدس شددوا في ردهم على أنهم لن يسمحوا لعساكر أغراب، أكانوا أتراكاً أم من الألبان بأن يتحكموا فيهم مرة أخرى.^(٢)

كان الكيخيا الذي قاد جيش عبد الله باشا معنياً بإنهاء حركة العصيان بسرعة بحسب أوامر السلطان، كي لا يضطر إلى تمضية مدة طويلة في حصار المدينة في ليالي الشتاء الباردة. وحين ظل أهالي القدس على رفضهم الاستسلام، أعطيت العساكر المحاصرة الأوامر بأن تقصف المتمردين في القلعة بالمدافع. بعد ذلك أحضرت من عكا مدافع أقوى وأكبر وضعت على جبل الزيتون لكن قنابلها لم تصل من هناك إلى داخل البلدة. لذا أخذت المدافع تقصف بيوت العلماء والأعيان بدلاً من قصف القلعة الحصينة. وعندما طال الحصار والقتال وأرهبت القنابل والرصاص النساء والأولاد. انقسم الثائرون إلى قسمين: واحد أصر على استمرار القتال والمقاومة، وآخر

(١) مناع، أعلام فلسطين...، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٢) تشكل هذه "الحوليات" مصداً رئيساً لمعظم تفاصيل أحداث القدس خلال الفترة ١٨٢٥ - ١٨٢٦. وقد نقل عنها معظم المؤرخين والباحثين بمن فيهم عبد الكريم رافق في: "فلسطين في العهد العثماني"، في الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠، ص ٨٥٧.

طلب التفاوض بشأن إنهاء هذه الحركة بشروط جيدة. وبينما كان العسكريون وحملة السلاح من المتمردين في الفئة المتشددة الخائفة من العواقب فإن العلماء مثّلوا من كان يميل إلى التفاوض وإنهاء القتال.^(١)

في النهاية خرج فريق من العلماء ووجه البلدة إلى الكيخيا وتوصلوا إلى اتفاق ينهي الاقتتال ويحفظ ماء وجه الطرفين. لقد وافق أهالي القدس على وقف التمرد وإعلان خضوعهم للسلطان ومن يعينه حاكماً على المدينة، في مقابل العفو العام وعدم معاقبة المشاركين في الثورة. أما الضرائب التي كانت عاملاً مهماً في حركة العصيان فتقرر أن تكون وفق النظام القديم والمعتاد من دون زيادات باهظة على الأهالي من مدينين وفلاحين. وبالنسبة إلى الجنود والمرابطين في القلعة، تقرر أن يلتزم هؤلاء حماية المدينة وألاً يتدخلوا في السياسة أو شؤون الأهالي الأخرى أخيراً أقسم الطرفان وتعهدا بتنفيذ بنود هذا الاتفاق جميعاً وقرروا الفاتحة معاً قبل أن يعود الفريق المفاوض لإعلام أهالي القدس بشروط الصلح.^(٢)

لم يقبل المسلحون الثائرون في القلعة شروط الصلح بسهولة، لكنهم اقتنعوا في النهاية، بأنه أفضل الموجود. وبعد مهلة ثلاثة أيام قاموا بإخلاء القلعة من أمتعتهم وأغراضهم الخاصة كلها ونقلوها إلى بيوتهم، وسلّمت المدينة للكيخيا. فقد خرج زعيما التمرد يوسف آغا الجاعوني وأحمد آغا الدذدار وسلماهم مفاتيح القلعة تعبيراً عن إنهاء الثورة.^(٣) وفي الحين، أرسل الكيخيا ثلاثمائة جندي إلى القلعة ليربطوا فيها وفقاً للاتفاق، أما زعيما التمرد المذكوران فأرسلوا إلى عكا بحسب طلب عبد الله باشا كي يبتّ مصيرهما رسمياً. وقد حافظ والي عكا على شروط الصلح، وفرض عليهما عقوبة رمزية ألا يعودا إلى القدس للعيش فيها. فحكم على يوسف آغا بالنفي إلى مدينة الرملة القريبة من القدس، ونفي أحمد آغا العسلي إلى مدينة نابلس.^(٤)

هكذا انتهت حركة التمرد التي بدأت في ربيع سنة ١٨٢٥، فوصل متسلم إلى المدينة من جانب والي الشام مجدداً في ٢٠ كانون الأول ١٨٢٦. وبهذا نقّذ عبد الله باشا وأمر السلطان بإنهاء حركة العصيان في القدس، وعادت الأمور إلى مجاريها بعد نحو عامين من الثورة وعدم الاستقرار في المنطقة.

لقد ظلت عكا منذ أيام أحمد باشا الجزائر أقوى المعاقل السياسية والعسكرية في بلاد الشام. وتكرر بروز هذه الحقيقة المرة تلو الأخرى أيام الأزمات والتحديات الخارجية، كما عند نشوب حركات العصيان والتمرد المحلية في لواءي نابلس والقدس التابعين رسمياً لولاية الشام. في مثل هذه الحالات كان السلطان يتوجه إلى ولاية عكا بطلب

(١) جوزيف حجار، عروبة فلسطين ومصير المشرق العربي، بيروت، ١٩٧٦، ص ٦٥.

(٢) يوسف الدبس، تاريخ سورية ولبنان، ١٩٩٤، ١٠ مجلدات، بيروت، مج ٥، ص ١٣٣.

(٣) الدبس، تاريخ سورية...، ج ٥، ص ١٤٠.

(٤) لمزيد عن العسلي والجاعوني وعائلتيهما ومصيرهما بعد هذا التمرد، راجع: مناع، أعلام فلسطين...، ص ٨٧.

المساعدة في إعادة الهدوء والسيطرة العثمانية في المناطق المتمردة، كما حدث في القدس ١٨٢٦. وقد كافأت الدولة عبد الله باشا على مساعدته بإضافة ولاية طرابلس إلى حكمه سنة ١٨٢٧.^(١)

ولما ازدادت تلميحات محمد علي باشا حاكم مصر، إلى أنه سيقوم باحتلال بلاد الشام بالقوة، أُضيقت ألوية جنين ونابلس والقدس أيضاً إلى حكم عبد الله باشا. هكذا تكرر توحيد ألوية فلسطين جميعها تحت سيطرة والي عكا مرة أخرى في أوائل القرن التاسع عشر، لمواجهة خطر خارجي وحملة عسكرية مرتقبة من البلاد المصرية. لكن هذه الخطوة في الوقت نفسه وضعت عبد الله باشا في خطر المواجهة المباشر مع محمد علي باشا وطموحاته المعلنة إلى السيطرة على بلاد الشام.

٣- القدس قبيل مجيء الحملة المصرية ١٨٢٩ - ١٨٣٠ :

نشبت تمرد في جبل نابلس وقام به آل جرار في قلعة سانور، على خلفية سياسة التجنيد وجباية الضرائب،^(٢) ومرة أخرى اتجهت الأنظار إلى عبد الله باشا لإخماد التمرد في المنطقة. في هذه المرحلة، وبعد محاولات فاشلة ومتكررة من جانب ولاية الشام لإعادة الهدوء، والاستقرار إلى المنطقة، قررت الدولة اتخاذ إجراءات جديدة. ويبدو أن خطر هجوم محمد علي صار وشيكاً في تلك الأثناء، فتقرر إلحاق سناجق جنين ونابلس، والقدس إلى عبد الله باشا وفصلها عن ولاية الشام.^(٣)

وقد عدّ والي عكا هذا التعيين إحساناً سلطانياً في مقابل الخدمات التي قدمها في السنوات السابقة، فطلب في مرسوم إلى أهالي القدس "إظهار الفرح والسرور وعمل شئك عظيم" لكن الأخبار سنة ١٨٣٠ كثرت حول استعدادات حاكم مصر لاحتلال بلاد الشام بعد أن فشل في إقناع السلطان بضمها إلى حكمه مقابل مساعدته في محاربة ثوار اليونان ضد الدولة العثمانية. لذا توجهت أنظار السلطان وولاته في بلاد الشام. وعلى رأسهم عبد الله باشا في عكا، إلى هذا الخطر وكيفية مواجهة الحملة المرتقبة. هذه الحملة التي قادها إبراهيم باشا ابن محمد علي في أواخر سنة ١٨٣١ وضعت حداً (ولو مؤقتاً) لحكم الدولة العثمانية في بلاد الشام. أما بالنسبة إلى عبد الله باشا فكانت ضربة قاضية لحكمه وكذلك لمكانة عكا وولاتها كأقوى مركز سياسي في بلاد الشام.

أما بالنسبة للتقسيم الأساسي في المناطق الريفية في القدس فقد كان كغيره من الولايات تماماً، إذ انقسم الناس بين قيسيين ويمنيين. بيد أن الانضمام إلى أي من هذين المعسكرين كان يعتمد على الأوضاع وعلى نفوذ قادتهما. ففي مطلع القرن التاسع عشر كان التحالف اليمني بقيادة عائلة أبو غوش من قرية العنب في بني مالك أقوى كثيراً

(١) الشهابي، لبنان ...، ج٣، ص ٧٨٩، رستم، المحفوظات...، ج١، ص ٨٩.

(٢) النمر، تاريخ جبل...، ج١، ص ٢٤٣ - ٢٤٥. الشهابي، لبنان ...، ج٣، ص ٨٠١ - ٨١٢.

(٣) الشهابي، لبنان...، ج٣، ص ٨١٥ - ٨٢٠.

من التحالف القيسي^(١). فتم الاعتراف بسلطة عائلة أبو غوش في المنطقة الممتدة من الساحل حتى القدس، كما تمتعت العائلة بعائدات لا يستهان بها من ضريبة الغفر التي كانت تجبيها من الحجاج والزوار والتجار الذين كانوا يعبرون المنطقة وخصوصاً القادمين من يافا إلى القدس (إذ كان كل شخص يدفع تسعين بارة)^(٢). حتى كنائس القدس كانت تدفع ضرائب باهظة في سبيل تحقيق مصلحتها في توفير الأمن على الطرق المؤدية إلى المدينة المقدسة، وتماشياً مع النفوذ تمتعت به عائلة أبو غوش في القدس نفسها^(٣).

وكان على رأس الائتلاف القيسي في القرى المجاورة للقدس عائلة السمحان التي كانت تسكن في قرية رأس كركر في بني حارث الشمالية. فسيطر أفرادها على المنطقة الواقعة بين نابلس والقدس، والتي شهدت هجمات متكررة شنها بدو الصحراء المجاورة^(٤). ويبدو أن شيوخ منطقة القدس لم يتمتعوا بالدرجة نفسها من القوة التي تمتع بها شيوخ منطقة نابلس. فعائلة أبو غوش تمتعت على الأقل بنوع من الاعتراف والحكم الذاتي، بسبب نفوذها ودورها كحامية للطريق الواصل بين القدس والساحل^(٥).

أما مدينة القدس فكانت مركزاً لسنجق جبل القدس، وكانت تختلف عن غيرها من مدن فلسطين. ففي المقام الأول كانت المدينة مقدسة لدى المسلمين، والمسيحيين واليهود على حد سواء. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر كان أكثر من نصف أهل المدينة من أهل الذمة، وكان فيها جالية صغيرة من الفرنج كما كانت القدس مختلفة إذ لم تكن مركزاً مدينيّاً لسكان الريف، فلم تسكن العائلات الريفية المهمة في المدينة ولم تسيطر على شؤونها (كما كان الحال في نابلس).

لم يكن أهل القدس فلاحين يزرعون الحقول المجاورة، وإنما كانوا تجاراً وحرفيين. أما أهل الذمة في المدينة فقد كانوا يعيشون على الامتيازات التي يتلقونها من الخارج، وكانوا جزئياً يمارسون التجارة والحرف المتعلقة بالحج. وفي الربع الأول من القرن التاسع عشر كانت سلطة المتسلم محدودة جداً. ف وقعت ثورات متكررة في القدس والمنطقة المحيطة، حتى إن سلطة الوالي كثيراً ما تم تجاهلها^(٦).

(١) لطيفة سالم، الحكم المصري في الشام ١٨٣١-١٨٤١، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٤٥.

(٢) عبد الرحمن زكي، حملة الشام الأولى والثانية، في: "ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا" ١٨٤٨ - ١٩٤٨، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٩٦ - ٩٧.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، القاهرة، ١٩٥١، ص ٥٦.

(٤) الرافعي، عصر...، ص ٦٢.

(٥) زكي، عصر...، ص ١٠٢.

(٦) سالم، الحكم المصري...، ص ٦٨.

خاتمة:

كانت القدس قبل دخول المصريين إليها أهم سنجق من سناجق دمشق حيث قسمت الدولة العثمانية ولاية دمشق إلى عشرة سناجق هي: دمشق، القدس، غزة، صفد، نابلس، عجلون، اللجون، تدمر، صيدا، بيروت. بالإضافة إلى الكرك والشوبك، ومن الواضح أن تقسيم السلطات للولاية بهذا الشكل مكّنها من مراقبة السلاجق عن قرب، وضمنت سلامة خطوط الاتصالات مع مكة وتأمين مرور الحجاج إليها، لذا فإن الولايات السورية، التي كانت تعرف باسم بلاد الشام، والتي كانت عادة ما تذكر كالتالي: "سوريا الجغرافية التاريخية" أو "أرض سورية"، تمتعت بمكانة خاصة لدى الدولة العثمانية لأنها تسيطر على الطريق بين استانبول ومكة، وضمنت بالإضافة إلى ذلك توصالاً برياً مع ولاية مصر التي كانت غنيّة جداً.

أخيراً أولى العثمانيون القدس بصفتها ثالث أقدس مدينة لدى المسلمين اهتماماً كبيراً ويبدو واضحاً أن السلطان العثماني لم يكن في كامل قدرته على نشر قوات لتنفيذ اصلاحاته في سوريا بين عامي ١٨٢٦ - ١٨٣١ بسبب انخراطه في حروب مع اليونان وروسيا ١٨٢٨ - ١٨٢٩، بيد أن هناك مؤشرات تفيد بأن محمود الثاني أصدر أوامر إلى باشاوات دمشق وصيدا، باعتماد الاصلاحات في المجالات التي تقع ضمن مسؤولياتهم، كما أمرهم الباب العالي بالاعتراف بالنظام الضريبي وإلغاء نظام التيمار والإقطاع، ففي القدس ألغي ٨٢ تيماراً وتحول دخلها إلى خزينة الحكومة. كذلك أمر السلطان الباشاوات بإعداد جنود للجيش الجديد العصري، الذي كان يحاول إنشاءه على النمط الغربي. وأحدثت هذه الأوامر انتعاضاً في أوساط الشعب، فاندلعت القلاقل في المناطق الجبلية في القدس.

وكان باشا دمشق غير قادر أو غير مستعد لتنفيذ الأوامر الجديدة. ولكن عبد الله باشا سيده في المناطق الخاضعة لحكمه، فلم يشرع بتجنيد جنود لجيش السلطان الجديد فحسب، بل بدأ أيضاً بتنظيم وحدات النظام الجديد وقام بشراء نحو ٥٠٠ عبد وأولى تدريبهم إلى ضابط فرنسي. ويبدو جلياً أنه اتباع خطى السلطان محمود الثاني ومحمد علي. وبحلول ١٨٣٠ ورد أن جنود الجيش الجديد وجدو في العديد من البلدات الساحلية في صيدا وطرابلس. وقد أمل محمود الثاني بأن يتمكن عبد الله باشا، الذي استطاع أن يثبت نفوذه وقدرته من أن يقضي على الوجهاء المحليين وأن يعيد إنشاء السلطة العثمانية في المناطق التي كانت تتمتع بشبه حكم ذاتي، وفي عام ١٨٣٠ أي قبل وصول محمد علي إلى القدس أضيفت هذه المدينة إلى قائمة السناجق الخاضعة لسلطة عبد الله باشا، وكان العلماء والجماعات التقليدية مدركين الرياح الجديدة التي كانت تهب من استانبول، ومساعي عبد الله باشا للتجديد في البلدان الساحلية، فلم يشأ هؤلاء معارضة عبد الله باشا لأنهم لم ينسوا قسوته في قمع ثورتهم عام ١٨٢٦. كما

تولى متسلم مدينة القدس من جانب عبد الله باشا مسؤولية كاملة في المدينة والمناطق المجاورة حيث تلقى مساندة من الحامية الألبانية الكبيرة.

الفصل الثاني

القدس تحت الحكم المصري ١٨٣١ - ١٨٤٠

أولاً: الاحتلال المصري والأسباب البعيدة لمجيئه.

- ١ - الأوضاع العربية والدولية قبيل الاحتلال المصري.
- ٢ - أوضاع الدولة العثمانية التي ساعدت على مجيء محمد علي.

ثانياً: الأسباب القريبة للاحتلال المصري.

- ١ - علاقته مع عبد الله باشا ١٨٢٣.
- ٢ - الحاجة الملحة إلى تجديد الدولة العثمانية وإصلاحها.

ثالثاً: الأسباب الحقيقية لاحتلال سوريا وهي:

- أ - موقف السلاطين العثمانيين من محمد علي.
- ب - سعي محمد علي للاستقلال بشؤون مصر عن السلطان.
- ت - السبب الاقتصادي.

رابعاً: موقف الدول الأوروبية من مشروع محمد علي ١٨٣١.

خامساً: مجريات الاحتلال المصري.

- ١ - ابراهيم باشا يتأسس الحملة.
- ٢ - أوضاع القدس أثناء حصار عكا.
- ٣ - دور العثمانيين في دعم أهالي القدس ضد حصار محمد علي باشا.

سادساً: سياسة ابراهيم باشا في القدس ١٨٣٢.

- ١ - السياسة العسكرية للمصريين في القدس.
 - أ - سياسة التجنيد الإجباري.
 - ب - نزع الأسلحة من أهالي القدس.
 - ت - رد فعل أهالي القدس على احتلال محمد علي

سابعاً: القدس والقنصليات الأوروبية ١٨٣٨.

- ١ - العوامل الرئيسية لإقامة القنصليات في القدس ١٨٣٨.

٢- فتح أبواب القدس أمام الأوروبيين.

أ- المستوى السياسي.

ب- المستوى غير الحكومي.

ت- مشروع مونتيفوري في القدس وموقف محمد علي منه ١٨٣٩.

ثامناً: الأسباب العامة لثورة القدس.

١- الأسباب الدينية والسياسية.

٢- الدوافع الاقتصادية.

تاسعاً: ثورة ١٨٣٤ في القدس.

١- شرارة الثورة تبدأ من القدس.

٢- موقف ابراهيم باشا من التطورات الجديدة في القدس.

٣- نتائج ثورة ١٨٣٤.

أولاً: الاحتلال المصري والأسباب البعيدة لمجيئه:

١- الأوضاع العربية والدولية قبيل الاحتلال المصري:

شُغل محمد علي عامين بإصلاح الضرر الذي لحق به نتيجة حرب المورة. فبعد تدمير أسطوله في نافارينو عقد الباشا العزم على بناء أسطول جديد، لا عن طريق شراء سفن من أي شخص، وإنما بمحاولة بنائها في مصر^(١) لقد شهدت مصر سنة ١٨٣١ بعض الرخاء فكان الجيش في وضع جيد، وأعيد بناء الأسطول في مصر. وكان الجيش الانكليزي مشغولاً بالمشكلات السياسية في مصر، وفرنسا مشغولة بثورة تموز وتهدة الأوضاع في الجزائر.^(٢) وكانت الدولة العثمانية في أضعف حالاتها، بعد أن خسرت أسطولها في حرب المورة، وخسرت بعض مناطقها لمصلحة روسيا سنة ١٨٢٩ وكانت في سنة ١٨٣١ تحاول إعادة فرض سيطرة حكومتها المركزية في العراق. وقد أدرك محمد علي ضعف الدولة العثمانية، فاستغل ضعفها والمعارضة الداخلية لإصلاحات محمود الثاني من أجل تحقيق مراميه.^(٣) وكان الوضع في سورية على صفيح ساخن، إذ نشبت ثورة ضد والي دمشق محمد سليم باشا، الذي قتله السكان لاحقاً كما كان شيوخ نابلس على أهبة الاستعداد للثورة ضد عبد الله باشا.^(٤) وبحلول سنة ١٨٣١ كانت الاستعدادات للاحتلال مكتملة تقريباً، لكن لم يُفصح عن النيات الحقيقية وراء تلك الاستعدادات. وخلال صيف ١٨٣١ انتشرت شائعات في لندن وباريس واستانبول بشأن النشاط العسكري المتزايد في الاسكندرية والقاهرة حيث كُثِفَ التجنيد بوتيرة أثارت شكوك الدول الأوروبية في النية وراءه. وبعد رفض محمد علي طلب الباب العالي المساعدة في قمع ثورة مصطفى باشا أشقدي في الروميلي، شرع في استخدام قواته لمهاجمة عبد الله باشا في عكا.^(٥)

في ٢ تشرين الثاني ١٨٣١ صدرت أوامر إلى حملتين بالتوجه إلى سورية، واحدة براً والأخرى بحراً. ووفقاً للخطط المرسومة كان يجب عليهما محاصرة عكا بحراً وبراً، كان من المفترض أن يغادر الجيش مصر في الصيف، لكن

(١) عمر طوسون، صفحة من تاريخ مصر في عصر محمد علي: الجيش المصري البري والبحري، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٩١ - ٩٢.

(٢) طوسون، صفحة من...، ص ١٠٢.

(٣) سرهنسك، حقائق الأخبار...، مج ١، ص ٦٨٣ - ٦٨٦، فلاديمير لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٢٦.

(٤) بازيل، سوريا...، ص ١١١. النمر، تاريخ جبل...، مج ١، ص ٢٤٥.

(٥) كتافكو، فتوحات...، ص ٨.

مغادرته تأجلت حتى الخريف بسبب انتشار مرض الكوليرا في القاهرة، الذي قضى على ٥٠٠٠ جندي ونحو ١٥٠٠٠ مدني خلال ٣٤ يوماً.^(١)

٢- أوضاع الدولة العثمانية التي ساعدت علي مجيء محمد علي:

كان محمد علي باشا^(٢) الوالي العثماني على مصر، وقد أشارت إليه بعض المصادر على أنه نائب السلطان في مصر أو الباشا. وعندما انسحب الانكليزيون من مصر في ١٤ آذار ١٨٠٣ دخل الصراع العثماني المملوكي مرحلة جديدة فبعدما كان هذا الصراع يتمحور حول السيطرة على البلد، أضحي أكثر تعقيداً بسبب الشرخ الذي حدث بين العثمانيين أنفسهم، فمن ناحية تلقى خسرو باشا (وهو الباشا العثماني في مصر) الدعم من القوات العثمانية (الانكشارية)، ومن ناحية أخرى تلقى المماليك الدعم من الفرقة العسكرية الألبانية بقيادة طاهر باشا، الذي حل محمد علي مكانه بعد أن قتله الإنكشارية في ٢٥ أيار ١٨٠٣، وكان محمد علي الرجل الثاني في قيادة القوات الألبانية، وقرر اتباع الطريقة نفسها التي اتبعها طاهر، ودخل في تحالف مع المماليك وهزم خسرو، الذي احتُجز فيما بعد في حصنه، وفي ٨ تموز ١٨٠٣ قام السلطان بتعيين علي برغل باشا والياً على مصر ليحل محل خسرو، وبعد أقل من شهر على وصوله إلى مصر، تم اغتياله.

قرر محمد علي باشا فيما بعد أن يصطف إلى جانب الشعب، وخاض معركة ضد المماليك، ثم بدأت شعبيته تنمو في أوساط أهل القاهرة، وبدأ مؤامراته مع شيوخ المدينة ووجهائها في مواجهة الوالي الجديد خورشيد باشا، وكان محمد علي متأهباً لتنفيذ مخططاته ليصبح والياً على مصر وبعدها فرض خورشيد باشا مطالب العلماء (بقيادة السيد عمر مكرم) أعلن هؤلاء خورشيد مستبداً، وقرروا خلعه من السلطة، واعتماداً على فتوى إسلامية قديمة أعطى المسلمون الحق في الخروج على حاكم مستبد، وتبعاً لذلك عُين محمد علي باشا والياً على مصر، فتولى سلطته بدعم أهل القاهرة، وركز اهتمامه على تعزيز منصبه في مواجهة المماليك، وفيما بعد تعرض منصبه لتهديد آتٍ من الاحتلال الانكليزي لاسكندرية ما بين ١٧ آذار و ١٩ أيلول ١٨٠٧ لكن تبدد ذلك الخطر بعد خروج القوات الانكليزية.^(٣)

(١) الرافعي، عصر محمد علي، ص ٢٥١.

(٢) ولد محمد علي في أواخر ستينيات القرن الثامن عشر في قرية في مقدونيا يطلق عليها اسم "كافالا"، كان والده جندياً عثمانياً من أصل ألباني وكان يقود القوات المحلية غير النظامية، وكان في الوقت ذاته منخرطاً في تجارة التبغ، وتعود أصول أمه إلى عائلة حاكم المدينة، وقد تبع محمد علي خطى والده، حتى عيّن نائب قائد الكتيبة التي جندت في كافالا، لتتضم إلى الجيش العثماني في مصر سنة ١٨٠١م، وأصبحت كتيبة كافالا جزءاً من الفيلق العثماني الألباني الذي أرسل لمحاربة الفرنسيين في مصر حين بدأ محمد علي صعوده اللافت إلى قمة السلطة. راجع كريم ثابت، محمد علي، القاهرة، ١٩٤٣، ص ٢٩.

(٣) أنطون كتنافاكو، فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسورية ١٨٣١-١٨٤١، حريصا لبنان، ١٩٣٧، ص ٣٦.

وبعد ما طلب السلطان من محمد علي باشا أن يجهز حملة على الوهابين في الجزيرة العربية بالنيابة عنه، قرر هذا الأخير أن يقضي على المماليك كلياً.

في آذار ١٨١١ ذبح نحو ٥٠٠ مملوكي في خديعة، وبحلول سنة ١٨١٢ أُبِيدَ من خرجوا إلى النوبة بأمر من محمد علي،^(١) الذي أصبح في تلك الأثناء مستقراً في الحكم، بعدما نجح في صراعه بشأن السلطة محققاً بذلك إنجازاً كبيراً، لكن بقاءه في السلطة كان يعتمد على قدرته على مقاومة أي محاولة من السلطان لعزله، وقد جمع محمد علي حوله نخبة من المخلصين تتألف من أفراد عائلته وأصدقاء ومقرين من قريته الأصلية كافالا، وأعضاء من المؤسسة البيروقراطية التي أنشأها في مصر واتخذ مدفوعاً برغبته في تحويل منصبه حاكماً إلى منصب دائم، عدة إجراءات غيرت وضع مصر داخل الامبراطورية، والأهم من ذلك كله أنه نجح ببنائه أسطولاً كبيراً وقوة عسكرية، في توسيع نفوذ القاهرة لا على كامل مصر فقط، بل أيضاً إلى ما بعد ذلك، ليشمل السودان وكريت والمورة والحجاز واليمن وسوريا، وحتى أجزاء من الأناضول. وفي تموز ١٨٤٨ استقال محمد علي باشا رسمياً من حكومة مصر بسبب مرض عقلي ألم به وتوفي في الاسكندرية في آب ١٨٤٩ ليترك أبناءه بعده يتابعون حكم مصر وفقاً لاتفاقية لندن ١٨٤١.^(٢)

ثانياً: الأسباب القريبة للاحتلال المصري:

كان وراء الحملة على بلاد الشام عدد من الأسباب المترابطة، ويمكن القول إن هناك أسباباً متداخلة، وقد ذكر أسد رستم خمسة أسباب يعتقد أنها حفزت محمد علي على ذلك، معتمداً في تحليله على دراسة مُتمَعَّنة للوثائق الدبلوماسية كلها العربية والأوروبية المتوفرة. فدرس رستم "سببين رسميين" ذكرهما محمد علي نفسه وهما:

- ١- علاقته مع عبد الله باشا ١٨٢٣.
- ٢- الحاجة الملحة إلى تجديد الدولة العثمانية وإصلاحها.
- ٣- ذكر "الأسباب الحقيقية" لاحتلال سورية، وهي:
 - أ- موقف السلاطين العثمانيين من محمد علي.
 - ب- سعي محمد علي للاستقلال بشؤون مصر عن السلطان.
 - ت- "عدم كفاية وادي النيل" اقتصادياً لبقاء مصر ولاية مستقلة.

(١) اسماعيل سرهنسك، حقائق الأخبار في دول البحار، القاهرة، ١٩٩٨، مج ١، ص ٦٦٥.

(٢) الراجعي، عصر محمد...، ص ٦٧، وأيضاً انظر: محمد شكري، وآخرون، بناء دولة مصر، محمد علي: السياسة الداخلية، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٨١.

١- ارتباطاً بالسبب الأول، يمكن القول بصورة عامة إن العلاقة بين محمد علي وعبد الله باشا كانت طيبة حتى أواخر عشرينيات القرن التاسع عشر. إذ بدأت الخلافات بينهما انطلاقاً من تضارب مصالحهما، فكان كلاهما يطمح إلى تعزيز سلطته في الولايات المجاورة. فسعى محمد علي لاستخدام عبد الله باشا ركيزة لمشروعه الرامي إلى الاستيلاء على بلاد الشام، لكن الأخير أدرك نيات محمد علي فرفض أن يقوم بهذا الدور. وعوضاً عن ذلك وقف إلى جانب السلطان ضد محمد علي، وأصبح ندأ له واعتقد أن حصنه (أي عكا التي صمدت في وجه نابليون سنة ١٧٩٩ ولاحقاً في وجه باشاوات دمشق وحلب وأضنة سنة ١٨٢١) سيحميه من أي عدو لاسيما محمد علي،^(١) فأطلق عليها اسم "قلعة النصر ودار الجهاد ومحروسة عكا المحمية".^(٢) لذلك يتحدث بعض المؤرخين عن عدم امتنان عبد الله باشا تجاه محمد علي.^(٣)

ونظراً للسياسات التي اتبعها محمد علي باشا في مصر هجر أكثر من ٦٠٠٠ فلاح بيوتهم ورفضهم الإذعان لحكمه، فعبر هؤلاء الحدود المصرية إلى فلسطين سنة ١٨٢٨ ولجؤوا إلى نابلس ويافا تحديداً، حيث منحهم عبد الله باشا أرضاً. وقد طالب محمد علي بعودة الفلاحين مرات عديدة، لكن عبد الله باشا رفض عودتهم معللاً ذلك بأن الفلاحين المصريين رعايا السلطان، ولم يكن في إمكانه تجنب توطينهم في المنطقة الخاضعة له. ونظراً إلى قلقه إزاء فرار مزيد من الفلاحين من مصر إلى فلسطين هدد محمد علي بأنه سيأتي لأخذهم، وإلقاء القبض على شخص آخر معهم، في إشارة إلى عبد الله باشا نفسه. وبذلك كانت هجرة الفلاحين في الواقع بمثابة حجة محمد علي للسيطرة على سوريا.^(٤)

٢- سلطت العديد من الوثائق الضوء على سبب آخر للحرب. فبعد وقوف الباب العالي علانية ضد محمد علي في سياق الحصار المفروض على عكا، ادعى وابنه ابراهيم قيامهما بتأدية الواجب المقدس بالإصلاح وأعلننا عزمهما تصحيح أخطاء السلطان وحكومته. فعلى سبيل المثال، أرسل ابراهيم باشا فور دحره الجيش العثماني في حمص رسالة إلى علوش باشا حاكم اللاذقية "يحثه فيها على الانضمام إلى المسلمين الحنفاء".^(٥)

(١) أبوعز الدين، ابراهيم...، ص ٥٠، وانظر: مشاققة، مشهد العيان...، ص ١٠٥، وأيضاً: بازيلي، سوريا...، ص ١٠٨.

(٢) رستم، المحفوظات...، مج ١، ص ٤٧.

(٣) حشي، تاريخ...، ص ٢٠١، وانظر: البيطار، حلية البشر...، مج ٣، ص ٩٥٠، وأيضاً: اسكندر أبكاربوس، المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، بيروت، دون تاريخ، ص ٢٧، ٢٨.

(٤) النمر، تاريخ جبل...، مج ١، ص ٢٤٧، خط همايون أرقام ١٩٧٨٨، ٢٠٠٣٧ بازيلي، سوريا...، ص ١١١ - ١١٢، وأيضاً: محمد فريد بك الحمامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت، ١٩٧٧، ص ٢٣٣.

(٥) رستم، المحفوظات...، مج ٣، ص ١٠٥، رقم ٤٥١١.

وفي رسالة موجهة إلى الصدر الأعظم أشار ابراهيم باشا إلى "أن هدفه وهدف والده الوحيد كان يتمثل في وضع حد لحماقات السلطان واستبداده وإهماله لمصالح الأمة".^(١) كما أرسل ابراهيم باشا رسالة أخرى تحمل المضمون ذاته إلى محمد باشا، والي حلب.^(٢)

فشجع السلطان العثماني العلماء على إصدار فتوى تكفر محمد علي حيث أدرك هذا الأخير أهمية الشعور الإسلامي في الدولة العثمانية، فقرر توظيف هذا الشعور لخدمة مصالحه. ونجح في الحصول على فتوى من شريف مكة محمد بن عون تكفر السلطان محمود الثاني.^(٣) كما حصل على فتوى من علماء الأزهر ضد السلطان محمود، ووقعها كل من طاهر الحسيني، مفتي القدس، وابن عمه عمر، نقيب الأشراف^(٤) فيها، وذكر حنا بحري أن في اجتماع عقد في خيمة الأمير بشير الثاني سنة ١٨٣٢ قرأ الشيخ طاهر الحديث التالي: "لعنة الله على السلطان الضعيف"^(٥) وفي رسالة مؤرخة ١٢ حزيران ١٨٣٢، نصح محمد علي لابنه بإرسال رسالة إلى مفتي حلب لمساندته، ويوضح له فيها "أن الدولة العثمانية انخرقت عن الشريعة الإسلامية"^(٦) كما أرسل محمد علي رسالة أخرى إلى ابنه، على الرغم من قراره السابق في شأن عزل السلطان، يقول فيها أنه يرى "أن السهم خرج من قوسه". وطلب من ابراهيم الحصول على فتاوى من مفتي حلب ومفتي دمشق وغيرهم، ونشرها في الأناضول واستانبول.^(٧)

ثالثاً: الأسباب الحقيقية لاحتلال سوريا وهي:

أ- موقف السلاطين العثمانيين من محمد علي: فمنذ سنة ١٨٠٥ عندما أقر السلطان تعيين محمد علي والياً على مصر انتابت هذا الأخير الشكوك في نيات الباب العالي والسلطان في استانبول وقد أدرك أن استمراره يعتمد على قدرته على مقاومة أي محاولة من السلطان لإزاحته عن السلطة. ولأن السلطان كان يدرك أن تعيين محمد علي في ولاية مصر لم يكن وفقاً لرغبته، كان متخوفاً من سلطته وبذلك يمكن أن يخلفه.^(٨)

(١) رستم، المحفوظات...، مج٢، ص ٤٧، رقم ١٣٧٦.

(٢) بازيلي، سوريا...، ص ١٢٠، وانظر أيضاً: داود بركات، البطل الفاتح ابراهيم وفتح الشام، القاهرة، ١٩٣٤، ص ٢٦، ٢٧.

(٣) أبوعز الدين، ابراهيم...، ص ٨٠.

(٤) رستم، المحفوظات...، مج٢، ص ٢٣٣، رقم ٢٥٣٩.

(٥) أبوعز الدين، ابراهيم...، ص ٨٦.

(٦) رستم، المحفوظات...، مج٢، ص ١٨، رقم ١١٥٨.

(٧) رستم، المحفوظات...، مج٢، ص ١٨٤، ٢٢٨٩.

(٨) بازيلي، سوريا...، ص ١١٠.

وفي سنة ١٨٠٦، وبعد عام من تزكية محمد علي لولاية مصر، حاول الباب العالي إزاحته عن منصبه، وتعيينه باشا في سالونيك. وفي سنة ١٨١٣، وبينما كان محمد علي مشغولاً بمحاربة الوهابيين في الجزيرة العربية حاول الباب العالي استبداله بلطيف باشا، الذي كان مملوك الباشا، بعد أن تمت ترقيته إلى منصب الباشا.^(١) لكن محمد علي نجح في الحفاظ على منصبه فكان دائم التيقظ، توجساً من المحاولات العثمانية لعزله.

ب- يبدو أن محمد علي وابنه ابراهيم باشا قد بنيا آمالاً بالاستقلال عن الدولة العثمانية. فقد ورد ذكر النضال من أجل الاستقلال في مراسلات الباب العالي إلى بعض المسؤولين في سورية، والرسائل السرية التي أرسلها ابراهيم باشا إلى والده. ففي رسالة إلى والي دمشق عن علاقة محمد علي بالباب العالي، رأى القائم بأعمال الصدر الأعظم أحمد باشا، في مناورات باشا مصر محاولة للاستقلال.^(٢)

ت- السبب الاقتصادي: شعر محمد علي وابنه بحاجة ماسة إلى السيطرة على سورية، فوسع محمد علي الزراعة وبدأ نشاطاً صناعياً في مصر، وأراد أن يتوسع أكثر.

كان التوسع الاقتصادي بحاجة إلى أسواق ومواد خام. وخلال سعيه للتوسع للوصول بمصر إلى مستوى امبراطورية، يبدو أنه اتبع طريقة الدول الأوروبية (انكلترا وفرنسا) إذا سعت لبناء مستوطنات في العالم الجديد^(٣) وبالتالي في سوريا الكثير من المواد الخام التي يحتاج إليها النظام المصري لإعادة النهوض بالصناعة المصرية. ولم يكن الخشب المستخدم في البناء متوفراً في مصر، فقد واجه محمد علي عقبات كثيرة لاستيراده. فعلى سبيل المثال فرض الباب العالي حظراً على تصدير الخشب إلى مصر، إذ كان يعلم أن محمد علي يستخدمه في بناء أسطوله^(٤) وتجدد وتجدد الإشارة إلى أن الأخير استورد كثيراً من المواد الخام من سورية في عشرينيات القرن التاسع عشر، مثل الفحم ويزور النيلة والخشب.^(٥)

كان محمد علي يريد استغلال أخشاب سورية، إذ إن غاباتها كثيفة، وتنتج أنواعاً متعددة من الخشب، تصلح لسد حاجات الباشا المتنوعة،^(٦) وكان شجر الكوريس وأشجار ضخمة أخرى تغطي جبل الكرمل، والسهل الذي الذي يصل الجبل بالناصرية، وبين يافا وأرسوف وفي جانب مدينة القدس فضلاً عن ذلك كانت سوريا منطقة جذابة، وخصوصاً بسبب قربها من مصر، الأمر الذي قلل مصاريف النقل. ليس هذا فحسب بل رغب محمد

(١) بازيل، سوريا...، ص ١١٢.

(٢) رستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، بيروت، ١٩٨٨، مج ١، ص ١٢٣-١٢٤.

(٣) بازيل، سوريا...، ص ٥٥.

(٤) رستم، الأصول العربية...، مج ١، ص ٢٥، رقم ٧٧.

(٥) رستم، الأصول العربية...، ص ٥٨، رقم ١٣٧، ص ٧٢، رقما ١٨٧، ١٨٩.

(٦) بازيل، سوريا...، ص ٦٠.

علي بالصابون المنتج في بعض البلدات الفلسطينية وأهمها القدس حيث أنتج من هذه المادة كميات كبيرة وبأنواع عالية الجودة إضافة لزيت الزيتون والتبغ والنبيد.^(١)

رابعاً: موقف الدول الأوروبية من مشروع محمد علي ١٨٣١ :

تنبه الأوروبيون إلى مدى الخطورة التي شكلها محمد علي باشا على استراتيجياتهم في السيطرة على بلاد الشام، والتمتع بامتيازاتهم التي حصلوا عليها من الدولة العثمانية، وبدؤوا ينسجون خيوط مؤامرة لطرد محمد علي وإضعاف حكمه ليس حياً بالدولة العثمانية وإنما خشية من تعاظم نفوذ وسيطرة محمد علي،^(٢) وبالتالي تعطيل مصالحهم الاستعمارية الحيوية في بلاد الشام،^(٣) التي تعمقت في ظل الضعف العثماني المتزايد.

وهكذا دارت عجلة الصراع الخفي والعلي بسرعة باتجاه تمرير المشروع الصهيوني ومساعدة اليهود على الهجرة إلى القدس وتحقيق أهدافهم فيها مستخدمين نفوذهم وقناصلهم وامتيازاتهم لتحقيق هذا الهدف حيث كانت قنصلية سردينيا من أهم القنصليات أو السفارات التي افتتحت في القدس عام ١٨٤٣.^(٤)

إن دعم أوروبا لجهود الدولة العثمانية للقضاء على نفوذ محمد علي باشا والعمل على إخراجهم من بلاد الشام، ومن ثم إعادتها إلى حظيرة الدولة العثمانية زاد من حجم تدخلها في شؤون الدولة العثمانية وقد ساعدت الظروف الذاتية والموضوعية للدولة العثمانية عقب حروبها في البلقان، ومواجهة محمد علي الدول الأوروبية في زيادة حجم تدخلها المباشر في بلاد الشام وفلسطين وخاصة في القدس.^(٥) إذ أصبحت تتدخل في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين، إلى جانب تدخلهم تحت ذريعة حماية رعاياهم في إطار الدولة العثمانية ورعاية المسيحيين واليهود الذين هم من التابعين لتلك الدول.

وكما ذكر كانت سردينيا أول من أنشأت لها قنصلية في القدس، ثم توالى عملية فتح القنصليات الأجنبية فيها، وبعضهم نقل قنصلياته من مدن الساحل: حيفا ويافا وعكا، إلى مدينة القدس. وخلال فترة الـ ٧٥ سنة

(١) رستم، المحفوظات...، مج ١، ص ٥٨، رقم ١٣٧.

(٢) محمد مخزوم، أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة، بيروت، ١٩٨٦، ص ٦٠-٦٣.

(٣) عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٤) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، القاهرة، ١٩٤٦، ج ٢، ص ٣٥.

(٥) عبد العزيز عوض، متصرفية القدس أواخر العهد العثماني، مجلة شؤون فلسطينية، عدد ٤، سنة ١٩٧١، بيروت، ص ١٢٦-

١٢٦-١٤١، كذلك: رفيق شاعر النتشة، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، بيروت، ١٩٩١، ص ٨٢-٩٥. وأيضاً:

إلياس شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى ١٩٤٩، بيروت، ١٩٩٨، ص ٢٤٧-٢٦٥.

(١٨٣٩-١٩١٤) توالى على قنصلية انكلترا في القدس ثمانية قناصل، وعلى قنصلية ألمانيا تسعة قناصل، وعلى قنصلية فرنسا أربعة عشر قنصلاً وعلى قنصلية النمسا ثلاثة قناصل.^(١)

لما كانت القدس محور اهتمام الدول الأوروبية فقد عملت هذه الدول على وضع سياسات خاصة تنسجم مع:

١- الأطماع الأوروبية في فلسطين.

٢- الحلم اليهودي بتمرير المشروع الصهيوني في بلاد الشام.^(٢)

إن الخطوة الأولى لتحقيق الحلم الصهيوني كانت عبارة عن مرحلة تمهيدية تمت خلالها محاولات الحركة الصهيونية لإقامة كيانات ومستوطنات منعزلة في فلسطين، كما هي الحال في القدس حيث أقام اليهود أول مستوطنة في مدينة القدس أطلق عليها اسم أوهل موشيه^(٣) وتعني بالعربية خيمة موسى "مونتيغوري"، أحد أركان الحركة الصهيونية وذلك عام ١٨٣٣، تلاها بعد ذلك إنشاء مركز يهودي عام ١٨٤٣، ثم مصنع للنسيج عام ١٨٥٤، وتواصل بعد ذلك إنشاء عدد من المستوطنات مختلفة الأهداف في القدس وضواحيها، ثم تلتها المرحلة الثانية التي استهدفت حملة واسعة من المحجرات اليهودية إلى فلسطين بدأت بشكل علني عام ١٨٨٢، وكانت قبل ذلك قد نجحت الحركة الصهيونية في تمرير عدد كبير من اليهود إلى فلسطين تحت حماية الدول الأوروبية بعدد رعايا تلك الدول، وقد ساعد قناصل تلك الدول في تعزيز هذه المحاولات وتدعيمها بوسائلهم المختلفة رغم أن الدولة العثمانية كانت تمنع بقوة عملية هجرة رعايا الدول الأوروبية من اليهود إلى فلسطين. فإن أول محاولة لتوطين اليهود في فلسطين قبل عام ١٨٤٠، قام بها نابليون خلال حملته على مصر عام ١٧٩٨ غير أن اليهود في آسيا وأوروبا لم يتجاوبوا مع هذه المحاولة، إلى أن بدأت محاولات الحاخامات اليهود التي بدأت فعلياً في عام ١٨٣٣ عن طريق الكاتب اليهودي يهودا الكالاي والحاخام يهودا قلعي عام ١٨٣٩.^(٤)

خامساً: مجريات الاحتلال المصري:

١- ابراهيم باشا يترأس الحملة:

كان ابراهيم باشا على رأس أسطول كبير، مكون من ١٦ سفينة حربية و ١٧ سفينة نقل تحمل ضباط صف على متنها. وكان من هؤلاء الكابتن عثمان بك نور الدين ورئيس الأركان سليمان بك ونظيف باشا وهاني بك

(١) انظر الملاحق رقم ٤ - ٥ - ٦ - ٧، في نهاية البحث: أسماء القناصل الأوروبية.

(٢) حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧-١٩٠٩، بيروت، ١٩٩٩، ص ٥٤ - ٥٥.

(٣) خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨-١٩١٨، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٢، أيضاً: أمين عبد الله

محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، الكويت، ١٩٨٤، ص ٢٣.

(٤) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، عمان، ١٩٩٦، ص ٦٩ - ٧١.

البحري، المسؤول المالي الأول. وكان لديه ٤٠ قارباً صغيراً، وعدد من القوارب الخاصة بالحصار، بالإضافة إلى الغذاء والذخيرة والعلف والإمدادات الطبية للقوات البحرية والبرية، التي بلغ عددها ٣٠٠٠٠ رجل، فقد وصلت يافا في ٩ تشرين الثاني ١٨٣١.^(١) وكان قادة تلك الحملة على درجة عالية من الكفاءة وقد استفادوا من خبراتهم في حملات سابقة. كما تلقى الجنود تدريباً ملائماً^(٢) وكانت تلك الحملة أكبر حملة عسكرية نفذها الجيش المصري خلال سنوات حكم محمد علي.

وعلى الرغم من أن يافا أصبحت منطقة ذات أهمية استراتيجية بصفتها خط الدفاع الأول عن جنوب غرب سورية في وجه الاحتلال المصري، فإن حاميتها المكونة من ٢٥٠ جندياً ألبانياً استسلمت فوراً، وحاولت التفاوض على نحو يثير الشفقة في شأن الرواتب التي لم يدفعها عبد الله باشا منذ أشهر وقد أعيد تعيين إبراهيم آغا متسلماً للمدينة،^(٣) وبعد احتلال يافا دخل إبراهيم مدينة حيفا في ١٧ تشرين الثاني ١٨٣١ من دون جهد يذكر، وقد اتخذها مركزاً له، وقاعدة لتحركاته العسكرية.^(٤)

وفي أثناء وجوده في حيفا جاء إليه شيوخ ومتسلمو حيفا ونابلس وطبرية وأعلنوا استسلامهم. كما أعلن متسلما غزة والقدس استسلامهما أيضاً. وبذلك وقعت المدن الفلسطينية تحت سيطرته من دون مقاومة عدا عكا^(٥). كما سمح إعلان هؤلاء المتسلمين الولاء لابراهيم باشا بتركيز اهتمامه على احتلال مدينة عكا الاستراتيجية وسرعان ما كان الجيش والأسطول على مشارف المدينة، وفرض عليها حصاراً برّاً وبحراً في تشرين الثاني ١٨٣١.^(٦)

طلب عبد الله باشا من متسلمي فلسطين الانضمام إليه في مواجهة الاحتلال المصري وفي رسالته الأخيرة في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٣١ إلى محمد شاهين آغا، متسلمه في القدس، أشار عبد الله باشا إلى احتلال محمد علي وأخبره أن الأسطول العثماني سيأتي لقتال محمد علي "عدو الله وعدو حضرة مولانا السلطان" ولحماية هذه الأرض المقدسة.^(٧) كما أرسل عبد الله باشا رسالة أخرى إلى زعماء نابلس وجنين يطلب منهم دعمه في مقاومة الاحتلال الاحتلال المصري، لكنهم لم يستجيبوا.^(٨) وبذلك لم يتمكن عبد الله باشا من حشد الزعماء المحليين لمحاولة منع

(١) أبوعز الدين، إبراهيم...، ص ٧٣ - ٧٤. وسرهنسك، حقائق الأخبار...، ص ٢٤٥، مج ٧. كتافكو، فتوحات...، ص ١٩.

(٢) أبوعز الدين، إبراهيم...، ص ٧٣، بازيلي، سوريا...، ص ١١٢.

(٣) سامي، تقويم النيل...، مج ٧، ص ٣٨٤.

(٤) رستم، الأصول العربية...، المجلد الأول، ص ١٢٨، رقم ٣٣٩.

(٥) بازيلي، سوريا...، ص ١١٢، أيضاً: سامي، تقويم النيل...، مج ٧، ص ٣٨٤.

(٦) قطاوي، محمد علي...، ص ١٤.

(٧) سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣١٥، ص ١٢١.

(٨) رستم، الأصول...، مج ١، ص ١٢٩، رقم ٣٤٣، ص ١٣٠، رقم ٣٤٨.

تقدم الجيش المصري، أو مساندة الأسطول العثماني، بل بالعكس انضم كثيرون من خيالة عبد الله باشا من الهوارة إلى إبراهيم باشا.^(١)

٢- أوضاع القدس أثناء حصار عكا:

عانت القدس أثناء حصار عكا نقصاً في المواد الغذائية بسبب قلة المطر ووجود الجيش المصري بأعداده الكبيرة وجمع عبد الله باشا المواد الغذائية قبل وصول المصريين، وأرسل قاضي القدس رسالة إلى محمد علي طلب فيها تزويده بألف إردب قمح لنقص التموين في القدس.^(٢) فأخبر محمد علي حاكم القدس أن القمح كان شحيحاً في مصر، وأنه أمر بإرسال ألف إردب^(٣) أرز لبيعها في القدس وفقاً لسعر السوق.^(٤)

لم يُعد الباب العالي أي تحضيرات عسكرية في مواجهة تصريح محمد علي بمهاجمة فلسطين حتى بدء الهجوم، أرسل السلطان رسالة بعد الاحتلال إلى محمد علي يطالبه فيها بأن يأمر ابنه بالانسحاب من فلسطين عامة، وأن الباب العالي سيتوسط بينه وبين عبد الله باشا لحل المشكلة.^(٥) ويبدو أن إبراهيم باشا كان، حتى احتلال عكا، راضياً عن إرسال أوامره إلى المناطق الخاضعة لعبد الله باشا، في محاولة لإقناع السكان بأن حملته موجهة ضد هذا الأخير، لا ضد السلطان.^(٦)

فبعد فشل اقتحام عكا في ٩ آذار ١٨٣٢ قرر إبراهيم باشا ترك نحو ٥٠٠٠ رجل لمحاصرة عكا، وغادر مع من بقي من رجال لمواجهة أعدائه المجتمعين تحت إمرة عثمان باشا الذي عين والياً على طرابلس بعد انفصالها عن صيدا. وبعد هزيمة أعدائه في سهل الزراعة قرب حمص، قرر إبراهيم باشا هجومه على عكا للمرة الثانية. وفي الوقت ذاته واصل محمد علي إرسال تعزيزات إلى عكا لدعم موقف ابنه، وتعويض الخسائر الناجمة عن الحصار.^(٧) الحصار.^(٧)

(١) كتافاكو، فتوحات إبراهيم...، ص ١٩.

(٢) منير وعادل اسماعيل، الصراع الدولي حول المشرق العربي، بيروت، ١٩٩٠، ص ٢٩٤. مشاققة، مشهد الأعيان...، ص ١١١.

١١١.

(٣) الاردب: مكيال مستخدم في مصر للحبوب ويساوي ١٤٠ كغ، انظر: www.wikipedia.org

(٤) رستم، الأصول العربية...، مج، ص ١٥٩، رقم ٤٠٩، ص ١٦٢، رقم ٤١٦-٤١٧.

(٥) حشي، تاريخ الأمراء...، ص ٢٠١، رستم، المحفوظات...، مج، ص ١٤٥-١٤٧.

(٦) بازيل، سوريا...، ص ١١٤.

(٧) سامي، تقويم النيل...، مج، ص ٣٨٧-٣٨٩.

كذلك أرسل العديد من الرسائل إلى ابنه يحثه فيها على احتلال عكا على وجه السرعة وبكل الوسائل، وأن يقنع كتحدا عبد الله باشا وغيره من المناصرين بالوقوف إلى جانبه.^(١)

٣- دور العثمانيين في دعم أهل القدس ضد حصار محمد علي باشا:

أرسل الباب العالي فرماناً إلى عبد الله باشا يحثه فيه على مواصلة دفاعه ويعدّه بمساعدته، وذلك بإرسال تعزيزات. الأمر الذي حدا بعبد الله باشا على التراجع عن المصالحة مع إبراهيم باشا ومواصلة القتال.^(٢)

حاول العثمانيون إقناع زعماء القدس بالوقوف إلى جانب السلطان في مواجهة محمد علي. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك محاولات من جانب علي باشا، والي دمشق الجديد "لتحقيق ضم القدس إلى ولاية الشام حيث كان العثمانيون لا يزالون يمارسون سيادتهم هناك. وقد ذكر والي دمشق في طلبه أن السياسة الظالمية التي كانت تمارس ضد السكان والشيخو دفعته إلى الانضمام إلى المصريين، بيد أن الباب العالي رفض طلبه"^(٣) وفشلت السلطات العثمانية في حشد الزعماء المحليين لإيقاف تقدم الجيش المصري.^(٤)

ونتيجة فشل الهجوم المصري ساد شعور بالخيبة في مصر وفي القدس. وقد خاطب إبراهيم باشا جنوده أكثر من مرة ليشجعهم على بذل ما في وسعهم لاحتلال عكا وإعلاء اسم مصر، فذكّرهم بالانتصارات السابقة في العديد من المواقع، وطالبهم بأن يثبتوا للعالم بأسره أن الجندي المصري مقدم.^(٥) وليزيد من زخم الهجوم قاد إبراهيم باشا الفرقة المهاجمة بنفسه، وتبع ذلك قتال طويل الأمد. وقد قيل إنه قطع بيديه أجساد عدد من الضباط الذين وقعوا في أيدي الفرقة المهاجمة لكنه خسر الآلاف من جنوده.^(٦)

ونتيجة لذلك سقطت عكا، وقام الجنود المصريون بنهب المدينة. وتم قتل أعداد كبيرة من المدنيين ولحق دمار كبير بالبيوت والأسوار. وغرقت البلاد في الدمار.^(٧) وقد أعلن عبد الله باشا وبتفاخر ما يلي: "كان لديّ أسوار ورجال ومال، دافعت بهم عن عكا، وعندما سيطر إبراهيم باشا عليها دُمر السور وقُتل ٥٦٠٠ رجل من رجالي

(١) رستم، المحفوظات...، مج١، ص ١٣٦.

(٢) الشدياق، كتاب أخبار...، مج٢، ص ٤٤٤، الشهابي، لبنان...، مج٣، ص ١٠٢٢، كتافكو، فتوحات إبراهيم...، ص ٢٣.

(٣) رستم، الأصول...، مج١، ص ١٤٧، رقم ٣٨٥، ص ١٥٧.

(٤) رستم، المحفوظات...، مج١، ص ١٣٠، رقم ٣٤٥.

(٥) مشاققة، مشهد العيان...، ص ١٠٣ - ١٠٤، حشي، تاريخ الأمراء...، ص ٢٠٢.

(٦) محمد كرد علي، الحكومة المصرية في الشام، القاهرة، ١٩٢٥، ص ١٧.

(٧) بيوتر لفوف، وصف سورية، بيروت، ١٩٨١، ص ٣١١. أبكاربوس، المناقب...، ص ٤٠. وأيضاً: بازيللي، سوريا...، ص

البالغ عددهم ٦٠٠٠، ولم يبق من خزينتي إلّا جواهر قليلة".^(١) وبذلك ألقى باللائمة في هزيمته على السلطان الذي لم يفعل شيئاً ليخلصه. إذ قال بمرارة إن: "الباب العالي له شرف راقصة".^(٢)

أما عبد الله باشا فقد أرسله ابراهيم باشا إلى مصر بسفينة كانت ذاهبة إلى الاسكندرية ومن هناك أرسله محمد علي باشا إلى استانبول تنفيذاً لأمر السلطان.^(٣)

سادساً: سياسة ابراهيم باشا في القدس ١٨٣٢:

كانت السياسات المصرية في فلسطين ترمي إلى تعزيز مشروع محمد علي التوسعي في المنطقة. وتكرر نمط المركزية والعسكرة الذي اتبعه نظام محمد علي في مصر، وتوسع فيه أثناء حكمه لسورية،^(٤) حاولت السلطات المصرية، عبر سياساتها، ضمان الأمن الداخلي والخارجي في فلسطين وسورية.^(٥) وكانت ترمي من وراء ذلك إلى تحسين الأوضاع المعيشية في المنطقة كأولوية للتمكن من الاستفادة من مواردها الطبيعية والبشرية، وإنتاجها الزراعي والصناعي.^(٦) فكان الاحتفاظ بجيش وأسطول قوين مطلباً ضرورياً لفرض النظام والقانون في سورية وللدفاع عنها وعن مصر.^(٧) وفي رسالة من الرسائل الموجهة إلى ابراهيم باشا شدد محمد علي على أهمية أمن السكان واستقرارهم، إذ كان ذلك "أحد أهم أركان الاحتلال".^(٨) حيث أدّت القوة دوراً مهماً في جميع مستويات الإدارة، فحيثما كانت السياسة تفشل، كان اللجوء إلى القوة هو البديل.

لم يحدث في هذه المرحلة تغييرات جوهرية في إدارة حكم القدس، إنما استمر النظام كما كان في الحقبة الممتدة حتى حصار عكا. فعند بداية الحصار أكد ابراهيم أنه لن يحدث أي خلل في النظام الإداري، وأمر متسلمي المدن وقضاها بالاحتفاظ بمناصبهم. وفي هذه المرحلة كان الدعم المقدم إلى عدد كبير من السكان ونفوذ حسين عبد

(١) البيطار، حلية البشر...، مج٢، ص ٧٦. بازيلى، سوريا...، ص ١١٣.

(٢) البيطار، حلية البشر...، مج٢، ص ٧٨.

(٣) كتب العديد من القصص المتضاربة عن حياة عبد الله باشا في استانبول ففي الوقت الذي يشير بازيلى أنه عاش في رغد هناك هناك وكان يتلقى راتباً من السلطان، بازيلى، سوريا...، ص ١٢١، يذكر كتفاكو أن عبد الله باشا عُيّن والياً على أدرنة (فتوحات...، ص ٤١) ويذكر أن عبد الله باشا رغب في العيش في مكة والمدينة، انظر مشاققة، ص ١١٣، وأيضاً البيطار، ص ٦٣.

(٤) كلوت، لمحّة...، ص ٨٥.

(٥) بازيلى، سوريا...، ص ١٤٤.

(٦) بازيلى، سوريا...، ص ١٤٣.

(٧) رستم، المحفوظات...، مج١، ص ٢٦٨، رقم ٧٧٩.

(٨) رستم، المحفوظات...، مج١، ص ٢٦٩، رقم ٧٨٠.

الهادي ومصطفى بربر (متسلم طرابلس) والأمير بشير، أمير جبل لبنان، يكفي لحفظ النظام في سورية، ومنح لبراهيم فرصة للتقدم بجيشه في مواجهة جيش السلطان.^(١)

عين ابراهيم باشا محمد شاهين آغا متسلماً على القدس. لكن بعد أن رفض هذا الأخير إعادة تعيينه، عين بحري بك، الذي كان آلاي بك القدس سابقاً، متسلماً على المدينة في ٣ كانون الأول ١٨٣١. غير أن عدم رضى السلطات المصرية عن هذا المتسلم دفع حنا بحري والأمير بشير وحسين عبد الهادي إلى التشاور فيما بينهم عن كيفية التعامل مع الأمر بالطريقة المثلى في بداية شباط ١٨٣٢. فاقترح حنا بحري إعطاء المتسلمية إلى مسؤول مصري يدعى قوجه أحمد آغا لكنه- وبدعم من حسين عبد الهادي- كان يحتاج في كون قوجه أحمد آغا أجنبياً في البلد وقدموه إلى القدس يحتاج إلى ٢٠ - ٣٠ يوماً،^(٢) يُحتم استبداله بقاسم الأحمد وأخيراً، خرجا بتوصية تفيد تنفيذ بضرورة تعيين هذا الأخير متسلماً على القدس. وتم هذا التعيين بعد سبعة أشهر من التوصية في ٢٢ أيلول ١٨٣٢.

لم تكن مسألة إخضاع نابلس لحكم زعاماتها تقع ضمن مخطط المصريين، ففي رسالة موجهة إلى محمد علي في ٢٣ كانون الثاني ١٨٣٢ أي بعد شهرين من تعيين زعماء نابلس في مناصبهم، أفصح ابراهيم باشا عن رأيه فيما يتعلق بسياسة التعيين في القدس ونابلس، فقال: "ما لم يتم تعيين متسلمين نافذين وفقاً لاختيارنا، فإن شؤون هذه المواقع لن تدار كما نرغب. لذلك كان من الملائم تعيين قوجه أحمد آغا متسلماً في نابلس شريطة ذهاب فرسانه معه. كما تقرر في مجلسنا أن من يصلحون لشغل منصب المتسلم والذين تم طلب ذلك منهم مسبقاً، يجب إرسالهم لنا في أسرع وقت ممكن".^(٣)

وبكلمات أخرى، في الحالات التي لم يكن فيها ابراهيم باشا مثقلاً بأعباء الواجبات العسكرية، أولم يكن مشغولاً بقمع الثورات المحلية، كان يعير اهتماماً لمشكلات الإدارة المدنية.^(٤)

أما في الأمور المهمة المتعلقة بالأوضاع المالية والإدارة والعسكرية، فكان يعقد اجتماعات مع بحري بك ومحمد شريف والأمير بشير وفي بعض الأحيان مع حسين عبد الهادي.^(٥) وقد اهتم ابراهيم باشا شخصياً بكثير من القضايا الإدارية، مثل الأمن العام، وأمن الطرق والتنمية الزراعية، ونقل الخشب إلى مصر وتحسين المواشي وحماية

(١) سجلات محكمة القدس الشرعية رقم ٣١٥، ص ١٢٩، رقم الوثيقة ٢٦، "الوثائق التي لم يوضع لها تاريخ يكون تاريخها غير واضح".

(٢) رستم، الأصول...، المجلد الثاني، ص ٤٢ - ٤٣.

(٣) النمر، تاريخ جبل...، المجلد الثاني، ص ١٨٥.

(٤) بازيل، سوريا...، ص ١٤٩.

(٥) رستم، الأصول...، مج ٣، ص ١٩٦ - ١٩٧، رقم ٢٣٥٣.

الضرائب المتأخرة، ويوضح هذا أن الإدارة المصرية لم تكن تحدد بوضوح اختصاص السلطين المدنية والعسكرية. وعلى الرغم من أن محمد علي فصل هاتين السلطتين بناء على طلب ابراهيم باشا، فإن الوضع على أرض الواقع كان مغايراً، إذ ظلّ يعدّ ابنه القائد الأعلى للسلطين المدنية والعسكرية. ومع ذلك علينا أن نتذكر أن المصريين هم الذين اتخذوا الخطوات الأولى في اتجاه فصل هاتين السلطتين.

١- السياسة العسكرية للمصريين في القدس:

أ- سياسة التجنيد الإلزامي:

عندما سمع محمد علي عن شجاعة الفلسطينيين واللبنانيين وشاهدتهم في ساحة المعركة، قرر تجنيدهم بالجيش بدلاً من جلب الجنود من مصر. وأوضحت هذه الخطوة رغبته بالسيطرة التامة على سورية،^(١) كموقع استراتيجي وضمان مكانته في مصر وتحقيق طموحه الكبير، المتضمن امبراطورية لسلالته تكون مصر مركزها. وقد أراد عدم الاكتفاء باستغلال الموارد الاقتصادية، بل أيضاً الموارد البشرية في سورية وفلسطين، وتوظيفها من أجل تحقيق مشروعه ففي ٢١ آب ١٨٣٢، كان لا يزال منخرطاً في الحرب مع الباب العالي في سورية، وقرر تجنيد أربعة أفواج من سورية،^(٢) طلب محمد علي من ابنه ابراهيم أن ينظر بجِد إلى مسألة التجنيد في المناطق المحتلة. كما وعد بأن يأتي بنفسه إلى عكا للإشراف على عملية التجنيد لجيشه،^(٣) ومع ذلك كان ابراهيم باشا وحليفه الكبير بشير الثاني، يعرفان حقيقة مشاعر الفلسطينيين والسوريين تجاه الحكومة الجديدة، ويدركان قوة المعارضة التي سيلقاها هذا القرار، لذلك أوصياه بالتمهل.

وعلى الرغم من كل الآراء المناهضة، فقد أصر محمد علي على أوامره الخاصة بالتجنيد الإلزامي وخلال النصف الثاني من شهر نيسان ١٨٣٤، وجد ابراهيم باشا نفسه في فلسطين وعلى استعداد لتنفيذ أوامر والده ودفعت الحاجة إلى توفير الأموال وحشد الموارد البشرية لضمان إنشاء قوة عسكرية جديدة بـابراهيم باشا لمواجهة الخيار الصعب. فقد كان محمد علي وابراهيم باشا قلقين إزاء صلح كوتاهية ١٨٣٣ وعدّوه اتفاقاً مؤقتاً، وتوقع ابراهيم باشا الاصطدام بالعثمانيين عاجلاً أو آجلاً، لذلك اضطر إلى اتخاذ سياسات كان يدرك مسبقاً أنها مثيرة للجدل: التجنيد ونزع السلاح، وهو بحاجة إلى التجنيد من أجل الجيش في فلسطين.^(٤)

(١) بازيل، سوريا...، ص ٤١٣.

(٢) رستم، الأصول...، ص ٨٠، رقم ١٦١٦.

(٣) رستم، المحفوظات...، ص ٨٩، رقما ١٦٧٩، ١٦٨٠.

(٤) مشاققة، مشهد...، ص ١١٦.

أرسل ابراهيم باشا إلى أبيه رسالةً يعلمه فيها أن التجنيد في المدن ممكنٌ ، أما في المناطق والقرى المحيطة بالقدس فهو صعب جداً وذلك لأن الفلاحين هناك يهربون إلى الجبال وبأنه يفكر في حيلة هي إعلان الحكومة أنها ستحفر نفقاً في يافا وحين يأتون يلقي القبض عليهم ويجندهم. غير أن محمد علي لم يوافق على تلك الخطة ونصح ولده أن يناقش الموضوع مع بعض الشيوخ الثقات للعثور على حل.^(١) وتسبب الفرار من التجنيد إلى الخارج بالقلق الشديد لمحمد علي وابراهيم باشا ودفعهما إلى التفكير في كثير من الحيل والإجراءات لمجابهة المشكلة.^(٢) وقد هرب كثيرون من الذين جُنّدوا وأصدر ابراهيم باشا أمراً إلى المتسلم بالقبض عليهم.^(٣)

وقد تمكن من يملك نقوداً كافية من التحرر بدفع رشوة إلى الوكلاء الصغار أو إلى شيوخ القرى. أما عائلات الفقراء فقد باعت كل ما تملك على أمل الحصول على المنافع نفسها من خلال علاقاتها.^(٤)

إن نجاح بعض العائلات الثرية في دفع بدل عن أولادها. أسفر عن ارتفاع سعر البدل إلى عشرة آلاف قرش.^(٥) هناك حالة مسجلة في سجل المحكمة الشرعية عن أم عجوز فقيرة ليس لها من يساعدها سوى ابنها، وحين جاء الجندي لأخذه، قررت بيع كل ما تملك واشترت عبداً كي يحل محل ابنها في الجندية بعد أن سمعت أن الحكومة تقبل البدل. غير أن البديل لم يُقبل فجُنّد ابنها، بينما احتفظت هي بالعبد لخدمتها.^(٦) وتوضح هذه الحادثة كيف كيف أن السلطات كانت تأخذ الأفراد من دون أن تعير اهتماماً لعجز الآباء والأمهات.^(٧)

اقترح محمد علي ابنه جعل الخدمة العسكرية للمجندين الجدد خمسة عشر عاماً،^(٨) وقد تم تجنيد ٤٠٠٠ شاباً من القدس وحدها و ٥٠٠٠ من نابلس وكتب نوفل:

كانت الخدمة العسكرية التي اعتادوا عليها محلية بكل معنى الكلمة. وكان نظام محمد علي العسكري يحملهم مرة إلى السودان، ومرة أخرى إلى الحجاز، ثم إلى مصر ثم إلى الحدود الجنوبية لآسيا الصغرى وكان الذين جندوا في سنة ١٨٣٤ أو سنة ١٨٣٦ مازالوا في الخدمة، وكان الباشا لا يكف عن طلب المزيد من الرجال ولم يستطيعوا فهم الهدف الذي كانوا يقاتلون من أجله. فحين كانوا يقاتلون سابقاً، كان لهم غرض محدد وواضح ومفهوم لدى

(١) رستم، المحفوظات...، مج ٢، ص ٤٠٥، رقم ٣٧٠٨، ص ٤٦١، رقم ٣٧٣٥.

(٢) رستم، المحفوظات...، مج ٣، ص ١٠٧، رقم ٤٥٢٠، ص ١٠٨، رقم ٤٥٢٥.

(٣) بازيلي، سوريا...، ص ١٦١.

(٤) سجلات محكمة يافا الشرعية، رقم ٩، ص ٧٩، رقم الوثيقة ١١، سجلات محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٢٢، ص ٢٠، رقم الوثيقة ٢٢.

(٥) لفوف، وصف سوريا، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٦) سجلات محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٢٤، ص ٤، رقم الوثيقة ١٩.

(٧) مشاققة، مشهد...، ص ١٤٤.

(٨) رستم، المحفوظات...، ص ٤١٦، رقم ٤٠١٣.

الجميع هو القتال من أجل الإطاحة بحاكم محلي بغرض، وكانوا هم أنفسهم يستفيدون من الانتصار، أما محمد علي، فكان يطلب منهم أن يحاربوا السوداني الإفريقي الذي لم يعرفوه من قبل أو البدوي الحجازي الذي يرفض الخضوع لسلطته، أو حتى ضد السلطان نفسه، سيده وولي نعمته، حين كانوا يقاتلون في السابق، كانوا يعودون ببعض الغنائم. أما الآن، فالباشا لا يمنعهم من أخذ أي شيء فقط، بل أيضاً يتدخل حتى في دخلهم الخاص باقتلاعهم من مهنتهم أمداً لا تعرف له نهاية. هكذا أصبح التجنيد مصدراً لشقاء تسبب به محمد علي وحده.^(١) لم يخبر المصريون عائلات الجنود بموتهم، وهوما يدل على سوء كفاءة النظام العسكري. وتبين قضايا كثيرة مسجلة في المحكمة الشرعية أن عائلات الجنود لم يعلموا بموت أبنائهم، بحسب شهود عيان إلا بعد عدة سنوات.^(٢) وقد وصف روبنسون مساعد العائلات التي تم أخذ أبنائها للجيش. ففي سنة ١٨٣٨، وبينما كان على الطريق من اللد إلى القدس، التقى ثلاث نساء من قرية الرامون، "كانت إحداهن أمّاً تمّ القبض على ابنها كي يصير جندياً، وقالت أنها كانت في يافا لزيارته وأنها عائدة بحزن شديد ولا تتوقع أن تراه ثانية."^(٣) أصابت سياسة التجنيد كثيرين بالأسى وسببت العديد من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية للعائلات التي تم تجنيد رجالها. فانفصمت عُرى العائلات، ولحق دمار بالبنية الاجتماعية للمجتمع المقدسي خاصة وللمجتمع الفلسطيني عامة، إذ كانت العائلة تعدّ الخلية الرئيسية في المجتمع، وفي ١٢ تشرين الثاني ١٨٣٦ عرضت على القاضي في محكمة القدس قضية تخص زوجة أحد الجنود من قرية العيسوية أدى تجنيده إلى بقائها من دون معيل، بينما استولى أخوه على كل ما امتلك زوجها ولم يدفع لها أي شيء من أجل طعامها وكسوتها.^(٤)

ب- نزع الأسلحة من أهالي القدس:

اقترح ابراهيم باشا على والده نزع سلاح السكان قبل البدء بتنفيذ التجنيد العام غير أن والده أصر على البدء بالتجنيد العام أولاً وأولاً بالبدء بالاثنتين في آن واحد. وخلال إخضاع الانتفاضة وبعده، شغل ابراهيم باشا بتجريد السكان من السلاح فأمر متسلم القدس بجمع كل البنادق والمسدسات والسيوف من سكان القدس ومن الفلاحين ونُشِرَ أمر في القدس جاء فيه: على كل رجل مسلم ومسيحي، ويهودي كذلك تسليم سلاحه، وإلا فسَيُعَدَم إذا اكتشفت خلال التفتيش أسلحة، أمام باب منزله. فسَلَّم سكان القدس الطيبون أسلحة رخيصة

(١) نوفل، كشف اللثام...، ص ٢١٩.

(٢) سجلات محكمة نابلس الشرعية، رقم ٩، ص ٣٠٢، رقم الوثيقة غير واضح.

(٣) سجلات محكمة نابلس الشرعية، رقم ١١، ص ٢٢، رقم الوثيقة غير واضح.

(٤) سجلات محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٢١، ص ١٠، رقم الوثيقة ٣٩.

وتالفة أولاً، غير أنهم بعد التحذير، أحضروا أيضاً تلك التي كانت مخبأة، ومع ذلك كان لديهم بنادق وحرا ب سرقوها من مخازن الحكومة فأخفوا بعضها جيداً، ورموا بعضها الآخر ليلاً في الحرم الشريف.^(١)

اضطر القرويون في ضواحي القدس إلى تسليم بنادقهم بعد تحذير المتسلم لهم وضربهم ضرباً مبرحاً. كانت الأسلحة تصل يومياً على ظهور الجمال حتى امتلأت المستودعات، وجلب الحدادون من القدس وكُسِرت الأسلحة واستخدمت الأجزاء الخشبية في مطبخ الجنود.^(٢) وقد جُمع في ذلك اليوم ١٢٠٠٠ بندقية قديمة من نابلس و٤٠٠٠ من القدس ودُمِرت في المخازن.

كان الناس معتادين على حمل البنادق والمسدسات والسيوف المعقوفة والخناجر ذات الحواف المزدوجة والسكاكين الطويلة. وكانوا يتسلحون على هذا النحو لإبعاد البدو الذين كانوا يستولون على محاصيلهم. لذلك لم ينجح النظام المصري إلا قليلاً في تجريد السكان من سلاحهم. وقد ذكر الرحالة الأميركي ستيفنز أن رعايا ابراهيم في الخليل الخاضعة لولايته، كانوا يحملون السلاح سراً فيها.^(٣)

كان هدف الحكومة المصرية من سياسة نزع سلاح السكان، التي تشكل إحدى خصائص الدولة الحديثة، احتكار استخدام القوة. فهي جردتهم من واحدة من أهم وسائل الدفاع عن أنفسهم، ومنعتهم من مقاومة سياسات الحكومة.

ت- رد فعل أهالي القدس على احتلال محمد علي:

لا يمكن إبداء رأي شامل في مدى رضى السكان عن الحملة المصرية على فلسطين أو عدم رضاهم. فالمثير هو أن زحف القوات المصرية إلى فلسطين أحيا آمالاً بقدر ما ولد مخاوف لدى السكان والزعماء المحليين. فقد أيد بعض الفلسطينيين الحكم المصري بصفته رادعاً لتوسيع تدخل الدولة المباشر في الشؤون المحلية، وأمل بقيام عهد جديد تحت هذا الحكم. وبعرض الدعم للاحتلال المصري، فإن "بعض النخب المحلية بدا أنه يحاول التثبت بعالم يوشك على الزوال".^(٤)

(١) Spyridon , S.N . "Annals of Palestine , 1821 – 1841" . The Journal of The Palestine oriental society. (1938) , P 63 – 132 .

(٢) Spyridon , Ibid , P 118 .

(٣) Stephens , John L.loyd . Incidents of Travel in Egypt , Arabia Petraea and the Holy Land . Oklahoma (1970) . P 310 .

(٤) Divine , Donna Robinson . Invasion and occupation : Egyptian Rule – 1831–1840 . In politics and society in ottoman Palestine : The Arab Struggle for survival and power . London . (1994) . PP . 47 – 48 .

لقد كتب مندلسون رود Mendelsohn-Rood في هذا الموضوع: كان ذلك الاستعداد الأولي لتقبل، بل لدعم حكم ابراهيم باشا أحد معالم المنافسة السياسية في المنطقة. فلم يكن لدى سكان بلاد الشام ما يمكنهم من معرفة نيات محمد علي وابنه للاستيثار بسلطات سيدهم السلطان، لأنفسهما. فالمشكوك فيه أن يكون أحد من سكان سورية فكر في إمكان أن يكون ابراهيم أو محمد علي مختلفين عن الباشوات الآخرين السابقين. بل إن سمعة محمد علي المخيفة حاكماً للقاهرة، وهو الذي قام بتصفية المماليك وجرّد عدداً كبيراً من العلماء من أملاكهم، لا بد أن يكون سكان سورية يعرفونها.^(١)

كان ابراهيم باشاً متلهفاً لتبيان فوائد احتلاله للسكان المحليين، فحث جنوده على التزام مستوى سلوك راق في خضم المواجهات، وعاقب الذين ألحقوا ضرراً بأناس غير محاربين، وأعاد أملاكاً مصادرة. وعلى سبيل المثال، حين نهب رجاله عكا أمر بالبحث عن المواد المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها، وعاقب ضباطه لسماحهم بحدوث ما حدث.^(٢) وقد جعلته حملته الواسعة لكسب ولاء السكان المحليين يدفع أثماناً باهظة للمواد الغذائية والمؤن الحربية. وخلال العام الأول من الحكم المصري، أدى الجفاف إلى ندرة الحصاد. وإذا أخذت السلطات المصرية ذلك في الحسبان، عمدت إلى خفض نسب الضرائب^(٣) كما التزمت الحكومة الجديدة بعض العدل من أجل تحقيق هدفها السياسي.^(٤)

أعاد ابراهيم باشا في أول احتكاك له بشؤون القدس، تعيين محمد شاهين آغا متسلماً للمدينة إلا أنه لم يرغب في إثارة حفيظة النخبة الدينية ووافق على طلبها تعيين يحيى بك، الذي كان سابقاً ألابي بك القدس بعد اعتذار محمد شاهين آغا عن عدم قبول إعادة التعيين.^(٥)

أ- كذلك حاول ابراهيم باشا استمالة النخبة الدينية كي تتعاون معه. وفي ١٨ كانون الأول ١٨٣٢، أصدر أمراً إلى المتسلم بأن يمنح دراويش تكية المولوية في القدس وفقراءها، يومياً، خبزاً ولحماً على حساب خزانة القدس كالمعتاد. وفي ١ كانون الأول ١٨٣٣ أصدر محمد علي بنفسه أمراً إلى شريف بك بمنح الشيخ محمد البديري شيخ تكية المولوية مخصصاته السنوية المعتادة وفقاً للنظام القديم،^(٦) وأمر بالشيء

(١) . Mendelsohn , op- cit , PP . 139 – 140 .

(٢) كتافاكو، فتوحات ابراهيم...، ص ٣٠، رستم، المحفوظات...، مج، ص ٣١٥ - ٣١٦، رقم ١٠١٨، سامي، تقويم النيل...، مج، ص ٣٩٤.

(٣) . Divine , Ibid , P . 55 .

(٤) كتافاكو، فتوحات...، ص ٣١.

(٥) سجلات محكمة القدس الشرعية، رقم ٣١٥، ص ١٢٩، رقم الوثيقة ٩١.

(٦) رستم، المحفوظات...، مج، ص ٣٧٦، رقم ٣٣١٣.

نفسه للقيمين على خدمة المقامات والصخرة المشرفة ومن كانوا يتلقون مخصصاتهم المعتادة من خزينة القدس.^(١) وكان إبراهيم باشا أعلن حين دخل القدس أنه منذ ذلك الحين فصاعداً، سيتم إلغاء كل أشكال التمييز بين المسيحيين والمسلمين، واستقبل المسيحيون الإعلان بالفرح واعتبروه بشير عهد جديد.

سابعاً: القدس والقنصليات الأوروبية ١٨٣٨ :

عمد محمد علي كي يأمن جانب القوى الأوروبية وإحباط أي أعمال عدائية قد تؤتيها وخصوصاً انكلترا، إلى طمأنة هذه القوى إلى أن السياسات المصرية ستسهل، بدلاً من أن تعرقل، مصالحها الاقتصادية في سورية في سياق سياساته التوسعية. لذلك شجع الحاكم المصري التغلغل السياسي والديني - الثقافي الأوروبي وسهّله من خلال السماح بفتح قنصليات في القدس.^(٢)

إن فتح القدس أمام القنصليات الأوروبية هو التطور الأهم في هذه الفترة، إذ جرت في السابق محاولات متقطعة لإقامة محطات قنصلية في فلسطين قبل الحكم المصري. غير أن بداية الأعمال القنصلية المنتظمة والموسعة، وبرز القدس بؤرة للنشاطات الدبلوماسية الأوروبية، يمكن تأريخه بهذه المرحلة. إذ دشّن الانكليزيون ذلك بافتتاح قنصلية لهم في القدس سنة ١٨٣٨. وتم الإيعاز إلى القنصل العام في الاسكندرية، باتريك كامبيل Pattick Campbell، التحدث مع محمد علي في هذا الموضوع وضمان موافقته شرط الحصول أولاً على موافقة السلطان، بصفته السيد الشرعي لذلك أوعز إلى القنصل الانكليزي في استانبول، بونسونبي Ponsonby، أن يتقدم بطلب إلى الباب العالي من أجل فرمان، وأن يبين بأن شكاوى كثيرة قدمها إلى الحكومة الانكليزية السياح الذين زاروا البلاد المقدسة.

ولم ينجح "بونسونبي" في الحصول على فرمان المطلوب إلا في تموز ١٨٣٨، بسبب عدم ثقة السلطان بأن وزراءه سيقبلون بقنصل انكليزي في القدس، أو لأن السلطان كان يأمل كسب رضى انكلترا العظمى حليفاً له في صراعه مع محمد علي.^(٣)

(١) سجلات محكمة القدس الشرعية، رقم ٣١٦، ص ٦، رقم الوثيقة ١٤، ص ١٢، رقم الوثيقة ٢٢، رقم ٣٢٢، ص ٢٥، رقم الوثيقة غير واضح.

(٢) رستم، المحفوظات...، مج ٢، ص ٢٧٢، رقم ٢٧٣٦، ص ٣٥٨ - ٣٥٩، رقم ٣٢٠٥، مج ٣، ص ٣٧، رقم ٤١٨٩، ص ٤١، رقم ٤٢٠٣، أيضاً، مذكرات (لا تاريخ لها)، ص ٦٨ - ٦٩.

(٣) Tibawi , A.L. British interests in Palestine . 1800 - 1901 : A Study of Religious and Educational Enterprise . London . (1961) . P. 31-32 .

كانت صعوبة افتتاح قنصلية في القدس كبيرة. فهي ثالث مدينة مقدسة في الإسلام والمدينة الأولى عند المسيحيين، وعلى الرغم من أن دخول الحجاج والسياح الأوروبيين كان مسموحاً به، فإنه لم يكن مسموحاً قط لأي أجنبي، سواء بشكل فردي أو كممثل دبلوماسي بالإقامة بها. وبمعزل عن تلك السياسة الرسمية، كانت السلطات المحلية (المدنية والدينية) والسكان المسلمون يعارضون وجود أي مظاهر للنفوذ الأجنبي بينهم.^(١)

١- العوامل الرئيسية لإقامة القنصليات في القدس ١٨٣٨:

كانت العوامل الرئيسية الدافعة إلى إقامة قنصلية في القدس نابعة بالتأكيد من تزايد عدد الزوار الانكليزيين للأراضي المقدسة، وكذلك من تزايد اهتمام الكنيسة الانكليزية بالغنى الروحي لمواطنيها. ويضيف هايامسون Hyamson، على الرغم من أنه لا يمكن القول إن القنصلية الانكليزية تأسست في القدس سنة ١٨٣٨ لمصلحة يهود الأراضي المقدسة بدرجة رئيسية، فإنه من المؤكد أن وجود السكان اليهود، ومعظمهم غير عثمانيين، ولم يكن ممكناً لهم الحصول على المساعدة أو الحماية من حكوماتهم، كان أحد دوافع تعيين ممثل انكليزي في القدس.^(٢)

وفي ٣١ كانون الثاني ١٨٣٩، كتب بيدويل (Bidwell)، مسؤول الخدمات القنصلية في وزارة الخارجية الانكليزية، إلى يانغ Young ما يلي: "تلقيت توجيهات من الفايكونت بالمرستون بتبليغكم أن حماية اليهود بصورة عامة ستكون جزءاً من مهماتكم نائباً للقنصل في القدس، وأنكم ستقدمون في أقرب فرصة تقريراً إلى سيادته عن الوضع الراهن للسكان اليهود في فلسطين."^(٣)

أراد الانكليزيون زيادة نفوذهم هناك، فكتب يانغ، بصفته نائب القنصل، إلى بالمرستون يتحدث عن "تنمية مشاعر الصداقة نحو الإنكليز". وكذلك "تعميم الانطباع الودي بينهم (اليهود) وبين جيرانهم السكان الوطنيين نحو بلدنا."^(٤)

وكان ميناء يافا والمنطقة الواقعة إلى الجنوب من صيدا من حدود فلسطين يعتبران ضمن ولاية للقدس القانونية^(٥) وأخذت انكلترا تدرك، أكثر من أي وقت مضى، أن مجرد وضع قدم في الأراضي المقدسة، وممارسة أي حق فيها

(١) Tibawi . Ibid . P . 32 – 33 .

(٢) Hyamson , Albert and others , eds . The British , consulate in Jerasalem in Relation to the Jews of Palestine , 1838 – 1914 . London . (1939) . P . 2 .

(٣) Hyamson , Ibid , P . 3 .

(٤) Hyamson , op- cit . P . 4 .

(٥) Hyamson , op- cit . P . 5 .

إنما يعني، إلى حد ما، الدخول في تنافس مع روسيا وفرنسا اللتين كانتا البادئتين في سباق الحصول على النفوذ من خلال حماية الأقليات.

فقد كانت روسيا تاريخياً القوة الحامية للمسيحيين الأورثوذكس، كما كانت فرنسا الحامية للكاثوليك في فلسطين والشرق الأوسط بصورة عامة، وبدا الوقت مهياً لتعديل ميزان مناطق نفوذ هذه القوى. فكان لا بد للقوى البروتستانتية، وهي انكلترا وبروسيا، من البحث عن جماعة تتولى حمايتها، أو أن تنشئ هذه الجماعة إن لم توجد: اليهود والبروتستانت.

وأدت تلك السياسة، إلى أمور، منها تعيين قنصل إنكليزي في القدس سنة ١٨٣٨ وكان من المفترض في البداية أن يشكل وزناً في مقابل المخاوف من توسع النفوذ الروسي. وخلص شولش Scholch إلى القول: إن الخطوة الأولى في التغلغل الأوروبي المنهجي في فلسطين، تم اتخاذها في سياق التنافس الأوروبي في شأن المسألة الشرقية.^(١) وفي ١٤ آذار ١٨٣٩ قدم يانغ تقريره إلى المرستون جاء فيه ما يلي: "هناك الآن فريقان، وسيكون لهما بلا شك صوت ما فيما ستؤول إليه الأمور في المستقبل. الأول هم اليهود والثاني هم المسيحيون البروتستانت... بالنسبة إلى الفريقين، تبدو انكلترا العظمى أنها الراعي الطبيعي، وهما الآن يتخذان موقعيهما بين المطالبين الآخرين".^(٢)

ومع إقامة القنصلية الانكليزية، احتلت انكلترا موقع القيادة في المنافسات الدينية- السياسية للقوى الأوروبية في فلسطين، وهكذا بدأ السباق لضمان الامتيازات الأوروبية وتوسيعها، كما بدأ الحضور الديني- الثقافي، أولاً خلال الأربعينات من القرن التاسع عشر، ثم خلال حرب القرم. وافتتحت قنصليات أخرى لاحقاً (لبروسيا)^(٣) عام ١٨٤٢، وفرنسا وسردينيا عام ١٨٤٣، والولايات المتحدة الأميركية عام ١٨٤٤، النمسا عام ١٨٤٩، روسيا عام ١٨٥٨) غير أن كثيراً من الخطوات الأولية في ذلك الاتجاه يعود إلى فترة الحكم المصري. على سبيل المثال

(١) Scholch , Alexander . "The Decline of local power in Palestine After 1856 . The case of Aqil Agha." Die Welt des Islams vol . xxiii – xxiv (1984) , PP . 458 – 475.

(٢) Hyamson , op- cit , P . 4 .

(٣) Hirsch Feld , Yair . " Some Findings on Prussian and ottoman – policies in Palestine During the 1940 Based on the Writing of Dr . Gustave . Schultz , the First Prussian vice – Consul to Jerusalem 1840 – 1851 " . In Palestine in the Late ottoman period : political , Social and Economic Transformation . Edited by David Kushner . Jerusalem (1986) . P . 70.

أوصى الكونت أندريه مورافيف Andrei Muravev الذي زار فلسطين سنة ١٨٣٨ وكان عضواً في المجمع الكنسي المقدسي، بإقامة قنصلية روسية في القدس.^(١)

وفي تشرين الأول ١٨٣٩، زار القنصل الروسي القدس وعيّن ممثلاً له هناك،^(٢) فأدى ذلك لاحقاً إلى وجود روسي دائم في القدس. لكن ذلك لم يكن المثل الأول للنشاطات الروسية في فلسطين. ففي سنة ١٨٣٨ كانت دائرة الخدمات القنصلية الروسية في دمشق قد مضى على وجودها نحو عشرين عاماً، غير أنها كانت ضعيفة وغير مؤثرة. وتأسست أول محطة سنة ١٨٢٠ في يافا، حيث الميناء الذي كان الحجاج الروس يدخلون فلسطين منه، وكان القنصل الروسي في يافا، موستراس (Mostras) كلف مهمة أمور الحج للحجاج الروس، وخلال الثلاثينات، عيّن وكلاء قنصليون في حلب واللاذقية وبيروت وصيدا. وكانت تلك المحطات كلها تتبع القنصلية في الاسكندرية. وفي آب ١٨٣٩، تقرر نقل قنصلية يافا إلى بيروت، فأصبحت هي القنصلية الروسية في سورية وفلسطين.

تلقى القنصل الجديد، قسطنطين بازيللي، تعليماته بأن يرعى ويحمي مصالح الأورثوذكس في الأراضي المقدسة. ويعني ذلك أن على القنصل تنفيذ السياسة الروسية القائمة على حقها في حماية الأورثوذكس في الامبراطورية.^(٣) وقد كان هناك حلم روسي بالاستيلاء على فلسطين. فقد اعترف القيصر نيكولاس الأول سنة ١٨٣٣ في جواب على مذكرة تطالب بالاستيلاء على الأراضي المقدسة، بقوله: "لقد اكتشفتم رغبتكم الكامنة في أعماقي، لكنني أعرف أن تحقيق ذلك صعب وسيلاقى عقبات مهمة".^(٤) ومن الجدير بالذكر أن دور الحامي لم يكن، عند القوى الغربية، سوى واحد من عدة أدوات لمحاولة السيطرة على الامبراطورية العثمانية. أما روسيا، فقد كان الأمر معها أبعد من ذلك. فحماية الأورثوذكس كانت أهم أداة في السياسة الروسية الشرقية، وفي فلسطين كانت هي الأداة الوحيدة.^(٥)

(١) Hopwood , Derek . the Russian presence in Syria and Palestine , 1843 – 1914 .

oxford (1969) . P 263 .

(٢) Hyamson . op- cit . P . 14 .

(٣) إيرينا سميليا نساكيا، سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ترجمة يوسف عطا الله، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٤) Scholch , op- cit , P 57 .

(٥) Scholch , op- cit , P 58 .

٢- فتح أبواب القدس أمام الأوروبيين:

شجع الحكم المصري على الوجود الأجنبي في القدس. فقد تبنى محمد علي وابنه ابراهيم سياسة معلنة وواضحة نحو الأجانب وغير المسلمين من السكان المحليين في فلسطين. لذلك فتح المصريون البلاد أول مرة للأوروبيين كي يشتوا للقوى الكبرى أن الحكم المصري أكثر تسامحاً من الحكم العثماني السابق.^(١) وفي ٨ أيلول ١٨٣٩ أمر محمد علي متسلم القدس بالسماح للمستأمنين (على غرار المبشر الدانماركي، نيكولا بازون) بشراء منازل هناك^(٢) وتم بناء على ممارسات سابقة سمح فيها للمستأمنين بشراء ذلك النوع من الأملاك وفقاً لعقود صادرة عن المحكمة الشرعية.^(٣) لكن في حالة مماثلة، منع قاضي القضاة في ١٢ أيار ١٨٣٦، القنصل الأميركي (كليون أوكليادون) من شراء أرض قرب داود من أجل إقامة مقبرة، وكان ذلك وفقاً لما نصت عليه الشريعة في الوثيقة.^(٤) أصبحت القدس بصورة خاصة وفلسطين بصورة عامة في أواخر ثلاثينات القرن التاسع عشر، نقطة جذب مركزية لمصالح القوى الأوروبية. فزادوا في حمايتهم الأقليات من أجل توسيع حضورهم ونفوذهم في البلاد. وبذلك صار النظام القنصلي بمثابة مظلة تغطي نشاطات متعددة مثل إقامة مستشفيات ومدارس ونشر كتب وصحف، وشراء أراض. وعلى الرغم من أن النشاطات الكبرى حدثت بشكل رئيسي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإنه يمكن رؤية جذورها في الخطوات الأولية التي حدثت تحت الحكم المصري.^(٥) وهكذا شهدت فلسطين خلال الحكم المصري افتتاح القدس أمام التغلغل السياسي والديني-الثقافي الأوروبي. وتطور هذا التغلغل خلال العقود التالية على مستويين:

- أ- **المستوى السياسي** بين الحكومات الغربية، وخصوصاً انكلترا، وروسيا وفرنسا وبروسيا.
- ب- **المستوى غير الحكومي** والتطلعات الاجتماعية وأحركات التبشير، إذ كانت هناك فكرة "الصلبية المسالمة" إلى جانب الاهتمام المسيحي واليهودي التقليدي بفلسطين عامة والقدس خاصة.

(١) Alex Carmel . The Activities of The European powers in Palestine , 1799-

1914 . Asian and African Studies , (1985) , vol . 19 . P . 43 , 91 .

(٢) سجلات محكمة القدس الشرعية رقم ٣٢٣، ص ٣٣، ٣٦، ٣٧، رستم، المحفوظات...، مج ٣، ص ٢٧٠، رقم ٥٨٧٤.

(٣) Mendelsohn – Rood , op- cit . P . 244 .

(٤) رستم، المحفوظات...، مج ٣، ص ٣٠-٣١، وثيقة رقم ٥٨٧٦.

(٥) Shamir , shimon . Egyptian Rule (1839 – 1840) and the Beginning of the

Modern period in the History of Palestin . in Egypt and Palestine : A Millennium of Association , 1868 – 1948 Edited by Annon cohen and Gabriel Baer .

Jerusalem , (1984) . P . 214 – 231 .

أخذت مكانة القدس الدولية، وكذلك كل فلسطين، بالصعود فالإحياء الديني في انكلترا وأميركا منذ أوائل القرن التاسع عشر، والحماسة المتعلقة بالآثار، والرغبة في دراسة التاريخ القديم والتاريخ التوراتي أدت كلها إلى ظهور سيل من العلماء والرحالة الذين أخذوا يعرفون القارئ الغربي بالأراضي المقدسة.

لم يكن إخضاع البلاد للاستكشاف العلمي "تولاه علماء بمستوى توبر Tober، روبنسون Robinson، شوبرت Schubert وكيرزون Curzon" قيمة في نظر المجتمع المحلي مثل قيمته في نظر الأوروبيين. هكذا تدفق الرحالة والحجاج والمبشرين والتجار والمبعوثون القنصليون واللاجئون الأجانب. أدى استخدام القوارب البخارية إلى جعل السفر بحراً آمناً وأقصر وأسهل وأرخص. ولذلك فإن الرغبة في الاستطلاع والتعلق الديني ما لبثا أن جلبا سنوياً عدداً متزايداً من الحجاج والزوار من كثير من البلدان المسيحية،^(١) وقد زار أمير فرنسا القدس سنة ١٨٣٦.^(٢)

وبعد انتهاء حكم محمد علي في سوريا وفلسطين عام ١٨٤٠، احتفظ العثمانيون بسياساته، فشهدت القدس دخول مزيد من القناصل الأوروبيين والشخصيات الدينية. ونتيجة ذلك تزايد اهتمام الجمهور الأوروبي بالأراضي المقدسة، ووقعت فلسطين في خضم صراع المصالح الأوروبية. وكان أساس كل من التغلغل الأوروبي في فلسطين والعنصر الرابط بين المصالح الاجتماعية والسياسية، هو حقيقة أن سيطرة قوة أوروبية واحدة مطلقة على الأراضي المقدسة بدت بالغة الصعوبة حتى أواخر الحرب العالمية الأولى. لذلك سعت كل قوة أوروبية لبناء حضورها وتوسيعه في فلسطين، وخصوصاً من خلال التغلغل الديني الثقافي، و"حماية" الأقليات الدينية. وفي ضوء ذلك، دعمت كل قوة نشاطات مواطنيها الثقافية والتبشيرية.^(٣)

كذلك عندما أصبحت الأراضي المقدسة في دائرة الضوء، استيقظت الرغبات الدولية الجامعة، ووضعت الخطط، وانطلقت التخيلات من دون ضوابط. وعلى امتداد أوروبا طفت على السطح في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، خطط ومطالب من أجل امتلاك الأراضي المقدسة أو السيطرة عليها، وخصوصاً من خلال دعم القوى الأوروبية للسلطان في أثناء طرد المصريين من سورية، وفي ٣١ آب ١٨٣٩، رد فريدريك فلهلم الرابع على عريضة طالبت بإقامة دولة مسيحية مستقلة في القدس تحت حماية القوى العظمى، بحزن قائلاً: "أشاطركم بالتأكيد رغبتكم التي عبرتم عنها في عريضتكم، وهي أن.....لرفع مكانة القدس إلى مكانة الدولة المسيحية الامبراطورية.

(١) Abu- Manneh , Butrus . Jerusalem in the Tanzimat Period : The New ottoman Administration and the Notables . " Die Welt des Islams " . 30 (1990) , P : 1- 44.

(٢) رستم ، المحفوظات...، مج ٣ ، ص ١٥٥ ، أرقام ٤٧٢٢ ، ٤٧٢٤ .

(٣) Scholch , op- cit , PP . 49 – 50 .

أرجو أن تتمكنوا من إدراك الصعوبات التي تقف في طريق هذه الرغبة، ولا تخدعوا أنفسكم بأن هذا يمكن أن يتحقق بسهولة".^(١)

في الوقت ذاته، كان الصهيونيون غير اليهود في انكلترا مشغولين، في السياسات اليومية بأفكارهم عن "بعث اليهود"، تلك الأفكار التي نضجت على مستوى السياسة الخارجية. ففي سنة ١٨٤٠، وبفعل تأثير اللورد شافتسبري (Shaftesbury)، حاول بالمرستون إقناع السلطان بفكرة عودة اليهود، مجادلاً في أنه يجب تشجيعهم على الاستيطان في فلسطين.

ومن جهة أخرى، فإن السلطان والامبراطورية سيستفيدان من الثروات التي سيقدمها عدد كبير من الرأسماليين الأثرياء إلى فلسطين.^(٢)

كثرت الخطط الدولية في ذلك الحين أيضاً. وكان ضعف الدولة العثمانية التي اهتزت سيطرتها على فلسطين، على الأقل مؤقتاً بفعل المصريين، سبباً في تمدد المنافسات الدولية إلى الأراضي المقدسة. كما أن سيطرة محمد علي على سورية جعلت من فلسطين واحدة من البؤر المركزية في "المسألة الشرقية" وقد وصف فيريت (Verete) ذلك بقوله: كانت الأحاديث والخطب والخطط والمشاريع من أجل مستقبل فلسطين بصفتها كياناً يهودياً أومسيحياً مستقلاً تماماً أو شبه مستقل، منتشرة في العديد من الدول الأوروبية في الفترة ١٨٣٩ - ١٨٤٠.^(٣)

كما عادت الطموحات السياسية الفرنسية إلى الظهور، واشتدت خلال عهد محمد علي. الذي كان الفرنسيون على علاقة وثيقة به، إذ كانت الأزمة الدولية التي تسبب بها احتلاله هي التي، (وفقاً لتعبير تيمبرلي Temperle) "لفتت انتباه فرنسا إلى فلسطين"، فكانت المنطقة التي شملتها مصالح فرنسا توصف بذلك المصطلح العريض، "الليغانة" الذي كان يعني سورية ولبنان، غير أنه كان كثيراً ما يشير إلى أن هذا المفهوم يشمل فلسطين أيضاً. وكان مشروع احتلال (Guizot)، في أواخر سنة ١٨٤٠، أحد تجليات ذلك الموقف الداعي إلى تدويل فلسطين أو القدس، لفتح الباب أمام دخول فرنسا إلى شؤون الشرق وتحويل القدس إلى مدينة مسيحية منفصلة عن بقية ولايات صيدا وتشملها ضماناً كل القوى الأوروبية. غير أن ذلك المشروع رفضه بالمرستون ومترنيخ وآخرون.^(٤)

(١) . Scholch , op- cit , PP . 52 – 53 .

(٢) . Ibid , P. 55 . Mendelsohn– Rood , op- cit , P. 245 . أيضاً: حجار، عروبة...، ١٩٧٦، ص ٢٣٥ - ٢٤٠.

(٣) Mayir Verete , " palerston and the Levant Crisis 1832 " . Journal of Modern History , (24 June 1952) , PP . 143 – 151 .

(٤) (معلومات أوفر، انظر: 13 – 31 . PP . Verete , Ibid .

حتى المصالح الألمانية في هذا الجزء من العالم، قد وصلت في أواخر القرن إلى موقع مهم لدى الباب العالي، ويمكن العودة بأصولها إلى تلك الفترة من الحكم المصري حين نشر المبعوث العسكري إلى استانبول، فون مولتكه، خطة لتحويل فلسطين إلى دولة حاجزة "ومن الأفضل أن تكون تحت السيطرة الألمانية"^(١) ففي الأعوام التي تلت الحقبة المصرية مباشرة، كانت نشاطات بروسيا في القدس تأتي في المرتبة الثانية فقط بعد نشاطات انكلترا.

ت- مشروع مونتيفيوري في القدس وموقف محمد علي منه ١٨٣٩:

زار السير موزس مونتيفيوري (Moses MonteFiore) ذلك المحسن الانكليزي اليهودي عام ١٨٣٩ القدس وتحول في الأراضي المقدسة سبع مرات بين ١٨٢٧ و ١٨٧٥، وفي مدينة صفد أيضاً وفكر في طرق تحسين حياة الناس، وكتب في مذكراته: "أنا واثق بأن الخطة التي أفكر فيها إذا نجحت فستكون هي الوسيلة التي توفر السعادة والوفرة في الأراضي المقدسة. سأقدم من محمد علي بطلب أرض منحة مدة خمسين عاماً، نحو مئة أو مئتي قرية، توفر له إيجاراً متزايداً بنحو عشرة أو عشرين في المئة، ويدفع الكل نقداً كل سنة في الاسكندرية، لكن يجب أن تكون الأرض والقرى متحررة خلال المدة كلها من الضرائب ورسوم الباشوية أو الولاية على السناجق المتعددة، ويتم توفير الحرية في التصرف بالمنتجات في أي بقعة من العالم. وإذا تم تسليم تلك المنحة، فسأرضي الله لدى عودتي إلى انكلترا، بشركة من أجل زراعة الأرض وتشجيع أخوتنا في أوروبا على العودة إلى فلسطين".^(٢)

وفي ١٤ تموز ١٨٣٩، التقى مونتيفيوري محمد علي في الاسكندرية للتباحث في إمكان استئجار أرض في فلسطين. عبر محمد علي عن لطفه إلى رؤية الأرض مزروعة ومجيء العمال المدربين للعمل فيها غير أنه قال لمونتيفيوري إن الأرض ملك للسلطان، لكنه ما لبث أن تحمس كثيراً لحماس زائره عندما ذكر الأخير آخر أفكاره إذ إن الانكليزي: تحدث عن تأسيس بنوك قائمة على المحاصصة برأس مال مقداره مليون جنيه إسترليني مع القدرة على زيادته عند الضرورة، التمعت عينا محمد علي وبدا مسروراً، وأكد له (لمونتيفيوري) أن البنك سيحظى بحمايته، وأنه سيكون سعيداً لرؤيته وقد تأسس.^(٣)

تشير ردة الفعل هذه إلى تشجيع الإدارة المصرية وجود أجناب في القدس وأماكن أخرى من فلسطين. وأدى تأييد محمد علي لتلك التطورات إلى فتح أبواب القدس وفلسطين واسعة أمام السياسات الإقليمية والأجنبية.^(٤)

(١) Eliav , Mordechai . " Geriman Interests and the jewsh Community in Nineteenth Century Palestine ". In studies on Palestine during the ottoman period . Edited by Moshe Maoz . Jerusalem . (1975) . PP . 423 – 465 . P 426 .

(٢) Medelsohn , op- cit . P 245 .

(٣) Medelsohn , op- cit . P . 246 .

(٤) Medelsohn , op- cit . P . 256 .

ففي أمر تعيين متسلم جديد للقدس، هو مصطفى آغا السعيد، في ١٥ كانون الأول ١٨٣٦، وصف شريف باشا القدس بقوله: "هذه المدينة مكان نبيل وهي تزار من كل الأمم في العالم" لذلك على المتسلم أن يتصرف في أدب ومبادئ أخلاقية نحو الأهالي.^(١)

كما وصف الرحالة الانكليزي كينغليك Kinglake تشجيع الإدارة المصرية وحمايتها للأجانب على النحو التالي: "نابلس هي الأتون ذاته للتعصب المحمدي، وأنا أعتقد أن ذهابي إلى هناك قبل بضعة أشهر فقط من ذهابي إلى هناك، كان من قبيل التهور المجنون لرجل ما، إلا إذا كان محاطاً بالحراس، أن يظهر أمام سكان المدينة في بذلة فرانكية. غير أنهم منذ انتفاضتهم الأخيرة، تم إخماد الحمدين بقسوة من قبل ابراهيم باشا، إذ إنهم لم يعودوا يجرؤون الآن على إبداء أي إهانة مهما تكن صغيرة لأي أوروبي..... فإذا أخذت أسير في الشوارع والأسواق خيم صمت قاتل. توقف كل رجل عن عمله وأخذ يحدق بي بنظرة زجاجية ثابتة".^(٢)

ثامناً: الأسباب العامة لثورة القدس:

١- الأسباب الدينية والسياسية:

كانت النخبة الدينية في القدس وعلماء فلسطين بصورة عامة، غير متحمسين منذ البداية للحكومة المصرية الجديدة، إذ ارتبط هؤلاء تقليدياً بالسلطان خليفة المسلمين، وبنظام الامبراطورية القضائي والديني. واستمد العلماء سلطتهم ومكانتهم من جملة من الوظائف التخصصية وغير التخصصية في المجتمع الإسلامي فكانوا يسيطرون على النظام القانوني والقضائي عبر المحاكم الدينية التي كان مناطاً بها العديد من الوظائف الإدارية والاقتصادية، مثل تنظيم الأسواق وتسجيل معاملات الأراضي وإصدار أذونات البناء وغيرها. كما كان العلماء يقومون عملياً باحتكار التعليم الرسمي ويتولون مهمات اجتماعية- سياسية مهمة في المجتمع كحماية للشريعة الإسلامية ومفسرين لها. وكانوا يتمتعون بموارد اقتصادية من مداخيل مباشرة "ومنافع جانبية من مواقع حكومية وتجارية وأملاك زراعية والتحكم في الأوقاف الخيرية العائلية".^(٣)

(١) سجلات محكمة القدس الشرعية رقم ٣٢١، ص ٥، رقم الوثيقة ٩، رستم، الأصول...، ص ٣-٤، ٤٢.

(٢) King lake , op- cit . PP . 222 – 224 , 238 – 239 .

(٣) Ruth Michal , Roded . Tradition and Changes in Syria during the Last Decades of ottoman – Rule : the urban Elite of Damascus , Aleppo , Homs and Hama , 1876-1918. Michigan . (1987) . PP . 185 – 187 .

لذلك كانوا مهيين لتقبل الدعاية الدينية ضد محمد علي، وبما أن العلماء كانوا على دراية بالجهود الإصلاحية للسلطان ومنزعجين جداً من التغييرات والإصلاحات المرتقبة في سورية وفلسطين، فلعلهم مالوا في البداية للنظر إلى الاحتلال المصري نظرة غير عدائية، وربما بسرور.^(١)

أعلن متسلم القدس ولاءه للمصريين قبل احتلالهم عكا.^(٢) وفي كانون الأول ١٨٣١، دخلت وحدة نظامية صغيرة مدينة القدس من دون أن تلقى أي مقاومة. هكذا وجد سكان المدينة أنفسهم وجهاً لوجه أمام النظام الجديد الكريه، أمام البدلات العسكرية ذات الزي الأوروبي، والحراب والموسيقى العسكرية.

بدّل الأعيان الدينيون آراءهم بعد وصول المصريين إلى القدس، ولم يطيعوا أوامر إبراهيم باشا، وواصلوا إدارة شؤونهم كالسابق، فعيّنوا متسلماً، متجاهلين إعادة إبراهيم تعيين المتسلم عبد الله. وفي بداية الحكم المصري لم يكن إبراهيم راغباً في تحدّي وجهاء القدس ووافق على المتسلم الذي أرادوه. وفي كانون الأول ١٨٣١، أمر إبراهيم المتسلم رسمياً بإلغاء جميع الجبايات الابتزازية كضريبة الغفر والهدايا من الحجاج والمسيحيين واليهود.^(٣) وعلى الرغم من أن المتسلم أعلن أن إبراهيم كان على استعداد لتعويض تلك الخسائر المالية، فقد أصاب هذا الأمر الزعماء بصدمة كبيرة.^(٤) إذ أدركوا أن المصريين، وعلى العكس من محمود الثاني، يشكلون خطراً قائماً وواضحاً واعتقدوا أن "النظام المصري الجديد" سينسف سلطتهم المالية والإدارية، ويهدد ما يتمتعون به من شبه استقلال تمكنوا من إحرازه عبر إدارتهم للقدس، وهكذا تجاهلوا أوامر إبراهيم فيما يخص الرعايا والإفرنجة، فقام بإرسال أمر آخر يؤكد ما ورد في الأمر السابق.^(٥)

جردت السياسة المصرية النخبة الدينية من دورها التقليدي كوسيط بين السلطات والسكان، بتقليص عدد أعضائها في مجالس الشورى الجديدة التي أسست في المدن الفلسطينية. كذلك أدت الإجراءات العديدة الصارمة إلى تقليص سلطة العلماء داخل المؤسسة الدينية، وتحدّت زعامتهم الروحية، وجفقت مصادر مواردهم المالية. فعلى سبيل المثال، تم وضع المؤسسات الدينية تحت رقابة صارمة، كما تمت علمنة النظام القضائي جزئياً. ولم تؤدّ تلك الخطوات إلى فقدان المحاكم الشرعية جزءاً مهماً من عائداتها فقط، بل أيضاً إلى تجريدها من معظم قوتها وسلطانها. وانطبق ذلك كله على العلماء المرتبطين بتلك المحاكم.

(١) . Abir , op- cit , PP . 307 – 308 .

(٢) رستم، المحفوظات...، مج١، ص ١٣٣ - ١٣٥، رقم ٣٦٠.

(٣) رستم، المحفوظات...، مج١، ص ٨٧ - ٨٩، رقم ٣٢٥.

(٤) رستم، المحفوظات...، مج١، ص ١٨٧ - ١٨٨، رقم ٤٥٩. مج٢، ص ٥٨، رقم ١٤٦٠.

(٥) رستم، المحفوظات...، مج١، ص ١٨٧ - ١٨٨، رقم ٤٩٥.

كذلك ضرب هؤلاء بقوة حين تدخلت السلطات المصرية في أوقافهم الدينية وتوقف تدفق المعاشات والرواتب المرسلة من الباب العالي إلى العلماء المحليين مع توقف الاتصالات المنتظمة بينهم وبين استانبول.^(١)

ومما زاد الطين بلةً عسكرة الجنود المصريين في الجوامع والمدارس وتحويلها إلى ثكنات، واقتحام القوات - في سياق بحثها عن أيدٍ عاملة أوجنود- البنايات الخاصة بالطرق الصوفية،^(٢) والسماح للمسيحيين بزيارة المسجد الأقصى، ما أثار المشاعر،^(٣) وتشجيع المصريين على فتح الخمارات ومنح الإذن في بيع الخمر علناً.^(٤)

ومنذ المرحلة الأولى من الحكم المصري، وحتى قبل احتلال عكا، انتشرت مشاعر القلق في القدس. وكان ابراهيم يخشى حدوث انتفاضة فيها، فعين قاسم الأحمد متسلماً وجلب تعزيزات، وطلب من والده إرسال تعزيزات أخرى في حال اندلاع انتفاضة فيها. وفي أواسط سنة ١٨٣٣، وبعد تنفيذ التعليمات الخاصة بالمركزية، بالقوة وجد زعماء القدس أنفسهم في حالة من التبعية التامة ومن دون العوائد المالية التي كانت تصل إليهم سابقاً. ورد بعض العلماء على ذلك التحدي الجاد لزعامته بغضب، وربط ما حدث بتدهور المصالح الاجتماعية - الاقتصادية والسياسة. وهكذا شارك بعض الوجهاء الدينيين بحماسة في التمردات التي قامت في تلك الفترة، وإذا كان الزعماء الدينيون في القدس وفلسطين في معظمهم لم يشاركوا في الثورة المخططة ضد المصريين، فقد منحوا مباركتهم على أقل تقدير.^(٥)

٢- الدوافع الاقتصادية:

ألغى ابراهيم باشا الضرائب غير القانونية التي اعتاد السكان دفعها إلى الموظفين الزراعيين ووعدهم بألا يدفعوا سوى الميري، لكنه عاد وفرض بعد ذلك ضرائب جديدة مثل "الفردة"^(٦). وقد أصبحت الدوائر المالية المتعددة مطالبة بتوفير مبالغ على النحو الذي كان مقرراً في السابق، والأمر الذي لم يتم إذ أخذ يتقلص عدد السكان بفعل الحجرة أو الموت، وقد كبرت المبالغ المطالب بها، وأثقلت على الفرد. ومن أجل ضمان الدخل وإجبار السكان على محاسبة بعضهم البعض، فرضت الحكومة ضريبة الفرد على السكان كلهم.^(٧)

(١) رستم، المحفوظات...، مج ١، ص ١٩٠ - ١٩١، رقم ٤٩٨.

(٢) مذكرات (لا تاريخ) ص ٦٥ - ٦٦، أبوعز الدين، ابراهيم باشا...، ص ١٦١، البيطار، حلية البشر...، مج ١، ص ٢٥.

(٣) يازيلي، سوريا...، ص ١٦٥.

(٤) أبوعز الدين، ابراهيم باشا...، ص ١٦٦، رستم، المحفوظات...، ص ٣٣٠، رقم ٣٠٤١.

(٥) منصور، تاريخ الناصرة، ص ٧١.

(٦) الفردة : هي ضريبة فرضت على السكان أثناء الاحتلال المصري. سالم، الحكم المصري...، ص ٣٦.

(٧) يازيلي، سوريا...، ص ١٦١. أبوعز الدين، ابراهيم باشا...، ص ١٥٧.

ولم يكن المسلمون يدفعون ضريبة الفردة سابقاً، فتأججت مشاعرهم حين تمت جبايتها منهم ومن المسيحيين واليهود على حد سواء، واعتبرها المسلمون نوعاً من الجزية.^(١) وإذ أصبح لزاماً على الزعماء دفع الفردة، خشي هؤلاء من نتائج ذلك وشعروا بالإهانة.^(٢) غير أن الاحتجاج الأكبر كان على ضرائب أخرى غير الفردة كان السكان يدفعونها بالمقادير ذاتها في السابق، وبفعل أن النظام المصري لجباية الضرائب أكثر صرامة وشمولية وديمومة مما كان عليه الحال في زمن العثمانيين، وكان أكثر كفاءة من السابق، ويقوم على أساس الجباية المباشرة من موظفين وجنود يستخدمون وسائل قهر ضد السكان ولا يتركون أي فرصة للتهرب.^(٣) وكان العبء مضاعفاً على على السكان في المناطق التي كان يتركز فيها عدد كبير من الجنود، الذين يصرون على جباية ضريبة الفردة بشكل أشد صرامة وانتظاماً وقد نفذت الحكومة المصرية مطالبها بشكل متصل لم يسمح بأي تأخير.

وثمة عامل آخر يشكل مصدراً للإزعاج هو العمل الإجباري ذو الأجر الضئيل للآدميين والحيوانات، إذ أجبر الحرفيون وأصحاب القوارب على العمل في عكا وفي العديد من المشاريع الحكومية الأخرى. كما كان يتم باستمرار مصادرة حيوانات النقل لنقل المخازن الحكومية، وللمساعدة في انتقال الوحدات العسكرية من موقع إلى آخر، وكذلك إجبار العمال من مختلف الأنواع على الانتقال والعمل في أماكن بعيدة عن أماكن سكنهم سواء في الحصون أو المعسكرات أو مواقع التحصينات، وبأقل من نصف الأجر الذي يتقاضونه عادة في مناطقهم. وأيضاً العمل في قطع الأخشاب لسد حاجة الحكومة في سورية والاسكندرية والقاهرة.^(٤)

بالإضافة إلى ذلك، كان لا بد من التبرع سنوياً إلى الجيش بكميات كبيرة من الحبوب والمواد الأخرى. كالسمن أو الزيت وكان الفلاح ملزماً ببيع محاصيله وفق أسعار وضعت اعتباطاً وتحتم على المزارع جلب حصة الحكومة بلا أجر إلى المخازن الحكومية التي كثيراً ما كانت تقع بعيداً جداً عن مكان المحاصيل.

فرضت الحكومة احتكارات معينة على بعض فروع الزراعة والتجارة، الأمر الذي أدى إلى التهديد بتدمير الشبكة التقليدية والقضاء على المصالح المتأصلة التي نمت على مدار العقود السابقة داخل المجتمع التجاري. فالسكان في فلسطين شأنهم في ذلك شأن سكان سورية، كانوا قد أخذوا بالتوجه بالتدريج نحو النظام الصناعي الأوروبي كمصدرين للمواد الخام. وسعت الحكومة المصرية لإقامة بؤرة لنظام صناعي خاص يغطي سورية كلها، وتبين مارسو (Marsot) أن السوريين ما كانوا ليقبلوا نظاماً جديداً يستغل الموارد السورية لأغراضه الخاصة، إذ إن فرض

(١) بازيلي، سوريا...، ص ١٥١، أبوعز الدين، إبراهيم باشا...، ص ١٥٧.

(٢) رستم، المحفوظات...، ص ٤١، رقم ٢٥٢.

(٣) بازيلي، سوريا...، ص ١٦٤.

(٤) أبو عز الدين، إبراهيم...، ص ١٤٩ - ١٥٠.

النظام الاحتكاري يضر بالفلاح والتاجر. لذلك، فإن الثورات على ابراهيم باشا كانت في حقيقتها صراعاً بشأن موارد البلاد.^(١) وبذلك، فإن السياسات المصرية، كانت مخططة لتعميق المركزية والعسكرة للاقتصاد السوري واستغلالها من أجل حاجات الاقتصاد المصري. إن أهداف محمد علي الاستراتيجية، وسياساته في تنفيذها، ستتهز قريباً القدس وأنحاء سورية كافة.

تاسعاً: ثورة ١٨٣٤ في القدس:

بدأ ابراهيم باشا تنفيذ أوامر أبيه الخاصة بالتجنيد العام ونزع الأسلحة في نيسان ١٨٣٤. وكان ذلك بمثابة الشرارة الأولى التي أطلقت الثورة في القدس واتبعت خطة للتطبيق في كل من القدس ودمشق وحلب في آن واحد ومن أجل ذلك دعا الزعماء المحليين من القدس ونابلس والخليل إلى اجتماع يعقد في القدس في ٢٥ نيسان ويكشف المحضر التالي-الذي أعد في حينه- عن أهداف ابراهيم باشا وردات فعل الزعماء المحليين، وجه ابراهيم باشا إليهم الأسئلة التالية: "لما كان لنا نحن المسلمين، لنا أعداء دائمون هم الأمة النصرانية، فهل من الضروري أم من غير الضروري أن يكون لنا دائماً جيش كبير؟؟ أجابوا: نعم، لا شك في ضرورة ذلك. واصل الباشا: إذا كان الأمر كذلك فمن أين يمكن الحصول على الرجال لهذا الجيش، من المسيحيين أم من المسلمين؟؟ أجابوا: من المسلمين طبعاً. قال: لقد أحببتم بالصواب. لذلك، من الضروري، إن كنتم مسلمين حقيقيين وتتمنون الخير لأمتكم، أن ترسلوا إلينا رجالكم من كل مدينة وقرية، كي يتعلموا فنون الحرب منذ صغرهم ويتدربوا عليها وبذلك يكونون مستعدين عند الضرورة"^(٢) - وهنا نرى التناقض الكبير في مواقف ابراهيم باشا ووالده إذ وعدا الدول الأوروبية في بداية حملتهما بمعاملة المسيحيين بالحسنى ومساواتهم بالمسلمين لذا رُحِبَ بهما في بلاد الشام وعند لقائه (ابراهيم) بالمسلمين قال: إن الأمة النصرانية ألد أعدائه، وهذا يدل على اتباعهما كل الوسائل لتحقيق أهدافهما العسكرية حتى لو نشرا الطائفية بين الناس - حلّ الصمت في المكان وأخذوا يفكرون طويلاً في الجواب: أمرك فوق رؤوسنا، غير أننا لسنا بحاجة إلى أن نتخلى عن أبنائنا وشبابنا للحرب. فحين يأتي عدو ديننا إلى ديارنا، سنخرج إليه جميعاً، شبيهاً وشباباً ونقاتل ونبدل دماءنا رخيصة من أجل ديننا وأرض آبائنا. أجاب الباشا: كيف تتوقعون أن تخوضوا الحرب وأنتم لا تعرفون فنونها؟ أجابوا: إن فن الحرب المعروف عند أجدادنا الذين صمدوا في وجه العدو ودافعوا عن هذه البلاد حتى الآن، معروف عندنا، وكما فعلوا هم في السابق، نأمل أن نفعل في المستقبل. أجاب الباشا: الحرب ليست مكاناً لقطيع من الرجال غير المفيد. البراعة والمهارة مطلوبتان. هذا هو قراري. يجب الحصول على شاب

(١) Marsot , Afaf Lutfi al – sayyid . Egypt in the Reign of Muhammad Ali –

Cambridge . (1994) . P . 233 .

(٢) Spyridon , op- cit . P . 90 .

واحد من كل خمسة مسلمين، وسيتم تدريبهم على فنون الحرب النظامية، وأريد تنفيذ هذا الأمر من دون أي تأخير، والبداية ستكون هنا في القدس.

وبعد أن شرح ابراهيم باشا قرارات والده في هذا المجال، أصدر أمراً بتجنيد ٣٠٠٠ رجل من سناحق نابلس والقدس والخليل و ٢٠٠ من المدينة المقدسة بالذات.^(١)

قرر سكان القدس مقاومة السياسات المصرية الخاصة بالتجنيد ونزع السلاح. وكان الفلاحون في الجبال، الذين يملكون جميعاً السلاح، اعتادوا الاشتراك في المواجهات المحلية. لذلك حين جاءت الفرصة، قام وسطاء الزعماء بتعبئة أتباعهم وانضموا إلى زعمائهم. وفي معظم الحالات، كانت القوى المحلية تُستَخدم في الصراعات الداخلية بين المتنافسين في شأن الغلبة في منطقة ما، أو من أجل حماية الجبال من غارات البدو. وأحياناً، كان الزعماء يساندون الحكومة العثمانية، وفي أحيان أخرى يقاومون الولاة إذا حاولوا تقليص الاستغلال الذاتي في مناطقهم الجبلية. وفي سنة ١٧٩٩، قاتلوا الحملة الفرنسية من أجل حماية بلادهم.

ففي تلك المناوشات، كان السكان المحليون يقاتلون جنباً إلى جنب مع إخوانهم وأقاربهم وأصدقائهم وجيرانهم وزعمائهم، يوماً أو أياماً ثم يعودون إلى عائلاتهم وأراضيهم، التي تربطهم بها علاقة وثيقة لأنهم كانوا جميعاً فلاحين في الأساس. غير أن التجنيد المصري كان شيئاً مختلفاً، فقد طلب منهم أن يقاتلوا بعيداً عن عائلاتهم وأراضيهم، وكان غير محدود بزمن.^(٢) كما كان بالنسبة إلى السكان المحليين بدعة جديدة جلبت إلى سورية من مصر التي استوردتها بدورها من أوروبا، إذ إن الخدمة العسكرية في الجيوش المصرية أشد قسوة، ومعنى ذلك أن تفقد العائلات أفرادها الذين يزرعون الأرض، فتبور أراضيهم وتذوي مداخيلهم، بالإضافة إلى أن للفلاحين مصالح وأهدافاً عميقة في القتال إلى جانب زعمائهم، ولم تكن لهم مصلحة في القتال مع المصريين.^(٣) لذلك كان لدى السكان المحليين مخاوف كبيرة من الخدمة العسكرية وقرروا مقاومتها.

ربما كان رفض الفلاحين تجريدهم من السلاح أشد من رفضهم التجنيد، فقد اعتادوا حمل السلاح جيلاً بعد جيل، وكانوا يتوارثونه من الأب إلى الولد لحماية أنفسهم وأراضيهم وبلداتهم ومصالحهم. وكانت الدعوة إلى تجريدهم منه - وفقاً لوجهة نظرهم - لا تقتصر على تجريدهم من القوة التقليدية فحسب، بل تجرح كبرياءهم

(١) النمر، تاريخ جبل...، مج ١، ص ٨١ - ٨٥. أيضاً أبو عز الدين، ابراهيم باشا...، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) مشاققة، مشهد العيان...، ص ١٢٢ - ١٤٤. رسالة موجهة من محمد علي إلى ابراهيم سنة ١٨٣٥ يحدد فيها زمن الخدمة العسكرية بـ ١٥ عاماً.

(٣) أبكاربوس، المناقب الابراهيمية...، ص ١٠٨ - ١١٧.

وكرامتهم أيضاً. ويقول كنافاكو إنه: "كان أسهل عليهم أن يتنازلوا عن زوجاتهم من التنازل عن سلاحهم"^(١) وكان الزعماء يفخرون برجالهم الذين يقفون إلى جانبهم وهم يحملون السلاح. ومن المفيد القول أن القدس استقبلت في البداية مع بعض زعمائها المحليين الحكم المصري بحرارة لكنها ما لبث أن كرهته جداً خلال سنوات قليلة، فقد انقلب سكانها جميعاً على التدخلات المباشرة والمتزايدة لهذا الحكم في شؤون الناس الداخلية. وعلى الرغم من أن الحكومة المصرية فعلت بعض الأمور الجيدة للسكان فإنها أخذت منهم أشياء مهمة أو ذات قيمة في حياتهم، كالمال والأموال والبنادق والأبناء وأدت كل فرد في وجوده ودخله، ولذا كانت الإنتفاضة التي اندلعت عامة وشعبية. وقد يكون كثيرون أحسوا بالآثار السيئة أكثر مما أحسوا بالآثار الجيدة، وربما يكون الزعماء المحليون علقوا الآمال بإمكان تلقي الدعم من العثمانيين والأوروبيين.

١ - شرارة الثورة تبدأ من القدس:

كان الوضع في المدينة المقدسة سيئاً، فقد طوقها من جوانبها كلها مئات الفلاحين الذين جاؤوا من كل اتجاه وحاصروها منذ مدة وذلك لتخليصها من حكم ابراهيم باشا، واتخذ الفلاحون من قرية البيرة في الطريق إلى نابلس، ومن قرية العناب، مستقر عائلة أبو غوش، في الطريق إلى يافا قاعدتين لهم، وأخذوا يدقون في مواد الطعام والمياه المتجهة إلى المدينة، ولجؤوا إلى النهب وقطع الطرق. وأدرك ضابط القلعة، الكولونيل ابراهيم، خطورة الوضع، ورفع تقريراً بعدم كفاية قواته وطلب تعزيزات من الفرسان من أجل التغلب على المتمردين. وأضاف أنه تمكن من صد هجوم عائلات أبوغوش وسمعان وبني حسن على المدينة وهزم الفلاحين في عدة مواجهات، لكنه فشل في القبض عليهم وهم يهربون.^(٢)

أمر ابراهيم باشا فرقة الفرسان الثانية عشر بالتوجه إلى القدس فوراً. وحين غادرت الفرقة مدينة الرملة، التقت الفلاحين أول مرة عند باب الواد. وبعد مناوشات صغيرة تراجع الفلاحون نحو المنطقة الصخرية في قرية ساريس وواصلوا مهاجمة القوات المصرية، ونظراً إلى فقدانهم دليلهم تراجع المصريون نحو الرملة مخلفين وراءهم في ساحة المعركة إصابات عدة بينها كولونيل واحد وضابطان.^(٣) لم تتوقف المعركة عند هذا الحد بل أخذت الأوضاع في القدس في التدهور من سيئ إلى أسوأ، فقد سعى الفلاحون أسبوعاً كاملاً للسيطرة على المدينة، وكانوا مسلحين بالرمح والبنادق فقط، بينما كانت الأسوار معززة بعدد من المدافع التي مكّنت المدينة من الصمود أمام الهجمات. وفي ٢٠ أيار وبعد اكتشاف الناس أنبوباً مهجوراً لمجاري مياه عادمة يمر بالقرب من باب المغاربة نحو الطاحونة في

(١) كنافاكو، فتوحات...، ص ٤١.

(٢) رستم، الأصول العربية...، مج٢، ص ٣٩٨، رقم ٣٤٣٨.

(٣) رستم، الأصول العربية...، مج٢، ص ٣٩٩، رقم ٣٤٣٩.

الحي اليهودي، تجمعوا قرب حي المغاربة، بينما زحف ٣٦ فلاحاً وقاطناً في القدس عبر المجرى نحو المدينة وفتحوا باب المغاربة، وبعد مقاومة قصيرة، تراجع الجنود المصريون نحو القلعة واتخذ قائد الحامية موقع الدفاع.^(١) ظهر في القدس الكثير من الناس مسلحين تماماً، وكانوا ادّعوا أمام المصريين أنهم سلموا بنادقهم وانضموا إلى المتمردين في نهب بيوت الضباط المسؤولين عن الدفاع عن بوابات المدينة وأسوارها. وخرج من القلعة ٥٠٠ جندي لمهاجمة النهابين. كذلك انتقم بعض الجنود من مواطنين شاركوا في أعمال النهب مع الفلاحين فدمروا الدكاكين وأخذوا ما فيها، إلى أن أمرهم قائدهم بالتوقف وبلغت حصيلة الإصابات في ذلك اليوم ٥٠ فلاحاً و١٦ من سكان المدينة وخمسة جنود.^(٢)

وفي ٢١ أيار جدد الفلاحون هجومهم، وكان رشيد بك قد أيقن في حينها أن سكان المدينة متحالفون معهم. وبعد هجوم مضاد قصير، انسحب رشيد بك ثانية إلى داخل القلعة بعد أن أخذ معه عدداً من علماء المدينة، بينهم المفتي طاهر الحسيني ونقيب الأشراف عمر أفندي الحسيني، والباشكاتب محمد علي الخالدي وآخرون من وجهائها كي ينضموا إلى الجنود في القلعة لإثبات ولائهم لابراهيم باشا^(٣) وفتح بعض سكان القدس بوابة دمشق وأدخلوا ألفي متمرّد من نابلس إلى داخل المدينة فحاصروا القلعة وأطلقوا النيران عليها.^(٤) وحين سمع أهالي القدس أن المصريين سيصلون إلى المدينة دحرجوا كتلاً صخرية ضخمة من رؤوس الجبال وسدّوا الطريق على الفرسان وحيواناتهم، وأطلقوا رصاصاً على الجنود المصريين من الأمام والخلف. وصل الجيش المصري إلى القدس لكنه كان يعاني من الجوع والعطش الشديد،^(٥) لذا تم إرسال الفرقة التاسعة عشرة من مصر إلى القدس لتقديم المساعدة له. حاصر ابراهيم باشا القدس وهزم الفلاحين أكثر من مرة لكن نقص المؤن والذخيرة دفعه لعقد هدنة مع الثوار الذين طالبوا بانسحاب الجيش المصري من المنطقة أما المصريون فقد اشترطوا بقاء حامية لهم في قلعة القدس وأن يزودها السكان بالمؤن وبعد التوصل إلى هذه الهدنة بدأ الفلاحون بالانسحاب من المرتفعات وسافر ابراهيم باشا للقاء والده في يافا مصطحباً معه ألف وخمسمئة مقاتل. واصطحب معه عدداً من وجهاء القدس. ولما التقيا

(١) مذكرات (دون تاريخ)، ص ٧١ - ٧٢، Spyridon , op- cit , PP. 92 - 93 .

(٢) Spyridon , op- cit . P.P . 94 - 95 .

(٣) Spyridon , op- cit . P . 94 .

(٤) Spyridon , op- cit . P . 95 .

(٥) أصبحت هذه الحادثة معروفة باسم "حادثة دخول الفلاحين القدس"، أو "الوقت الذي دخل الفلاحون القدس". تم النظر في ثلاث قضايا في محكمة القدس الشرعية: أولى هذه القضايا تخص سلب ثلاثة فلاحين من قرية لفتا. والقضية الثانية تتعلق بسرقة جنود مصريين من فلاحين، أما الثالثة فكانت تخص سلب شخص يهودي. في القضيتين الأولى والثانية حكمت المحكمة بتعويض المتضررين، أما القضية الثالثة فردت الدعوى لعدم كفاية الأدلة. انظر سجلات محكمة القدس الشرعية رقم ٣١٩، ص ٢٥ - ٣٦، ٤٨ - ٤٩.

تعانقا، وتحدثا عما جرى، ثم التفت إلى الوجهاء وسأل ابنه عنهم قائلاً: من هؤلاء يا بني؟ قال: هؤلاء هم وجهاء القدس وزعمائهم، ثم راح يقدمهم إليه الواحد بعد الآخر، هذا عمر أفندي نقيب سابق.. وهذا هو المفتي طاهر أفندي.... وهذا هو محمد أبو السعود.... وهؤلاء هم الشيخ محمد أفندي الحسيني، والشيخ عبد الله أفندي البديري، وإبراهيم أفندي طهوب و.... و.... و.... فحملق محمد علي في وجوههم، ونظر إليهم نظرة ازدراء، كأنه لم يأبه لوجودهم وراح يحيل الطرف في كل واحد منهم من رأسه إلى أخمص قدميه. ثم هزَّ رأسه، وسكت. وبعد التفكير في أمرهم أمر بإرسالهم إلى عكا، ومن هناك اقتيدوا إلى مصر. وقد أمروا بالإقامة الجبرية فيها.^(١)

بعد أن تشاور الاثنان، الأب والابن، في الطرق الواجب اتباعها لإخضاع الثوار رجع الأب إلى مصر. وأرسل الابن بعض قواده، لتعقب الثوار في جبل نابلس وجبل الخليل، وفي يافا وعكا وفي كل مكان. وأما هو فقد دخل القدس في ٢١ حزيران ١٨٣٤، وكان معه يومئذ ثلاثون ألف جندي وعشرة مدافع وخمسة من قاذفات القنابل. فكان دخوله إلى القدس يوماً مشهوراً، إذ أطلقت مدافع القلعة اثنتين وعشرين طلقة، احتفاءً بمقدمه. حتى الثوار من أبناء بيت القدس، قد تظاهروا بالفرح وأبدوا ارتياحهم لمجيئه. أما هو فقد نصب مخيمه على جبل صهيون بالقرب من مقام النبي داود. وأما جنده فقد عسكروا حول السور وفي التلال الكائنة بالقرب من سلوان، وذلك ليكونوا قريبين من الماء، وقد عسكر فريق منهم عند برك سليمان على طريق بيت لحم. من أجل الغاية نفسها، أصدر إبراهيم باشا أمراً إلى سكان القدس من غير تفریق بين جنس وجنس أو مذهب ومذهب، كي يسلموا كل ما لديهم من أسلحة وكذلك فعل بالقرى المجاورة. والذي لا يكتثر لهذا الأمر ولا يسلم سلاحه يعاقب بالإعدام.

فتظاهروا باستعدادهم لإطاعة الأمر، ولكنهم في الواقع لم يسلموه من السلاح إلا ما كان عديم النفع، وأما الأسلحة التي نهبوها من مخازن الحكومة فقد أخفوا قسماً منها، ورموا القسم الآخر في ساحة الحرم.^(٢) وقصارى القول لم يترك إبراهيم باشا من وسائل التعذيب إلا واستعملها ليكره أهل القدس وما جاورها من قرى على الخضوع حتى أنه في اليوم الثامن عشر من شهر كانون الأول ١٨٣٤ أتى باثنين من زعماء الثوار: الشيخ حسن وابن أبي زيد فقطع رأس الأول في باب العمود والثاني في سوق الحبوب. وأرسل بعض الزعماء ومنهم الباشكاتب محمد أفندي إلى عكا مكبلين بالحديد. ولكن هذه التدابير ما كانت لتقلع روح التمرد والعصيان والكره من أفئدة الأهلين.

وفي أوائل تشرين الأول ١٨٣٨ انتشرت الكوليرا في القدس أولاً بين اليهود ثم سرت منهم إلى المسلمين. ودامت شهراً وعادت ثانية في منتصف شهر كانون الثاني ١٨٣٩ فأغلقت أبواب القدس بقصد منع اختلاط أهل القدس

(١) العارف، المفضل...، ص ٤٣٧.

(٢) العارف، المفضل...، ص ٤٣٩.

بسكان القرى المجاورة. ولجأ ابراهيم باشا وموظفوه إلى استعمال الشدة والعنف في مكافحة هذا المرض. ولكنه عاد فانتشر انتشاراً مريعاً، عندما أمر الباشا بفتح أبواب المدينة لحجاج النصارى الذين وفدوا لزيارة الأماكن المقدسة، مات بسبب الكوليرا أعداد كبيرة من السكان ومن جنود إبراهيم باشا.

بعد أن أعاد ابراهيم باشا الأمور إلى نصابها في القدس وفي سائر أنحاء فلسطين سار إلى دمشق فاعتزم الانسحاب، حاول الانسحاب في بادئ الأمر، عن طريق شرق الأردن ومعان. ولكنه عاد فغيّر رأيه، بسبب العدد الكبير من جنده الذين راحوا ضحية العطش والجوع. فاعتزم الرجوع عن طريق القدس والخليل، حيث تكثر المياه والمراعي والمؤن.

إلا أن السر عسكر أمر المنلا^(١) أن يسلمح الفلاحين، وأن يحول دون رجوع الباشا عن هذه الطريق مهما كلفه الأمر، فأعطاهم هذا كل ما كان لديه من أسلحة، وأرسل هو (أي السر عسكر)، في الوقت نفسه، جنوداً نظاميين. فأمر هؤلاء بأن يربطوا في القلعة، وكان عددهم يومئذ (٢٢ كانون الأول ١٨٤٠) عشرين ألفاً وبعد خمسة أيام وصل اثنا عشر ألفاً آخرون. رابط قسم منهم (٤٠٠٠) في القدس، وربط الآخرون على الطريق الكائنة بين القدس وبافا وبين القدس وغزة.

٢- موقف ابراهيم باشا من التطورات الجديدة في القدس:

عندما وصلت أنباء الاستعداد لمحاربة ابراهيم باشا عدل عن رأيه الأول وشرط جيشه إلى ثلاثة أقسام. الشرط الأول أرسله إلى مصر عن طريق معان والعقبة ونخل بقيادة سليمان باشا. والشرط الثاني أرسله إلى غزة عن طريق المزيريب وحسبان والكرك، بقيادة اسماعيل باشا والشرط الثالث سار بقيادته هو وقد سار به نحو الصلت، وتظاهر أنه كان ينوي الإغارة على القدس فاضطر العثمانيون أن يستدعوا حاميتهم الموجودة في غزة للدفاع عن القدس. وبهذه الوسيلة تمكن الشرط الثاني من جيشه من الاستيلاء على غزة، فاستولى عليها من غير حرب.^(٢)

٣- نتائج ثورة ١٨٣٤:

إن قيام ثورة ١٨٣٤ في القدس أثبتت جدارة أهالي القدس وبسالتهم وإخلاصهم لبلدهم فقد قدّموا أعداد كبيرة من الضحايا ودمّرت بيوتهم وأحرقت أشجارهم وعاث الجنود المصريون تخريباً عدة أيام بعد توقف الثورة. وفي هذا كتب تومسون (Thomson) كان هناك حي مسلم في القدس وفيه أعداد كبيرة من السكان دُمّر بالكامل وحتى بعد انتهاء الثورة، استمر جيش ابراهيم باشا في معاقبة السكان الذين واصلوا مقاومة سياسات التجنيد ونزع

(١) المنلا، اللقب الذي كان يطلق على القاضي أو النائب المسؤول عن الإدارة والحكم في القدس، العارف، المفصل...، ص ٤٤٠.

(٢) كولونيل فريدريك، تاريخ شرق الأردن وقبائلها، ترجمة بهاء الدين طوقان، القدس، ١٩٣٤، ص ١٨٠.

الأسلحة ففي أيلول ١٨٣٤ أجبر ألف رجل مسلم ومسيحي ويهودي من القدس على العمل بالمعاول والجرافات لهدم المنازل وقطع الأشجار للذين يرفضون تسليم أسلحتهم وللذين هربوا إلى البادية، وشمل ذلك القرويين الذين هجروا بيوتهم أيضاً^(١) وقتل الكثير من الزعماء أو أرسلوا إلى السجن في عكا للعمل في المعامل والمحاجر، وتم فرض جزاءات باهظة على السكان من أجل تعويض المبالغ التي تكبدها ابراهيم باشا خلال حملاته العسكرية ضد الثوار وطبق التجنيد ونزع السلاح بعد استسلام الثورة وقبض على أكثر من تسعة آلاف شاب، أرسلوا إلى مصر وأماكن أخرى وضم بعض شبان القدس إلى فوج الفرسان واستخدمت أساليب قاسية لإخافة السكان من أن يعودوا إلى التمرد ثانية.

كانت هذه الثورة في القدس من أشد الثورات مرارة فقد فتحت الباب أمام ثورات أخرى في عدة مناطق من فلسطين وساهمت في انهيار الحضور المصري في فلسطين وسورية.^(٢) رجع ابراهيم باشا إلى مصر بعد أن أقام في فلسطين عامة وفي القدس خاصة عشرة أعوام. رجع إليها تاركاً وراءه عدداً غير قليل من المصريين الذين رافقوه في حملته. وقد استوطن هؤلاء بعض المدن والقرى الفلسطينية فصاروا منها.

خاتمة:

تتلخص أرباح ابراهيم باشا من حروبه بموافقة الدولة العثمانية والدول الأوروبية على أن تكون مصر لمحمد علي ولذريته من بعده. ولا بد من القول أن محمد علي وابنه ابراهيم قد شجعا التغلغل السياسي والديني والثقافي الأوروبي، فقدم ابراهيم باشا التسهيلات إذ سمح للأوروبيين بفتح قنصلياتهم في القدس لضمان الحصول على رضى القوى الأوروبية، والحيلولة دون قيامها بأي أعمال عدائية ضده وبخاصة انكلترا، التي عمل على طمأننتها إلى أن السياسات المصرية تقوم على تسهيل مصالحها الاقتصادية في سورية لا إعاقته.^(٣)

وأدت تلك السياسة إلى تشجيع التوسع وتعزيز مؤسسات النشاط الديني التبشيري ومع تأسيس القنصلية الانكليزية اتخذت انكلترا موقع القيادة في المنافسات الدينية- السياسية بين القوى الأوروبية في فلسطين. وبدأ السباق لضمان الامتيازات الأوروبية والوجود الديني- الثقافي، أولاً خلال أربعينيات القرن التاسع عشر، الذي ما لبث أن تصاعد خلال حرب القرم، وجرت أول خطوة للتغلغل الأوروبي الممنهج في فلسطين بدءاً من القدس: في سياق التنافس الأوروبي بشأن المسألة الشرقية.

(١) فريديريك، تاريخ شرق...، ص ١٨٢.

(٢) الشدياق، كتاب أخبار...، ص ١٨٤.

(٣) الحلاق، موقف الدولة...، ص ٥٤ - ٥٥.

ولما كانت القدس هي محور الاهتمام الأوروبي فقد حرصت الدول الأوروبية على إنشاء قنصلياتها في القدس ووضع سياسات خاصة تنسجم مع الأطماع الأوروبية في فلسطين ومع الحلم الصهيوني بإقامة الدولة والوطن القومي. وقد نجحت الدول الأوروبية التي أسهمت في إخراج المصريين من بلاد الشام بعد أن استفادت من احتلالهم لها في زعزعة أركان الدولة العثمانية وفي رفع مستوى تدخلها المباشر في شؤون السلطان العثماني، عبر تعيين قناصل لها في القدس العاصمة الروحية للدولة العثمانية، حيث كثر عددهم وازداد نفوذهم وحضورهم في الحياة اليومية للسكان ولامس سائر الأنشطة الحكومية الرسمية إدارياً واقتصادياً واجتماعياً.

الفصل الثالث

الإدارة العثمانية للقدس بعد رحيل محمد علي ١٨٤٠ - ١٩١٤

تمهيد:

أولاً: أجهزة الحكم والادارة:

- ١ - الوضع الاداري.
- ٢ - الجهاز الاداري في اللواء:
 - أ- المتسلم.
 - ب- المحاسب.
 - ت- مدير الأوقاف.
- ٣- مجلس الادارة:
 - أ- مجلس شوري القدس.
 - ب- مجلس إدارة اللواء.
 - ت- مجلس بلدة القدس.
 - ث- اختصاصات مجلس البلدية.

ثانياً: القضاء:

- ١ - القضاء الشرعي: أعضاء السلك القضائي: أ- القاضي وصلاحياته.
 - ب- نائب القاضي.
 - ت- الباشكاتب.
 - ث- الكاتب.
 - ج- المترجم.
 - ح- محضر باشي.
- ٢ - المحاكم الشرعية في القدس.
- ٣ - جهاز الافتاء.

٤ - القضاء النظامي والمحاكم النظامية: أ - القضاء النظامي. ب - المحاكم التجارية.

ثالثاً: الحياة العسكرية والأمن:

١ - الجهاز العسكري.

٢ - التجنيد.

رابعاً: أجهزة الأمن:

١ - الضبطية.

٢ - الباش بوزق.

٣ - أهم الانظمة التي عالجت جهاز الأمن:

أ - نظام الولايات ١٨٦٤.

ب - تعليمات ١٨٦٧.

ت - نظام عساكر الضابطة ١٨٦٩.

خامساً: محاولة الدولة العثمانية فصل القدس عن ولاية سوريا عام ١٨٧٢:

١ - أسباب إتباع القدس للسلطنة مباشرة.

٢ - الأوضاع الاجتماعية في القدس وارتباطها بالأوضاع السياسية.

٣ - العائلات المنتفذة في القدس في العهد العثماني.

سادساً: التعليم في القدس ١٨٦٩:

١ - المدارس: أ - المدارس الأهلية.

ب - المدارس الحكومية.

٢ - الصحافة في القدس.

٣ - المساواة بين المسيحيين والمسلمين في العهد الدستوري.

سابعاً: المسيحيون في القدس:

١ - أهم الطوائف المسيحية في القدس:

- أ- الروم الأرثوذكس.
- ب- الأرمن.
- ت- طائفة الكاثوليك.
- ث- اللاتين.
- ج- الموارنة.
- ح- البروتستانت.
- ٢- المنازعات الطائفية.
- ٣- الإجراءات الأمنية التي اتخذتها الدولة حيال النزاع الطائفي في القدس ١٨٥٢.
- ٤- المدارس التبشيرية في القدس:
- أ- مدارس الروم الأرثوذكس.
- ب- مدارس الكاثوليك.
- ت- مدارس البروتستانت: ١- المدارس الانكليزية:
- أ- مدارس جمعية لندن.
- ب- مدارس إرسالية طائشا.
- ٢- المدارس الألمانية:
- أ- مدرسة طاليثا قومي.
- ب- مدرسة دار الأيتام السورية.
- ٣- مدارس الإرساليات الأمريكية.

ثامناً: التدخل الأجنبي في القدس ١٨٣١ - ١٩١٤:

- ١- الامتيازات الأجنبية.
- ٢- الإرساليات الأجنبية.
- ٣- تأسيس القنصليات ١٨٣٨.
- تاسعاً: الوسائل التي اتبعتها الدول الأوروبية لتدعيم وجودها في القدس:
- ١- الوجود الانكليزي ١٨٣٨:

أ- تأسيس القنصلية الانكليزية.

ب- تأسيس الأسقفية الانجليكانية: ١- جمعية يهود لندن ١٨٠٩.

٢- جمعية التبشير الكنائسي ١٧٩٩.

٣- جمعية القدس الأدبية ١٨٤٩.

٢- الوجود الروسي ١٨٣٣:

أ- الإرساليات:

- الجمعية الفلسطينية ١٨٥٨.

ب- تأسيس القنصلية الروسية ١٨٥٨.

٣- الوجود الفرنسي ١٥٣٥:

أ- حرب القرم: أسبابها- نتائجها ١٨٥٤.

ب- تأسيس القنصلية الفرنسية ١٨٤٣.

٤- الوجود الألماني ١٨٤٠:

أ- تأسيس القنصلية الألمانية ١٨٤٢.

ب- إقامة المستوطنات ١٨٥٨.

ت- المدارس: ١- مدرسة طاليثا قومي ١٨٥١. ٢- مدرسة دار الأيتام ١٨٥٦.

٥- الوجود الأمريكي ١٨١٩:

أ- الإرساليات الدينية.

ب- تأسيس القنصلية الأمريكية ١٨٥٧.

٦- القنصليات الأخرى:

ب- القنصلية النمساوية المجرية ١٨٥٤.

أ- القنصلية الإيطالية ١٨٧٢.

ث- قنصلية سردينيا ١٨٤٣.

ت- القنصلية اليونانية ١٨٦٢.

ح- قنصلية النرويج ١٨٥٣.

ج- قنصلية المكسيك ١٨٦٦.

تمهيد:

عندما استعادت الدولة العثمانية حكمها المباشر لبلاد الشام عام ١٨٤٠ أدى ذلك إلى إنهاء الوحدة الادارية التي كانت تتمتع بها بلاد الشام خلال الحكم المصري لهذه البلاد ١٨٣١-١٨٤٠ فأعادت الدولة العثمانية تقسيم بلاد الشام إلى أربع وحدات إدارية وخلال ذلك التقسيم الإداري تقلب لواء القدس في تبعيته الإدارية بين ولاية صيدا وولاية الشام، وقد تخلل هذه التبعية الإدارية للواء القدس فترة استقلال إداري عن هذه الولايات كإجراء من قبل الدولة العثمانية تجاه هذا اللواء دعماً لمكانة القدس وتلافياً للأخطار التي بدأت تتجمع نتيجة المنازعات بين الدول الأوروبية الكبرى حول حماية الأماكن المقدسة، لذا رفعت الدولة لواء القدس إلى مرتبة الولاية يحكمه والٍ، وترتب على ذلك أن أصبحت اتصالات لواء القدس - إياله - مباشرة مع الباب العالي، ويمكن القول أن هذه الفترة كانت فترة تمهيدية لما آل عليه وضع لواء القدس الاداري حيث أصبح فيما بعد متصرفية ممتازة.^(١)

وقد اعتمدت الدولة العثمانية في إدارة القدس على دعامتين هما: الجهاز الاداري، ومجالس الإدارة، غير أنها لم تستخدم هاتين الدعامتين معاً منذ اللحظة الأولى أثناء فترة حكمها الثانية لهذه البلاد ففي البداية اعتمدت على الدعامة الأولى ممثلة في الأجهزة الإدارية في الولاية واللواء والقضاء والناحية لكن أظهر بعض حكام هذه الأجهزة تصرفات سيئة تجاه الاهالي لذا أوجدت الدولة العثمانية دعامة ثانية ممثلة في مجالس الإدارة لتكون رقيباً على الجهاز الإداري.

أدارت الدولة العثمانية شؤون القضاء في هذا اللواء كغيره من الألوية بواسطة أعضاء السلك القضائي وعلى رأسهم القاضي الذي كان سنداً للمجتمع بحكم الصلاحيات التي انيطت به مع بداية الحكم العثماني لبلاد الشام.^(٢)

وقد مارست هذه الدولة شؤونها المالية في اللواء بواسطة موظف عرف باسم "مأمور مالية القدس" وكان ذاك الموظف على اتصال دائم مع دفتردارية بلاد الشام غير أن تلك التبعية قد نقلت إلى دفتردارية إيالة صيدا ثم طرابلس مع المتغيرات الإدارية التي تمت في هذا اللواء منذ عام ١٨٤١.

ومن الناحية العسكرية كان لواء القدس يتبع دائرة الجيش الخامس العثماني الذي اتخذ من دمشق مقراً له، وقد وجد في قلعة القدس عدد من القوات العسكرية لمواجهة ما يطرأ من الأحداث فيه، فاستخدمت الدولة العثمانية أسلوب القوة في إجراء القرعة العسكرية وبخاصة بعد أن قام بعض المكلفين بالتهرب من الجندية عن أعين السلطات العثمانية بطرق شتى ومنها إحداث العاهات الجسدية أو الاختفاء إلى حين.

(١) مخزوم، أزمة الفكر.....، ص ٧٢.

(٢) مخزوم، أزمة الفكر.....، ص ٧٥.

ومن خلال هذه الأجهزة مارست الدولة العثمانية سياستها المركزية في لواء القدس ومجتمعه فقد ضم المجتمع ثلاثة أنماط هي: مجتمع المدينة الذي تمثل في أشهر المدن في هذا اللواء فقد ضم مدينة القدس مثلاً عدداً من العائلات التي كان لها دوراً بارزاً في الحياة الإدارية والقضائية والاجتماعية وأهمها عائلة النشاشيبي- الحسيني- الخالدي- السكاكيني، وقد اتخذت هذه العائلات من التعليم أحد الدعائم لتوفير زعامتها ونفوذها في القدس كما أن التطور العمراني قد أصاب هذه المدينة حيث خرجت المدينة من سورها لتقيم أبنية جديدة خارج هذا السور لاستيعاب السكان الجدد.^(١)

أما المجتمع البدوي فقد كان ينقسم إلى عدة قبائل وقد ترأس كل قبيلة شيخ يتمتع بسلطات واسعة وكان لكل قبيلة من القبائل البدوية بقعة من الأرض لزراعتها لذا فهي قبائل شبه رحل وقد اتخذت هذه القبائل من جنوب فلسطين وبصفة خاصة حول بئر السبع وغزة مناطق لنزولها. أما العصابات الأخرى فقد استقرت حول القدس والخليل.

أولاً: أجهزة الحكم والإدارة:

١- الوضع الإداري:

تميزت الفترة الزمنية لأربعينيات القرن التاسع عشر من تاريخ بلاد الشام بالتطور السريع... فقد انتهى مع بدايتها أسلوب الدولة العثمانية في الحكم غير المباشر الذي كانت تتبعه منذ دخولها بلاد الشام واستبدلته بسياسة الحكم المباشر مستخدمة أجهزة متعددة تتغير بين الفينة والأخرى تبعاً للأنظمة الجديدة التي أصدرتها الدولة بهذا الصدد ولعل التدخلات الأجنبية ومحاوله استغلال بعض التيارات الطائفية خدمة لمصالحها ما جعل الدولة في محاوره جادة متصلة بهذا التغيير، فشهدت البلاد في هذه الفترة تطورات اقتصادية وأخرى اجتماعية تمثلت في إلغاء نظام الالتزام وفي إلغاء بعض القيود الاجتماعية.

ونظراً لارتباط لواء القدس إدارياً بإحدى ولايات بلاد الشام: الشام، أو صيدا، فقد كان لتلك التطورات أثرها وانعكاساتها على لواء القدس الذي كان محط الطامعين وهذا ما سيعالجه موضوع الرسالة.

يمكن معرفة الوضع الإداري للواء القدس من خلال إلقاء نظرة شاملة على الأوضاع الإدارية في بلاد الشام. انهارت خلال هذه الفترة الوحدة الإدارية التي كانت تتمتع بها بلاد الشام في عهد الحكم المصري فقد أعاد العثمانيون تقسيم البلاد إلى ولايات- إيالات- ضمت بلاد الشام، بموجب ذلك أربع ولايات هي: الشام ومقرها دمشق، وحلب وطرابلس، وصيدا- نقل مقرها إلى بيروت بعد أن كان في صيدا ثم عكا- أما الأقسام

(١) الشدياق، كتاب أخبار الأعيان.....، ص ١٩٠.

الإدارية الصغرى فقد حدثت فيها بعض التغيرات حيث نقلت تبعيتها من ولاية لأخرى،^(١) ومن ذلك أنه في عام ١٨٤١ اقتطع سنجقا- لواء- القدس وغزة من ولاية دمشق وضما لولاية صيدا.^(٢)

وضمن إطار التوسع الإداري على حساب ولاية دمشق اقتطع منها كذلك في عام ١٨٤٣ سنجق آخر من أرض فلسطين وهو سنجق نابلس الذي ألحق بولاية صيدا وبهذا أصبحت التعليمات تصدر من ديوان مشيرية إيالة صيدا مخاطبة متصرف سناجق القدس وغزة ونابلس بدلاً من الإجراء السابق^(٣) وتلى ذلك إلحاق سنجق آخر هو سنجق جنين وبذلك أصبح حاكم القدس يخاطب بالصيغة الآتية: متصرف ألوية القدس شريف ونابلس وغزة وجنين^(٤) أصبح الجانب الأكبر من الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام يكون وحدات إدارية متجاورة تتبع ولاية واحدة هي ولاية صيدا بعد أن كانت موزعة بين ولايات عدة، ومما دعم تلك الوحدة الإدارية أن الدولة أقامت في ولاية صيدا ديواناً يشرف على شؤون الإدارة في هذه الألوية الأربع.

ودعماً لمكانة القدس وتلافياً للأخطار التي بدأت تتجمع نتيجة المنازعات بين الدول الأوروبية الكبرى حول الأماكن المسيحية المقدسة تلك المنازعات التي أدت إلى قيام حرب القرم ١٨٥٤-١٨٥٦، قررت الدولة العثمانية رفع لواء القدس إلى مرتبة الولاية عام ١٨٥٤، وعينت عليها والياً (باشا) بثلاثة أطواخ بعد أن كان الوالي يحمل طوخ أو طوخين،^(٥) وكان يخاطب بالصيغة الآتية: سعادة دولتلو أفندينا ولي النعم مشير إيالة القدس المعظم^(٦) وأصبح مستقلاً في اتصالاته عن والي صيدا، حيث أصبحت اتصالاته مباشرة مع الباب العالي.^(٧)

أصدرت الدولة العثمانية في عام ١٨٦٤ نظام الولايات وهو بسط الحكم المركزي وتنظيم الإدارة فيها وفي سبيل ذلك أعادت الدولة التقسيمات الإدارية في ولاياتها ومن ضمنها الولايات في بلاد الشام وبموجب ذلك أصبح التسلسل في التقسيم الإداري على النحو التالي: ولاية- لواء- قضاء- ناحية- قرية- مزرعة،^(٨) وطبقت الدولة

(١) السجل رقم ٣٢٤، ص ٥٧، رقم الوثيقة ١٦.

(٢) السجل رقم ٣٢٤، ص ٥٥، رقم الوثيقة ٢١.

(٣) السجل رقم ٣٢٧، ص ١١٢، رقم الوثيقة ٢٧.

(٤) السجل رقم ٣٢٤، ص ٦٠، رقم الوثيقة ٢٨.

(٥) الطوخ: ذيل فرس استعمله التتار والعثمانيون شعاراً للسلطة حيث حددت رتبة الأمير بعدد أطواخه فكان السلطان يحمل موكبه تسعة أطواخ والصدر الأعظم خمسة والوزير ثلاث. انظر: عبد الكريم غرايبة، سورية في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤١.

(٦) السجل رقم ٣٣٧، ص ٢٠، رقم الوثيقة ٣٣.

(٧) السجل رقم ٣٣٧، ص ٢٧، رقم الوثيقة ٣٦.

(٨) الدستور العثماني: وهو مجموعة التنظيمات العثمانية قام بترجمتها نوفل أفندي نعمة الله نوفل في مجلدين، بيروت، ١٣٠١، مج ٢، ص ٣٢٣.

العثمانية هذا النظام في بلاد الشام التي أصبحت تضم ولاتين هما: سورية (دمشق) وحلب، ويهمنها الولاية الأولى حيث كانت تضم عدداً من الألوية هي: القدس، طرابلس، بيروت، عكا، اللاذقية، نابلس. وبذلك نرى أن القدس عادت فنزلت إلى مرتبة لواء تابع لولاية دمشق بعد أن كانت تتبع الباب العالي رأساً. والتقسيمات الإدارية التفصيلية للواء القدس توضح مدى تطبيق هذا النظام، فقد ضم هذا اللواء عدداً من الأفضية، والأفضية بدورها شملت عدداً من النواحي والنواحي عدداً من القرى، أما الأفضية فكانت: القدس والخليل وغزة ويافا وبيت لحم والرملة.

٢- الجهاز الإداري في اللواء:

اعتمدت الدولة العثمانية في إدارة بلاد الشام ١٨٤٠، ومنها لواء القدس على دعامتين هما: الجهاز الإداري ومجالس الإدارة، غير أنها لم تستخدم هاتين الدعامتين معاً منذ اللحظة الأولى أثناء فترة حكمها الثانية لهذه البلاد، ففي البداية اعتمدت على الدعامة الأولى ممثلة في الأجهزة الإدارية في الولاية واللواء والقضاء والناحية والقرية، لكن بدا من بعض هؤلاء الحكام تصرفات سيئة تجاه الأهالي. لذا أوجدت دعامة ثانية لحكمها ممثلة في المجالس الإدارية لتكون رقيبة على الجهاز الإداري.

أ- المتسلم:

هو ممثل الوالي في اللواء، وقد أطلقت الدولة العثمانية على حاكمها في القدس لقب متسلم ثم تحولت بعدها إلى استخدام لقب متصرف ومنحته سلطات واسعة هي حسب ما جاءت في نظام إدارة الولايات العمومية الذي صدر عام ١٨٧١ كالآتي:^(١)

- إدارة الأمور المالية والضابطية.
 - إجراءات الأحكام الحقوقية والجزائية ضمن دائرته.
 - تعيين موعد اجتماع المجالس في النواحي وإجراء التفتيشات.
- أما عن علاقة المتصرفين بالأهالي فقد كانت تحددها الأعمال التي يقوم بها هؤلاء المتصرفون تجاه الأهالي فقد كرس المتصرفين جهودهم في سبيل كسب ود الأهالي فعملوا على تخليصهم من الظلم ونشر العدالة والعمل على تحسين طرق جمع الأموال الاميرية منهم. كما حرص المتصرفون على توطيد الأمن في اللواء نظراً للوضع الخاص الذي يتمتع به القدس كمقر للأماكن المقدسة عند الطوائف الدينية المختلفة،^(٢) وحرصاً منهم على إظهار هذا اللواء بمكانة مرموقة أمام الدول الأوروبية في ذلك الوقت ولم يتمتع المسلمون - المتصرفون فيما بعد - بنفس الرتب

(١) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣١٧، ص ٣٧، رقم الوثيقة ١١.

(٢) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٢٦، ص ١٢٨، رقم الوثيقة ١٧.

والدرجات والألقاب، وذلك يعود لتبدل الوضع الإداري في لواء القدس، حيث كان المتسلم في البداية يحمل رتبة باشا من الدرجة الثانية (صاحب طوخ أو طوخين) ويخاطب بقدوة الاماجد الكرام متسلمنا في سنجق القدس.^(١) ومع توسع هذا اللواء إدارياً أصبحت رتبة المتصرف باشا من الدرجة الأولى أي صاحب ثلاثة أطواخ، وخوطب بالصيغة التالية: أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام، صاحب العز والاحترام متصرف سنجق القدس وغزة ونابلس.^(٢)

وتعتبر مرتبة وزير التي حصل عليها متصرف القدس دليل على أهمية هذا اللواء الدينية والسياسية ولازدياد المداخلات الأجنبية في الشؤون الداخلية لهذا اللواء بالإضافة إلى تنافس الطوائف المسيحية المستمرة على حماية الأماكن المقدسة فيه وترتب على ذلك ضرورة وجود حاسم يمثل هذه المرتبة وتبرز أهمية هذا اللواء كذلك عند مقارنته بغيره من الألوية فقد كان حاكم القدس يحمل لقب متصرف، أما حكام الألوية الأخرى فكانوا يخاطبون بلقب قائمقامين.^(٣)

ب- المحاسب:

احتفظ العثمانيون بعد عودتهم إلى حكم بلاد الشام ١٨٤٠ بمنصب المباشر المالي - كبير المحاسبين - الذي كان المصريون قد أوجدوه أثناء فترة حكمهم لهذه البلاد، وقد أصبح المباشر المالي بعد عودة الحكم العثماني لبلاد الشام، يعرف باسم - مأمور - أوكلت له مهمة الأمور المالية في لواء القدس، وقد حدث هذا في اللواء حيث توضح سجلات المحكمة الشرعية وجود هذا المنصب، وكان يخاطب بـ: مأمور مالية سنجاق القدس.

ثم عملت الدولة العثمانية فيما بعد على تنظيم هذا المنصب المالي، حيث جاء في نظام الولايات العمومية ١٨٧١، تعيين "محاسب جي" في كل لواء من قبل نظارة المالية مهمته رؤية الأمور المالية حسب الأنظمة الخاصة بذلك، كما نصَّ النظام على أن لهذا المحاسب جي حرية إبداء الرأي في تعيين أو عزل المحاسبين في الأقضية، على أن يكون عضواً في مجلس إدارة اللواء^(٤) وكان يخاطب بـ: "صاحب الرفعة السيد....محاسب جي لواء القدس".^(٥)

ت- مدير الأوقاف:

كانت أوقاف لواء القدس تتبع أوقاف إيالة صيدا حتى ١٨٤٣ حيث عمدت الدولة على فصلها لضبط عائدات الوقف وبذلك أصبح لواء القدس مستقلاً من هذه الناحية، وعين له مديراً للأوقاف كان يخاطب بـ: عمدة

(١) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٢٦، ص ١٢٨، رقم الوثيقة ٢٥.

(٢) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٢٦، ص ١٢٩، رقم الوثيقة ٢٩.

(٣) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٢٦، ص ١٣٣، رقم الوثيقة ١٢.

(٤) الدستور، المجلد الأول، ص ٣٨٧، ٤٠٦.

(٥) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٥٤، ص ٨٠، رقم الوثيقة ١٠.

الأكابر الفخام صاحب الرفعة مدير أوقاف الولاية القدس الشريف. وقد روعي في اختياره: "الخبرة والاستعداد واللياقة" لهذا المنصب بالإضافة إلى الأمانة والصدق، وأوكلت له مهمة جمع وصيانة مال الأوقاف العائد من المسقفات والأراضي ضمن اللواء والمحلات التابعة له.^(١)

٣- مجلس الإدارة:

شكلت خلال فترة الحكم العثماني الأولى لبلاد الشام مجالس إقليمية في المراكز الهامة في المدن السورية تحت إمرة الوالي وكان هذا الديوان (المجلس) يضم إلى جانب الوالي كلاً من المتسلم والدفتر دار والقادة العسكريين والقاضي، غير أن هذا المجلس يضم ممثلين عن الطوائف غير الإسلامية وكانت اجتماعاته تعقد بناءً على دعوة من الوالي لبحث المسائل المالية والتجارية، وفي عهد إبراهيم باشا حدث تغيير على شكل وطبيعة المجالس المحلية، فأصبحت عبارة عن محاكم تبحث القضايا المدنية، أما المسائل التجارية فقد شكل لها مجالس خاصة بها، وفتحت أمام الطوائف المسيحية واليهودية، وتمتعت بصلاحيات أوسع مما كانت عليه من قبل. مع نهاية ١٨٤٠ وضع رشيد باشا الصدر الأعظم نظام المجالس المحلية حسب الأنظمة الفرنسية، وبموجبه منحت صلاحيات واسعة منها:

١- التحقيق في تسجيل ونقل الأراضي.

٢- الإشراف على دخول الزوار الأجانب.

٣- الاشتراك في عملية التجنيد الإجباري.

وتطالعنا سجلات المحكمة الشرعية في القدس كثيراً من المعلومات عن أهم المجالس التي شكلت في فترة الحكم العثماني الثانية وأهم هذه المجالس:

أ- مجلس شورى القدس:

ضم إلى جانب الرئيس والكتاب ومساعدته أحد عشر عضواً منهم عضو من طائفة اليهود وعضوان من طائفة الأرمن.^(٢)

وقد بحث هذا المجلس دعاوى مختلفة ضمن اختصاصاته، فكان على صاحب الدعوى رفع دعواه إلى هذا المجلس مخاطباً "حضرات أرباب مجلس شورى القدس الشريف"، موضحاً في دعواه فحوى ادعائه، فيبدأ المجلس إثرها بدراسة تلك الدعوى ويقدم بعدها ملخصاً لذلك، ويعرض على القاضي الشرعي للمصادقة عليه باعتباره يقوم مقام والي صيدا، ومن الإنجازات التي قام بها المجلس بحث دعاوى متنوعة بشأن بيع وشراء العبيد، وحصر تركت

(١) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٢٧، ص ١١٦، رقم الوثيقة ٥، أيضاً السجل رقم ٣٤٧، ص ٥٠، رقم الوثيقة ٩.

(٢) العارف، المفضل...، ص ٣١٥.

من يتوفى دون وريث سواء من الأهالي أو الأجانب أو العساكر، ولحسم الخلاف بشأن المبيعات الخاصة بالزيت^(١) ودعاوى القتل^(٢) وإصدار مضابط لبيع وشراء الأراضي وإصدار مضابط أخرى بشأن الحاجيات الغذائية للعساكر الظافرة في القدس وتعددت أسماء هذا المجلس فيما بعد نظراً لاتساع دائرة عمله فأصبح يعرف بمجلس القدس الشريف^(٣) ثم بمجلس إيالة القدس ثم مجلس إيالة القدس الشريف الكبير.^(٤)

ب- مجلس إدارة اللواء:

كانت عملية انتخاب أعضاء المجلس تتم بتشكيل جمعية في اللواء تعرف باسم جمعية التفريق وتضم المتصرف "المحاسب جي" والمفتي والقاضي ورؤساء الطوائف غير الإسلامية. وأما اختصاصات المجلس:^(٥)

فقد حددت اختصاصاته بموجب نظام الولايات لعام ١٨٧١ بما يلي:

- أ- التدقيق على إيرادات ومصاريف اللواء حسب أنظمتها الخاصة.
 - ب- التفتيش على الأمور الحسابية بالنسبة لصناديق المنافع العمومية.
 - ت- النظر في محاكمات المأمورين (الموظفين).
 - ث- الإشراف على إنشاء وشق الطرق.
- ويبدو تطبيق هذه الأنظمة واضحاً في لواء القدس، حيث تطلعا سجلات المحكمة الشرعية بإنجازات لمجلس إدارة اللواء منها رؤية دعوى في حق المزارعة بين عدد من القوى.^(٦)

ت- مجلس بلدية القدس:

كان أول عهد مدينة القدس بالمجالس البلدية عام ١٨٦٣ حيث تألفت أول بلدية ذات صلاحيات محددة،^(٧) واستمر هذا الوضع في القدس حتى صدور نظام الولايات العمومية لعام ١٨٧١ الذي نص على إحداث مجالس بلدية لرؤية الأمور البلدية في كل مدينة وقصبة وضم هذا المجلس بالإضافة إلى الرئيس ومعاونيه ستة أعضاء باستثناء الأعضاء الاستشاريين كالمهندس والطبيب، ويضم هذا المجلس أيضاً كاتباً وأميناً للصندوق.

(١) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٢٤، ص ٤، رقم الوثيقة ٣، ص ١٩، رقم الوثيقة ١١، ص ١٠، رقم الوثيقة ١٧.

(٢) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٤٣، ص ٤٣، رقم الوثيقة ٤٥.

(٣) السجل رقم ٣٣٩، ص ١١٨، رقم الوثيقة ١٦.

(٤) السجل رقم ٣٤٦، ص ٢٧٠، رقم الوثيقة غير واضح.

(٥) الدستور: مج ١، ص ٣٩٤.

(٦) الدستور: مج ١، ص ٤١٤.

(٧) الدستور: مج ١، ص ٣٩٠، ٤١٨.

ث - اختصاصات مجلس البلدية:

الإشراف على إنشاءات الأبنية والأمور المختصة بالمياه وإزالة الخطر بهدم الأبنية القديمة والمتهالكة، وتسهيل أمور المرور والعبور والنقلات ونظافة المدينة وتسهيل وسائل النقل وتنظيفها وتحديد أجورها والإشراف على المقاييس والمكايل والأسعار ومطافئ الحريق كما يشرف على إيرادات ومصاريف البلدية الممثلة في مصاريف الطرق والمعابر والإنشاءات والتعميرات العائدة للمنافع العامة، وأجرة محل إدارة البلدية ومعاشاة المأمورين أما إيرادات تلك المجلس فكانت تأتي من الرسوم والمبالغ التي تخصصها الحكومة لهذا المجلس، العطايا من الذين يستفيدون من تنظيمات المدينة، الإعانات والهبات من شتى النواحي ولأجل المحافظة على إيرادات ومصاريف البلدية كان المجلس يضع دفاتر شهرية تقدم لمجلس إدارة اللواء ثم إلى مجلس إدارة الولاية لأجل تدقيقها ثم المصادقة عليها كما أنه هناك إشراف أعلى على ميزانية المجلس البلدي من قبل وزارة الداخلية باستنابول، حيث كان يقدم لهذه الوزارة جدولاً سنوياً بكافة الحسابات في هذا المجلس.^(١)

ثانياً: القضاء:

١ - القضاء الشرعي: أعضاء السلك القضائي:

أ- القاضي:

تمتع القاضي بصلاحيات واسعة بعد خروج ابراهيم باشا المصري لذا فهو خلال هذه الفترة كان يمثل عصر ازدهار القضاء الشرعي، هذا العصر الذي بدأ - فيما بعد - يدخل في دور الانحطاط، وقد ترأس القاضي الجهاز القضائي في اللواء بحكم الصلاحيات الواسعة التي انيطت به سواء بحكم وظيفته أو كتفويض من الوالي له بعض الصلاحيات أو كصلاحيات كان يمارسها بالاشتراك مع غيره، ويبدو هذا المركز السامي للقاضي واضحاً من خلال عرض هذه الصلاحيات، والتي تبدو أنها أوكلت له تدريجياً ولعل إخلاص وأمانة القضاة، وما ترتب على ذلك من ثقة المسؤولين بهم كان تفسيراً لذلك.^(٢)

ب - صلاحيات قاضي القدس:

من أهم صلاحيات قاضي القدس بحث قضايا الأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق سواء أكان ذلك للمسلمين أو للطوائف غير الإسلامية. وكان هذا القاضي مسؤولاً عن تعيين نائبه في القدس وسائر الأفضية التابعة لهذا اللواء، وما يلحق بهم من موظفين مثل الباشكاتب، والحضر باشي، والشهود، وقد أحييت للقاضي طلبات

(١) الدستور: مج ١، ص ٤١٩، ٤٢١.

(٢) السجل رقم ٣١٤، ص ٨، رقم الوثيقة ٨.

الحصول على التبعة (الجنسية العثمانية) وتقديم تقرير عن سير المتسلم في القدس وتحصيل الرسوم الشرعية وجمع الجزية من أهل الذمة إضافة إلى المحافظة على سلامة الزوار القادمين إلى القدس مع مراقبة السكوكات وخصوصاً عند إبدال أو تغيير عملة بأخرى.^(١)

كما تبرز منزلة القاضي السامية بشكل واضح من خلال صيغ المخاطبة التي كان يخاطب بها القضاة وهي: صدر صدور الموالي العظام، والمولى الهمام، والبحر الطام مولانا مثلاً أفندي محروسة القدس..... دامت فضائله على الأنام،^(٢) أفضى قضاة المسلمين أولى ولاه الموحدين معدن الفضل واليقين قاضي محروسة القدس الشريف حالا زیدت فضائله.^(٣)

وقد تمتع قاضي القدس بنوع من الحصانة ضد العزل والنقل أو تنزيل الرتبة في بعض الأحيان، غير أن هذه القاعدة لم تراعى بدقة حيث لم يبق قاض في مركزه أكثر من عام ومع هذا كان من الممكن تحديد خدمة القاضي لبضعة شهور أو أعوام ويكون بذلك بإشارة من شيخ الإسلام. ولم تكن المحاكم الشرعية وفقاً على المسلمين بل كانت الطوائف المسيحية تحتكم إلى القاضي الشرعي لفض خصوماتها، وذلك بعد أن يثبت أنه من رعايا الدولة بتزكية من البطيركية التابع لها. وقد حرص القاضي على مصالح رعيته^(٤) لذا كان يصدر تعليماته من حين لآخر بعدم إضاعة حقوق الرعية وعدم تأخير معاملاتهم.^(٥)

ب- نائب القاضي:

كان نواب القضاة يعينون من قبل القاضي سواء أكانوا في محكمة القدس نفسها أو في محاكم الأقضية والنواحي، وذلك تسيهلاً في إجراء المعاملات للأهالي بدلاً من حضورهم إلى محكمة القدس الشرعية،^(٦) وكان القاضي يختار نائبه في محكمة القدس الشرعية حسب مؤهلات خاصة منها: "حسن الديانة والعفة والاستقامة" ومع هذا فإن بعض القضاة كانوا يخطئون في اختيار ذاك النائب مما يدفعهم إلى عزله وتعيين بديلاً عنه، ويبدو من سجلات المحكمة الشرعية أن وظيفة النيابة في المحكمة كانت مقتصرة على أفراد عائلة الخالدي^(٧) منذ الاحتلال العثماني لبلاد الشام وكان يؤخذ في الاعتبار عند تعيين النائب -بالإضافة إلى ما سبق- أن الوظيفة كانت من قبل لجدّه أو

(١) العارف، المفضل...، ص ٣١٣، ٣١٥.

(٢) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٢٧، ص ٢٢٥، رقم الوثيقة ١١١.

(٣) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٢٩، ص ٢٠، رقم الوثيقة ١٩.

(٤) غرابية، سوريا في...، ص ٥٢، وانظر أيضاً: عوض، الإدارة العثمانية...، ص ١١٥.

(٥) انظر: ملحق أسماء القضاة في القدس مثبت في نهاية البحث.

(٦) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٤٨، ص ١٣٨، رقم الوثيقة ١١٠، ص ١٤٠، رقم الوثيقة ١١٢.

(٧) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٤٨، ص ١٤٢، رقم الوثيقة ٦٢، ونفهم من هذا أن النائب كان يعين من أهل البلاد.

لأبيه بالرغم من سوء تصرف بعض النواب كما حدث بين أفراد هذه العائلة. وقد أوكلت له مهمة تحرير وختام الحجج والصكوك الشرعية والسندات القطعية وأحياناً كان قاضي القدس يوكل لنائبه مهمة أخرى، هي رئاسة الكتابة في المحكمة.^(١)

ت- الباشكاتب:^(٢)

كان الباشكاتب يعين بموجب كتاب رسمي موجه إليه من قبل القاضي مخاطباً إياه بالصيغة الآتية: "عمدة المدرسين الفخام منبع الفضل والاحترام"، ويوضح في كتاب التعيين- بعد أداء التحية- الأسباب الداعية لاختياره لهذا المنصب، ومن هذه الشروط كون هذا المنصب منصب "الأجداد والآباء" وتوفر العفة والاستقامة وحسن الديانة والسيرة الحسنة بين الأهالي وينهى القاضي كتابه هذا ببيان المهام التي توكل للباشكاتب وهي الرئاسة على كتاب المحكمة الشرعية.^(٣) وقد وجد في محكمة القدس الشرعية باشكاتب حددت صلاحياته بموجب كتاب التعيين من قبل القاضي كما عين في محكمة غزة الشرعية باشكاتب آخر أوكلت له مهمة الإشراف على الأمور الكتابية في تلك المحكمة،^(٤) وكما احتكرت عائلة الخالدي هذه الوظيفة في محكمة القدس الشرعية كذلك احتكرتها في محكمة غزة الشرعية.^(٥)

ث- الكاتب:

كان يتم تعيين الكاتب بموجب كتاب رسمي من قبل القاضي ويخاطب بالصيغة الآتية: غب التحية السنية: نبدى إليك أننا قد نصبناك وعيناك كاتباً بمحكمة القدس الشريف لتعاطي أمور الكتابة بالمحكمة، لكون هذه الوظيفة وظيفة آبائك وأجدادك لتجلس بين السادات الكتاب لتعاطي كتابة الصكوك والسندات في المحكمة.^(٦) وحددت مسؤولية الكاتب في تقييد الحجج والدفاتر وكتابة الصكوك الشرعية وتحرير التركات.

ج- المترجم:

كان المترجم يعين من قبل شيخ الإسلام يقوم القاضي على أثرها بإبلاغ من يقع عليه الاختيار نظراً لاستقامته وحسن سلوكه وحسن نطقه الألفاظ وضبطها، وأن يكون مقبولاً من الأهالي، وقد وجد في محكمة القدس الشرعية

(١) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٢٦، ص ١٩٦، رقم الوثيقة ٥٧.

(٢) الباشكاتب: ويقصد به رئيس الكتاب أو رئيس الديوان. www.alansab.net

(٣) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٤٧، ص ٢٤٧، رقم الوثيقة ٦٣.

(٤) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٢٦، ص ٩٢، رقم الوثيقة ١١، ص ١٩٦، رقم الوثيقة ٧٢.

(٥) رستم، الأصول العربية...، ص ٢٤٦.

(٦) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٣٠، ص ٣١، رقم الوثيقة ٤١.

مترجم واحد.^(١) وكان بإمكان المترجم في بعض الأحيان أن يجمع بين منصبه ومنصب آخر هو الكتابة حسب ما يحدد له ذلك القاضي الذي كان يخاطبه بالصيغة الآتية: "عمدة الفضلاء والسادات الكرام". أما صيغة الكتاب بشأن الكتابة فهي كالآتي: حررنا مراسلتنا هذه لتتعاطى مع إخوانك السادات الكتبة أمور كتابة الصكوك الشرعية مع وظيفتك الترجمة.^(٢)

ح- محضر باشي:

كان يعين من قبل القاضي ويخاطبه بالصيغة الآتية: قدوة الأمثال..... وقد روعي في توجيه هذا المنصب أن يكون من قبل منصب الأجداد والآباء. ومهمة المحضر باشي هي إحضار الأشخاص المطلوبين من قبل القاضي باعتبارهم طرفاً في قضية أو شهوداً في إحدى القضايا.^(٣)

٢- المحاكم الشرعية في القدس:

ضمت القدس خمس محاكم وكانت المحكمة هي مقر القاضي ومعه باقي أعضاء السلك القضائي،^(٤) وكان القاضي يعقد جلساته بحضور الأعضاء والمترجم لبحث المسائل المقدمة من الأهالي للبحث والدراسة وإصدار القرار المناسب لها، وذلك ضمن اختصاصات القاضي التي سبق إيرادها، ومن الأمور التي يعالجها القاضي في المحكمة ما كان قد يقع بين الطوائف المسيحية من خلافات.

وكان لمحكمة القدس الشرعية إيرادات ومصاريف، الإيرادات كانت تأتي من رسم الاعلام بارة واحدة مثلاً، رسم الوثيقة: بإرفاق فيما يختص بالأحكام التي تصدر دون موافقة شرعية وعلى الدعاوى الحقوقية التي ترى وتفعل من قبل الحاكم الشرعي. أيضاً من الرسوم على كافة السندات الشرعية التي تصدرها المحاكم كالحجج مثلاً.

أما مصاريف خزانة محكمة القدس الشرعية فقد كانت كالآتي:

- ١- مرتبات للكتبة.
- ٢- مصاريف القرطاسية (الأدوات الكتابية) في المحكمة.^(٥)
- ٣- مساعدات شهرية للفقراء سواء أكانت نقداً أو عيناً تصرف لهم يومياً.

(١) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٤٥، ص ١٠٩، رقم الوثيقة غير واضح.

(٢) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٤٣، ص ٢، رقم الوثيقة غير واضح.

(٣) الدستور، مج، ص ١٤٢، ١٤٦.

(٤) James , Finn : Stirring Times , Vol I and Vol II.

(٥) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٤٧، ص ٢، رقم الوثيقة غير واضح.

٣- جهاز الإفتاء:

بعد عودة العثمانيين إلى حكم بلاد الشام ١٨٤٠ عادت لمفتي استانبول مهمة تعيين المفتين في أنحاء الامبراطورية العثمانية وقد خوطب هذا المفتي بالصيغة الآتية: "شيخ الاسلام ومفتي الأنام الحامل للنیشان المرصع العثماني". وقد عين مفتي استانبول عدداً من المفتين في المدن الهامة إلى جانب القاضي، كما حدث في القدس وغزة فقد كان السلاطين يحرصون على نيل موافقتهم عند إعلان الحروب أو عقد الصلح،^(١) وإصدار شهادة بشأن التبعية العثمانية^(٢) كما أنه يقرر انحراف السلطان أو استقامته مما يترتب على ذلك عزله أو تنصيبه،^(٣) لهذا كان بعض السلاطين يشترطون المفتين ويحاولون تدعيم أعمالهم المخالفة للشرع بفتاوى شرعية.^(٤) وقد ازداد نفوذ المفتين في القرنين السابع عشر والثاني عشر حين فقد السلاطين سيطرتهم المطلقة على الأمور، ومع هذا إذا قارنا بين الإفتاء وجهاز القضاء في القدس نجد أن الجهاز الأول كان أقل تنظيمياً من الآخر، وقد يعود ذلك إلى عدم تقاضي المفتين رواتب رسمية، ثم لكونهم متساوين من الناحية النظرية مع بعض البعوض كما أن القاضي كان يقوم بمهمة المفتي في حالة عدم وجوده^(٥) وكان المفتون يصدرون فتاواهم طبقاً للمذهب الحنفي وهو المذهب الرسمي للدولة، وهذا لا يعني عدم العمل بمذاهب أخرى.^(٦)

٤- القضاء النظامي والمحاكم النظامية:

أ- القضاء النظامي:

زاد اقتباس الدولة العثمانية للأنظمة والقوانين الغربية مع بداية الخمسينات من القرن التاسع عشر وقد يرجع هذا الاهتمام إلى الظروف التي أحاطت بالدولة أثناء حرب القرم التي انتهت بانتصار الدولة العثمانية وإلى جانبها إنجلترا وفرنسا وإيطاليا، وقد حرصت الدولة على إقناع حليفاتها بإنتهاجها الإصلاح وخاصة إصلاح أحوال رعاياها من غير المسلمين ومنذ ذلك الوقت توالى صدور القوانين المنظمة لشؤون الدولة المختلفة، وقد صدر أول خط همايوني باقتباس الأنظمة الحديثة في ١٨ شباط ١٨٥٦ وهو خط همايوني شريف وقد نص على أن الدعاوى التجارية والجنائية يفصل فيها في جلسات علنية تعقد في محاكم مختلطة. أما الدعاوى العائدة إلى الحقوق العادية

(١) محمد جميل بيهم، والترك في الصراع بين الشرق والغرب، بيروت، ص ١٢٤، ١٢٥.

(٢) حسين لبيب، تاريخ الأتراك العثمانيين، ج١، مصر، دون تاريخ، ص ٤، ٧.

(٣) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٤٨، ص ٤١، الوثيقة ١٤٢.

(٤) محمد أنيس، الدولة العثمانية والمشرق العربي، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٧٦ - ١٠١.

(٥) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، ط٢، ١٩٦٠، ص ٣٢.

(٦) عوض، الادارة العثمانية ...، ص ١١٨ - ١١٩.

فتنظر شرعاً وأنظماً بحضور الوالي وقاضي البلدة في مجالس الولايات والألوية المختلفة، أما الدعاوى الخاصة مثل الإرث فتنظر بالنسبة للمسلمين في المحاكم الشرعية وبالنسبة لغير المسلمين فتنظر في المحاكم النظامية.^(١)

وأعقب ذلك صدور سلسلة من القوانين أولها قانون الجزاء الهمايوني الذي صدر في عام ١٨٥٨ وقد جاء في مقدمة وثلاثة أبواب في ٢٦٤ مادة وعدة فقرات تشمل أحكاماً مؤقتة، وقد أوضحت المقدمة مراتب الجرائم وعقوباتها ودرجاتها بشكل دقيق، وطُبِّقَ هذا النظام الجديد في القدس بإنشاء مجلس الجنايات واختار له المتصرف رئيساً روعي في اختياره أن يكون من الأكابر والأعيان ومن المدركين ومن أهل الصداقة والاستقامة ومن سلالة السادات الكرام، كما أوضح المتصرف في كتاب التكليف هذا للرئيس المرشح لهذا المجلس أن يراعى الحق والعدل بحيث لا يقع أي سقامة منه لأي شخص كما لفت المتصرف نظر رئيس مجلس الجنايات إلى ملازمة الحضور حسب الأنظمة الخاصة بالمجلس وأن يكون حسن السلوك ورفع قرار المتصرف إلى السلطان للمصادقة عليه وإصدار الإرادة السنوية بتعيينه.^(٢)

ب- المحاكم التجارية:

شكلت المحاكم التجارية لأول مرة في بلاد الشام أثناء الحكم المصري لهذه البلاد، ولكن هذه المحاكم ألغيت بعد خروجهم من هذه البلاد، حيث أسند العثمانيون عند عودتهم لحكم بلاد الشام مهمة القضايا التجارية إلى مجالس الولاية، لكن في أواخر عام ١٨٥٠ تم تأسيس محاكم تجارية في المدن الرئيسية في سورية، غير أن سجلات المحكمة الشرعية في القدس لم تفصح عن معلومات أو إشارة تدل على تأسيس مثل هذه المحاكم التجارية في القدس، لكنها من ناحية أخرى ألفت الضوء على تعيين شيخ بندر لتجار القدس مع بداية عام ١٨٤٦ لأجل النظر في المشاكل التجارية التي قد تقع بين التجار وذلك حسب القوانين والأنظمة المعمول بها في كافة الأقضية والمدن في الدولة العثمانية^(٣) وقد صدرت فيما بعد عدة أنظمة بشأن المحاكم التجارية منها قانون التجارة ١٨٥٩ وقانون المحاكم التجارية في ١٨٧١.^(٤)

وهكذا نرى أن جانباً كبيراً من اختصاصات القاضي والمحاكم الشرعية خاصة فيما يتعلق بالدعاوى التجارية والمدنية قد انتقلت إلى محاكم جديدة أنشئت باسم المحاكم النظامية واختصرت مهمة المحاكم الشرعية على النظر في الأحوال الشخصية بصفة عامة فأدى ذلك إلى هبوط وظيفة القاضي الشرعي بالنسبة لكبار الموظفين المدنيين

(١) الدستور: مج١، ص ٥ - ١٠.

(٢) الدستور: مج١، ص ٣٢٣ - ٣٧٩.

(٣) جاء في كتاب تعيين شيخ بندر تجار القدس السيد موسى قطينة عام ١٨٤٦ ضرورة النظر في المشاكل التجارية الخاصة بالتجارة بوجه الحق والعدل والانصاف. انظر: محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٢٨، ص ١١٤.

(٤) الدستور: مج١، ص ٥٢٥ - ٥٧٠.

والعسكريين في الولاية وبهذا فإن عصر ازدهار القضاء الشرعي قد بدأ بالانحسار أمام عصر القضاء النظامي الذي بدأ يزدهر على حساب القضاء الشرعي.

ثالثاً: الحياة العسكرية والأمن:

١- الجهاز العسكري:

تمثل الجهاز العسكري في لواء القدس بعد عودة العثمانيين إلى حكم بلاد الشام عام ١٨٤٠ بوجود القلعة المنصورة السلطانية التي ضمت حامية من المدفعية وكان على رأسها طوبجي باشا (قائد الحامية) وإلى جانبه ٥٤ نفرًا من الطوبجية و ٦ أنفار اسطاوات، ويتقاضى الجميع مرتبات شهرية بالإضافة إلى مخصصاتهم من الأطعمة^(١) وكذلك وجد في القلعة حامية من المشاة عرف قائدها "بالدذار" ومساعدته بالكتخدا ومعها ضابط برتبة "بلوك باشي"،^(٢) وحسب التقسيمات العسكرية الجديدة التي شكلتها الدولة العثمانية في ولاياتها بعد ١٨٤٠. كان هناك سبع دوائر وضعت فيها سبعة جيوش،^(٣) وضم كل جيش عدداً من الفرق، وتكونت كل فرقة من لواءين، وكل لواء من آلايين وتألّف كل آلاي من أربعة طواير.

وبحسب تلك التقسيمات كان لواء القدس يتبع عسكرياً دائرة الجيش الخامس الذي عرف بجيش عربستان، وقد اتخذ من دمشق مقراً له، وقد أدى هذا الجيش دوراً مهماً في بلاد الشام حيث ساند في تثبيت نظام الحكم، وفي المحافظة على النظام في المدن والبلد المجاورة، وجمع الإيرادات من الضرائب وحراسة قافلة الحج وحماية الحدود من اعتداءات البدو والتهديدات الخارجية وأسندت قيادة هذا الجيش إلى قائد يحمل رتبة مشير ويأمرته عدد من كبار الضباط من مختلف الرتب.^(٤)

(١) السجل رقم ٣٢٤، ص ٤٥، رقم الوثيقة ١١٣.

(٢) العارف، المفصل...، ص ٣٥٢.

(٣) الدوائر العسكرية السبعة هي: الدائرة العسكرية الأولى: تضم الجيش العثماني الأول ومقره استانبول. الدائرة العسكرية الثانية: تضم الجيش العثماني الثاني ومقره ادرنه. الدائرة العسكرية الثالثة: تضم الجيش العثماني الثالث ومقره سالنيك. الدائرة العسكرية الرابعة: وتضم الجيش العثماني الرابع ومقره ازريجان. الدائرة العسكرية الخامسة: تضم الجيش العثماني الخامس ومقره دمشق. الدائرة العسكرية السادسة: وتضم الجيش العثماني ومقره بغداد. الدائرة العسكرية السابعة: ومقر الجيش اليمني. انظر: عوض، الإدارة العثمانية...، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٤) عوض، الإدارة العثمانية...، ص ١٤٠.

وتشكلت القوات العسكرية المتمركزة في القدس من كتيبة مشاة يرأسها بكباشي (رئيس أول)، وكان عدد من استقر في قلعتها يتراوح ما بين ٦٠-١٢٠ جندياً. وذلك حسب الأحداث خارج مدينة القدس، وكانت ترسل بعض القوات لمواجهة الاضطرابات في جهات اللواء.^(١)

وكان هؤلاء الجند يتقاضون رواتب شهرية حرصت الدولة على أن تصلهم في الوقت المحدد لذلك حتى لا يصدر منهم أي تعديات على الفلاحين.^(٢) ومع هذا كانت الدولة أحياناً تتأخر في ذلك لذا كانت تتشدد في تأمين ذلك بواسطة اللواء حيث تكلفهم بجمع البقايا المتأخرة بالسرعة الممكنة، وذلك من منطق أن لا يكون الجند في ظل السلطان ومتضايقاً وإنه من المفروض أن يكون مرقّها.^(٣)

ومن ناحية أخرى اهتمت الدولة العثمانية في إصلاح الثكنات العسكرية الموجودة في القدس لأجل راحة الجند، وفي نطاق محافظة الدولة العثمانية على العسكريين كانت تصرف للمصابين معاشات شهرية طيلة حياتهم.^(٤)

٢- التجنيد:

بعد أن قضى السلطان محمود الثاني على جيش الانكشارية عام ١٨٢٦ أجبر أبناء بلاد الشام على التجنيد الإجباري لتشكيل جيش نظامي جديد^(٥) وبعد عودة العثمانيين عام ١٨٤٠ مرة ثانية إلى حكم بلاد الشام طبقوا ما جاء في خط شريف كلخانة ١٨٣٩ بشأن التجنيد الإجباري، حيث جاء في ذاك الخط أن الجندية فريضة على الأهالي، وأن إعطاء العساكر لأجل المحافظة على الوطن هو من فرائض ذمة الأهالي.^(٦)

واتبعت الدولة العثمانية في التجنيد أسلوب القرعة الشرعية حسب تنسيب دار الشورى العسكرية.^(٧) التي منعت أخذ بدل شخص للخدمة العسكرية وكان مجلس القرعة يعقد بحضور الوالي ومشير الجيش الخامس والقاضي والمفتي والأعيان وبحضور الأفراد من هم في سن الخدمة العسكرية، وتجري القرعة فيما بينهم بإشراف مشير الجيش الخامس. وقد راعت الدولة العثمانية المواسم الزراعية بالنسبة للأهالي حيث تحاشت إجراء القرعة قبل المواسم بل تعقدها بعد ذلك مباشرة.^(٨)

(١) Finn : Stirring Times Vol I P . 170 , 350 .

(٢) الدستور، مج٢، ص ٣٥.

(٣) الدستور، مج٢، ص ٤٢.

(٤) عوض، الإدارة العثمانية، ص ١٤٢.

(٥) عوض، الإدارة العثمانية...، ص ١٤٥.

(٦) عوض، الإدارة العثمانية...، ص ١٥٠.

(٧) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٤٨، ص ٨، رقم الوثيقة ٧.

(٨) عوض، الإدارة العثمانية...، ص ١٤٦.

وقد طالب أهالي مدينة القدس الصدر الأعظم بالعمل على استثنائهم من القرعة العسكرية، بحجة أن أسلوب حياة أهالي مدينة القدس يختلف عن مثله في الأماكن الأخرى إذ عانى سكان من صعوبة الأعمال الزراعية بسبب الطبيعة الجبلية للمدينة وقلة المياه، وقد رفض طلبهم هذا، وأجريت القرعة العسكرية في عام ١٨٥٢ في لواء القدس حيث كان نصيبه من القرعة ٣٠٧ أشخاص كذلك في لواء غزة حيث كان نصيب اللواء ٣٤٩ شخصاً. وقد ترتب على نجاح الدولة العثمانية في إجراء القرعة الشرعية في لواء القدس زيادة في عدد الأشخاص المطلوبين للخدمة العسكرية، وكان عدد المطلوبين عام ١٨٥٢ من لواء القدس ٣٠٧ أشخاص، وفي عام ١٨٦٣ ارتفع العدد إلى ٧٦٥ شخصاً.

وكانت السلطات العثمانية تعفي بعض المدن من التجنيد نتيجة إلحاح أهالي تلك المدن، فقد حدث هذا مع أهالي مدينة القدس الذين جددوا طلبهم في عام ١٨٧٠ لإعفائهم من القرعة العسكرية نظراً لقلة نفوسهم،^(١) ويبدو أن الدولة قد استجابت لطلبهم هذه المرة أسوة بغيرها من المدن مثل مكة والمدينة نظراً للمكانة الدينية لهذه المدن وقد شمل الإعفاء من هم داخل سور مدينة القدس ولكن الدولة ما لبثت أن عدلت عن ذلك نظراً لتكديس الأهالي داخل السور حتى يشملهم الإعفاء وقد اقتصر الإعفاء بعد ذلك على العاملين بخدمة الحرم الشريف في القدس.^(٢)

ونظراً لشدة وطأة القرعة العسكرية على الأهالي فقد اتبعوا عدة أساليب للتهرب من ذلك، فمن هذه الوسائل إحداث عاهة في الجسم أو رشوة الموظفين أو الهروب والاختفاء إلى حين، ولعل هذا بسبب إجبار الأهالي على الخدمة العسكرية في مناطق غير مناطقهم.

جاء في فرمان الذي أصدره السلطان محمود الثاني - بعد أن قضى على الإنكشارية - بشأن الخدمة العسكرية أن من تزيد سنه عن العشرين ويكون قادراً على حمل السلاح عليه التوجه إلى طابور عسكر المنصور في حلب وقد استثنى فرمان العاجزين والقاصرين من هذه الخدمة، وخوفاً من أن يكون هذا الاستثناء منفذاً للتهرب من الخدمة العسكرية، فقد جاء في فرمان ضرورة التأكد من ذلك أمام المسؤولين عن الخدمة العسكرية.

أما خط كلخانة ١٨٣٩ فقد حدد مدة الخدمة العسكرية بمدة من ٤-٥ سنوات وبناء على ما جاء في خط كلخانة طبقت الخدمة العسكرية في لواء القدس حيث أصدر السلطان عبد المجيد فرماناً عام ١٨٥١ أوضح فيه أن من ينهي مدة الخدمة العسكرية يسمح له بالخروج، ويعطى له تذكرة "الإطلاق" للعودة إلى وطنه ليمارس نشاطه كما كان سواء في الزراعة أو الصناعة أو..... غير أنه يسجل ضمن سجل العسكر "الرديف" كما

(١) عوض، الإدارة العثمانية...، ص ١٥٢.

(٢) عوض، الإدارة العثمانية...، ص ١٥٥.

أوضح الفرمان ضرورة أخذ عدد آخر من الأهالي بدلاً من الذين استكملوا مدة خدمتهم من تلك البلاد نفسها، وأن يجري ذلك بالقرعة الشرعية مع مراعاة العدل والاستقامة في ذلك دون استثناء أو تمييز بين غني أو فقير. كان لا يسمح لأحد العسكريين بالزواج إلا بعد أن يأخذ الإذن من قيادته^(١) غير أن مدة الخدمة العسكرية قد زادت فيما بعد إلى ١٧ سنة خمس سنوات في الخدمة الفعلية، وسبعة في الرديف، وخمس سنوات في المستحفظ ولعل رفع مدة الخدمة العسكرية إلى هذا الحد جاء نتيجة الظروف التي أحاطت بالدولة العثمانية خاصة بعد حرب القرم. وما ترتب على ذلك من علاقات سيئة مع روسيا وتوقعها نشوب الحرب مع هذه الدولة في أي لحظة وهذا ما حدث فيما بعد. وقد فرض على غير المسلمين دفع الإعانة العسكرية مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية وقد كلف رؤوساء الطوائف الدينية بجمع هذه الإعانة التي كانت تجمع على أفساط على مدار السنة بحيث يدفع الفقير ليرة والغني ليرتين.^(٢)

رابعاً: أجهزة الأمن:

بعد عودة العثمانيين إلى حكم بلاد الشام ١٨٤٠ تم تشكيل قوات غير نظامية لمساعدة الوالي لإدارة ولايته، وهذه القوات كانت في لواء القدس على النحو التالي:

١- الضبطية eapitiua:

وكانت هذه القوات قبل الحكم المصري على شكل فرق صغيرة غير منظمة لكن فيما بعد أعيد تشكيلها بشكل أفضل لتحقيق الهدف المطلوب منها، وتتألف من الفرسان (سباهي) والمشاة (بياده) وقد لعبت دوراً مهماً في المحافظة على النظام في المدن والمناطق من حولها، كما أوكل لهذه القوات حراسة بوابات المدن والمباني العامة ونقل الرسائل بين الدوائر الحكومية وقد وجد في لواء القدس وتوابعها مأمور للأمور الضبطية للإشراف على تلك القوات.^(٣) كما أشرفت هذه القوات على تذاكر الأسلحة بين الأهالي.^(٤)

٢- الباش بوزق Basi-Bozuk: كان العمل الأساسي لهذه القوات جمع الضرائب من

الريف وحراسة البيوت وقوافل الحج وحماية أهل الريف من غزوات البدو وحماية الحصون.^(٥) وقد صرف لهذه القوات رواتب شهرية تصل إلى ٧٥ غرشاً لكل منهم إضافة لما يحصلون عليه عند قيامهم بأية مهمة إضافية

(١) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٤٨، ص ٤٤، رقم الوثيقة ١٣.

(٢) الرديف: يستدعى عند الحاجة. المستحفظ: يستدعى عند الحاجة القصوى. انظر: عوض، الإدارة العثمانية...، ص ٥٠.

(٣) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٢٥، ص ١٩، رقم الوثيقة ٥٢.

(٤) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٣٠، ص ٦، رقم الوثيقة ٦٣.

(٥) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٣٠، ص ٩، رقم الوثيقة ٦.

كحراسة السواح الأجانب غير أن هذه القوات لم تؤد مهامها على خير وجه، حيث أوجدت تدمراً بين الأهالي، وليس السبب هو عدم تدريب الباشبوزق التدريب الكافي، ولكن السبب هو سوء الاختيار لهذه القوات حيث تم اختيارها من حثالة المجتمع ومن القبائل نصف البدوية.

ومع هذا فقد لعبت قوات الأمن هذه دوراً في لواء القدس حيث تمكنت من توطيد الأمن داخل مدينة القدس وخارجها خاصة في مدينة نابلس عندما تمكنت من إعادة أصحاب الزعامة في منطقة نابلس إلى مراكزهم إلا أن هذه القوات من ناحية أخرى عجزت عن ضمان الأمن والسلامة للمسافرين الأجانب.

ومن هنا نلاحظ أن الأمن في لواء القدس كان يستتب أحياناً ويضطرب أحياناً أخرى ويرجع ذلك إلى نشاط هذه القوات، ففي عام ١٨٥٢ مثلاً تمتع الزوار من شتى الطوائف المسيحية بالأمن والراحة، وذلك بفضل جهود الدولة العثمانية بواسطة قواتها تلك لدرجة أوجبت على الأهالي تقديم شكرهم إلى الباب العالي، ولكن تلك الحالة لم تكن دائمة بل حصل لزوار القدس عكس ذلك في عام ١٨٥٤ وتعرضوا للسلب والنهب، كما حدث ذلك للحجاج القادمين من الأناضول لزيارة مدينة القدس.^(١) فاضطرت الدولة لنزع ثقتها من قوات الباشبوزق ولم تكتف بذلك بل حاولت مع نهاية حرب القرم ١٨٥٦ تسليح قوات جديدة أكثر تنظيمًا وتدريبًا، وقد عرفت باسم عونيه Auniye من العرب الوطنيين والفلاحين والحضرين والبدو، وتجنباً لوقوع تلك القوات في الفساد، صرفت رواتبهم مباشرة من الخزينة، ومع ذلك لم تكن تلك القوات الجديدة أفضل من سابقتها في توفير الأمن، ونسوق مثلاً على ذلك ما حصل عام ١٨٥٨ حيث ارتكبت عدة جرائم في مدينة يافا راح ضحيتها أشخاص عدة وهدمت بيوت ومخازن عدة وحصلت أعمال السلب والنهب عن طريق القدس.^(٢)

٣- أهم الأنظمة التي عالجت جهاز الأمن:

أ- نظام الولايات ١٨٦٤: نص على أن يكون الوالي مسؤولاً عن أمور ضابطة الولاية التي يشرف عليها الاي بك برتبة "ميرالاي" حيث حوله نقل قوات الأمن من منطقة إلى أخرى ضمن حدود ولايته كما أن أمر الفرقة الضابطة في السنجاق هو متصرف اللواء الذي أوكلت له مهمة توزيع أو نقل القوات من قضاء لآخر.

ب- تعليمات ١٨٦٧: بشأن مأموري تفتيش الضابطة صدرت ١٨٦٧ وقد أوضحت أمور عدة:

١- الصفات التي يجب أن تتوفر في المأمورية منها: تحديد السن من ٢٠-٥٠ سنة، صحة البنية، الصدق في القول والفعل.

(١) فيليب وفريد الخازن، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية على سوريا ولبنان ١٨٤٠-١٨٦٠، بيروت، ١٩١١، مج ١، ص ٢٩٠.

(٢) الخازن، مجموعة المحررات...، ص ٢٩٥.

٢- تصنيف المأمورين إلى أربعة أصناف حسب مؤهلاتهم وخبرتهم التي تحدد بالتالي مرتبتهم.^(١)

ت- نظام عساكر الضابطة ١٨٦٩: وقد عالج هذا النظام أمور عدة:

- ترتيب العساكر الضابطة: يتألف الآي في الولاية من خيالة ومشاة ويقسم كل آي إلى طواير والطاير إلى بلوكات والبلوك إلى طواقم.
 - مخصصات ضباط عساكر الضابطة وأنفارها وأسلحتهم وملبوساتهم.
 - انتخاب ضابط عساكر الضابطة ودرجات المكافأة بحقهم.
- وفي ختام هذه الأنظمة والتعليمات نشير إلى نظام إدارة الولايات العمومية الذي صدر في ١٨٧١ حيث جاء في بعض مواده (٤١- ٤٢) إشارة إلى تحول مسؤولية هيئة ضابطة اللواء من أمره الوالي إلى أكبر الضباط في اللواء.^(٢)
- وفي ختام الحديث عن الجهاز العسكري وجهاز الأمن نرى أن نبين العيوب التي كانت تلازم هذه الأجهزة وبالتالي كانت هذه العيوب إلى جانب غيرها سبباً في عرقلة الدولة العثمانية في تنفيذ إجراءاتها الجديدة ويمكن إيجازها بما يلي:

- قلة أفراد الجهاز العسكري في لواء القدس، حيث كانت هذه القوات ترسل لمواجهة الاضطرابات في إحدى مدن اللواء على حساب الأمن في مدينة أخرى، وقد وصل الأمر إلى وجود ٦٠ جندياً في مدينة القدس للمحافظة على الأمن.
- تأخر الدولة العثمانية في توفير مرتبات الجند فكان هذا الوضع يجبر الجند على اتخاذ أراضي الفلاحين مصدر رزق لهم.
- معارضة الأهالي للتجنيد الإجباري مما كان يدفعهم إلى إحداث اضطرابات في اللواء واضطراهم إلى استخدام أساليب عدة للتهرب من ذلك عن طريق إحداث عاهات جسدية في أنفسهم أو الاختفاء إلى حين، وهذا بالتالي يوضح مدى عجز القوات عن تنفيذ قراراتها.^(٣)
- إن القوات غير النظامية- الباشبوزق- التي كانت قد شكلت في القدس قد ضمت حثالة المجتمع وقد ترتب على ذلك عدم قيامها بمهامها على خير وجه مما أفقد السلطان والأهالي الثقة بهذه القوات.

(١) الدستور: مج١، ص ٦٤٧- ٦٥٣.

(٢) الدستور: مج١، ص ٦٥٩- ٦٦٠.

(٣) الدستور: مج١، ص ٤٠٦.

خامساً: محاولة الدولة العثمانية فصل القدس عن ولاية سوريا عام ١٨٧٢ :

بدأت الدولة العثمانية في الفترة ١٨٧٢ - ١٨٧٤ تولي لواء القدس اهتماماً خاصاً تمهيداً لفصله عن سورية، ففي آب ١٨٧٢ كانت الفكرة تتجه لتكوين ولاية تتألف من ألوية القدس والبلقاء وعكا، رغبة من الدولة في تحسين الإدارة الحكومية في تلك الألوية، ولما كان مثل هذا الإجراء يخدم المصالح الأجنبية لأنه يوسع دائرة نفوذ قنصلها في القدس، فقد سعى القنصل الأجانب في القدس لدى سفارتهم في استانبول لتأييد الفكرة نظراً لأن الحجاج والمسافرين الذين يزورون الأماكن الأخرى خارج لواء القدس يبدوون سفرهم وينتهون منه في القدس، وفي حالة أي صعوبات تحدث لهم خارج اللواء يضطر القنصل للاتصال بدمشق، ويتطلب ذلك وقتاً طويلاً منهم.^(١)

غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ آنذاك، ولجأت الدولة إلى إجراء آخر مهدت به لإنشاء كيان إداري مستقل في القدس. ففي سنة ١٨٧٣ وردت أول إشارة في سالنامة الدولة إلى استغلال لواء القدس، قدس شريف سنجاق مستقلاً، أي لواء القدس الشريف المستقل الإدارة، لكن ذلك لم يكن يعني انفصال لواء القدس عن ولاية سورية. كما لم تشر السالنامة إلى ما يميزه عن غيره من الألوية ويبدو أن استقلال لواء القدس كان في بعض المسائل الإدارية.

وبعد سنتين وردت أول إشارة لتشكيل المتصرفية "قدس شريف متصرفاً في إدارة مستقلة" أي متصرفية القدس الشريف ذات الإدارة المستقلة وتتألف من أقضية غزة ويافا والخليل.

١- أسباب إتباع القدس للسلطنة مباشرة:

إن تشكيل متصرفية القدس، وربطها بالعاصمة مباشرة، كان لأسباب متعددة أهمها ازدياد اهتمام الأجانب بالأماكن المقدسة وتمثل ذلك بزيارة الأمراء وازدياد عدد المؤسسات الأجنبية، وتضاعف أعداد القادمين من الحجاج واليهود الروس،^(٢) مما جعل الدولة تولي لواء القدس اهتماماً خاصاً، فربطته بالعاصمة مباشرة للوقوف على أحواله والإسراع في إنجاز معاملاته. وقبل ذلك فصلت الدولة العثمانية جبل لبنان عن إيالة صيدا في عام ١٨٦١ إثر حوادث ١٨٦٠ ومنحته كياناً خاصاً فأصبح يعرف بمتصرفية جبل لبنان.

تابعت الدولة سياستها في فصل الألوية ذات الأهمية السياسية والجغرافية عن الولايات وتسميتها بمتصرفيات يحكمها متصرفون يخابرون نظارة الداخلية مباشرة، وقد بلغ عدد المتصرفيات المستقلة في الدولة العثمانية في آخر العهد العثماني سبع متصرفيات.

(١) شوفاني، الموجز في...، ص ٢٦٧، ٢٧٣.

(٢) شوفاني، الموجز في...، ص ٢٧٦ - ٢٨٣.

لكن المتصرفيات ظلت صغيرة المساحة إذا ما قورنت بالولايات التي اشتملت على أُلوية وأقضية بينما اشتملت المتصرفيات على أقضية فقط. وكان وضع المتصرفيات الخاص لا يخولها أن تكون على قدم المساواة تماماً مع الولايات الأخرى من حيث الأهمية والاتساع، وكل ما في الأمر أن الاستقلال الإداري الذي منح للمتصرفيات كان ضرورياً لأسباب ارتأتها الحكومة المركزية كأهمية الموقع الجغرافي أو لمواجهة التدخل الأجنبي وإما لطبيعة التكوين الاجتماعي.^(١)

وقد حافظت متصرفية القدس حتى آخر العهد العثماني على حدودها الإدارية باستثناء الفترة (١٩٠٦ - ١٩٠٩) عندما ألحق قضاء الناصرة بمتصرفية القدس بعد فصله عن لواء عكا التابع لولاية بيروت وكان قضاء الناصرة يشتمل على ٢٨ قرية ومزرعة. وسبب ذلك تسهيل رحلة الحجاج والسياح الأجانب في زيارة الأماكن الدينية في قضاء الناصرة لأنهم لا يسألون عن تذاكر المرور عندما ينتقلون من مكان لآخر في المتصرفية (وقبل اتخاذ هذا الإجراء كان يطلب من المسافرين الأجانب من القدس إلى الناصرة الحصول على تذاكر المرور التي يلزم استعمالها عند الانتقال من ولاية لأخرى) وقد استثنى من أحكام نظام تذكرة المرور قضاء صفد وطبرية رغم استمرار تبعيتهما لولاية بيروت.

أما إلحاق قضاء الناصرة بالمتصرفية فكان استجابة من الدولة العثمانية لطلب الدول الأوروبية تقديم التسهيلات لرعاياها أثناء زيارتهم للأماكن المقدسة فوضعت الدولة الأماكن الدينية المسيحية في وحدة إدارية.^(٢) وكانت الحدود الثابتة لمتصرفية القدس منذ تشكيلها عام ١٨٧٤ وحتى نهاية العهد العثماني ١٩١٨ على النحو التالي:

من الشمال: خط متعرج يفصل بين المتصرفية ولواء نابلس التابع لولاية بيروت ويبدأ بالغرب من مصب نهر العوجا في البحر المتوسط ثم يتجه شرقاً ماراً بقرية سنجل حتى ينتهي بالقرب من أريحا على نهر الأردن. من الغرب: البحر الأبيض المتوسط.

من الجنوب: خط مستقيم يبدأ من نقطة في منتصف الطريق بين غزة والعريش على البحر المتوسط وينتهي بالعقبة.^(٣)

من الشرق: امتداد نهر الأردن والبحر الميت ووادي عربة الذي يصل العقبة بالبحر الميت وبذلك اشتملت متصرفية القدس على الأجزاء الجنوبية من (فلسطين).

(١) يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، بيروت، ط١، ١٩٦٤، ص ٢٣.

(٢) الحكيم، بيروت ولبنان...، ص ٢٦.

(٣) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة محمود الأنصاري، استانبول، ١٩٨٨، ص ٦٦.

أما الأجزاء الشمالية وهي ألوية عكا ونابلس فقد تتبع ولاية بيروت حتى آخر العهد العثماني .
أما التقسيمات الإدارية في المتصرفية فقد كانت في تغيير مستمر في مشتملات الأفضية الرئيسية وفيما يلي جدول يبين التقسيمات الإدارية في ثلاثة أعوام متباعدة:

اسم القضاء	مشتملاته في عام		
	١٨٨٩	١٨٩٢	١٩٠٩
القدس	١٢٦ قرية ومزرعة	١٢٦ قرية ومزرعة واحدة	١٢٠ قرية ومزرعة و ٥ نواحي
يافا	٥٧ قرية ومزرعة وناحية واحدة	٥٧ قرية ومزرعة وناحية واحدة	٩٥ قرية ومزرعة و ٣ نواحي
غزة	٥٩ قرية ومزرعة	٧١ قرية ومزرعة	٦٢ قرية ومزرعة و ٤ نواحي
الخليل	٥٠ قرية ومزرعة	٥٢ قرية ومزرعة	٦٢ قرية ومزرعة و ٢ ناحية
بئر السبع	—	—	٥ قبائل بدوية
المجموع	٢٩٢ قرية ومزرعة وناحية واحدة	٣٢٨ قرية ومزرعة و ٢ ناحية	٣٣٩ قرية ومزرعة و ١٤ ناحية

ونلاحظ من الجدول السابق ازدياد عدد القرى والمزارع والنواحي في أفضية المتصرفية وقد استمر التقسيم الإداري لعام ١٩٠٩ حتى نهاية العهد العثماني.^(١) وقبل ذلك كانت الدولة قد خولت متصرف القدس في أواخر عام ١٨٩٩ تشكيل قضاء جديد في جنوب المتصرفية، فشكل قضاء بئر السبع الذي كان جزءاً من قضاء غزة،^(٢) وعهد بإدارة القضاء الجديد لقائمقام تكون إقامته الدائمة في بئر السبع، وذلك لرغبة الدولة حكم بئر السبع حكماً فعلياً، بربطها بمتصرف القدس مباشرة بعد أن كان يشرف قائمقام غزة يشرف على إدارة شؤونها.^(٣) وقد ارتبط تشكيل قضاء جديد في بئر السبع بموضوع الخلاف على الحد الجنوبي مع مصر.^(٤) فقد أثار إجراء الدولة مخاوف القنصل الانكليزي في القدس وعندما نفذ الباب العالي فكرة تكوين قضاء بئر السبع في أيلول ١٩٠١، وزاد اهتمام الدولة بقضاء بئر السبع، فأخذ متصرف القدس يكثر من زيارته له، الأمر الذي لم يكن معروفاً من قبل، وتطورت الأمور بعد ذلك إلى أن نشب الخلاف بين انكلترا والدولة العثمانية في آذار ١٩٠٦

(١) يوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني، بيروت، ١٩٦٦، ص ٢١٦.

(٢) الحكيم، سوريا والعهد...، ص ١١٩.

(٣) يونان ليب رزوق، أزمة العقبة المعروفة بمحاذة طابة ١٩٠٦، مقال منشور في المجلة التاريخية المصرية مجلد ١٣ (السنة ١٩٦٧)، ص ٢٤٧ - ٣٠٤.

(٤) فاضل مهدي بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق العثمانية، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٩٩.

وملخص النزاع كان الادعاء باعتداء إحدى القبائل البدوية المصرية على منطقة الحدود ونتيجة لذلك ساد التوتر منطقة الحدود، وأخذت الدولة العثمانية ترسل الجنود إلى قضاء غزة لتعزيز قواتها هناك.^(١)

وفي أيار ١٩٠٦، أقدمت السلطات العثمانية على طمس علامات الحدود في رفح التي كانت حداً فاصلاً بين الحدود السورية المصرية.^(٢)

ولكن الحكومة العثمانية سرعان ما تراجع، فأعادت في أيار ١٩٠٦ نصب علامات الحدود. ثم جرت مفاوضات بين الطرفين الاتفاق بعدها على تعيين لجنة تقوم بوضع الحدود بين البلدين، فرسمت خط الحدود الذي يبدأ من طابة على خليج العقبة وينتهي بالقرب من رفح.^(٣)

وإلى جانب اهتمام الدولة العثمانية بموضوع الحدود، قصدت أيضاً السيطرة على البدو في جنوب المتصرفية لاسيما بعد اشتداد المنازعات بين القبائل البدوية فيه وبخاصة بين الترابيين والعزامة، كما هدفت من تأسيس قضاء مستقل للبدو الاستفادة من الضرائب وسائر التكاليف الأميرية، وربما استهدفت الدولة أيضاً تخضير البدو وإبعادهم عن غزة ويبدو أن هذه الأسباب مجتمعة أفضت إلى تشكيل قضاء بئر السبع، وقد أحسنت الدولة العثمانية صنفاً باختيار بئر السبع لتكون مركزاً للقضاء، لا بسبب أهمية الموقع التاريخية فقط وإنما لتوفر المياه العذبة فيه ولوجوده على الحدود بين أراض القبائل البدوية العزامة من الجنوب والتيها من الشرق والترايين من الغرب.^(٤)

٢- الأوضاع الاجتماعية في القدس وارتباطها بالأوضاع السياسية:

كانت القدس ويافا وغزة والخليل أهم مدن المتصرفية، فقد ضمت كل منها عدداً كبيراً نسبياً من السكان، وانفردت كل مدينة منذ زمن قديم بمزايا في محيطها الجغرافي فوقع اختيار الدولة عليها لتقيم فيها مراكز للحكم والإدارة فكانت القدس مركز المتصرفية وفيها دوائر الحكومة المحلية الرئيسية وأقامت الدولة فيها حامية عسكرية قوية. ولأهمية القدس الدينية فقد كانت أكثر مدن المتصرفية ازدحاماً بالسكان فقد أخذ عدد سكان المدينة ينمو بسرعة بعد عام ١٨٨١ بسبب الهجرة اليهودية المتزايدة إليها. ونتج عن ذلك أن أصبحت القدس المدينة الوحيدة في المتصرفية التي لم يشكل المسلمون أكثرية سكانية فيها.^(٥)

(١) فردريك بيك، تاريخ شرق الأردن وقبائلها، تعريب، بماء الدين طوقان، القدس، ١٩٦١، ص ١٨٩.

(٢) بيك، تاريخ شرق...، ص ١٩٢.

(٣) عارف العارف، تاريخ بئر السبع وقبائلها، القدس، ١٩٣٤، ص ٣١-٢٤٤.

(٤) عبد الله يوسف جقمان، جولة في تاريخ الأرض المقدسة من أقدم العصور حتى اليوم، بيت لحم، ١٩٩٦، ص ١١٦.

(٥) الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ١٧٥.

أما بالنسبة ليافا التي كانت مركز القضاء فقد امتازت بكونها ميناء مدينة القدس وظلّ المسلمون فيها يشكلون أغلبية السكان حتى أوائل القرن العشرين عندما أخذ عدد المهاجرين اليهود يزداد باستمرار فتدنت نسبة السكان المسلمين فيها إلى النصف في سنة ١٩١٠ وبسبب الهجرة اليهودية شهدت يافا عام ١٨٧٩ بداية جديدة عندما شرع في تلك السنة في هدم الأسوار لبناء أحياء سكنية جديدة وما أن جاءت سنة ١٨٨٨ حتى كانت جميع أسوار يافا قد تهدمت وحلّت مكانها أبنية جديدة.^(١)

امتازت مدن المتصرفية الهامة عن ريفها بما يلي:

١- وجود مراكز الحكم والإدارة فيها فاشتملت على الدوائر الحكومية والدوائر العسكرية وأقامت فيها قوات الأمن وقد نشأ عن تعقد نظم الحكم والإدارة وإقامة مراكز للحاميات العسكرية أن تشكلت طبقة من الموظفين المدنيين والعسكريين لم تعرفها البلاد من قبل وقد أدى ذلك إلى استمرار أبناء البلاد في السيطرة على عدد كبير من الوظائف الإدارية.

٢- وجود العائلات المتنفة فيها.

٣- وجود مراكز للنشاط التجاري.

٤- وجود مراكز لبعض الصناعات اليدوية.

٥- وجود مراكز لشبكة المواصلات بأنواعها المختلفة.^(٢)

٣- العائلات المتنفة في القدس في العهد العثماني:

ضمّ مجتمع المدن الرئيسية في المتصرفية عدداً من العائلات المتنفة التي نال كثيراً من أعضائها خبرة في شؤون الإدارة المدنية بسبب اشتغالهم كموظفين في الدوائر الحكومية المحلية.

سكنت هذه الأسر في الخليل وغزة والقدس ويافا،^(٣) ورغم ظروف الهجرة اليهودية لم يحل ذلك دون سيطرة المسلمين في المدن السابقة على الجهاز الإداري حيث كانت في أيديهم معظم وظائف حكومة المتصرفية رغم وجود عدد من الموظفين العثمانيين فقد مارست العائلات المتنفة في المتصرفية تأثيراً كبيراً في تسيير الأمور الإدارية وفي مجالس الإدارة المحلية أيضاً.

(١) أحمد قدامة، معالم وأعلام، بيروت، ١٩٦٥، ج١، ص ١١٤.

(٢) الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ١٩٠.

(٣) العارف، تاريخ القدس، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٢٠.

وقد عرف أبناء العائلات المتنفة من الوجوه والأعيان والمشتغلين في دوائر المتصرفية "الأفندية" لأنهم شغلوا مناصب القضاء والإفتاء ونقابة الأشراف بالإضافة إلى مناصب الإدارة المحلية.^(١)

وقد سيطرت هذه العائلات في القدس على الحياة الاجتماعية لأنها تنتسب إلى الأشراف ذلك أنها في الأصل جاءت من الحجاز واستقرت في القدس مع دخول المسلمين إليها واستقروا أيضاً في الخليل وغزة وكان المسؤول عن أشراف كل مدينة يدعى نقيب الأشراف، وقد تمتع الأشراف بامتيازات منها:

- محاكمة الأشراف وسجنهم يكونان في بيت النقيب.
 - لا يسمح لأحد بوضع العمامة الخضراء إذا لم يكن من الأشراف.
 - لا يطبق قانون القرعة الشرعية- التجنيد- على الأشراف.
 - لا يشترك الأشراف بدفع شيء من التكاليف المالية المفروضة من السلطان أو الولاية.
- كما تولى بعض أعضاء الأسر المتنفة في القدس حماية المصالح الطائفية أمام الحكومة المحلية والدفاع عنها في المجالس الإدارية المختلفة فكان لكل دير من يحميها كما وجد من بين أبناء العائلات من يدافع عن مصالح اللاتين ومن يتصدر لحماية بعض المؤسسات الأجنبية ومصالح القنصلية الفرنسية في القدس. بل إن بعض الأعيان عملوا على مد نفوذهم فتوسطوا في المجلس الإداري للإسراع في إنجاز معاملات بيع بعض الأراضي للمستوطنين اليهود.
- ومن عائلات القدس المتنفة آل الخالدي وآل الحسيني والنشاشيبي وغيرهم^(٢) وكانت اسرنا الخالدي والحسيني من أبرز عائلات القدس في أواخر العهد العثماني.

لقد تمكنت هذه العائلات المتنفة من تعليم أبنائها في المتصرفية ثم في المدارس العالية في الأستانة أو في الجامعات الأوروبية. فقد كان من الصعب على أبناء العامة إكمال دراستهم لعدم توفر المال لديهم لذلك اقتصر التعليم العالي على أبناء العائلات الذين قاموا بدور بارز في الحركة العربية في أوائل القرن العشرين، وهكذا يتبين أن أقلية صغيرة من أبناء العائلات في المدن كانت في أوضاع خاصة مكنتها من التغلغل في شؤون الإدارة والتعليم ثم السيطرة عليها في العهد العثماني وأن تستمر أيضاً في عهد الانتداب الانكليزي.

ولما كان التعليم أحد الدعائم التي استندت إليها العائلات المتنفة في استكمال مقومات زعامتها على المجتمع والريف وفي تزويد دوائر الحكم بالموظفين المحليين يجدر بنا إلقاء نظرة على التعليم الذي كان سائداً في المتصرفية في فترة البحث.^(٣)

(١) روجي الخالدي، المقدمة في المسألة الشرقية منذ نشأتها الأولى في الربع الثاني من القرن الثامن عشر، القدس، ١٩٦٠، ص ١٦.

(٢) رستم، الأصول...، مج ٣، ص ٢٤٦، مج ٤، ص ١٢٩.

(٣) الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

سادساً: التعليم في القدس ١٨٦٩ :

١- المدارس:

كانت مدارس القدس تدين بوجودها إلى تبرعات المحسنين الذين أنشؤوها وحبسوا عليها الأوقاف الكافية ولم يكن هناك نظام للتفتيش على أساليب التعليم. أما في عصر التنظيمات فقد تغير الحال تدريجياً، فقد أصبح للدولة سياسة تعليمية ذات أهداف، فسنت الأنظمة اللازمة لتنظيم إدارة التعليم في الولايات وتم تنظيم المدارس في الدولة العثمانية بموجب نظام المعارف الصادر عام ١٨٦٩ والذي صيغ في ١٩٨ مادة وبموجب هذا النظام قسمت الدراسة إلى خمس مراحل هي: الابتدائية، الرشدية، الإعدادية، السلطانية، والمدارس العالية كدور المعلمين والمعلمات، ودار الفنون في استانبول، تلقى الطلاب في المتصرفية تعليمهم في المدارس الأهلية أولاً ثم في المدارس الحكومية التي أخذت الحكومة في إنشائها في الستينات من القرن التاسع عشر. وفيما يلي لمحة عن كل منها:^(١)

أ- المدارس الأهلية:

اقتصرت المدارس الأهلية الموجودة في المدن والقرى في بادئ الأمر على الكتاب الذي يدرس فيه القرآن. وكان الهدف من تعليم الأطفال معرفة القراءة والكتابة والحساب، وكانت الكتاتيب تفتح في مقامات الأولياء تخلصاً من دفع أجرة المكان، وكثيراً ما جلس الطلاب على الحصير، ولم يكن بين أيديهم سوى الأقلام والألواح، حيث لم تكن آنذاك كتب مطبوعة في متناول أيديهم، ودفع الطالب الميسور الحال أجراً يومياً عينيّاً ودراهم يوم الخميس من كل أسبوع وبعض الهدايا، وتنتهي مرحلة الكتاب بختم القرآن وعند ذلك يتولى أمر الطالب معلم الكتاب "الخوجة" بما يريده أو يعطيه مبلغاً من المال.^(٢)

وكان عدد الكتاتيب في أواخر العهد العثماني، ثمانية كتاتيب في القدس يدرّس فيها ثمانية شيوخ في داخل الحرم الشريف ويدرس فيها ١١٠ تلاميذ ويوجد في يافا سبعة كتاتيب فيها ٣٠ تلميذاً وفي العهد الدستوري تأسست بعض المدارس الوطنية الحديثة ولكنها كانت قليلة العدد ضعيفة الموارد المالية رغم حاجة المتصرفية إليها، ومن بين مدارس الفقه الوطنية: المدرسة الدستورية لخليل السكاكيني ومدرسة روضة المعارف للشيخ محمد الصالح الحسيني ورغم ارتباك هاتين المدرستين في الإدارة والتنظيم فقد غرستا في طلابهما بذور الوطنية الحقة.^(٣)

(١) الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ٢٠٥.

(٢) النمر، تاريخ جبل...، ج١، قسم ٢، ص ٦٥-٦٦.

(٣) النمر، تاريخ جبل...، ص ٧٠.

ب- المدارس الحكومية:

مع بدء تشكيل متصرفية القدس أقدمت الحكومة العثمانية على إنشاء أربع مدارس حديثة تدعى رشدية في مدن المتصرفية الرئيسية والتي كانت مراكز الأفضية وهي القدس، غزة، الخليل، يافا، وإدارات الحكومة هذه المدارس بإشراف مفتش عين من قبل نظارة المعارف العمومية في الأستانة، وقدر عدد الطلاب فيها عند افتتاحها (٢٨٠) طالباً واشتمل التعليم على قواعد اللغة التركية والعربية والفرنسية والفارسية، كما نشطت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر حكومة المتصرفية بالاشتراك مع الأهالي في إنشاء المدارس الابتدائية، فبلغ مجموعها في عام ١٨٨٥، ١٩٧ مدرسة ابتدائية.

إن إلزامية التعليم الابتدائي التي نص عليها نظام المعارف ١٨٦٩ بقيت حبراً على ورق في كل أنحاء الامبراطورية حيث بقي التعليم في قرى المتصرفية لا يتجاوز معرفة القراءة والكتابة وربما تعلم الطلاب الصرف والحساب إذا حظيت القرية بمدرس قدير،^(١) ومهما يكن من أمر فإن التعليم آنذاك كان بإشراف الإرساليات الأجنبية التي كان التدريس فيها بلغة الإرسالية الأم. أما المدارس الحكومية فاستعملت اللغة التركية بدلاً من العربية وهكذا اقتصر التدريس باللغة العربية على المدارس الأهلية.^(٢)

وقد سعت الحكومة العثمانية في آخر عهدها لإصلاح مدارسها لكنها اهتمت بتدريس آداب اللغة التركية وتفضيلها على اللغة العربية في العهد الدستوري تماشياً مع سياسة التتريك^(٣) وتسببت هذه السياسة في نفور الطلاب منها ومن المدارس الحكومية وفضل معظمهم الالتحاق بالمدارس الأجنبية، كما أخذت العائلات الغنية كالحالدي والحسيني في القدس ترسل أبنائها إلى الأستانة وفرنسا.^(٤)

٢- الصحافة في القدس:

بدأت صحف متصرفية القدس في الظهور في الربع الأخير من القرن التاسع عشر فكانت جريدة القدس الشريف الرسمية التي صدرت في عام ١٨٧٦ أول صحف المتصرفية، وقد عالجت موضوعات أدبية واجتماعية وكان صاحب امتيازها جورجي حبيب حنانيا وتم إصدارها باللغتين العربية والتركية وطبعت بالمطبعة الحكومية واليوم هي مبنى دار الأيتام الإسلامية بالقدس، صدرت هذه الجريدة بأربع صفحات، صفحتان باللغة العربية وصفحتان باللغة التركية وكان رئيس تحريرها الشيخ علي الريماوي، الذي حرر أيضاً جريدة أخرى (الغزال) التي صدرت في نفس العام وهي

(١) حنا صلاح، فلسطين وتحديد حياتها، نيويورك، ١٩١٩، ص ١٠٥.

(٢) صلاح، فلسطين و...، ص ١٠٨.

(٣) الدستور، المجلد ٢، ص ١٥٧.

(٤) صلاح، فلسطين و...، ص ١٠٠.

شبه رسمية وكانت الجريدتان شهريتان وقد نشر فيهما أيضاً القوانين والأنظمة والإعلانات الرسمية. لكن الجريدتين لم تستمرا طويلاً فسعت متصرفية القدس إلى إعادة إصدار الجريدة الرسمية في عام ١٩٠٣ لحاجة المتصرفية الماسة لها فصدرت الإرادة بالموافقة. وصدرت في هذه الفترة أيضاً جريدة المنادي التي حررها عمر موسى المغربي أما في العهد الدستوري (١٩٠٨ - ١٩١٤) فقد نشط أبناء المتصرفية المسلمين والمسيحيين في إصدار الصحف العربية التي نشطت في معالجة القضايا الوطنية، فصدرت صحف عدة في عام ١٩٠٨ في القدس منها القدس وبشير فلسطين والدستور والنجاح وهي جريدة سياسية أدبية ومن الجرائد الهامة أيضاً جريدة الإنصاف التي صدرت في نفس العام وكان صاحبها بندلي الياس وقد عاجلت هذه الصحف إضافة إلى القضايا الوطنية الكثير من الموضوعات الأدبية والثقافية والسياسية، كما وقف بعضها مواقف وطنية من الحكم العثماني فصدرت الأوامر بتعطيلها لفترة قصيرة.^(١) وما يجدر ذكره أن الصحف التي ظهرت في المتصرفية كان أكثرها صحفاً طائفية أو مدرسية أو حكومية، كما كان أغلبها صحفاً شهرية لم تعمر طويلاً ولم تكن مواعيد صدورها منتظمة باستثناء بعض الصحف الكنسية التي تصدر عن الإرساليات التبشيرية، والتي تقوم مطابع الأديرة بطباعتها.^(٢)

ومهما يكن من أمر فقد كان انتشار الصحف العربية محدوداً وبالتالي كان أثرها في توعية السكان ضئيلاً وسبب ذلك تخلف الحالة التعليمية في المتصرفية وقد نبغ عدد من محرري الصحف في المتصرفية عملوا على تطوير الصحافة الفلسطينية في عهد الانتداب واشتغلوا في الصحف العربية في دمشق والقاهرة وفي أثناء الحرب العالمية الأولى أوقفت السلطات العثمانية كافة الصحف ونفت عدداً من محرريها إلى الأناضول وحملت آخرين على الهرب خارج الدولة^(٣) فهاجر البعض منهم إلى مختلف دول أوروبا مع أسرهم خاصة وأن هذه الدول كانت قد حمتهم ومنحتهم امتيازات لم يحصلوا عليها قبل ذلك عندما اعتبرتهم ركيزة لوجودها في فلسطين وتحديدًا المسيحيين منهم عندما ادّعت كل دولة حماية طائفة معينة في القدس ومنها انطلقت إلى كل أرجاء فلسطين وهدفت من وراء ذلك إلى فرض حمايتها على كل أبناء هذه الطائفة في كل أرجاء الدولة العثمانية لذا كانت الطوائف المسيحية محور الوجود الأوروبي في فلسطين.

من هنا رأيت ضرورة الدراسة المفصلة لهذه الطوائف والخلافات فيما بينها والتي استدعت جذب الأوروبيين إلى فلسطين مدعين حمايتها وخاصة أن الدولة العثمانية قد وضعت نشاط المسيحيين واليهود في الامبراطورية في قوالب وأوضاع محدودة، ففي عهد السلطان محمد الفاتح وضعت نظام الملل الذي يقضي بأن ينتخب الرؤساء الدينيين

(١) الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ١٩١.

(٢) أحمد خليل العقاد، تاريخ الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦ - ١٩٤٨، ج١، دمشق، ١٩٦٦، ص ٨٠ - ١٣٣.

(٣) ميخائيل بريك الدمشقي، تاريخ الشام ١٧٢٠ - ١٧٨٢، بيروت، ١٩٣٠، ص ١٥٠.

من قبل أفراد الملة على أن يقترن تعيين الأسقف بصدور البراءة السلطانية وقد شمل هذا التنظيم طائفتي الروم واليهود والملة أو الطائفة كما فهمها العثمانيون جماعة من الناس تنظمهم رابطة مذهبية واحدة بغض النظر عن الجنس أو اللغة أو القومية بالرغم من أن طائفة الأرثوذكس كانت تضم عناصر مختلفة كاليونان والعرب وغيرهم، إلا أن الحكومة العثمانية كانت لا تعير هذه الاختلافات القومية أو الجنسية كبير اهتمام فهم في نظرها يتبعون ملة الروم "روم ملي" وعنت بذلك جميع المسيحيين التابعين للكنيسة الأرثوذكسية.^(١)

وأبقى خلفاء السلطان محمد الفاتح على تنظيماته الطائفية حتى عام ١٦٤١ عندما اعترفوا بطائفة جديدة هي طائفة الأرمن التي شملت جميع الطوائف المسيحية الأخرى غير المعترف بها آنذاك.

ولما بدأت الانشقاقات في أوساط الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية أعقب ذلك تحول قسم كبير من أتباعها إلى الكنيسة الغربية الكاثوليكية واعترفوا برئاسة البابا فأدى ذلك إلى ازدياد عدد الكاثوليك في الدولة العثمانية مما اضطرها للاعتراف بهم كطائفة مستقلة وامتازت الطوائف المعترف بها بقدرتها على الاحتجاج المباشر عندما كانت الكنائس الأخرى تعمل على تحويل أتباعها عن عقيدتهم، عاش المسيحيون في وئام وانسجام مع المسلمين في العهد العثماني الأول لكنهم في بعض الأحيان تعرضوا لمصادرة بعض الحكام وشملت هذه المصادرة كل من في جيبه مال حتى المسلمين،^(٢) لكن أحوالهم تحسنت في لواء القدس في فترة الإدارة المصرية (١٨٣١ - ١٨٤٠) عما كانت عليه في العهد العثماني الأول حيث تساوى الجميع أمام الدولة من مسيحيين ويهود ومسلمين في دفع الضرائب وفي المعاملة بعد أن رفعت عنهم العوائد والمرتبات كافة التي كانت تدفعها الكنائس والأديرة للمتنفذين من الحكام وأصحاب العصبيات كما سمح لهم بإصلاح أماكنهم الدينية وتجديدها.

وعندما عادت الدولة العثمانية ثانية لبلاد الشام ١٨٤٠ تابع السلطان العثماني إقرار المساواة بين الطوائف التي بدأها الحكم المصري. وقد سبق للدولة العثمانية أن وعدت بتطبيق المساواة بين جميع رعاياها عندما منح السلطان الرعية في خط كلخانة تشرين الثاني ١٨٣٩ أمنية الروح والعرض والمال وبذلك أبطل السلطان مصادرة الأموال وإعدام الأشخاص قبل محاكمتهم وموافقة السلطان على الحكم^(٣) وتمتع الرعايا بما فيهم المسيحيون بما يملكون علنا بعد أن كانوا يضطرون لإخفاء ثرواتهم والتظاهر بالفقر كما تمتعوا بحرية أكثر من ذي قبل.

وأكد خط التنظيمات الخيرية ١٨٥٦ بشكل خاص على المساواة المدنية والاجتماعية لجميع رعايا الدولة والاعتراف بمساواتهم في خدمة الحكومة فقد تضمن الخط المذكور إقرار امتيازات الطوائف المسيحية بعد إعادة

(١) هاملتون جب، هارولد بون، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصر، ١٩٧٠، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) مشاققة، مشهد العيان...، ص ٢٨.

(٣) الدمشقي، تاريخ الشام...، ص ١٠٦ - ١٠٧.

النظر في تنظيماتها من قبل الطوائف نفسها والسماح للطوائف المسيحية بالحرية في ممارسة شعائرها وبناء معابدها بشروط يتوافر فيها التسامح وقد نتج عن هذه السياسة التي اتبعتها الدولة في خط التنظيمات نحو الطوائف المسيحية زيادة ترابط هذه الطوائف بفعل القوانين التي أصدرتها الدولة من أجل تنظيم شؤون البطريشيات والأسقفيات وتكوين المجالس المحلية،^(١) وبالرغم من أن الدولة كفلت لنفسها ولاء البطارقة وذلك بإسقاط أسماء المرشحين الذين يشك الباب العالي في ولائهم من قائمة الانتخاب إلا أنها تركت جميع القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية لأبناء الطائفة إلى رؤوسائهم الروحيين ومجالسهم الدينية،^(٢) وكذلك منحت الدولة الطوائف المسيحية حق التمثيل في مجالس الولاية بثلاثة أعضاء أيضاً، وفي خط الإصلاحات والتنظيمات الجديدة التي أكدها السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) على المساواة بين جميع رعايا الدولة مع استمرار الامتيازات للطوائف المسيحية وتنظيم استيفاء الاعانات العسكرية من غير المسلمين والتي فرضت عليهم مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية التي يقوم بها المسلمون.^(٣)

ولكن بالرغم من جميع التأكيدات على المساواة بين الطوائف والتي نصت عليها خطوط التنظيمات فإن مبدأ المساواة لم يطبق تماماً فقد ظلت الخدمة العسكرية محصورة بالمسلمين وحدهم بينما دفع المسيحيون الاعانة العسكرية بدلاً من الخدمة ومهما يكن من أمر فقد تحسن وضع المسيحيين في لواء القدس في العهد العثماني الثاني حيث أصبح المسيحيون أعضاء في مجالس الإدارة المحلية ومارسوا نفوذاً في المدن ذات الأهمية الدينية كالقدس وبيت لحم وبيت جالا حيث شكلوا نسبة عالية من سكانها وبسبب دعم الدول المسيحية لهم. وقد أدى رفع القيود الاجتماعية عن المسيحيين ثم تمتعهم بحماية القناصل الأجانب وتمثيلهم في المجالس المحلية إلى تحسن أوضاعهم الاجتماعية وهذا ما أثار بعض المشكلات التي سببت استياء المسلمين من تصرفاتهم وبالرغم من ذلك يمكن القول إنه لم يبق ثمة خطر على الطوائف من الجند العثماني إنما أصبح الخطر من منازعاتهم الطائفية التي حدثت فيما بينهم.^(٤)

٣- المساواة بين المسيحيين والمسلمين في العهد الدستوري:

رغم الطابع الودي الذي غلب على العلاقة بين المسيحيين والمسلمين في متصرفية القدس فقد أثارت مسألة المساواة في العهد الدستوري وطالب المسيحيون ببحث مسألة ضياع حقوق المسيحيين في انتخابات أعضاء

(١) الحصري، البلاد العربية...، ص ٨٨.

(٢) Engel hard : La Turquie et le Tanzimat , Vol . L , PP . 112 – 113.

(٣) انظر خط التنظيمات الخيرية في الدستور، مجلد ٢، ص ٥ - ١٠.

(٤) الحصري، البلاد العربية...، ص ٩٠.

المجلس العمومي عن لواء القدس،^(١) ثم أثارت مسألة عدم تمثيل المسيحيين في مجلس المبعوثان تمثيلاً عادلاً بدعوى أنه لم يمثل مسيحيي بلاد الشام الذين بلغ عددهم حوالي مليون ونصف سوى مبعوث واحد بينما نص القانون الأساسي على مبعوث لكل خمسين ألف نسمة. ثم انتقل موضوع المساواة وعدالة التمثيل في المجالس المحلية ومجلس المبعوثان عن إثارة الموضوع في الصحف إلى قيام أعيان المسيحيين في يافا والقدس وبيت لحم بالابراق إلى الصدر الأعظم وناظر الداخلية يطلبون منهما أن يكون لفلسطين عضو مسيحي في مجلس المبعوثان.^(٢)

واستجابت الحكومة العثمانية لهم فأصدرت ملحقاً لقانون الولايات ١٩١٣ لضمان حق المسيحيين في انتخابات المجالس العمومية وطلبت من مجالس الإدارة أن تحدد مسبقاً عدد الأعضاء الذين ينبغي انتخابهم بمعدل عدد النفوس.^(٣)

بعد هذا العرض لطبيعة العلاقات التي انتظمت المسلمين والمسيحيين سندرس عن الطوائف المسيحية التي وجدت في متصرفية القدس ومنازعاتها الطائفية وموقف الدولة العثمانية منها ثم التعليم الديني والتبشيري.

سابعاً: المسيحيون في القدس:

١- أهم الطوائف المسيحية في القدس:

أ- الروم الأرثوذكس:

نظم السلطان محمد الفاتح بعد سقوط القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ شؤون الكنيسة الأرثوذكسية وأخضعها لسلطة البطريرك وسمى أتباعها "روم ملتي" أي ملة الروم ومنح البطريرك سلطة تامة لأتباع الكنيسة باستثناء السلطة المدنية. وكان القسم الأعظم من مسيحيي بلاد الشام من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية ووجد لهم بطريقتان: الأولى في القدس ونقلت من اليونان في عام ١٨٤٥ وأشرفت على الكنائس الأرثوذكسية في فلسطين والسلط والكرك وسيناء، والثانية: في دمشق وأشرفت على مصالح الكنائس الشرقية في ولايات سورية.^(٤)

هذا وقد تمتع بطريرك الروم في القدس بحق نصب وعزل الأساقفة والرهبان في الأديرة التابعة له ومع عودة الحكم العثماني إلى لواء القدس أصدر السلطان فرمانين.

(١) الدستور، المجلد ١، ص ٣٨٤ - ٣٨٩ - ٣٩٠.

(٢) جب، بون، المجتمع الاسلامي...، ص ٢١٦.

(٣) محمد رفيق ومحمد بهجت: ولاية بيروت - ص ٢٠.

(٤) عارف الشريف، روضة الأنس في فضائل الخليل والقدس، مطبعة اللواء، القدس، ١٩٤٦، ص ٨٢.

الأول في ١٨٣٩ والآخر في ١٨٤٠ جدد فيهما حقوق ملّة الروم القديمة في كنيسة القيامة، كما كان السلطان يوافق على تعيين بطريرك الروم المنتخب ويرسل له الأوسمة بواسطة مندوب خاص تنتدبه نظارة الخارجية إذ لا بدّ من صدور الإرادة بتثبيت بطريرك الأرثوذكس المنتخب.^(١)

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر حصل نزاع في كنيسة القدس الأرثوذكسية بين رجال الدين من اليونان الذين يسيطرون على الكنيسة يسمون أنفسهم أخوية القبر المقدس وبين أتباع الكنيسة العرب الذين يشكلون أكثرية الطائفة الأرثوذكسية في المتصرفية وبدأ النزاع في عام ١٨٧٤ وكان هدف الأرثوذكس العرب تعريب الكنيسة الأرثوذكسية في القدس فقد أخذوا على أخوية القبر المقدس اليونانية سيطرتها على كنيستهم فكان من بينها البطارقة ومعظم المطارنة وكانت اللغة اليونانية هي لغة الصلاة.^(٢) كما أخذوا عليها تصرفها بأوقاف الطائفة في غير ما صدرت له وطالبوا بضبط حساباتها وإعطاء كل ذي حق حقه، بالإضافة إلى كونها أقلية غريبة اللغة والبلاد، في سبيل ذلك ألف المسيحيون الوفود ونشروا المقالات وقدموا العرائض فتمكنوا من تحقيق أحد مطالبهم وهو وجوب إشراك الكهنة الوطنيين في جلسة ترشيح البطريرك وفي العهد الدستوري اشتد النزاع بين الطرفين ونظم المسيحيون العرب مظاهرات احتجاج ضد سياسة الكهنة اليونان فأرسلت الحكومة المركزية إلى سوريا ناظم باشا للتحقيق في أساليب النزاع وتمت المصالحة بناء على طلب الحكومة المركزية ونظمت مطالب الأرثوذكس العرب بوجوب تعيين مطارنة عرب وإشراك أبناء الطائفة العرب في إدارة الأديرة والأوقاف ورفع شأن المدارس الأرثوذكسية بالنهوض بها وتحسين أوضاعها.^(٣) وقد اشتملت مؤسسات طائفة الروم الأرثوذكس على كنائس ومدارس منتشرة في مدن وقرى المتصرفية وكان ينبغي أخذ موافقة الباب العالي عند إنشاء كنائس جديدة حيث يتم تحديد مساحة الكنيسة وارتفاعها،^(٤) وإذا كانت إحدى الكنائس بحاجة إلى إصلاح أو تحديد فإن الباب العالي كان يسمح بإعادة بنائها بنفس القياسات السابقة وكانت الدولة العثمانية قبل منح الرخصة بالإنشاء أو التعمير تتحرى عما إذا كان للطوائف الأخرى حقوق في الأرض والبناء خوفاً من إثارة المنازعات الطائفية وما يترتب عليها من مداخلات أجنبية.^(٥)

(١) يوسف خوري، نكران العدالة لسكان القدس العربية، القدس، ١٩٩٩، ص ٦٧.

(٢) عوض، الادارة العثمانية...، ص ٣٠٩.

(٣) عوض، الادارة العثمانية...، ص ٣١٢.

(٤) عارف العارف، المسيحية في القدس، القدس، ١٩٥١، ص ٤٦.

(٥) خليل ابراهيم قزاقيا، تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية، مصر، ١٩٢٠، ص ٥٣. وانظر أيضاً: فرح رفيق، تاريخ الكنيسة الأسقفية في مطرانية القدس ١٨٤١-١٩٩١، ١٩٩٥، ص ٢١٠.

ب- طائفة الأرمن:

كان عدد طائفة الأرمن في القدس قليلاً وانقسموا إلى أرمن أرثوذكس وأرمن كاثوليك ووافقت الدولة في سنة ١٨٨٦ على بناء كنيسة للأرمن الكاثوليك على أرض لهم في القدس.^(١)

كان السلطان يوافق على انتخاب بطريرك الأرمن ويبارك له بالأوسمة وأحياناً كان البطريرك يلتبس أوسمة لوكلاء البطريركية الأرمنية في ولايات الدولة الأخرى باعتباره مسؤولاً عنها ويلتبس الإذن بقبول أوسمة ملوك الدول الأجنبية الممنوحة له واعتمدت طائفة الأرمن في القدس على ما يقدمه الزوار من أبناء الطائفة من مساعدات وبلغ عدد أفرادها في سنة ١٨٩٣، ٦٠٠ نسمة.^(٢)

ت- طائفة الكاثوليك:

أحرز الكاثوليك في الدولة العثمانية تقدماً على حساب معظم الطوائف الأخرى ويعود ذلك إلى عاملين:

الأول: النفوذ الذي حصلت عليه فرنسا الكاثوليكية في شؤون الدولة العثمانية منذ أن وقعت معاهدة الامتيازات بين فرانسوا الأول وسليمان القانوني في عام ١٥٣٥.

أما العامل الثاني: فهو إنشاء الهيئة الدعائية الكاثوليكية في سنة ١٦٣٣ التي أنشأها البابا جريجوري الخامس عشر للإشراف على البعثات الكاثوليكية.

إن الأصول الأولى لهذه الطائفة في بلاد الشام نشأت نتيجة الانشقاقات في الكنائس الشرقية الأرثوذكسية والأرمنية والسريانية، وأقام المنشقون عن الكنيسة الأرثوذكسية طائفة جديدة عرفت باسم الروم الكاثوليك وتم لهم في عام ١٧٢٤ انتخاب بطريرك خاص بهم. واعترفوا برئاسة البابا عليهم، وفي سنة ١٨٤٧ أسس البابا بيوس التاسع مركزاً بطريركياً في القدس وهكذا أعيد تنظيم البطريركية اللاتينية رداً على نقل كرسي البطريركية الأرثوذكسية من اليونان إلى القدس سنة ١٨٤٥.^(٣)

ث- طائفة اللاتين:

بعد طرد الصليبيين عام ١٢٩١، بقي عدد من أتباع الكنيسة اللاتينية في بلاد الشام، وأشرفت على إدارة شؤونهم الأخوية الفرنسيسكانية التي عهد إليها حراسة بعض الأماكن المقدسة وخدمة الحجاج الفرنج واعترف بها سلاطين المماليك عام ١٣٤٢،^(٤) وكانت الطائفة اللاتينية محرومة من رئيس كنسي (بطريرك) مقيم في القدس حتى أواسط

(١) خليل طوطح، بولص شحادة، تاريخ القدس ودليلها، القدس، ١٩٢٠، ص ٧٨.

(٢) الحصري، البلاد العربية...، ص ١١٣.

(٣) العارف، تاريخ القدس، ص ١٢٧.

(٤) رؤوف سعد أبوجابر، الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢٥.

القرن التاسع عشر، إلى أن نصب البابا بيوس التاسع (١٨٤٦-١٨٧٨)، يوسف فاليركا بطريكاً لكرسي أورشليم عام ١٨٤٧. وارتبطت إعادة إحياء البطريركية اللاتينية بمجموعة من الظروف التاريخية منها: احتلال محمد علي باشا بلاد الشام وفلسطين عام ١٨٣١. وإطلاقه الحريات الدينية، وأطلق الوجود البروتستانتي في فلسطين من خلال إنشاء الأسقفية الانجليكانية عام ١٨٤١.^(١) مطالبة اللاتين بإيجاد توازن مع النشاط البروتستانتي الغربي واليوناني الأرثوذكسي في القدس. ففي ١٤ كانون الثاني ١٨٤٢ تم اتخاذ^(٢) قرار بتعيين أسقف لاتيني.

لم تكن البطريركية اللاتينية مرحباً بإعادة تأسيسها من قبل طوائف النصارى في القدس. وجاء معارضة الكنيسة الأرثوذكسية بفضل النجاح الذي حققته في جذب عدد من أتباع الكنيسة اللاتينية نحوها، ولتفوقها في المرافق التعليمية والصحية كافة بفضل دعم الدول العظمى لها. وعارضت الطائفة الكاثوليكية المستقلة في القدس تأسيس البطريركية، وبشكل رئيس كنيسة الروم الكاثوليك التي كان لها شخصية ذات طابع عربي، والتي عدت تجديداً للبطريركية اللاتينية كمحاولة لـ"لتونة" الطوائف المسيحية الأخرى.^(٣)

وعند ظهور البطريركية اللاتينية كان عدد طائفة اللاتين نحو أربعة آلاف نسمة ولهم ثلثي كنائس في القدس، وبيت لحم، والناصرة، ويافا، وعكا، وحيفا وكان الرهبان اللاتينيون من أصول أوروبية كإسبانيا، وإيطاليا وعربية كحلب ولبنان والإسكندرية والموصل. وكان أغلب الرهبان من الفلاحين الملتزمين دينياً.

ج- طائفة الموارنة:

ينتسب الموارنة إلى مار مارون وهو قديس ولد عام ٤١٠ في سوريا وأسس أتباعه رهبانية وديراً تخليداً لذكراه على ضفاف نهر العاصي كانت نواة الكنيسة المارونية. لم يكن للموارنة أي وجود في القدس قبل عام ١٨٦٠ بل كان الموطن الرئيس لهم هو لبنان لكن القدس شهدت بعد هذه الاضطرابات التي حدثت في لبنان في تلك الفترة هجرة واسعة للموارنة من لبنان بحثاً عن الأمن والاستقرار ولأن القدس ملتقى الأديان ونتيجة استقرار الموارنة في القدس، فقد عين الخوري لويس الدحداح الماروني ليشرف على شؤونهم الدينية وسعى البطريرك مار يوحنا بطرس الحاج في نهاية القرن التاسع عشر لإقامة بطريركية للموارنة في القدس وطلب من المطران الياس الحويك النائب البطريركي

(١) جورج خضر، المسيحيون العرب، دراسات ومناقشات، بيروت، ١٩٨١، ص ٧٢.

(٢) كارل راهنر، وفورغيميلر هيرت، معجم اللاهوت الكاثولكي، نقله إلى العربية عبده خليفة، بيروت، ١٩٨٦، ص ١١٦.

(٣) اللتونة: وتعني استمالة المسيحيين بكل طوائفهم إلى طائفة اللاتين، يوسف الشماس، خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية، صيدا،

١٩٤٧، ج٢، ص ٢٢١.

شراء قطعة أرض لبني عليها البطريركية المارونية، فاشترى محلاً واسعاً في جبل صهيون بالقرب من برج داوود وبني عليها مقر البطريركية المارونية، وتولى رئاسة البطريركية النائب البطريركي المطران الياس الحويك.^(١)

ح- البروتستانت:

نشط البروتستانت في بلاد الشام في أوائل القرن التاسع عشر، وأقاموا أول مركز لهم في بيروت في عام ١٨٢٠. وقد رأت الدولة فيهم بؤادر تسلل أجنبي لأن معظمهم من الانكليز والألمان^(٢) والأمريكيين بالإضافة إلى صفتهم التبشيرية لذلك وقفت السلطات في وجه نشاطهم وكذلك رأى الأرثوذكس والكاثوليك فيهم تهديداً خطيراً لكنائسهم ذلك أنه لم تكن في بلاد الشام طائفة بروتستانتية، فكانت وسيلة المبشرين البروتستانت الوحيدة لجميع الأتباع هي تحويل أتباع الطوائف الأخرى إلى مذهبهم، وقد أدى نشاطهم في هذا المجال إلى إثارة روح العداء والكراهية ضدهم في أوساط رجال الدين من الطوائف الأخرى.

أسس البروتستانت أول أسقفية انجليكانية لهم في القدس اشترك في تأسيسها كل من انكلترا وألمانيا، لكن الأخيرة مالبت أن انسحبت من الأسقفية بعد أن رأت تغلب المصالح الانكليزية عليها.^(٣)

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأ البروتستانت في بناء المدارس في القدس وبيت جالا، وقد سمحت الدولة لهم بذلك مقابل رسوم سنوية عن الأراضي التي ينوون البناء عليها، لكن البروتستانت في القدس ظلوا غير ممثلين في مجلس إدارة المتصرفية، بينما اشتركت طوائف الأرثوذكس واللاتين والأرمن واليهود فيه مع المسلمين، طلب القنصل الانكليزي في القدس توسط السفارة الانكليزية في استانبول لمساعدة طائفة البروتستانت بالحصول على مقعد لها في المجلس الإداري ويعود عدم اشتراك طائفة البروتستانت في المجلس الإداري لعدم اعتراف الدولة العثمانية بها كملة مستقلة.

إضافة للطوائف المذكورة وجدت في القدس طوائف متعددة كالأقباط والأحباش ولكن بأعداد قليلة.^(٤)

٢- المنازعات الطائفية:

عند حدوث أي خلاف بين طائفتين في القدس كان الحل بيد السلطات العثمانية الحاكمة فكانت كل طائفة تحاول اجتذاب أتباع الأخرى مما يضطر هذه السلطات للتدخل وإعادة الأتباع المنشقين إلى صفوفها، ففي سنة

(١) بطرس ضو، (الأب)، تاريخ الموارد الدينية والسياسي والحضاري من مار مارون إلى مار يوحنا مارون، بيروت، ١٩٧٠، ص ٩٧.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٨٦.

(٣) فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، بيروت، ١٩٥٩، ص ٨٧.

(٤) طوطح، شحادة، تاريخ القدس...، ص ٥٩.

١٧٠٢ طرد بطريرك الأرثوذكس في استانبول المسيحيين الذين بدلوا عقيدتهم الأرثوذكسية وأغلق المدارس الابتدائية الكاثوليكية في استانبول مستغلاً نفوذه لدى الباب العالي الذي قدم له قدراً كبيراً من التأييد، لكن ضعف الدولة العثمانية فيما بعد دفع بالنزاع بين الكنائس اللاتينية واليونانية قدماً نحو الأمام^(١) وخاصة في الاحتفالات الدينية في القدس وبيت لحم ليشمل موضوعات الأفضلية والامتيازات التي إدعاها كل طرف، ويبدو أن الرشاوى التي كان يدفعها رؤساء الطوائف للحكام العثمانيين ساعدت على إذكاء حدة الخلاف حيث لم تستطع الحكومة العثمانية ممثلة في حكامها اتخاذ موقف حاسم في المنازعات بسبب الاغراءات المادية التي تنافست الطوائف المتنازعة في تقديمها فحين نقلت طائفة الروم مركز بطريركيتهما من اليونان إلى القدس في ١٨٤٥ قبل هذا الإجراء بآخر مماثل فأعيد تعيين بطريرك اللاتين في القدس في ١٨٤٧، وفي العام نفسه حصل نزاع عنيف بين اللاتين والروم في بيت لحم، انتهى باختفاء نجم فضي من كنيسة المهد كان اللاتين قد ثبتوه في عام ١٧١١ عندما كانت الكنيسة في عهدهم، واتهم كل فريق الآخر بانتزاعه، وتدخلت كل من الدولتين الحاميتين وهما فرنسا وكانت تدّعي حماية اللاتين، وروسيا كانت تدّعي حماية الأرثوذكس في موضوع النزاع بين الطائفتين، وكان أن أصدر السلطان عبد المجيد فرماناً في ٩ شباط ١٨٥٢ يقضي بتسليم مفاتيح البابين الشمالي والجنوبي لكنيسة مغارة بيت لحم. "كنيسة المهد" لللاتين وسمح لهم بتعليق نجم فضي عليه شعار فرنسا في مزار تلك المغارة^(٢) ولكن روسيا تحركت فاستصدرت فرماناً آخر يقضي بتوزيع المفاتيح على طوائف الأرثوذكس واللاتين والأرمن بشرط أن لا يحدث تغيير في وضع كنيسة بيت لحم. ثم حصلت اختلافات في وجهات النظر بين كل من الدولة العثمانية وروسيا وفرنسا بشأن الامتيازات الطائفية وطالب قيصر روسيا، منحه حقوقاً مماثلة لتلك التي نالها الامبراطور الفرنسي فيما يتعلق بحماية الرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية، ولما رفض السلطان عبد المجيد الاعتراف لقيصر روسيا بالحقوق التي يدعيها على ثلاثة عشر مليون من رعايا السلطات الأرثوذكس، اجتاز الجيش الروسي في ٣ تموز ١٨٥٣ نهر البروث واحتل الأفلاق والبغدان كرهينة حتى يلي السلطان العثماني جميع مطالب القيصر. وقد عرفت هذه الحرب بحرب القرم،^(٣) وكان السبب المباشر - كما رأينا - رغبة روسيا في الحصول على حماية الرعايا الأرثوذكس في الولايات العثمانية بالقوة، ولم تقف الدولة العثمانية وحدها في مواجهة روسيا بل انحازت إلى جانبها فرنسا في ٢٧ آذار ١٨٥٤ ثم لحقت بها انكلترا في اليوم التالي، وهكذا نرى أن خلافاً حول بعض الأماكن المقدسة المسيحية كان

(١) محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، القاهرة، ١٨٩٦، ص ٥١، وانظر أيضاً: الكسندر وليم كنغليك، رحلة كنغليك إلى المشرق، ١٨٣٤ - ١٨٣٥. نقلها إلى العربية محمود عابدين، عمان، ١٩٧١، ص ١٧٦.

(٢) العارف، المسيحية في القدس، ص ٩٦.

(٣) جرجي زيدان، فلسطين، تاريخها وآثارها وسائر أحوالها، القدس، ١٩١٣، ص ١٢٤.

يضطر الدولة العثمانية لإعادة النظر في وضع الطوائف المسيحية مما عرضها للمداخلات الأجنبية وبالتالي إلى انشغالها في حروب طويلة.^(١)

ولم ينته نزاع الطوائف المسيحية في القدس ففي عام ١٨٦٢ اختلفت من جديد حول تعمير قبة كنيسة القيامة، ثم تم الإتفاق على أن تتولى الدولة العثمانية إعمارها على نفقة كل من روسيا وفرنسا باسم الطوائف المسيحية المختلفة، وتم ذلك في أواخر ١٨٦٨. كما صدر أمر السلطان إلى متصرف القدس في ١٨٦٩ بالسماح لطائفتي الروم والأرمن بتعليق الصور في مغارة كنيسة المهد في بيت لحم.

٣- الإجراءات الأمنية التي اتخذتها الدولة حيال النزاع الطائفي في القدس ١٨٥٢:

إن وجود الأماكن الدينية المقدسة لدى جميع الطوائف المسيحية في القدس دفع بالدولة العثمانية إلى عدم اكتفائها بيقظة موظفي الشرطة والأمن العام، بل كانت تمدهم بسرايا من الجنود النظامية بقيادة أفضل ضباطها لإلقاء الرهبة في النفوس ودرء كل ما يمكن أن يعكر صفو الأمن وكان المتصرف وقائد العسكر يحضران بعض تلك الاحتفالات، ويتصلان مع نهاية كل منها بالعاصمة مطمئنين عن استتباب الأمن والسلام، ومن أجل ذلك قامت الدولة من جانبها بإجراءات استهدفت تنظيم العلاقات بين الطوائف المسيحية، اهتمت بصون الأمن والنظام أثناء موسم الحج، وبذلت جهودها في المحافظة على سلامة الحجاج في الطريق بين يافا والقدس.^(٢) وتابع الباب العالي جهوده في تسوية المنازعات بين الطوائف المتنافسة في القدس فأرسل في عام ١٨٥٢ موظفاً خاصاً من الآستانة للتحقيق في الخلافات بين الروم واللاتين فيما له علاقة بكنيسة المهد "القبر المقدس" وأوضح السلطان لطائفة اللاتين في عام ١٨٥٤ بأن وجود مفتاح مغارة المهد في يدها لا يعني أن لها حقاً قديماً بالمرور وإجراء الطقوس الكنسية ضمنها، كما أشار السلطان إلى النجمة الفضية التي فقدت في سنة ١٨٤٧ في المغارة وأنه سيعمل نجمة مثلها لوضعها مكانها حسماً للنزاع، على أن لا تكون هذه النجمة ملكاً لأي طائفة مسيحية، وحدد السلطان مواعيد زيارة قبر السيدة العذراء لكل من طوائف الروم والأرمن واللاتين لكل طائفة ساعة ونصف على الترتيب اعتباراً من طلوع الشمس.

وقد استطاعت حكومة المتصرفية في أوائل القرن العشرين أن تقلل من المنازعات فمضت الاحتفالات الدينية دون أن يعكرها شيء من الخلافات المعتادة.^(٣)

(١) العارف، المسيحية في القدس، ص ٢٦٠.

(٢) الدستور، مجلد ١، ص ٨١٣.

(٣) العارف، المسيحية في القدس، ص ١١١. وانظر أيضاً: عمر جميل نشوان، التعليم في فلسطين منذ العهد العثماني وحتى السلطة الوطنية الفلسطينية، عمان، ٢٠٠٤، ص ٣١٠.

ولما كان التعليم الديني أداة للتدخل الأجنبي في شؤون الدولة العثمانية نظراً لأن معظم المدارس الدينية مولت من قبل الإرساليات التبشيرية، فسنبحث المدارس الدينية وبيان موقف الإدارة العثمانية منها.

٤- المدارس التبشيرية في القدس:

كان لكل طائفة من طوائف متصرفية القدس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مؤسساتها وأساليبها الخاصة في التعليم، وبدت مدينة القدس في الربع الأخير من القرن التاسع عشر من أكثر مدن الدولة العثمانية اكتظاظاً بالمدارس الدينية، وقد بدأت الدولة منذ عام ١٨٨٣ ترسل أوامرها إلى سلطات المتصرفية تحذر من تشييد الأبنية المخصصة للعبادة أو التعليم أو الأعمال الخيرية دون تصريح مسبق من الباب العالي، واستهدفت الدولة من ذلك إيقاف نمو الإنشاءات المتزايدة التي كانت ترعاها مؤسسات أجنبية لأغراض سياسية، ونفذت الدولة إجراءاتها بحق المدارس الأجنبية في المتصرفية فأخذت تماطل في منح الفرمان المتضمن ترخيصاً بمباشرة البناء بدعوى مختلفة مثل أن الأرض التي يطلب إنشاء المدرسة عليها أرضاً موقوفة وغير ذلك، ولكن الدولة لا تلبث أن تستجيب للضغوط التي تمارسها عليها السفارات الأجنبية في الآستانة فتصدر الرخصة بالبناء.

وانطلاقاً من نظام المعارف كانت الدولة تراقب مناهج التدريس وتمنع تدريس بعض الكتب وانتشارها في ولاياتها، لكن المدارس والإرساليات الأجنبية لم تكن تستجيب لمثل هذه الطلبات فتلجأ الدولة إلى حرق هذه الكتب والتخلص منها.^(١)

وفي عام ١٨٩٣ طلب متصرف القدس من جميع المدارس الداخلية التابعة لإرساليات البروتستانت أن تنال رخصة من اللجنة المحلية للتعليم في متصرفية القدس، ويبدو أن المواد المتعلقة بالمدارس الأجنبية من نظام المعارف ١٨٦٩ بقيت دون تطبيق فعلي في متصرفية القدس حتى عام ١٨٩٥ عندما تسلم المتصرف إبراهيم باشا أمراً من نظارة المعارف بتدريس اللغة التركية إلزامياً في جميع المدارس المسيحية والأجنبية،^(٢) وإن مندوباً من مجلس المعارف المحلي ينبغي عليه حضور امتحان اللغة التركية، وإن على المتصرفية تعيين المدرسين المناسبين لتدريس اللغة التركية لجميع المدارس الطائفية في غضون شهر واحد، لكن ذلك استغرق في واقع الأمر وقتاً طويلاً كعادة الدولة العثمانية عندما تريد تنفيذ أوامرها. وفي ١٩١٠ أبلغت نظارة المعارف المتصرف بتعيين مفتش للمدارس الأجنبية في متصرفية القدس ليقوم بجمع المعلومات عن كيفية تعيين المدرسين والمدرسات والمستخدمين الآخرين فيها لمعرفة مدى صلاحية المدرسين للعمل وأن ينظم بذلك كله سجل يحفظ في دائرة معارف القدس.^(٣)

(١) شحادة خوري، نقولا خوري، تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية، القدس، ١٩٢٥، ص ٧٧.

(٢) خوري، تاريخ كنيسة...، ص ٨٦.

(٣) كامل الاسكندري، صالح نخلة، تاريخ الكرسي الأورشليمي للأقباط الأرثوذكس، القدس، ١٩٤٧، ص ٢٦.

أ- مدارس الروم الأرثوذكس:

اعتمدت مدارس الروم الأرثوذكس على مساعدة بطريرك الروم في القدس وقد كان لهم عام ١٨٨٥ مدرسة عالية واحدة و ١٨ مدرسة ابتدائية للذكور والإناث أما بالنسبة لمناهج التدريس في هذه المدارس فقد كان الجانب الأكبر منها مخصصاً لحفظ الصلوات والقراءة والكتابة والحساب، غير أن الطائفة حاولت إصلاح مناهج التدريس فيها،^(١) واستخدمت ما توفر لها من المعلمين الأكفاء لاسيما لتدريس اللغة العربية.

وفي أواخر العهد العثماني شكى أبناء الطائفة من حالة مدارسهم للسلطات العثمانية بأنها غير كافية إذ لم يزد عددها عن ١٦ مدرسة ابتدائية في كل فلسطين، لذلك قام خليل السكاكيني من أبناء الطائفة الأرثوذكس بتأسيس مدرسة وطنية أسمها المدرسة الدستورية جعل لغة التعليم فيها اللغة العربية.

أما المدارس الروسية فقد تمتعت بشهرة بين المدارس الأجنبية، ومن أهمها في متصرفية القدس مدرسة خاصة بالبنات في بيت جالا. وأشرفت الجمعية الروسية الفلسطينية على إدارة شؤون المدارس الروسية في سورية وفلسطين وضاعفت من المبالغ المخصصة للإنفاق على مدارسها في آخر العهد العثماني.^(٢)

ب- مدارس الكاثوليك:

أسس الكاثوليك مدارس خاصة بهم في المتصرفية لكنها على الطراز الفرنسي فقد سارت منذ البداية وفق برامج التعليم الفرنسية، وكانت أرقى من مدارس الحكومة والروم الأرثوذكس في مكانتها العلمية غير أنها أعطت أهمية كبيرة في مناهجها للمواد الدينية، كالصلوات والطقوس الدينية شأنها في ذلك شأن غيرها من المدارس الأجنبية، وكانت عنايتها باللغة العربية قليلة، ذلك أن الفرنسية كانت لغة التدريس، فاستفادت منها الدوائر التجارية التي كانت في حاجة إلى موظفين يحسنون الفرنسية فشغل خريجو المدارس الفرنسية معظم الوظائف المتصلة بالأعمال التجارية والمصرفية في المتصرفية،^(٣) فكان منهم كتبة المصارف ودوائر البريد وشركات البواخر والسكك الحديدية والتراجمة.

وكان للبنات مدارسهم الخاصة التي تهتم بتعليم اللغة الفرنسية والديانة المسيحية، كانت مدارس الكاثوليك من أكثر مؤسسات التعليم الأجنبية عدداً، حيث كان لهم عام ١٨٨٥، ٣١ مدرسة كلها مجانية، وكان القسم الأكبر منها ابتدائية، وكانت ١٣ مدرسة منها تتلقى مساعدات من الحكومة الفرنسية وينفق على الأخرى من الجبايات والتبرعات التي ترسل لها من أوروبا.

(١) كمال سفيان، الوضع التعليمي في مدينة القدس، عمان، ١٩٩٣، ص ٣٨.

(٢) طاهر النمري، واقع واحتياجات التعليم الفلسطيني في مدينة القدس، القدس، ٢٠٠١، ص ٣٩ - ٤٥.

(٣) كامل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، ١٩٨١، ص ١٨١.

ت- مدارس البروتستانت:

عملت إرساليات كل من انكلترا وألمانيا وأمريكا على تأسيس مدارس لها في متصرفية القدس وتنافست فيما بينها منافسة شديدة اضطرت معها الإرساليات الأمريكية إلى الانسحاب من المتصرفية والتوجه إلى ولاية بيروت.^(١)

١- المدارس الانكليزية:

أ- مدارس جمعية لندن:

كانت لغة التعليم الأساسية في هذه المدارس هي اللغة الانكليزية في معظم الموضوعات التي تشمل القراءة والكتابة والحساب والجغرافية والتاريخ ودرست أيضاً بلغات إضافية كالألمانية والفرنسية أو الأسبانية والعبرية وركزت مدارس هذه الإرسالية على التعليم الديني وتم الانفاق على هذه المدارس من أموال الجمعية لكن في عام ١٨٩٠ ضاقت مدرسة الجمعية للبنات فتقدمت بطلب التصريح لها ببناء مدرسة جديدة وصدرت الإرادة بالموافقة على اشتراط عدم قبول طالبات مسلمات في المدرسة.

ب- مدارس إرسالية طابيشا: للآنسة والكر عرنوط

كانت مدرسة الآنسة عرنوط الداخلية والخارجية في القدس ويافا تستوعب ١٩٠ طالباً والتعليم باللغة الانكليزية ويدرس فيها الإنجيل والقراءة والكتابة والقواعد والجغرافية وتتلقى المساعدات من انكلترا، بدأت الآنسة والكر عملها في يافا عام ١٨٦٣ حيث شكلت فصول خاصة لتعليم البنات التدبير المنزلي إضافة للعلوم الأساسية.^(٢)

٢- المدارس الألمانية:

اهتمت ألمانيا ببناء مدارس خاصة بها في مناطق سكن الجالية الألمانية في قضائي القدس ويافا وبنت مدارس أخرى لتعليم الوطنيين من أبناء البلاد، وكانت المدارس الخاصة بالألمان ابتدائية ومأجورة وتتلقى المساعدات من الحكومة الألمانية نفسها وكانت تقبل الجنسيات الأخرى، شريطة دفع الرسوم المدرسية وإجمالي طلاب مدارس المستوطنات الألمانية كلها كان ١٦٨ طالباً وطالبة. أما المدارس الألمانية التي انشئت لتعليم الوطنيين فكانت اثنتان هما:

أ- مدرسة طاليثا قومي: Talitha Kumi

وهي للبنات اليتيمات وتأسست عام ١٨٥١ وتعليمها ابتدائي.^(٣)

(١) جاسر شفيق، تاريخ القدس، عمان، ١٩٩٠، ص ١٩٦. وانظر أيضاً: ميشيل يتييم، واغناطيوس ديك، تاريخ الكنيسة الشرقية وأهم أحداث الكنيسة الغربية، حلب، ١٩٦٣، ص ٢٥٠.

(٢) العارف، المسيحية في القدس، ص ٢١٦.

(٣) مجموعة مؤلفين، القدس: الأبعاد الدينية، ١٩٩٧، القاهرة، ص ١٦٢. وانظر أيضاً: علي محافظة، العلاقات الألمانية- الفلسطينية: من إنشاء مطرانية القدس البروتستانتية وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ١٨٤١-١٩٤٥، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٦.

ب- مدرسة دار الأيتام السورية:

تأسست عام ١٨٥٦ وهي المدرسة الانجيلية الوحيدة في المتصرفية، وقد أفادت كثيراً للحاجة إلى مدارس صناعية في المتصرفية.

٣- مدارس الإرساليات الأمريكية:

كانت معظم المدارس الأمريكية في بلاد الشام تقع في ولاية بيروت حيث توجّ المبشرون الأمريكيون أعمالهم التعليمية بتأسيس الكلية البروتستانتية في بيروت سنة ١٨٦٦ والتي عرفت فيما بعد بالجامعة الأمريكية، وبالرغم من أن القدس كانت من بين مدن بلاد الشام القليلة التي شهدت أولى المنشآت التعليمية الأمريكية لكن عدد المدارس الأمريكية فيها ظلّ محدوداً، وربما يعود ذلك إلى عدم وجود طائفة بروتستانتية كبيرة في المتصرفية بل كان عددها قليلاً مما دفع بالإرساليات الأمريكية إلى تركيز نشاطها في مكان آخر أكثر ملائمة لها فوقع اختيارها على بيروت.^(١)

ثامناً: التدخل الأجنبي في القدس ١٨٣١-١٩١٤:

لقد حددت أطماع الدول الأوروبية مواقفها من النزاع بين الدولة العثمانية ومحمد علي باشا، هذا النزاع الذي انتهى بسقوط بلاد الشام في يد الأخير، وقد رأت روسيا في ذلك فرصة مناسبة للسيطرة على تركيا، وقد أدى الموقف الروسي إلى الاصطدام مع النمسا التي كانت ترغب في المحافظة على الدولة العثمانية، أما بروسيا فكانت تريد السلم، أما فرنسا فقد تصورت الوضع السليم في الوقوف إلى جانب محمد علي لمواجهة الأطماع الانكليزية في المنطقة العربية، ومن هنا وقفت انكلترا إلى جانب الدولة العثمانية لمواجهة أطماع محمد علي في هذه المنطقة، غير أن ذلك الوضع قد تغيّر وعادت بلاد الشام إلى الدولة العثمانية بعد التوقيع على معاهدة لندن ١٨٤٠،^(٢) وقد تم ذلك بمساعدة الدول الأوروبية، وفي المقابل بدأت هذه الدول تستغل ذلك الموقف، فأخذت كل من انكلترا وفرنسا في إيفاد قناصلها إلى بلاد الشام وخاصة إلى القدس، وقد عملت هذه الدول على إثارة المنازعات العائلية في القدس ونابلس.^(٣) وقد شهد لواء القدس فيما بعد - نظراً لأهميته الدينية - كثيراً من المداخلات الأجنبية تطورت فيما بعد خاصة بعد حرب القرم ١٨٥٦، وقد استغلت الدول الأوروبية الكبرى مواقفها إلى جانب الدولة العثمانية في حربها هذه ضد روسيا، وأخذت في ابتزاز وتأكيد امتيازاتها في لواء القدس، وقد اتخذت في سبيل تحقيق ذلك ثلاثة أساليب هي: الامتيازات الأجنبية، وإيفاد الإرساليات الدينية وتأسيس القنصليات.

(١) خليل بن خطار، سركيس، تاريخ أورشلين، بيروت، ١٨٧٤، ص ٢٠١.

(٢) عادل مناع، تاريخ فلسطين السياسي في أواخر العهد العثماني، بيروت، ١٩٩٩، ص ١٥٩.

(٣) مناع، تاريخ فلسطين...، ص ١٥٩.

١- الامتيازات الأجنبية:

خرجت الامتيازات عن نطاقها التجاري^(١) عندما تمكنت فرنسا من توقيع معاهدة ١٥٣٥ مع الدولة العثمانية حيث حققت بموجبها إلى جانب الامتيازات التجارية امتيازات دينية^(٢) ولم تعد هذه الامتيازات حكراً على فرنسا بل انسحبت على غيرها من الدول الأجنبية مثل روسيا وقبلها بريطانيا، غير أن الأسلوب الذي استخدمته روسيا في الحصول على هذه الامتيازات اختلف عن الأسلوب الفرنسي، فقد اتبعت روسيا أسلوب القوة فكانت إثر كل حرب ضد الدولة العثمانية تحصل على امتيازات لرعاياها، غير أن فرنسا اتخذت من إقامة علاقات الود والسلام أسلوباً لذلك.^(٣) أما إنجلترا فكانت بعيدة عن هذا المجال حتى أحاطت بها ظروف دولية دفعتها للتحرك والمشاركة في الحصول على الامتيازات شأنها في هذا شأن الدول الأجنبية الأخرى.^(٤)

ومن هنا يبدو أن التنافس في الحصول على الامتيازات قد انحصر بين ثلاث دول هي إنجلترا وفرنسا وروسيا كل منها تعمل على تدعيم وجود لها في القدس نظراً لأهمية القدس الدينية،^(٥) غير أن هذه الدول لم تكتفِ بالامتيازات التجارية، بل إن هذه الدول تعدت ذلك إلى بسط حمايتها على رعايا الدولة المسيحيين فعملت فرنسا على بسط حمايتها على الكاثوليك وروسيا على الأرثوذكس، وكانت الدولة العثمانية تنظر لهذا بقلق. ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ١٧٩٨-١٨٠٠ اختلت الصلات بين الدولة العثمانية وفرنسا، ولكن عادت الحكومة العثمانية فاعترفت بالامتيازات الأجنبية وصدقت عليها في معاهدي ١٨٠٢ و ١٨٣٢، وبعد حرب القرم أرادت الدولة العلية أن تتحرر من هذه الامتيازات، فنظرت فيها وحددت الصلات التجارية منها، وعقد الباب العالي في سني ١٨٦١، ١٨٦٣ معاهدات تجارية جيدة مع فرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا وروسيا والنمسة والاتحاد الجرماني، وكلها تؤيد حق الأجانب في السلطنة وتحميهم وكان لهذه الامتيازات فوائد تتلخص بانفتاح الدولة العثمانية على العالم الغربي، والاستفادة من التطور السياسي والعسكري والاقتصادي الذي وصل إليه الغرب، إضافة للتعرف على الأنظمة السياسية الغربية واقتباس مفاهيم جديدة كالحرية والديمقراطية والدستور. أما سلبيات هذه الامتيازات تتضح باتفاق الدول الأوروبية على اقتسام مناطق النفوذ في الدولة العثمانية.^(٦)

(١) تيسير موسى نافع، الامبريالية والصهيونية، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٥٣-٥٤.

(٢) نافع، الامبريالية والصهيونية، ص ٥٥.

(٣) علي حسين خلف، الاطماع الاستعمارية الانكليزية في فلسطين، مجلة شؤون فلسطينية العدد ٦٧ حزيران ١٩٧٧، بيروت، ص ٨٢-٩٤.

(٤) نافع، الامبريالية...، ص ٦٠.

(٥) مناع، تاريخ فلسطين...، ص ١٦٢.

(٦) نافع، الامبريالية, ص ٦٥.

٢- الإرساليات الأجنبية:

كانت المحطة الأولى في التنافس بين الدول الأوروبية الكبرى على لواء القدس إيفاد الإرساليات لتدعيم وجودها في اللواء،^(١) لذا يمكن اعتبار القرن التاسع عشر عصر ازدهار الإرساليات الأجنبية وإن كانت قد بدأت قبل ذلك،^(٢) وقد أبدت انكلترا نشاطاً في هذا المجال أكثر من غيرها من الدول الأوروبية الأخرى لأجل خلق قاعدة لعملها، حيث لم يكن هناك طائفة بروتستانتية للاستناد عليها، ومن هنا كان بداية نشاطها إيجاد هذه الطائفة، وقد نجحت هذه الإرساليات في ذلك بفضل مساندة الجمعيات البروتستانتية، وبفضل التعاون بين انكلترا وروسيا في تأسيس أسقفية انجليكانية في القدس،^(٣) كما نجحت هذه الإرساليات في تأسيس عدد من المدارس والكنائس والمستشفيات والأديرة.^(٤) أما روسيا فقد كان الدافع لزيادة نشاطها في هذا المجال أن الأرثوذكسية في القدس أخذت في الترنح أمام المذاهب المسيحية الأخرى،^(٥) كما أن روسيا استعانت بالجمعيات في سبيل تنشيط تنشيط عملها، لكن يلاحظ أن النشاط الروسي في هذا المجال قد اصطدم بالقنصل الروسي،^(٦) على العكس مما حدث مع الإرساليات الانجليزية التي لقيت المساندة التامة من القنصل الانكليزي في القدس. وبالرغم من هذه العراقيل تمكنت الإرساليات الروسية من تأسيس عدد من الكنائس والمستشفيات ودار للإرسالية والفنادق لاستقبال الحجاج بالإضافة إلى عدد من المدارس.^(٧)

أما فرنسا فكان نشاطها في هذا المجال يكاد يكون معدوماً بالنسبة للدول الأوروبية الأخرى ولعل مرد ذلك إلى الخطوات التي سارت فيها العلاقات الفرنسية العثمانية، ومع هذا تمكنت من تأسيس عدد من المدارس في القدس وغيرها، ومع أن الوجود الأمريكي قد ظهر متأخراً إلا أنه كان لأمریکا نشاط في إيفاد الإرساليات الدينية التي اتخذت من بيروت مركزاً للانطلاق إلى القدس.^(٨)

(١) جورج كريك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، الناصرة، ١٩٧٧، ص ١٠٥ - ١٠٧.

(٢) كريك، موجز...، ص ١٠٨.

(٣) زين، زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان، بيروت، ١٩٧١، ص ٢٤.

(٤) حلاق، موقف الدولة...، ص ٤٨.

(٥) حلاق، موقف الدولة...، ص ٤٩.

(٦) كريك، موجز تاريخ...، ص ١١٧.

(٧) محمد عزة دروزة، "خمسة وتسعون عاماً في الحياة: مذكرات وتسجيلات". تحقيق علي الجرباوي وحسام الشخشير، ج١، القدس، ١٩٩٣، ص ١٩.

(٨) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، تعريب وتقديم أحمد أبو ملح، بيروت، ١٩٥٢، ص ٢٥.

أما بروسيا فقد اتخذت من إقامة المستوطنات وسيلة لخلق وتدعيم وجود لها في القدس.^(١)
أما الدولة العثمانية أمام هذه التيارات المتلاحقة من الإرساليات فكانت عاجزة عن صد ذلك، وحاولت بعدة أساليب حصر نشاط هذه الإرساليات منها عرقلة إجراءات التملك، ولكن دون جدوى.^(٢)

٣- تأسيس القنصليات ١٨٣٨:

كانت محصلة التنافس بين الدول الأوروبية هي تأسيس القنصليات في القدس، وكما كانت انكلترا على رأس الدول في إيفاد الإرساليات كذلك كانت أول الدول التي أسست قنصلية لها في القدس عام ١٨٣٨ ثم تلتها الدول الأوروبية الأخرى في ذلك.

وقد بدأ التنافس بين هذه الدول واضحاً في مجال الاحتفالات الرسمية من حيث الظهور بأبهى صورة، كما دار الخلاف بين القناصل الأجانب حول أحقية كل منهم في التقدم على الأخرى في مثل هذه الاحتفالات كما حدث في عام ١٨٥٥ عند زيارة أمير وأميرة بلجيكا للأرض المقدسة فقد كانت المصالح البلجيكية تدار من قبل القنصلية النمساوية، وعلى هذا الأساس كان للقنصل النمساوي أولوية التقدم في الاحتفالات، غير أن الزيارة التي قام بها هذان الأخيران لديرين إسبانيين في رام الله وعين كارم قبل الوصول إلى القدس جعلت القنصل الإسباني يطالب بأحقية التقدم في سير الاحتفالات، وعلى أثر ذلك سمحت الدولة العثمانية عند زيارة أي ملك أجنبي بإطلاق إحدى وعشرين طلقة من القلعة مع رفع العلم العثماني عليها. إلا أن سكان القدس غضبوا لذلك غضباً شديداً متخوفين من تزايد النفوذ الأوروبي في البلاد،^(٣) أما عن إجراءات تعيين القناصل أو وكلائهم في الولايات العثمانية فكانت تتم بواسطة سفاراتهم في الآستانة، وذلك بعد تقديم طلب لنظارة الخارجية العثمانية مقروناً بلمحة عن حياة القنصل المنوي تعيينه، ونظارة الخارجية العثمانية بدورها ترفع الأمر إلى الباب العالي مقروناً باقتراح الموافقة منها، وبعد الموافقة تصدر إدارة سلطانية بذلك^(٤) موضحاً في هذه الإرادة اختصاصات وامتيازات هذا القنصل ثم يقوم الوالي على أثرها بإبلاغ كل من متصرف اللواء والقاضي بذلك لأجل العلم.^(٥)

كما أصدرت الدولة العثمانية في عام ١٨٦٣، نظام الإدارة الخارجية لتنظيم علاقاتها مع القناصل وقد جاء هذا النظام في ثلاثة عشر بنداً وملخصه:^(٦)

-
- (١) مناع، الانتفاضة والثورة...، ص ٣-٢٢.
 - (٢) مناع، الانتفاضة والثورة...، ص ٣-٢٢.
 - (٣) كامل العسلي، القدس في التاريخ، عمان، ١٩٩٢، ص ٤٣.
 - (٤) عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، بيروت، ١٩٧٣، ط ٢، ص ٢٧.
 - (٥) الكيالي، تاريخ...، ص ٤٣.
 - (٦) كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، الجزء الثالث، عمان، ١٩٨٩، ص ٤٤.

تحديد عدد الموظفين المستخدمين من رعايا الدولة لدى القنصليات الأجنبية فيحق للقنصليات العامة في مركز الإيالة استخدام أربعة من المترجمين ومثلهم من المرافقين، أما القنصليات الفرعية فتستخدم ثلاثة مترجمين وثلاثة مرافقين، أما وكالة القنصلية فتستخدم اثنين من الترجمة واثنين من المرافقين، غير أن التحديد لم يكن قاطعاً حيث سمح لبعض القنصليات باستخدام عدد آخر دون أن يكون لها الامتيازات المعروفة إلا إذا قبلت حكومة الاستانة ذلك فتحقق هذه الامتيازات، كما أوضح هذا النظام مفهوم الحماية^(١) التي يتمتع بها موظفو القنصليات من حيث كونها حماية لشخصية لا تتعداهم إلى غيرهم، كما أوضح هذا النظام عدم استخدام أي من رعايا الدولة لدى القنصليات الأجنبية كوكيل قنصل أو مأمور قنصلي إلا في الحالات الموجبة لذلك مثل المعاملات التجارية كما لا يحق للمستخدمين لدى القنصليات الأجنبية التخلي عن التبعية العثمانية خلال مدة خدمته.^(٢) وفيما يلي دراسة للوسائل التي استخدمتها كل دولة في سبيل خلق وتدعيم وجودها في لواء القدس.^(٣)

تاسعاً: الوسائل التي اتبعتها الدول الأوروبية لتدعيم وجودها في القدس:

١- الوجود الانكليزي ١٨٣٨:

في الوقت الذي كانت فيه فرنسا بإسلوب الود والعلاقات الحسنة، وروسيا بإسلوب القوة تعملان للحصول على امتيازات داخل الامبراطورية العثمانية كانت انكلترا بعيدة إلى حد ما عن تحقيق مثل هذه الامتيازات ولعل السبب في ذلك هو انشغالها في النشاط التجاري، هذا النشاط الذي جاء نتيجة للثورة الصناعية التي ظهرت في انكلترا، وكذلك لعدم وجود ركائز للاستناد عليها كما كان لكل من فرنسا وروسيا حيث استندت كل منهما على طائفة معينة في سبيل تدعيم وجودها في الأراضي المقدسة.^(٤)

كما أن انكلترا أدركت أن حقيقة التنافس بين روسيا وفرنسا على الأراضي المقدسة ليس تنافساً دينياً- كما يبدو في الظاهر- بل كان تنافساً سياسياً، ومن هنا بدأت انكلترا تعمل لإيجاد ركيزة للاستناد عليها لخلق وجود لها أمام النشاطات المتعددة من قبل الدول الأوروبية خاصة فرنسا وروسيا.^(٥)

(١) مفهوم الحماية: ويقصد به الحماية الأجنبية التي تُمنح بموجب براءة سلطانية لبعض السكان المحليين الذين يعملون لدى القنصليات الأجنبية وأطلق عليهم اسم الحماية أو البراتلية. سليم عرفات المبيض، غزة وقطاعها، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٥٦. وأيضاً ماري سركو، دمشق فترة السلطان عبد الحميد الثاني من ١٢٩٣هـ - ١٣٢٥هـ / ١٨٧٦-١٩٠٨م، دمشق، ٢٠١٠، ص ٨٢.

(٢) ألكس كرم، تاريخ حيفا في عهد الاتراك العثمانيين، حيفا، ١٩٧٩، ص ٦٦.

(٣) المدني، مدينة القدس...، ص ٨٦.

(٤) يهوشوع بن آريه، مدينة في مرآة العصر: القدس في القرن التاسع عشر ت: سليمان مصالحة، ج١، القدس، ١٩٧٧، ص ٩٢.

(٥) بن آريه، مدينة في...، ص ١٠٥.

ومن هنا كان محور النشاط الانكليزي في سبيل ذلك تأسيس قنصلية لها ثم تأسيس أسقفية انجليكانية في القدس.

أ- تأسيس القنصلية الانكليزية:

في سبيل تدعيم الوجود الانكليزي في القدس تمكنت انكلترا من تأسيس قنصلية لها في القدس عام ١٨٣٨، وبهذا تكون الدولة الأولى في هذا المجال، وقبل نجاح انكلترا في هذا كان الرعايا الانكليز في القدس تحت إشراف القنصل الانكليزي في حلب،^(١) أما بعد تأسيس القنصلية الانكليزية في بيروت فقد تمثل الوجود الانكليزي في فلسطين بوجود وكيل للقنصل العام في صفد وعكا، لكن الأحداث الدولية دفعت انكلترا إلى تأسيس قنصلية لها في القدس، ومن هذه الأحداث طموح محمد علي وسياسته التوسعية، وفي سبيل ذلك أجرت انكلترا مفاوضات مع محمد علي والسلطان العثماني موضحة الأسباب الداعية لذلك منها كون القدس من الأماكن المقدسة التي تستقبل الزوار الانكليزيين في الوقت الذي لا يوجد فيه لانكلترا حتى وكالة قنصلية،^(٢) كما أن حاجة الطائفة البروتستانتية النامية في القدس إلى التدعيم والحماية دفعت انكلترا إلى تدعيم نفوذها باستخدام هذا الأسلوب.^(٣) غير أن هذه الجهود لم تذهب سدى حيث نجح السفير الانكليزي في القسطنطينية في استصدار فرمان عام ١٨٣٨ لإقامة القنصلية في القدس.^(٤) ومن هنا كانت انكلترا الدولة السباقة في هذا المجال مستغلة في ذلك صلات التحالف التي عقدتها في ذلك الوقت مع السلطان العثماني للوقوف ضد أطماع محمد علي التوسعية، وقد اختارت الحكومة الانكليزية المستر ينغ Young أول نائب قنصل في القدس، ورغم أن حكومته قد خصصت له راتباً شهرياً^(٥) إلا أنها في الوقت نفسه سمحت له بممارسة التجارة لحسابه الخاص وأوكلت إليه مهمة إرسال المعلومات المتعلقة بالأحوال التجارية والزراعية كما عهدت إليه بمهمة صعبة هي التقرب للمواطنين واجتذاب مشاعرهم نحو انكلترا.

وارتبطت القنصلية الانكليزية في القدس منذ تأسيسها بالقنصلية الانكليزية في القاهرة فكان لهذه القنصلية العامة نوع من الإشراف على نائب القنصل في القدس، ولكن هذه التبعية لم تستمر حيث نقلت تبعية القدس منذ عام ١٨٤٠ إلى القنصلية الانكليزية العامة في بيروت، وقد رأينا أن القنصلية الانكليزية في القدس عملت على تقديم الحماية الانكليزية لكافة اليهود، ويبدو هذا واضحاً من خلال التعليمات التي صدرت لأول نائب قنصل حيث

(١) حسين مؤنس، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٢٨٣ - ٢٨٩.

(٢) العارف، المسيحية في القدس، ص ١٦٨.

(٣) مؤنس، الشرق الاسلامي...، ص ٢٩٢.

(٤) Abdul Latif Tibawi : American Interests to Syria, oxford 1960, P : 2.

(٥) عمر صالح البرغوثي، تاريخ فلسطين، القدس، ١٩٢٣، ص ٧٦.

طلب منه تقديم هذه الحماية لكافة اليهود وقد استفاد اليهود من ذلك كثيراً^(١) وقد اتخذت منهم انكلترا رכיزة لها، وبقي ينغ في منصبه هذا نائباً قنصلياً لانكلترا حتى عام ١٨٤١ أصبح بعدها قنصلاً^(٢) ثم تولى أمور القنصلية من بعده المستر جيمس فن James Finn وقد أتيح له أن يمكث فترة طويلة امتدت بين عامي ١٨٤٥ - ١٨٦٤ في منصبه هذا فاكسب خبرة كبيرة ومعرفة دقيقة بأحوال البلاد وسكانها وطوائفها، كما ظهر في كتاباته عن القدس^(٣) وفي بداية عهده أي في عام ١٨٤٦ أصبح عدد الوكالات القنصلية الانكليزية في بلاد الشام خمس وكالات في يافا وحيفا وعكا وصور وصيدا.

وفي عام ١٨٤٧ رفعت وكالة القنصلية في يافا إلى قنصلية مرتبطة بالقنصلية الانكليزية في بيروت وقد عين أسعد خياط من نصارى البلاد قنصلاً في يافا، هذا القنصل الذي أبدى نشاطاً في مجال الزراعة حيث أشرف على بعض التجارب على زراعة القطن، كما عمل على فتح بوابة ثانية في سور يافا، وسعى إلى توسيع وإقامة منارة في ميناء يافا، وسعى إلى ربط هذا الميناء بأوروبا من حيث الاتصالات البرقية. وبهذا يكون هذا القنصل قد صبغ القنصلية الانكليزية في يافا بصبغة تجارية على العكس مما كانت عليه القنصلية الانكليزية في القدس التي صبغت بالصبغة السياسية أكثر منها تجارية، حيث مارس القنصل الانكليزي في القدس - جيمس فن - عمله على رفع شأن المصالح السياسية والتجارية في منطقة اختصاصه، وقد تركز عمله على النواحي السياسية حيث قدم الحماية الانكليزية بشكل واضح وأنشط مما كان عليه القنصل السابق - ينغ - كما أنه بصفته عضواً في جمعية يهود لندن عمل على نشر المسيحية بين اليهود، وعمل أيضاً على تأسيس جمعية القدس الأدبية في خريف ١٨٤٩ للعناية بالأمكن المقدسة في القدس وما حولها، كما تم إنشاء كنيسة بروتستانتية عربية في القدس بسبب زيادة عدد أتباع هذه الكنيسة.^(٤)

ومع أن القنصل الانكليزي في القدس قد تقاضى راتباً شهرياً أكثر مما كان يتقاضاه القنصل السابق إلا أنه كان من فترة لأخرى يطالب حكومته لزيادة راتبه متعللاً بارتفاع الأسعار مما لا يسمح له بالظهور بالمظهر اللائق والمتفوق أمام القناصل الآخرين.^(٥)

(١) الخازن، مجموعة المحررات...، ص ٧٢.

(٢) محمود العابدي، قدسنا - معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، ١٩٧٢، ص ١١٥.

(٣) الخازن، مجموعة المحررات...، ص ٨٩.

(٤) حلاق، موقف الدولة...، ص ٥٠.

(٥) خلف، الأطماع الاستعمارية...، ص ٨٩.

ويبدو كذلك أن مخصصات القنصلية الانكليزية في القدس خلال قنصلية جيمس فن كانت قليلة لدرجة أن هذا القنصل قد التمس من وزارة الخارجية الانكليزية زيادة هذه المخصصات لتأمين مصاريف الاحتفالات الرسمية وغير ذلك.^(١)

ومع هذا فإن مصير هذا القنصل لم يكن منسجماً مع أعماله حيث نُقِلَ بعد هذه الخدمة الطويلة بناءً على شكاوى قدمت ضده خاصة من قبل غوبات مطران الأسقفية الانجليكانية في القدس، كما أن تدخله في إجراءات المحاكم الطائفية اليهودية في القدس قد أثار هذه الطوائف ضده،^(٢) وقد حاول هذا القنصل التثبيت بمنصبه في الوقت الذي قدم فيه القنصل الجديد ولكن دون جدوى وخلفه المستر مور Temple Moor ١٨٦٤-١٨٩٠ تم في فترة عمله هذه الحاق القنصليات الانكليزية في صيدا وعكا بالقنصلية الانكليزية العامة في بيروت،^(٣) بعد أن كانت تابعة للقنصلية الانكليزية في القدس خلال قنصلية جيمس فن.

وخلال قنصلية مور عمل على تأسيس مؤسسة انكليزية هي جمعية التنقيب الفلسطينية للقيام بالبحث والتنقيب عن الآثار في فلسطين، ويبدو أن مكان القنصلية الانكليزية في القدس لم يكن مناسباً، وقد حاول القنصل السابق جيمس فن بحث هذا الأمر مع وزراء الخارجية الانكليزية لكن دون جدوى لذا استؤنفت المحادثات على عهد "تمبل مور" بهذا الخصوص.^(٤)

وقد مارس هذا القنصل صلاحياته في القدس على نطاق واسع حيث كان يقوم بجولات تفتيشية للمناطق الداخلة في اختصاصاته يقدم بعدها تقريراً وافياً عن الأوضاع في هذه المناطق من حيث الحالة التجارية والزراعية والصناعية والثروة الحيوانية وعدد السكان. كما عمل هذا القنصل على ربط القدس بأوروبا بالخط البرقي عام ١٨٦٥.^(٥) وتابع هذا القنصل تنفيذ سياسة الحكومة الانكليزية في بسط حمايتها على اليهود حيث كان عددهم في عام ١٨٧٠، ١٢٠ عائلة تمتعت بهذه الحماية،^(٦) وارتفع عدد العائلات اليهودية المشمولة بالحماية الانكليزية إلى ١٥٩ عائلة في العام التالي، كما عمل هذا القنصل على توفير الراحة للزوار إلى المدينة المقدسة، مما أدى إلى زيادة عدد القادمين الذي بلغ حوالي ٢٠٠ شخص في عام ١٨٦٨ أي أكثر عدداً مما كان في السابق كما أن المشكلة التي اعترضت من سبقه من القناصل قد اعترضته ألا وهي مشكلة زيادة مخصصات القنصلية في القدس فقد طالب

(١) خلف، الأطماع الاستعمارية...، ص ٩٣.

(٢) نجيب العقيقي، المستشرقون، القاهرة، ١٩٦٥، ج ٢، ص ٤٣٢.

(٣) العقيقي، المستشرقون، ص ٤٣٥.

(٤) ج، هـ، جانس: الصهيونية وإسرائيل، ترجمة، راشد حميد، بيروت، ١٩٧٢، ص ٧٥ - ٩٠.

(٥) ج، هـ، جانس، الصهيونية...، ص ٩٥.

(٦) جورج لنشوفسكي، الشرق الأوسط في الشؤون الدولية، ص ٥٣.

هذا القنصل بزيادة مخصصات القنصلية، وفي نفس الوقت طالب بزيادة راتبه، وكان يشكو من قلة راتبه بحيث يكون متماشياً مع زيادة الأسعار وارتفاع مستوى المعيشة،^(١) واستمرت تبعية قنصلية القدس للقنصلية العامة في بيروت، فكان القنصل يرفع بعض الأمور التي يستعصى عليه حلها إلى بيروت.

ب- تأسيس الأسقفية الانجليكانية:

أدركت انكلترا أن كل من روسيا وفرنسا قد استخدمتا بعض الطوائف المسيحية كركائز لوجودها في القدس، ونظراً لعدم وجود طائفة بروتستانتية قوية في القدس للاعتماد عليها، لذا فكرت في تقوية هذه الطائفة مستخدمة أساليب عدة منها التبشير بالمذهب البروتستانتي بين اليهود وجذب بعض الأفراد من الطوائف المسيحية الأخرى إلى اعتناق هذا المذهب^(٢) كما اتخذت من الجمعيات وسيلة لتحقيق أهدافها وفيما يلي دراسة لأهم هذه الجمعيات مع بيان أوجه نشاطاتها:

١- جمعية يهود لندن ١٨٠٩:

تأسست هذه الجمعية في لندن في عام ١٨٠٩ وأوفدت أول مبشريها إلى القدس في عام ١٨١٩ لاستطلاع الأوضاع هناك وكانت القدس خلال زيارتهم هذه مدينة تكاد تكون مغلقة أمام إقامة الأجانب إلا أنها مفتوحة للزوار والحجاج لفترات قصيرة، ومع هذا أوفدت هذه الجمعية بعثة أخرى عام ١٨٢٣ ولاقت صعوبات أخرى بالإضافة إلى ما سبق إذا ارتبطت زيارة هذه البعثة زمنياً مع أحداث ثورة اليونان ضد الدولة العثمانية تلك الثورة التي أشعلت نار البغضاء ضد المسيحيين بصفة عامة والارثوذكس بصفة خاصة.^(٣)

غير أن هذه الجمعية قد غيرت أساليبها في التبشير، عندما أوفدت بعثة أخرى واتخذت من عملية معالجة المرضى ستاراً لإخفاء أهدافها، غير أن هذا العمل لم يخف على الدولة والأهالي حيث قابلوا ذلك بالاستياء،^(٤) ومع هذا تابعت الجمعية إيفاد البعثات حيث أوفدت في عام ١٨٢٦ بعثة أخرى إلا أن مناخ العمل لم يكن مناسباً، فغادرت هذه البعثة البلاد، تبعثها بعثة أخرى عام ١٨٣٣ بعد أن تهيأ الجو المناسب لنشاط البعثات خلال فترة الحكم المصري لبلاد الشام ذلك الحكم القائم على التسامح مع الطوائف الدينية المختلفة، فقد بدأت هذه البعثة بالإعداد لإقامة كنيسة انجليكانية لتكون مركزاً لإرشاد ووعظ اليهود وجرت مفاوضات بهذا الشأن بين القنصل الانكليزي العام في القاهرة وبين محمد علي، ولكن الأمر كان يحتاج إلى موافقة الباب العالي غير أن الباب العالي

(١) لنشوفسكي، الشرق...، ص ٦٠.

(٢) Hyamson : Palestine the rebirth of an ancient people , P 73

(٣) Tibawi : British interest in Palestine . P . 150

(٤) العارف، المفضل...، ص ٥٤٤.

لم يوافق على ذلك فانتهت هذه المفاوضات بالفشل نظراً لعدم السماح للطوائف غير الاسلامية ببناء أماكن جديدة لعبادتهم أو شراء أي ممتلكات ثابتة مثل الأراضي أو البيوت^(١) واتخذ الإنجليز في عمل إنساني آخر ستاراً لأعمالهم حيث اقترحوا فتح مدارس للأطفال، ومع هذا فإن عمل الجمعية لم يكن جاداً ذا فعالية إلا بعد أن تمكن رئيس البعثة من شراء قطعتين من الأراضي - بالتحايل - أقيمت عليها فيما بعد كنيسة عرفت باسم كنيسة المسيح^(٢) كما أن نشاط هذه الجمعية قد زاد بعد أن تم افتتاح القنصلية الانكليزية في القدس عام ١٨٣٨^(٣) وبهذا أصبحت الطريق ممهدة بين الدول البروتستانتية وفي مقدمتها انكلترا وبروسيا لإقامة أسقفية انجليكانية في القدس، وهذا نابع من رغبة الملك البروسي فردريك ويليام الرابع في توحيد الكنائس وإقامة مشرف عام أوروبي على المدن المقدسة في فلسطين، هذه الرغبة التي كان قد طرحها هذا الملك البروسي من قبل لكنها آنذاك لم تجد آذاناً صاغية، بل على العكس لاقت مقاومة من الكنائس المسيحية الأخرى خاصة النمسا وروسيا لأنها رأت في ذلك تدعيماً للنفوذ البروتستانتي في فلسطين، ومن هنا شهد عام ١٨٤١ وذلك بعد مفاوضات بين الملك البروسي والملكة فيكتوريا ورئيس أساقفة كنتربري شهد هذا العام ميلاد أسقفية تحت إشراف مطران يكون تابعاً لرئيس أساقفة كنتربري، والهدف من إقامة هذه الأسقفية إيجاد مركز للمذهب البروتستانتي في القدس، ولكي تكون الكنيسة الانجليكانية قريبة من الكنائس المسيحية الأخرى في الأراضي المقدسة للعمل على توحيد هذه الكنائس، وقد وقع الاختيار على ميخائيل سولون الكسندر ليكون مطراناً لهذه الأسقفية، وكان الاختيار سديداً نظراً لكون هذا المطران من أصل يهودي ثم تنصر وكونه قد خدم طويلاً في جمعية يهود لندن، وكونه أستاذ اللغة العبرية في كلية الملك في لندن^(٤) ولكن بروسيا لم تستمر تحت ظل هذه الأسقفية طويلاً لأنها ضاقت بالسيطرة الانكليزية عليها.

وكان قد وصل هذا المطران إلى القدس في ٢١ كانون الثاني عام ١٨٤٢ في موكب رسمي صحبه القنصل الانكليزي العام، وقد ألقى خطاباً أوضح فيه الملابس التي أحاطت بتأسيس أول كنيسة بروتستانية، أما عن منجزاته فإن أهمها بناء الكنيسة الأولى للبروتستانية والتي عرفت بكنيسة المسيح، كما عمل على تأسيس عدد من المدارس منها المدارس الصناعية والمدارس التعليمية بالنسبة لأطفال اليهود المتنصرين على المذهب البروتستانتي كما أن هذا المطران حاول افتتاح مركز لجمعية يهود لندن في الخليل، إلا أن مقاومة الأهالي حالت دون تحقيق ذلك. أما

(١) منصور، تاريخ الناصرة، ص ١١٠.

(٢) منصور، تاريخ الناصرة، ص ١١٢.

(٣) دغيس المر، أحكام الأراضي المتبعة في البلاد العربية المنفصلة عن السلطنة العثمانية، القدس، ١٩٢٣، ص ٥٦.

(٤) العارف، المسيحية في القدس، ص ١٥٨.

المطران الثاني لهذه الأسقفية فكان صموئيل غوبات وقد وصل إلى القدس في ٣٠ كانون أول سنة ١٨٤٦ وعمل منذ البداية على التوسع في بناء المدارس سواء في القدس أو غيرها من المدن الرئيسية في فلسطين، ومن هنا يبدو أن محور نشاط الجمعيات كان بناء المدارس، لذا كان من الضرورة ذكر أهم المدارس التي تأسست على يد هذا المطران رغم ما اعترضه من عراقيل:

١- تم افتتاح المدرسة الأولى في القدس بتاريخ ١٠ تشرين الثاني سنة ١٨٥٣ لتعليم المسيحيين الذين يتحولون إلى البروتستانتية من البنين والبنات حيث ضمت هذه المدرسة في البداية عشرة أطفال، وكانت هذه المدرسة تقدم لهم بالإضافة إلى مجانية التعليم وجبة غذائية صباحية، غير أن عدد الطلاب في المدرسة قد زاد حتى أصبح ١٨ طالباً، وبقيت مباني هذه المدرسة بالإيجار إلى أن تم بناء مباني حديثة في عام ١٨٧٤ لتكون مسكناً للمعلمين والطلاب كما نظام المدرسة قد نظم، فأصبح هناك قسم خاص للبنات وآخر للأولاد، ووضعت على أثر ذلك مناهج خاصة لكل قسم، فقد كانت المواد الدراسية تشمل القراءة والكتابة والحساب، واللغات والتاريخ والجغرافية بالإضافة إلى أعمال يدوية للبنات مثل التطريز والأعمال الفنية للأولاد.^(١)

٢- تم افتتاح المدرسة الثانية في نابلس بتاريخ ١٠ أيلول ١٨٤٨ لتكون بالإضافة إلى كونها مركزاً تعليمياً مركزاً للإرساليات ولإقامة السائحين والمعلمين وكان عدد الطلاب ٢١ طالباً.

٣- مدارس أخرى في بيت لحم والناصرة ويافا.

ومع نهاية حرب القرم زاد نشاط الإرساليات، وبدا هذا واضحاً في المجال التربوي ففي عام ١٨٥٦ كان عدد الطلاب الذين تضمهم المدارس التي أقامها غوبات في فلسطين ٢٦٠ طالباً موزعين كالاتي:

	القدس	بيت لحم	نابلس	يافا
أولاد	٤٤	٥٠	٦٠	٢٨
بنات	٤١	٤٠	٤	٥٣

كما أن نشاط الإرساليات قد بدى واضحاً في مجال آخر هو بناء المستشفيات والمدارس الصناعية، وعدد من المباني خارج أسوار المدينة لإقامة العائلات البروتستانتية.^(٢)

٢- جمعية التبشير الكنائسي ١٧٩٩ : Church Missionary Society

تأسست هذه الجمعية في لندن بتاريخ ١٢ نيسان سنة ١٧٩٩ اتخذت من مالطة مركزاً لنشاطها في منطقة الشرق الأدنى المتمثل في نشر المسيحية بين اليهود، تحول نشاطها عام ١٨١٥ إلى القدس حيث أوفدت هذه الجمعية

(١) العارف، المسيحية...، ص ١٦٢.

(٢) Tibawi : British interests in Palestine , PP – 91 – 161 .

إرسالية إلى القدس لأجل الوعظ والارشاد، وقد اتخذوا من افتتاح المدارس للأطفال أوسع مجال لعملهم، وتمركز نشاطهم حيث أسسوا إرسالياتهم في المراكز الثلاثة الآتية: القدس، الناصرة، ونابلس، وأبدوا نشاطاً في المراكز بالرغم من العراقيل من قبل الكنائس القديمة، ولعدم إخلاص العاملين مع هؤلاء المبشرين، ومن المظاهر نشاط هذه الجمعية بناء مدرستين في القدس وملجأ للأطفال خارج هذه المدينة.^(١)

٣- جمعية القدس الأدبية ١٨٤٩: Jerusalem Literary Society

منذ تسلم القنصل الانكليزي في القدس المستر جيمس فن مهام منصبه، أوضح ضرورة تشكيل جمعية أدبية مدفوعاً في ذلك بدافع ديني للاهتمام بالآثار التاريخية المقدسة في هذه المدينة وجمع كافة المقالات الأدبية والعلمية المتعلقة بهذه المدينة المقدسة وما حولها،^(٢) كما أنه رأى في وجود هذه الجمعية مشاركة فعالة في تفسير العديد من النظريات التي توصل إليها كثير من المختصين بالآثار بشأن تفسير طبوغرافية هذه البلاد، كما سعت هذه الجمعية لتكون خطوة تمهيدية لتأسيس مكتبة دائمة لخدمة الطلاب وتنظيم عملية الزيارة إلى القدس، وبالرغم من الصعوبات التي اعترضت تشكيل هذه الجمعية لعدم تقبل هذه الفكرة من قبل المسؤولين في انكلترا، إلا أن جيمس فن تمكن في عام ١٨٤٩ من تشكيل هذه الجمعية التي ضمت منذ بداية تأسيسها ٧ أشخاص كما تم وضع القوانين الأساسية التي تحكم هذه الجمعية كما بين الغرض الأساسي من تشكيلها وهو البحث والتنقيب عن كافة المواضيع الأدبية والعلمية المتعلقة بالأراضي المقدسة ضمن المنطقة المحددة بالفرات والنيل،^(٣) واقتصرت عضوية هذه الجمعية على المسيحيين البروتستانت المستوطنين في القدس، كما أن طابع البروتستانية يبدو واضحاً على هذه الجمعية من خلال المساعدات التي قدمها الملك البروسي للجمعية، حيث وضع المكتبة الملكية تحت تصرف أعضاء هذه الجمعية لتساعدهم في أعمالهم حين تأسيس مكتبة خاصة بجمعية القدس الأدبية.^(٤)

وقد زارت إحدى السيدات الانجليزيات القدس وشاهدت قلة المياه هناك فتبرعت بمبلغ من المال لأجل توفير المياه للأهالي، غير أن ذلك لا يمكن توفيره إلا بمسح جغرافي للمدينة وما حولها وتلت ذلك اجتماعات انتهت بضرورة تشكيل جمعية الإشراف على ذلك فتحوّلت جمعية القدس الأدبية في عام ١٨٦٥ إلى جمعية التنقيب الفلسطينية "Palestine Exploration Fond" وتمكنت هذه الجمعية باسمها الجديد من الحصول على فرمان في عام

(١) منصور، تاريخ الناصرة، ص ١٣٧.

(٢) Finn, Stirring peasantry, London, 1923, Vol I and Vol II, P 89.

(٣) مجلة المقتطف، العدد ٣٣، السنة ١٨٩٩، القاهرة، ص ٦٧٨، والعدد ٣١، ص ٦١٤.

(٤) مجلة المقتطف، العدد ٣٣، السنة ١٨٩٩، ص ٦٩٠.

١٨٦٥ لأجل التنقيب والبحث العلمي في كافة الأماكن المقدسة باستثناء منطقة الحرم الشريف وغيرها من أماكن العبادة بالنسبة للمسلمين أو غيرهم حيث يجب التفاهم في هذا الشأن.

وقد مارست هذه الجمعية عملاً ضمن المرحلة الأولى ١٨٢٥-١٨٧٠ تحت إشراف ورن Warrn في التنقيب والبحث عن الآثار القديمة، غير أن هذه الجمعية لم تراخ ما جاء في الفرمان الخاص بالتنقيب، والذي حدد أماكن خاصة بذلك، مما أثار نقمة كبيرة لدى الأهالي ولدى السلطات الحاكمة فرفعوا الأمر للسلطان فأمر بوقف الحفريات فوراً، غير أن هذه الحفريات استؤنفت في عام ١٨٧١ في جهات أخرى في المدينة، وبهذا بدأت المرحلة الثانية من مراحل نشاط هذه الجمعية، إلا أن صعوبات جديدة قد ظهرت قبل البدو والفلاحين في نابلس الذين أغاروا على أمتعة أعضاء هذه البعثة ومن الصعوبات أن الأهالي لم يتعاونوا معهم لأنهم شكوا في نوايا هؤلاء الأجانب.

ومهما يكن فإن هذه الجمعية أنجزت كثيراً من الخرائط^(١) لبعض الأماكن في فلسطين وشرق الأردن وكانت هذه الجمعية تعقد جلساتها في لندن لمناقشة الأمور الهامة الخاصة بالتنقيب وكشف النقاب عن آخر انجازات هذه الجمعية من فترة لأخرى.

٢- الوجود الروسي ١٨٣٣ :

مهدت روسيا لوجودها في لواء القدس بما كانت تأخذه من الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية سواء التجارية أو الدينية، وقد اتخذت الحروب أداة ضاغطة للحصول على أكبر قدر ممكن من هذه الامتيازات، لذا فإن دراسة هذه الامتيازات يرتبط بعرض سريع لهذه الحروب، ونتائج كل حرب على الدولة العثمانية، وعلى المكاسب الروسية، فقد دخلت روسيا بعض هذه الحروب منفردة ضد الدولة العثمانية مستعينة بأصحاب العصبية المحلية الثائرين على الدولة.^(٢) والبعض الآخر من هذه الحروب متحالفة مع دول أخرى.^(٣)

دخلت كاترينا الثانية الحرب ضد الدولة العثمانية في عام ١٧٦٨ - ١٧٧٤ انتهت بتوقيع معاهدة كوتشوك كينارجي التي وضعت الحجر الأساس لسياسة روسيا تجاه الشرق، فقد اعترفت الدولة العثمانية بموجبها لروسيا بحرية

(١) أعدت عدة خرائط لفلسطين خلال الحكم العثماني من قبل الرحالة والعلماء الأوروبيين الذين زاروا البلاد ويمكن تقسيم هذه الأعمال على فترتين: - الفترة الأولى: من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر، وضع خلال هذه الفترة عدة خرائط كما وضعت الأماكن الهامة بالنسبة لليهود والمسيحيين. - الفترة الثانية: منذ بداية القرن التاسع عشر حتى نهاية الحكم العثماني، زار فلسطين هذه الفترة عدد من العلماء ومن أشهر الخرائط الخريطة الطبوغرافية التي وضعتها جمعية التنقيب الفلسطينية عام ١٨٧٠.

انظر: Tibawi : British interests in Palestine PP 113 - 196 .

(٢) أحمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٧٠، ص ٨٠ - ٨٤.

(٣) إبراهيم حليم، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، ط١، القاهرة، ١٩٠٥، ص ٩.

الاتجار معها وأبدت استعداد لمنح تسهيلات كبيرة للحجاج الروس القادمين إلى القدس وكذلك حصلت روسيا على امتياز الاتصال المباشر مع السلطان بشأن الأمور التي تهم الارثوذكس.^(١)

أما معاهدة هونكار اسكله سي في عام ١٨٣٣ فقد فرضت روسيا بموجبها حمايتها على كافة المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية، كما حققت روسيا بموجب هذه المعاهدات تحالفاً دفاعياً تتعهد كل منها بمساندة الأخرى في حالة اعتداء على إحداها، وقد استغلت روسيا في ذلك ظروف الدولة العثمانية وموقف محمد علي منها.

أ- الإرساليات:

وجدت الطائفة الارثوذكسية نفسها أمام منافسة قوية من جانب الكاثوليك والبروتستانت، كما كان للثورة اليونانية عام ١٨٢١ أثر سلبي على سير البطريركية الارثوذكسية في القدس،^(٢) كما أن حالة الارثوذكسية قد زادت سوءاً بسبب المنافسة الشديدة بين اتباعها الوطنيين (العرب) واليونانيين.^(٣) كما أن العلاقات بين الدولة العثمانية وروسيا كان يشوبها العداء في أكثر الأحيان، مما أثر على وضع الطوائف الارثوذكسية في بلاد الدولة بعكس ما كانت عليه علاقات الدولة مع فرنسا وإنجلترا.

في هذه الظروف العصيبة بدأت روسيا تعمل في سبيل انعاش وجودها وقد اتخذت من المصاعب والمشاق التي كان الزوار الروس يتكبدونها في أسفارهم ذريعة لذلك، وعلى ما يبدو أن الزوار الروس كانوا يتعرضون للمشاق والمصاعب عند قدومهم إلى القدس، حيث كان بعضهم يحضر مشياً على الأقدام أو يبقى في السفن الشراعية لمدة شهر على الأقل.^(٤)

ومن هنا كانت تصدر بشأنهم تعليمات إلى متسلم القدس لأجل توفير الراحة لهم وللمستوطنين، كما نصت التعليمات على إعفائهم من الرسوم كافة عند قدومهم أو مغادرتهم. ونتيجة لهذه التعليمات القائمة على التسامح الديني بدأ الزوار الروس بالتوافد على الأراضي المقدسة، ويبدو هذا واضحاً من خلال مقارنة عدد الزوار القادمين إلى القدس، فقد كان عدد الزوار مع بداية القرن التاسع عشر لا يتعدى ٢٠٠ شخص، لكن هذا العدد قد وصل إلى ٢٠٠٠ شخص في السبعينات من هذا القرن.

اتخذت روسيا من هذه المخاطر وسيلة لإنعاش وجودها في القدس فأرسلت بعثة بقيادة أحد كبار رجال الدين في عام ١٨٤٣ زار المدن والقرى الفلسطينية كافة مثل الناصرة والخليل وقد أوضح رئيس البعثة في تقريره إثر عودته في

(١) مجلة المسرة، العدد ٣٦، السنة ١٩٥٠، ج١، ص ٧-١٦.

(٢) محمد جميل بيه، فلسفة التاريخ، الكتاب الثاني، ص ١٠٧-١١٠.

(٣) مجلة المسرة: العدد ٣٦، السنة ١٩٥٠، ج١، ص ٧-١٦.

(٤) Tibawi , American interestse to Syria , oxford 1960,PP 96 – 99

عام ١٨٤٦ حالة الكنائس الارثوذكسية في سورية، ومن ضمنها كنيسة القدس التي وصفها بأنها في حالة سيئة نتيجة التنافس بين أتباعها من العرب واليونان، كما اعتبر إقامة بطريرك هذه الكنيسة خارج القدس إجراء غير منطقياً ولا قانونياً، كما أشار إلى إفتقار القرى إلى المدارس، وقد تضمن تقريره أيضاً وصفاً للإرساليات الأجنبية الأخرى خاصة الفرنسية منها وخطورتها على الارثوذكسية كما أعطى صورة عن مستقبل النشاط الروسي، أمام هذه الأوضاع، وبناء على هذا التقرير أوفدت بعثة أخرى إلى القدس لحق بها الارثمنديريت برفيويوس في عام ١٨٤٨، غير أن المهام التي أوكلت لهذه البعثة لم تنفذ تماماً باستثناء إقامة بعض المدارس، وكانت حرب القرم حداً فاصلاً لنشاط هذه البعثة حيث غادرت القدس، ويرجع فشلها إلى العجز المادي، واختلاف المسؤولين في ذلك، كما أن استمرار الصراع بين العرب واليونان في القدس كان له تأثير على نشاط هذه الإرسالية،^(١) وكذلك الموقف العدائي لروسيا في حرب القرم ضد الدولة العثمانية، والتي انتهت بهزيمة روسيا، فعاد الروس يعملون على إحياء وجودهم في القدس،^(٢) ونجحت في ذلك بتأسيس جمعية في فلسطين لإنعاش الارثوذكسية، وبعد موافقة الدولة العثمانية على السماح للروس بإنشاء إرسالية ثانية سيم كيرلس ناخوموف رئيساً لهذه الإرسالية، وقد عللت وزارة الخارجية الروسية أسباب إيفاد الإرسالية الثانية بقولها علينا أن نقيم وجودنا في الشرق وجوداً سياسياً ولكن من خلال الكنيسة.

وفي حديثنا عن هذه الإرسالية تبرز مشاكل عدة كانت قد واجهتها ومن جملتها نظرة الروم (اليونانيين) تجاه هذه الإرسالية وتعود هذه النظرة إلى إدراك اليونانيين بأن هذه الإرسالية لم تتوفر لها الوسائل الكفيلة لانجاحها مثل توفر عدد من الموظفين الأكفاء في فلسطين، وكذلك مشكلة إصلاح قبة كنيسة القيامة، وما يرتبط بها من اصطدام متوقع مع الكاثوليك ومن خلفهم فرنسا.^(٣)

ومع أن هذه الإرسالية وعلى رأسها كيرلس قد نجحت في حل مشكلة الخلاف حول قبة كنيسة القيامة إلا أن اشتداد الخلاف بين القنصل الروسي وبين كيرلس بالإضافة إلى نمو معارضة الروم (اليونانيين) تجاه هذه الإرسالية، هذه الأسباب حالت دون بقاء كيرلس على رأس هذه الإرسالية، فعاد إلى بطريركية أنطاكية في عام ١٨٦٣.^(٤) وتم تعيين "ليونيد" رئيساً للإرسالية بناء على اقتراح القنصل الروسي في القدس، وبناء على شروط وضعها الجمع المقدس في روسيا، ومع هذا فإن هذا الرئيس الجديد لم يستمر في منصبه هذا سوى سنتين وأقيل بعدها نظراً

(١) مجلة المسرة: العدد ٣٦، السنة ١٩٥٠، ج ١، ص ٧-١٦.

(٢) مجلة المسرة: العدد ٣٦، السنة ١٩٥٠، ج ١، ص ٢٥.

(٣) العارف، المسيحية في القدس، ص ٢٠٤.

(٤) العارف، المسيحية في القدس، ص ٢٠٩.

لخلافاته مع القنصل الروسي في القدس، ويبدو أن ليونيد قد سار على نهج الرئيس السابق لهذه الإرسالية مما وضعه في موقف الصدام مع القنصل الروسي حيث اتهمه هذا القنصل بالميل تجاه العرب وضد الروم (اليونانيين) واختار الجمع المقدس رئيساً جديداً لهذه الإرسالية في عام ١٨٦٥ هو الارثمنديريت أنطونين كابوسين، وقد أبدى هذا الارثمنديريت نشاطاً واسعاً في مجال المشاريع العمرانية، وافتتاح المدارس خاصة بعد صدور قانون التملك ١٨٦٧ الذي سمح للأجانب في الدولة العثمانية تملك العقارات، فقد أقام على قطعة الأرض التي اشتراها قرب الخليل فندقاً للحجاج الروس وأسس في نفس العام مدرسة لبنات العرب الارثوذكس في بيت جالا، كانت أول مدرسة روسية في بلاد الشام،^(١) كما تم شراء عدد من الأراضي في يافا وحيفا والقدس نفسها.

ويبدو أن روسيا اتخذت من عملية شراء الأراضي وإقامة المباني عليها وسيلة لتدعيم مركزها في القدس، وهذا ليس بجديد حيث كانت قد تمت عمليات شراء في عام ١٨٥٨ لبعض المنازل المتهمدة في القدس وأقاموا عليها مساكن لإقامة الحجاج.^(٢)

وفي حديثنا عن الإرساليات لا بد من إيضاح الدور الذي لعبته الجمعية الفلسطينية في التعاون معها:

- الجمعية الفلسطينية ١٨٥٨:

أسست هذه الجمعية بموجب قرار قيصري صدر في عام ١٨٥٨ لأجل أن تكون هذه الجمعية مورداً مالياً للإشراف على تمويل المشاريع العمرانية كافة في القدس عن طريق تأسيس عدد من الكنائس والعمل على تأسيس قنصلية روسية في القدس ولأجل إيفاد عدد من الأطباء للعمل هناك، وكذلك لأجل زيادة عدد العاملين في الإرسالية لتوسيع دائرة نشاطها، وقد نجحت هذه الجمعية في جمع مبلغ من المال لتمويل مشاريعها، وذلك بفضل مساندة القيصر المعنوية والمادية لها بالإضافة إلى مساندة الشعب الروسي مادياً لهذه الجمعية حيث بلغت ميزانيتها في عام ١٨٦٤ حوالي مليون روبل بفضل هذا المورد المالي تمكنت الجمعية من بناء دار للإرسالية الروسية ومستشفى وفنادق لإقامة الحجاج خارج أسوار مدينة القدس.^(٣)

على أن أكثر المجالات التي توضح نشاط هذه الجمعية هو مجال التعليم حيث افتتحت عدد من المدارس في لواء القدس ويرجع هذا النشاط لمقدرة ونفوذ الجمعية في مساندة القيصر نفسه، كما أن في مجانية التعليم تفسيراً لهذا النشاط بالإضافة إلى أسلوب التعليم الذي اتبعته الجمعية في المدارس التي افتتحتها، ووجود مورد بشري يمد مدارس الجمعية بالطلاب نظراً لكبر طائفة الروم الأرثوذكس في بلاد الشام بصفة عامة.

(١) مجلة المقتطف، العدد ٢٦، السنة ١٩٠١، ص ٩٠١.

(٢) مجلة المقتطف، العدد ٢٦، السنة ١٩٠١، ص ٩٠٨.

(٣) مجلة المقتطف، العدد ٢٦، السنة ١٩٠١، ص ٩٠١.

ومن أجل الاطمئنان على مركز روسيا في القدس قام ولي عهد روسيا بزيارة لهذه المدينة في عام ١٨٦٩، كما تم من قبل في عام ١٨٥٨ زيارة غير رسمية قام بها الكسندر شقيق قيصر روسيا.^(١)

ب- تأسيس القنصلية الروسية ١٨٥٨ :

تم افتتاح القنصلية الروسية في يافا عام ١٨١٢ لمساعدة الحجاج الارثوذكس القادمين من روسيا لزيارة الأراضي المقدسة وعملت روسيا في سبيل ذلك للحصول على المزيد من الفرمانات السلطانية لتسهيل ورعاية هؤلاء الزوار،^(٢) وكان يمثل هذه القنصلية في القدس نائب يهودي لرعاية ٤١ عائلة يهودية روسية في القدس.

ومع مرور الوقت زاد النفوذ الروسي في بلاد الشام لذا عيّنت روسيا في عام ١٨٣٩ قنصلاً لها ليمثلها في بلاد الشام ومنها فلسطين، اتخذ من بيروت مقراً لأعماله، وفي سبيل تدعيم النفوذ الروسي في القدس حتى يقف أمام نشاط الدول الأوروبية الأخرى مثل انكلترا وفرنسا- ثم تأسيس قنصلية روسية في القدس عام ١٨٥٨،^(٣) حيث تولى أمور هذه القنصلية القنصل فارحوف، ومن بعده القنصل فاتريكوف، وقد أوكلت لهما مهمة النظر في مصالح الرعايا الروسية من تجار وزوار وغيرهم، كما بذلت جهداً طويلاً بشأن توفير الحماية الروسية لليهود، وقد تنافست مع انكلترا في سبيل ذلك، ويبدو أن اليهود تحت الحماية الروسية لم يعاملوا معاملة حسنة- لذا كانوا يفضلون الدخول تحت الحماية الانكليزية، وكانت انكلترا بالإضافة إلى حسن معاملتها لا تأخذ رسوماً على شهادة الحماية في حين أن روسيا كانت تأخذ رسوماً على ذلك.^(٤)

وقد حرص القناصل الروس على إظهار أنفسهم بأجمل صورة أمام قناصل الدول الأوروبية الأخرى ويبدو هذا واضحاً عند اشتراكهم في الاحتفالات الدينية حيث أحاطوا أنفسهم بحاشيات كانت تلازمهم أثناء إجراء هذه الاحتفالات.

٣- الوجود الفرنسي ١٥٣٥ :

تدهور الوجود الفرنسي في القدس بسبب الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام في أواخر القرن الثامن عشر، عادت على أثرها العلاقات مع الدولة العثمانية إلى مستوى أقل مما كانت عليه سابقاً، ودخلت في فترة جزر أخرى بعد أن أيدت فرنسا الثورة اليونانية وساندت محمد علي في حروبه ضد الدولة العثمانية في بلاد الشام.

(١) العارف، المسيحية في القدس، ص ٢٠٤.

(٢) مجلة المسرة، العدد ٣٦، السنة ١٩٥٠، ج ١، ص ٧-١٦.

(٣) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٤٨، ص ٥٧.

(٤) محكمة القدس الشرعية، السجل رقم ٣٤٨، ص ٥٩.

وانتهت فترة الجزر هذه بتوقيع معاهدة تجارية بين الدولتين في عام ١٨٣٨ جددت بموجبها الامتيازات التجارية السابقة^(١) ودخلت العلاقات الفرنسية العثمانية في مرحلة الود عند نشوب حرب القرم ووقوف فرنسا إلى جانب الدولة العثمانية،^(٢) إن تصدي فرنسا لحماية مصالح المذاهب الدينية في الأراضي المقدسة وتضارب المصالح الدولية أدى إلى اندلاع حرب القرم عام ١٨٥٤.

أ- حرب القرم: أسبابها- نتائجها ١٨٥٤:

إن السبب الذي خلقتة روسيا لحرب القرم كان في الظاهر، حماية الأرثوذكس من المسيحيين، لا في البلاد المقدسة فحسب بل في جميع أنحاء الدولة العثمانية. أما السبب الحقيقي فهو ضعف هذه الدولة وطمع روسيا في الاستيلاء عليها. وقد وجدت هذه الفرصة سانحة في القدس إذ كان السلطان سليمان ١٥٣٥ والسلطين الذين أتوا من بعده قد أقرروا المبدأ القائل "إن الرهبان الفرنسيين لا يتعرض لهم أحد في إقامة شعائرهم الدينية في كنيسة القبر المقدس. وإذا احتاج ذلك المكان إلى ترميم، فعلى الحكومة العثمانية أن تأذن بذلك بناء على طلب سفير فرنسا". وقد نال الروم الأرثوذكس مثل هذا الحق على عهد صلاح الدين والمماليك وفي فترات مختلفة من التاريخ.^(٣) فراحت روسيا تدعي أنها حامية الأرثوذكس في الشرق. وراحت فرنسا تدعي أنها حامية اللاتين. وفي سنة ١٨٥٢ صدر الإذن لللاتين أن يتسلموا مفاتيح البابين الشمالي والجنوبي لكنيسة مغارة بيت لحم. وأن يضيفوا نجمة من الفضة عليها لشعار فرنسا يضعونها في مزار تلك المغارة. فعدت روسيا ذلك خرقاً لحرمتها، فطلبت تعويضاً، وأمرت جندها بالزحف صوب الحدود، وبعثت سفيرها (منتشيكوف) إلى الآستانة طالبةً تأييد الحماية الروسية لأرثوذكس الشرق، ولما رفض الباب العالي هذا الطلب، أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية ١٨٥٣. قائلةً: إنها اضطرت إلى ذلك بقصد الاحتفاظ بحقوقها في حماية المسيحيين.^(٤)

ساندت فرنسا وانكلترا الدولة العثمانية، فأعلنتا الحرب (٢٧ آذار ١٨٥٤) وأمر نابليون الثالث أسطوله أن يرسو في سلاميس. ووعدت انكلترا بتقديم أسطولها في البحر المتوسط لنصرة العثمانيين. وقفت بروسيا والنمسا على الحياد ولم تنته الحرب إلا عند أسوار "سواستوبول".^(٥)

نتائج حرب القرم وتداعياتها:

انتصرت الدولة العثمانية وعقدت على إثر ذلك معاهدة باريس في ٣٠ آذار ١٨٥٦ والتي نصت على:

(١) يوسف آصاف، المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العثمانية ومصر مع أوروبا، القاهرة، ١٨٩١، ص ٤٢ - ٤٥.

(٢) آصاف، المعاهدات...، ص ٤٧.

(٣) العارف، المفصل...، ص ٤٤٨.

(٤) العارف، المفصل...، ص ٤٤٩.

(٥) مدينة في شبه جزيرة القرم على البحر الأسود. انظر العارف، المفصل...، ص ٤١٦.

- ١- حياد البحر الأسود.
- ٢- إغلاق الدردنيل في وجه السفن الحربية.
- ٣- احترام أملاك الدولة العثمانية (باستثناء الأفلاق والبغدان اللذان سلخا عن تركيا ومنحا استقلالاً داخلياً تحت سيادة السلطان).

وعندما وصلت إلى القدس أنباء انتصار العثمانيين على الروس في سواستوبول ١٨٥٦ ساد الفرح جميع أنحاء القدس وأقيمت المهرجانات والزينات فأضيئت جميع المنازل ودور القنصليات، كما أضيئت جميع المساجد والمآذن وأطلقت مدافع القلعة واحداً وعشرين طلقة علامة الفرح، وأصدر السلطان عبد المجيد خطاً هاميونياً يقضي بالمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين في الحقوق والواجبات، من غير تفريق بين العناصر والمذاهب وانتظم المسيحيون على أثر ذلك في الجندية (مثلهم كمثّل المسلمين).^(١)

راح قناصل الدول في القدس خلال حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) يتنافسون فكانت كل من انكلترا وفرنسا والنمسا واسبانيا وبروسيا تسعى لأن تسبق الأخرى في إظهار نفوذها في الشرق، ولا سيما في القدس عرق الشرق النابض في ذلك الحين. إذ كانوا يشبهون تركيا بالرجل المريض فمن الذي يسبق الآخر لاقتسام تركة هذا المريض عندما يلقي حتفه الأخير؟

ثم نزلت أمريكا إلى الميدان (١٨٥٧). ثم تبعها روسيا واليونان ١٨٦٢ فأصبح ممثلوا الدول الأجنبية بالقدس ثمانية. ولما خرجت تركيا من حرب القرم ظافرة، ازداد قنصلا انكلترا وفرنسا نفوذاً في القدس. إذ إن دولتيهما وقفتا بجانب تركيا في حربها ضد الروس. وإليهما يرجع الفضل الأكبر في النتيجة التي وصلت إليها تلك الحرب. فرفع العلم الانكليزي على دار القنصلية للمرة الثانية ١٨٥٦، وطلب القنصل الانكليزي من متصرف القدس كامل باشا أن يحتفي بتتويج الملكة فيكتوريا، فأجابه لطلبه، وأمر بإطلاق واحد وعشرين طلقة من مدافع القلعة. إن هذا العمل دفع بالقنصل الفرنسي للمطالبة بنفس الحق وفعلاً تم رفع العلم الفرنسي على دار القنصلية الفرنسية.^(٢)

واشترك الفرنسيون في إبداء الفرح والسرور بهذه المناسبة وأقاموا حفلة دعوا إليها جميع الموظفين الرسميين. فجاء هؤلاء ببدايتهم الرسمية وحيّوا العلم الفرنسي في القدس.

اتبعت فرنسا سياسة راسخة خلال القرن التاسع عشر تمثلت باستغلال اليهود كأداة للتوسع الاستعماري في البلاد العربية، وقد ظهرت في باريس دعوات لتوطين اليهود في فلسطين تحت ذريعة الأسباب الاقتصادية والسياسية والاستعمارية وكان هدف فرنسا المباشر في هذا التوجه استقطاب الجاليات اليهودية في الشرق لتكون عوناً لها في دعم نفوذها وسيطرتها، بالإضافة إلى رغبة فرنسا في الاستفادة من القوة المالية التي كانت تميز الجالية اليهودية في

(١) العارف، المفضل...، ص ٤٥٠.

(٢) العارف، المفضل...، ص ٤٥٠.

فرنسا،^(١) وبخاصة لدعم الخزينة الفرنسية، وفي مقابل ذلك تشجيع اليهود على الاستيطان في فلسطين في مواجهة النفوذ والمصالح الانكليزية المنافسة لكن فرنسا بعد فشلها العسكري في حملتها بقيادة نابليون انشغلت في حروبها ومشاكلها ليكون الباب أمام انكلترا وروسيا وألمانيا والنمسا مفتوحاً لزيادة نفوذها.

وإزاء هذا التراجع في الموقف الفرنسي نشطت البعثات التبشيرية والقنصلية للدول الأوروبية في القدس،^(٢) بينما تراجع النشاط الفرنسي في هذا المجال نسبياً بتأثير أوضاع فرنسا الداخلية لكنها في المقابل رفعت من وتيرة تدخلها في أواخر القرن التاسع عشر حيث تمكنت الإرساليات الفرنسية من إقامة عدد من المؤسسات في القدس عام ١٨٧٩ وازداد النشاط القنصلي في فلسطين حيث بدأ القناصل برفع مستوى اتصالاتهم بالزعماء المحليين، وتحافت القنصل الفرنسي على بناء شبكة من العلاقات الاجتماعية مع العديد من الزعماء في القدس^(٣) بهدف ترسيخ النفوذ الفرنسي هناك وبخاصة متصرف القدس رؤوف باشا وخلال فترة ما بين ١٨٧٧-١٨٨٩ نجحت فرنسا من خلال مدارسها وإرسالياتها في نشر اللغة الفرنسية في أوساط الفلسطينيين المتعلمين^(٤) إضافة لتبادل عدد من الوثائق بين باريس والقدس التي أكدت على مدى حرص فرنسا على حماية مصالحها الحيوية ونفوذها الديني والثقافي والسياسي في فلسطين عامة وفي القدس على وجه الخصوص إن قمة الطموح الفرنسي في فلسطين عامة تجلّى على غير العادة في ابداء الاهتمام القوي بالحياة الاقتصادية، على عكس الوضع في سوريا ولبنان حين كانت اهتمامات فرنسا منصبّة مباشرة على حماية الموارد بوجه خاص والمسيحيين بوجه عام، وبعد أن أدركت فرنسا أن انكلترا وألمانيا كانتا أكثر نشاطاً منها في مجال شق الطرق ومدّ خطوط سكة حديد وإقامة مشاريع حيوية، نشطت الحكومة الفرنسية خلال العقد الثامن من القرن التاسع عشر في تشغيل رأس المال الفرنسي في المدن الفلسطينية واعتبروا ذلك مدعاة للفخر والاعتزاز وبخاصة أنهم حصلوا على امتياز بناء ميناء يافا، كما نشطت الحكومة الفرنسية في إرسال بعثات إلى القدس لدراسة الأوضاع الاقتصادية على أرض الواقع والبحث في الحاجات الضرورية بتفعيل رأس المال الفرنسي ومجالات الاستثمار.

ب- تأسيس القنصلية الفرنسية ١٨٤٣:

أعادت فرنسا فتح قنصليتها في القدس في عام ١٨٤٣ بعد فترة تعطل دامت ١٣٠ عاماً ولم ينل هذا العمل من قبل فرنسا إعجاب الفرنسيين، وقد كانوا منزعين من كون البابا بيوس التاسع قد أسس بطريركية لاتينية في

(١) فايز صالح أبو جابر، التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة، عمان، ١٩٨٩، ص ١٣٣.

(٢) عازوري، يقظة الأمة...، ص ١١٥.

(٣) وجيه كوثراي، فرنسا وفلسطين والصهيونية في مطلع القرن العشرين، قراءة في وثائق الخارجية الفرنسية في المؤتمر الدولي الثالث،

تاريخ بلاد الشام، فلسطين، عمان، مج ٣، ١٩٨٣، ص ٥٣٩-٥٧٧.

(٤) جريدة فلسطين، عدد ١٥٧، تموز ١٩١٢، يافا، ص ٥٦.

عام ١٨٤٧ في القدس كعمل يكبح به جماح نفوذ الارثوذكس والبروتستانت المتزايد.^(١) وبهذا أصبح القنصل الفرنسي ممثلاً ومجسداً للحماية الفرنسية للمسيحيين- لذا حاول بسط حمايته على اللاتين والكاثوليك في المنطقة، وكان تصرف القنصل تجاه الأهالي يحدد بقاءه أو عزله فعندما حاول القنصل الفرنسي رفع العلم فوق القنصلية في عام ١٨٤٣ أثار عمله هذا حفيظة المسلمين فعزل على أثرها من منصبه وعين آخر بدلاً منه، غير أن الخلافات لم تكن فقط مع الأهالي بل انسحبت على الحكام في القدس، فقد حدث خلاف بين متصرف القدس ونائب القنصل حول إجراء بعض الحفريات الضرورية لمجاري المياه، إلا أن هذه الحفريات كانت تتعارض مع وجود ديرين في منطقة الحفر.^(٢)

وقد رفعت القنصلية الفرنسية في القدس إلى قنصلية عامة في عام ١٨٦١ ولم يكن ذلك الإجراء تكريماً للقنصل بقدر ما يعود لأهمية القدس نفسها، هذا وقد وجد في يافا قنصلية فرنسية وأخرى في الرملة.

٤- الوجود الألماني ١٨٤٠:

بدأت وفود الحجاج والزوار الألمان الهيكلين^(٣) منهم والانجيليين^(٤) تصل إلى القدس منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن السادس عشر تمكنت بعدها ألمانيا في عام ١٧٧١ من توقيع معاهدة للصدقة مع تركيا، إلا أن هذه المعاهدة لم يكن لها فعالية لأنها لم تتعد توثيق الصداقة، وبعد انتهاء الحكم المصري لبلاد الشام بدأت المعالم الرئيسية للوجود الألماني في القدس تتضح أكثر فأكثر، وقد تمثل هذا الوجود في البداية بتأسيس الأسقفية الانجليكانية^(٥) بالاشتراك مع إنجلترا، غير أن نفوذ انكلترا على هذه الأسقفية لم يسمح لألمانيا بالاستمرار في تلك الشراكة، وأخذت في إيفاد الإرساليات خاصة بعد تأسيس جمعية بيت المقدس في عام ١٨٥٣، التي تمكنت بفضل المساعدة المادية من قبل الكنيسة الألمانية من افتتاح مراكز لها في فلسطين أهمها ما كان في القدس. ومع هذا اتخذت ألمانيا أساليب لتدعيم وجودها في القدس فعملت على تأسيس قنصلية لها هناك، ثم تلى ذلك عملية توطین وإقامة مستوطنات ألمانية لتصل بهذا إلى أقصى مرحلة من العمل في سبيل تدعيم وجودها وستدور دراستنا حول هذه الأساليب.

(١) محمد مصطفى صفوت، المسألة الشرقية ومؤتمر باريس، جامعة الدول العربية، ١٩٥٨، ص ١٧.

(٢) صفوت، المسألة...، ص ٢٦ - ٢٩.

(٣) الهيكلين، جمعية عسكرية رهبانية تألفت من ٩ فرسان في عام ١١١٨ لحماية الحجاج إلى الأماكن المقدسة وقد زاد عدد أعضاء هذه الجمعية تدريجياً واتخذوا لهم مقرأ في القدس، انظر الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٢٨٩.

(٤) الانجيليون: يشترك الانجيليون مع الكنيسة الانجليكانية في العقيدة وهذه الكنيسة تهتم بالتوفيق بين أشكال المسيحية المتنوعة وتهتم بدراسة اللاهوت، انظر العارف، المسيحية في القدس، ص ١٥٣ - ١٧٠.

(٥) انظر الوجود الانكليزي.

أ- تأسيس القنصلية الألمانية ١٨٤٢:

بعد انسحاب ألمانيا من الأسقفية الانجليكانية عملت على تدعيم نفوذها في القدس بأسلوب آخر فعملت على تأسيس قنصلية لها في القدس، ففي البداية عينت وكيل قنصل في ٢٠ أيار ١٨٤٢ وخلال فترة محدودة زاد نفوذ القنصلية الألمانية فرفع هذا الوكيل إلى مرتبة القنصل، وعمل منذ البداية على مساعدة اليهود مساعدة كبيرة،^(١) أما القنصل الثاني فتولى أمور القنصلية منذ عام ١٨٥١ - ١٨٦٧ وقد أبدى نشاطاً أكثر من سلفه لمساعدة اليهود وعمل على تأسيس مأوى للحجاج، وأنشأ مؤسسات صحية عدة ومدرسة للبنات اليتيمات وأخرى للأولاد ومنزلاً للعائلات المحتاجة في القدس، كما قدم مساعدات مادية لإتمام أحد المعابد اليهودية، وعمل على تخفيف الأزمة بين اليهود التي حلت بهم نتيجة القحط والجذب في القدس في عام ١٨٦٦، وعمل القنصل الرابع على تحسين الأوضاع الاقتصادية والثقافية بين اليهود وساعد على إقامة دار للأيتام اليهود.

ومن هنا يبدو أن القناصل الألمان لم يتقيدوا بالمهمات الرسمية التي أوكلت لهم وهي المحافظة على مصالح رعايا دولهم سواء الزوار أو التجار والفصل في الخصومات فيما بينهم، بل تعدوا ذلك كله فانحاز هؤلاء القناصل تجاه اليهود وقدموا لهم خدمات جمّة.

وبالمقارنة بين القنصلية الألمانية مع غيرها من القنصليات الأجنبية نجد أن القنصلية الألمانية قد شملت بحمايتها عدداً أكبر مما كان تحت حماية قنصليات الدول الأخرى، ففي عام ١٨٧٢ كانت تحت الحماية الألمانية ٩٨٧ شخصاً، أما القنصلية النمساوية فشملت بحمايتها ٩٥٠ شخصاً والقنصلية الانكليزية ٧٢٠ شخصاً.^(٢)

ب- إقامة المستوطنات ١٨٥٨:

كانت الدوافع وراء فكرة تأسيس المستوطنات الألمانية صهيونية واقتصادية، فقد تمكن الدكتور "هوفمان" من شراء قطعة أرض في كورنثال في ألمانيا حيث أقام هناك مستوطنة استعداداً لتحرك أفراد هذه المستوطنة للأراضي المقدسة، وفعلاً تحركت هذه الجالية إلى فلسطين في عام ١٨٦٧ بعد أن مهد لذلك زعيمها "كريستوفر" زيارة لفلسطين في عام ١٨٥٨ وقد أقام أفراد هذه الجالية البالغ عددهم ١٢ شخصاً^(٣) في أكواخ قرب الناصرة، غير أن الظروف المناخية لم تساعد على البقاء، كما أن الملاريا قضت على نفر منهم وجاءت جماعة أخرى إلى

(١) العارف، المسيحية...، ص ١٧٢.

(٢) العارف، المسيحية في القدس، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٣) طوطح، وشهادة، تاريخ القدس...، ص ٩٢.

فلسطين من مكان آخر أكثر ملائمة، ووصلوا إلى فلسطين في تشرين الأول من عام ١٨٦٨، فوقع اختيارهم على أماكن بالقرب من حيفا ويافا، حيث تمكنوا من شراء بعض الأراضي بموجب قانون تملك الأجانب.^(١) وبموجب ذلك عمل كريستوفر على إقامة الجالية الأولى في يافا تحت زعامته، وكان لهذه الجالية مستوطنتان واحدة في سارونا وكانت تضم في عام ١٨٧٢، ١٠ بيوت، والمستوطنة الثانية قرب أسوار يافا وكانت هذه المستوطنة تضم ١٣ بيتاً ومدرسة وفندقاً، وبلغ أفرادها في عام ١٨٧٢، ١٠٠ رجل (فهم طبيبان، ٢٠ مهنين، ٧٨ مزارعين) و ٣٥ طفلاً،^(٢) وكانت أوضاعهم في البداية في غاية الفقر والشقاء، لكنهم بعد أن مارسوا الزراعة بدأت عندئذ أوضاعهم بالتحسن.

أما الجالية الثانية التي استقرت في حيفا فكان عدد أفرادها المستوطنين ٢٥٤ فرداً يقيمون في ٣١ بيتاً على مساحة من الأرض تبلغ ٤٥٠ ايكر^(٣) صالحة للزراعة بالإضافة إلى مساحات أخرى من الأراضي مزروعة زيتوناً وعنباً بالإضافة إلى ممارستهم التجارة.^(٤) أما أطفالهم فقد ضمتهم عدة مدارس منها المدارس العليا، وكانت تدرس لغات عدة العربية والألمانية والفرنسية والإنجليزية، وكذلك الحساب والرسم والجغرافيا والتاريخ والرياضيات والموسيقى، أما المدارس الدنيا فكانت تدرس العربية والألمانية والحساب والخط بالإضافة إلى مراكز مهنية للنبات لأشغال التطريز والخياطة، غير أن عدة عوامل جديدة بدأت تهدد وجودهم منها:

١. عدم توفر رجال أكفاء للإشراف على إدارة هذه المستوطنات.
٢. انقسام المستوطنين على أنفسهم.
٣. عدم تمكنهم من جذب محبة الآخرين لهم سواء المسلمين أو اليهود أو المسيحيين.
٤. سوء الظروف المناخية.
٥. انقطاع الموارد المالية.^(٥)

ت- المدارس:

هذا بالإضافة إلى المدارس الألمانية الأخرى التي كانت تشكل طرفاً آخر في تدعيم الوجود الألماني وقد انشئت هذه المدارس لتعليم المواطنين وهي:

-
- (١) طوطح، تاريخ...، ص ٩٧ - ٩٨.
 - (٢) محمد بمجت، ورفيق التميمي، ولاية بيروت، ١٣٣٥ هـ، ص ٢٥٥ - ٢٥٧.
 - (٣) الايكر: وحدة قياس إنكليزية للمساحة وتساوي ٤٠٥٠ م^٢ (فدان واحد)، انظر: طوطح، تاريخ القدس...، ص ١٠٥.
 - (٤) بمجت، ولاية بيروت، ص ٢٦٠.
 - (٥) بمجت، ولاية بيروت، ص ٢٦٢.

١- مدرسة طاليثا قومي ١٨٥١:

تأسست في القدس عام ١٨٥١ على يد تيودور فيلدز للعناية بالبنات اليتيمات وتعليمهن مجاناً، وكان عددهن في البداية ٣ بنات لكن بفضل المساعدات المالية من الملكة فيكتوريا تم شراء قطعة أرض في عام ١٨٦٨ بنى عليها عدة مباني حديثة لهذه المدرسة زاد على إثرها عدد الطالبات فأصبح فيما بعد ١١٠ طالبة وكانت الطالبات في هذه المدرسة يتعلمن بالإضافة إلى التعليم الابتدائي أمور التدبير المنزلي وأشغال الإبرة.

٢- مدرسة دار الأيتام السورية ١٨٥٦:

أسسها القس الألماني شنلر في عام ١٨٥٦ للعناية بالأطفال السوريين الذكور، ولهذا عرفت بهذا الاسم وقدمت هذه المدرسة خدمات في المجال الصناعي في وقت كان فيه مجال التعليم الصناعي معدوماً في القدس.

٥- الوجود الأمريكي ١٨١٩:

اتخذت الحكومة الأمريكية من الإرساليات الدينية والسياسية الممثلة في تأسيس القنصلية دعائماً لتثبيت وجودها في القدس، وفيما يلي لمحة عن كل أسلوب:

أ- الإرساليات الدينية:

بدأ المبشرون يستعدون للقيام بمهمتهم عن طريق دراسة عدد من اللغات، ووضع خطط للعمل موضحة العراقيل المتوقعة وطرق معالجتها وإرشادات خاصة بالعمل نفسه من حيث التزامهم بالقانون والعادات والشعائر وبناء على ذلك أبحر مبشران من ميناء بوسطن إلى القدس في ٣ تشرين الثاني ١٨١٩ وكانت أهم المشاكل التي واجهتهم كون مدينة القدس مازالت مدينة مغلقة- بصفة عامة- أمام الأجانب باستثناء الرهبان وحراس الأماكن المقدسة والحجاج والزوار لفترات بسيطة،^(١) ومع هذا لم يتطرق اليأس إلى قلوب هؤلاء المبشرين حيث دخلوا المدينة بصفة حجاج في ١٧ شباط ١٨٢١ وبدؤوا بتوزيع كتب التوراة وكراسات دينية بهدف التبشير باعتبارهم على رأس أول إرسالية بروتستانتية إلا أن عملهم هذا لم يكن مقبولاً من قبل اليهود والمسيحيين، ومن هنا لم يكن من الممكن العمل بين اليهود في القدس، بالإضافة إلى الظروف الدولية التي أحاطت بالدولة العثمانية بعد هزيمتها في معركة نافارين ١٨٢٧ فتحوّلت الإرسالية لتتخذ من هناك مركزاً للعمل استعداداً للوصول إلى القدس. وبعودة السلام والهدوء فيما بعد، وبعد توقيع المعاهدة التجارية بين أمريكا والدولة العثمانية في عام ١٨٣٠ تهيأ الجو لنشاط الإرساليات مرة ثانية فقد وصل إلى بيروت مبشران آخران في عام ١٨٣٠ لكنهما عجزا عن العمل فوقع الاختيار

(١) مجلة المقتطف، المجلد السابع، السنة ١٨٨٢-١٨٨٣، ص ٣٨٥-٣٩٢.

على آخرين وصلوا إلى بيروت في عام ١٨٣٣ واتبعوا في عملهم ثلاثة أساليب هي الوعظ والمدارس والمطابع،^(١) وبالنسبة للأسلوب الأول وهو الوعظ والإرشاد كان هنا مازال صعباً بسبب صعوبة اللغة وحذر رجال الدين في ذلك، وكذلك بالنسبة للأسلوب الثاني وهو المدارس فكان افتتاح المدارس مازال صعباً بسبب عدم وجود نظام للتعليم، كما أن معظم المدارس التي افتتحها محمد علي في بلاد الشام كانت عسكرية من الدرجة الأولى، أما الأسلوب الثالث فقد أبدوا فيه نشاطاً حيث تمكنوا من الحصول على عدة مطابع لطباعة ونشر الكتب الدينية بلغات متعددة، وبفضل مساعدة أحد أعضاء جمعية يهود لندن الموجودين في القدس وهو "جون نيقولايسون" قدم مبشران أمريكيان آخران تمكنوا من فتح مدارس للبنات في عام ١٨٣٦ في بيت زوجة أحد هؤلاء المبشرين وبالرغم من المعارضة فقد استقر هذان المبشران في القدس وعملاً على تأسيس مدارس في بيت لحم والرملة والناصرة.

هذه هي المحاولات الأولى التي قام بها المبشرون الأمريكيون لخلق وجود لهم في القدس، ويلاحظ عليها أنها قد تمت قبل تأسيس القنصلية الأمريكية في القدس عام ١٨٥٧، وقد جدد الأمريكيون نشاطهم في عهد القنصل الأمريكي في القدس المستر بوبوشر فقد بدأت بوصول قافلة أمريكية في عام ١٨٦٦ تضم ٥٦ شخصاً من الرجال والنساء والأطفال تحت قيادة آدمز، وقد استقر أفراد هذه العائلة في يافا غير أنهم لم يستمروا طويلاً في هذه الإقامة، بسبب تخلي آدمز عنهم وبسبب معارضة المسلمين لهم، وانتشار الملاريا بينهم. ووجه آخر للنشاط الأمريكي - بالرغم من أنه ليس من اختصاص الإرساليات الدينية - هو مجال البعثات العلمية للكشف والتنقيب في الأراضي المقدسة حيث أوفدت في عام ١٨٤٨ بعثة لهذا الغرض أبدت نشاطاً في فلسطين وشرق الأردن.^(٢)

ب- تأسيس القنصلية الأمريكية ١٨٥٧:

قبل تأسيس القنصلية الأمريكية في القدس عام ١٨٥٧ كانت المصالح الأمريكية في بلاد الشام وضمنها لواء القدس تحت رعاية القنصل الانكليزي في بيروت^(٣) إلى أن تمكنت أمريكا من تعيين وكيل قنصل لها في بيروت قبل عام ١٨٣٤، ومع نهاية عام ١٨٤٩ كان القنصل الأمريكي في بيروت هو جاك شاسود الذي عين وكلاء قناصل له في عدد من الأقسام الإدارية في بلاد الشام ومنها يافا مع القدس حيث عين عليهما وكيلاً واحداً وبقي الأمر كذلك إلى أن تم تأسيس القنصلية الأمريكية في القدس عام ١٨٥٧ وتولى وليم غورهام أول قنصل لأمريكا في القدس.^(٤)

(١) Tibawi : American Interests in Syria , PP , 3 – 58 .

(٢) مصطفى الخالدي، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت، دون تاريخ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٣) Tibawi : American Interests in Syria , PP , 188 .

(٤) الخالدي، التبشير و...، ص ٦٢ .

٦ - القنصليات الأخرى:

وجد في القدس بالإضافة إلى القنصليات الأجنبية السابقة عدد آخر من القنصليات وهي:

أ- **القنصلية الإيطالية ١٨٧٢:** تأخرت إيطاليا في تأسيس قنصليتها في القدس حتى عام ١٨٧٢ بسبب معارضة فرنسا في ذلك حتى تحتكر فرنسا حماية اللاتين في الأراضي المقدسة.

ب- **القنصلية النمساوية المجرية ١٨٥٤:** تأسست في القدس عام ١٨٥٤ وقبل ذلك كان الرهبان الإسبان تحت الحماية الفرنسية، وقد حاول القنصل الإسباني كسب اليهود إلى جانبه لكنه فشل كون اليهود من رعايا الدولة العثمانية.

ت- **القنصلية اليونانية ١٨٦٢:** تأسست في القدس عام ١٨٦٢ وقد أوكلت لهذا القنصل النظر في المصالح التجارية للرعايا اليونانيين.

ث- **قنصلية سردينيا ١٨٤٣:** تأسست عام ١٨٤٣ ولكنها أغلقت في العام نفسه.

ج- **قنصلية المكسيك ١٨٦٦:** كان لدولة المكسيك قنصلاً في القدس منذ عام ١٨٦٦.

ح- **قنصلية النرويج ١٨٥٣:** كان لدولة النرويج وكيل قنصل لها في يافا منذ عام ١٨٥٣ للنظر في المصالح التجارية هناك.

أما إيران فقد كان لها شهبندر للتجار في القدس في عام ١٨٧١.^(١)

خاتمة:

نلاحظ بعد هذا العرض للمداخلات الأجنبية في لواء القدس، أن هذه المداخلات لم تشكل حتى ذلك الوقت خطراً على لواء القدس والدولة العثمانية فكثير من المنازعات والصدامات كانت تسبب كثيراً من "الصداع" للدولة العثمانية، ولكنها كانت تعرف كيف تتغلب على هذه المضاعف، خاصة أن هذه الفترة تشكل انتعاشاً بالنسبة للدولة العثمانية خاصة بعد حرب القرم. كما يلاحظ أن حوادث لبنان ودمشق عام ١٨٦٠ لم ترحف إلى لواء القدس، فكانت هذه المنطقة بالنسبة للمناطق السورية الأخرى أهدأ حالاً، أما في السنوات التالية أي حتى عام ١٩١٤ فستجد عوامل أخرى تزيد الموقف صعوبة منها: المحاولات الصهيونية المتسارعة والجدية في تنفيذ المستوطنات الكثيرة التي تخدم مصالحها، تزايد ضعف الدولة العثمانية وهزائمها في البلقان وليبيا واليمن، كلها تشكل عوامل ضغط على الدولة العثمانية بصفة عامة وأوضاعها في القدس بصفة خاصة.

(١) العارف، المفضل...، ص ٥٤٠.

الفصل الرابع

بدايات هجرة اليهود إلى القدس

أولاً: الوجود اليهودي في القدس:

- ١- الدور الفرنسي في المشروع الصهيوني وأهدافه.
- ٢- يهود أوروبا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.
- ٣- أوضاع اليهود في القدس:
 - أ- السفارديم.
 - ب- الاشكنازيم.
- ٤- موقف الدولة العثمانية من هجرة اليهود إلى القدس.
- ٥- مبررات الدولة العثمانية في قرار منع اليهود من الدخول إلى القدس.
- ٦- جهود هرتزل لدى السلطان العثماني عبد الحميد ١٨٩٦.

ثانياً: تبلور أطماع الحركة الصهيونية ١٨٩٩:

- ١- موقف هرتزل من شروط السلطان.
- ٢- موقف حكومة الحرية والائتلاف من الحركة الصهيونية ومبرراتها.
- ٣- تغير الموقف العثماني إزاء الحركة الصهيونية.

ثالثاً: مراحل استقرار اليهود في القدس:

- ١- مرحلة الاستيطان العشوائي.
 - أ- مشروع مونتفيوري.
 - ب- مشروع لورانس أوليفانت.
- ٢- مرحلة الاستيطان المنظم.

رابعاً: أجهزة الاستيطان الصهيوني:

- ١- الوكالة اليهودية.
- ٢- الصندوق القومي اليهودي: الكارن كاييت.
- ٣- الصندوق التأسيسي اليهودي: الكارن هايسود.

٤ - الشركة الانكليزية الفلسطينية.

٥ - شركة تطوير الأراضي الفلسطينية المحدودة.

خامساً: سياسة الحركة الصهيونية في إدارة المستوطنات اليهودية:

١ - أنواع المستوطنات الصهيونية في فلسطين:

أ - مستوطنات تعمل بنظام أجر يومي.

ب - مزارع تعاونية أو جماعية "كيوتزيم".

ت - قرى تعاونية أو جماعية "موشافيم".

٢ - الصعوبات التي واجهتها المستوطنات اليهودية.

سادساً: مؤتمر كامبل بانرمان وانعكاساته على القدس.

سابعاً: التنبيه القومي وردود الفعل العربية ضدّ النشاط الصهيوني:

١ - دور العرب في القرارات العثمانية الخاصة بمنع الاستيطان في القدس.

٢ - محاولات التفاهم والاتفاق بين العرب والحركة الصهيونية.

٣ - مؤتمر باريس ١٩١٣.

٤ - موقف عرب فلسطين من محاولات التفاهم والاتفاق.

أولاً: الوجود اليهودي في القدس:

كان السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) أول السلاطين الذين سمحوا لليهود بالاستقرار في استانبول وعيّن لهم حاخام باشي أو "حاخام أكبر" خلع عليه سلطات واسعة على كل يهود الامبراطورية. وعندما طرد اليهود من اسبانيا في سنة ١٤٩٣ أصدر السلطان بايزيد الثاني فرماناً يقضي بحسن معاملة اليهود في أملاكه.^(١) وهكذا أصبحت فلسطين والمناطق الأخرى التي تسيطر عليها الدولة العثمانية ملجأ لليهود المطرودين من اسبانيا والبرتغال أو الهاربين من الاضطهاد في البلاد الأوروبية الأخرى، وقدر عدد اليهود في فلسطين في القرن السادس عشر بعشرة آلاف نسمة، وضمت مدينة صفد أكبر عدد منهم. ومع منتصف القرن الثامن عشر، جاء يهود من بولندا وروسيا إلى فلسطين، واستقر معظمهم في صفد وطبرية، حيث وجدوا في حكم ظاهر العمر الحماية والأمن.

١- الدور الفرنسي في المشروع الصهيوني وأهدافه:

حاول نابليون بونابرت توجيه نداء لليهود آسيا وإفريقيا حين حملته على مصر عام ١٧٩٨ وعدهم فيه بإعادة اليهود إلى القدس وإعادة بناء هيكلهم من جديد إذا هم ساعدوه في غزو فلسطين، لكن يهود الدولة لم يعيروا دعوة نابليون أدنى اهتمام وظلّوا مواليين للحكم العثماني بل شارك يهود القدس في تقوية دفاعات المدينة، وبقي شالوم فارحي الموظف المالي للجزار حاكم عكا مخلصاً لسيدته رغم محاولات نابليون كسبه إلى جانبه ومهما يكن من أمر فإن المؤرخين اليهود يعتبرون نداء نابليون هو الذي حفز اليهود فيما بعد للتفكير بمشروع تأسيس دولة لهم في فلسطين.^(٢)

وعندما جاء المصريون إلى بلاد الشام تحسنت أحوال اليهود، فقد أعفاهم الحكم المصري من المغارم التي كان يفرضها الباشا العثماني عليهم، ولم تتجاوز أعداد اليهود في آخر العهد المصري (٥٥٠٠) شخص في القدس و(٧٥٠) في الخليل و(١٥٠) في نابلس وتوزع الباقي في المدن الفلسطينية الأخرى إذ بلغ عددهم في كل فلسطين (١٩٠٠٠) نسمة،^(٣) وكان مباحاً لهم حق الدنو من جدار المبكى -حائط البراق عند المسلمين- وحق الصلاة والبكاء على سقوطه وخرابه مقابل ٣٠٠ جنيه انكليزي في السنة تدفع لوكيل وقف أبو مدين.

وبعد انسحاب المصريين من بلاد الشام (١٨٤٠) بذل بالمرستون مساعيه لدى السلطان العثماني لإعادة اليهود إلى فلسطين، ولما فشل بالمرستون في التأثير على السلطان عبد الحميد أصدر تعليماته الصريحة إلى القناصل

(١) هنري لورانس، بونابرت والدولة اليهودية، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٤٥.

(٢) باميلا آن سميث، فلسطين والفلسطينيون ١٨٧٦ - ١٩٨٣، ترجمة الهام بشارة الخوري، دمشق، ١٩٩١، ص ١٥.

(٣) سميث، فلسطين والفلسطينيون، ص ٢٣، وانظر أيضاً: وليد الخالدي، الحق العربي في حائط المبكى في القدس، بيروت،

الانكليز في الدولة العثمانية بمنح الحماية الانكليزية لجميع اليهود الأجانب الذين يرفض قناصلهم الاعتراف بهم، وأظهر القنصل الانكليزي في القدس جيمس فن (١٨٤٥ - ١٨٦٢) عطفاً خاصاً على اليهود، كما اختارت انكلترا لأسقفيتها التي أنشأتها في القدس في سنة ١٨٤١ بالاشتراك مع بروسيا ميخائيل الكسندر اليهودي الأصل ليكون أول أسقف انجليكاني لأسقفية القدس البروتستانتية.^(١)

وانتهزت انكلترا كل فرصة في السنوات العشر التي تلت تأسيس قنصليتها في القدس لإظهار عطفها الخاص على اليهود في الدولة العثمانية، وذلك بموجب تنظيم قامت به انكلترا في سنة ١٨٤٨ لبسط حمايتها على اليهود من أصل روسي. وفي السنة التالية (١٨٤٩) شرعت قنصلية انكلترا في القدس بمنح حمايتها لليهود الروس والنمساويين ممن نزعت عنهم الجنسية.

وقد ذهبت روسيا إلى أبعد من ذلك عندما اقترحت وضع رعاياها تحت حماية انكلترا ذلك أن الحكومة الروسية كانت تمنح جوازات سفر إلى رعاياها من المسيحيين واليهود لمدة سنة واحدة فقط، حيث كان من المنتظر عودتهم قبل انتهاء السنة. ولما كان لا يمكن تجديد جوازات السفر الروسية في قنصلية روسيا في القدس لأي فترة زمنية أخرى ترك الرعايا الروس الذين لا يعودون إلى بلادهم قبل انتهاء السنة بدون حماية قنصلية، لكنهم في الوقت نفسه لا يرغبون في أن يصبحوا رعايا السلطان.^(٢)

وكان الدولة العثمانية قد تنبعت لمسألة الحماية الانكليزية لليهود في وقت مبكر نسبياً فأرسلت تستفسر من متصرف لواء القدس عن الأسباب التي جعلت اليهود يستبدلون بالجنسية الروسية الحماية الانكليزية.

وكان من رأي السلطات المحلية في المتصرفية أن اليهود الروس الذين فقدوا جنسياتهم لعدم عودتهم إلى روسيا ينبغي أن يكونوا ضمن دائرة الاختصاص العثماني وأيد الباب العالي الفكرة لكنه لم يتمكن من تنفيذها نظراً لتشعب انكلترا بسياساتها القائمة على إيجاد ركائز ومنافذ لها في الدولة العثمانية^(٣) لتستطيع بواسطتها التدخل في شؤونها الداخلية، لذلك ظلّت القنصلية الانكليزية في القدس تمنح حمايتها لأرباب العائلات اليهود مقابل دفع الرسوم المقررة، ونظمت سجلات خاصة لهم، أما الذين لا يستطيعون دفع الرسوم فمنحوا شهادات الحماية بدون مقابل. وقد شجعت هذه السياسة على اجتذاب عدد كبير من اليهود المهاجرين من أوروبا كان قد استقر معظمهم في القدس مما أدى إلى زيادة نسبتهم فيها في أواخر الستينات من القرن التاسع عشر فشكّلوا نصف سكانها (قدر

(١) آلان تايلور، تاريخ الحركة الصهيونية، تحليل للدبلوماسية الصهيونية ١٨٩٧ - ١٩٤٧، ترجمة بسام أبوغزالة، بيروت، ١٩٦٦، ص ٦٠.

(٢) حبيب قهوجي، استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة، دمشق، ١٩٧٨، ص ١٦ - ٢٠.

(٣) ناحوم سوكولوف، تاريخ الصهيونية، لندن، ١٩٠٩، ج ١، ص ١٥٦.

عدد السكان في عام ١٨٦٥ بثمانية عشر ألف شخص) وقابل اليهود الروس صنيع انكلترا بالشكر والتقدير وحفظوا لها الود والجميل فكانوا يحتفلون ببعض الأعياد الانكليزية كعيد ميلاد الملكة في أماكنهم الدينية.^(١)

رغم محاولة الدول الأوروبية رفع القيود المفروضة على اليهود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلا أن الهجرة اليهودية استمرت، ففي إيطاليا رفعت القيود عنهم في عام ١٨٧٠ وفي ألمانيا سنة ١٨٧١ لكن حركة رفع القيود عن اليهود في انكلترا تأخرت ربما لأن القيود التي كانت مفروضة عليهم لم تكن شديدة الوطأة وعلى أي حال فقد زال آخر مظهر من مظاهر عدم المساواة في سنة ١٨٩٠.^(٢)

أما بالنسبة ليهود دول أوروبا الشرقية فقد بقيت أوضاعهم على ما كانت عليه وزاد اضطهادهم إثر اشتراك عناصر يهودية في حركة اغتيال قيصر روسيا سنة ١٨٨١.

٢- يهود أوروبا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين:

تحسنت أوضاع اليهود في أوروبا وبلغت ذروتها في الاجراءات التي اتخذها بسمارك لرفع القيود عنهم، وساهمت في اندماجهم في المجتمعات المسيحية التي نشؤوا فيها، وهو ما يحقق هدفهم إلا أن هرتزل وغيره من الرواد سعوا لأن يمنعوا حركة الانصهار والاندماج،^(٣) وخاصة قبيل وأثناء وبعد المؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧ أي حين تبلورت الأهداف الصهيونية من أجل الوطن القومي، ولم يكن رفضهم الاندماج لمميزاتهم فقط إنما ليؤكدوا على أنهم أمة ولهم سمات الأمة اليهودية، واستفاد اليهود من حركة الإصلاح الديني التي قامت في أوروبا والتي عملت على القضاء على التعصب الديني، واتسم القرن التاسع عشر بعصر القوميات لذا استفاد اليهود من هذا الواقع وسعوا لخلق قومية يهودية لهم.^(٤)

فقبل عام ١٨٨١ كانت قلة من اليهود تهاجر إلى فلسطين بهدف الاستيطان، أما الكثرة فكانت تهاجر لتمضي آخر سنوات العمر في جو من القداسة الدينية وفي أداء الصلاة ودراسة الديانة اليهودية لذلك أقامت هذه الكثرة اليهودية في المدن المقدسة الأربع لديها القدس والخليل وطبريا وصفد. أما بعد عام ١٨٨١ فقد سجلت الهجرة اليهودية بداية فترة جديدة وحاسمة، فقد اغتيل في ذلك العام الكسندر الثالث قيصر روسيا. ونتيجة لاشتراك عناصر يهودية باغتياله قامت مذابح تلتها هجرة جماعية واسعة من روسيا وأوروبا الشرقية نحو الغرب ووصل

(١) Hyamson , M . Palestine old and new , P 369.

(٢) تايلور، تاريخ...، ص ١٣ - ١٤.

(٣) الياس نصر الله، اليهود الشرقيون والصهيونية، بيروت، ١٩٧٦، ص ٢٠، وانظر أيضاً: كميليا أبو جبل، يهود اليمن دراسة سياسية واقتصادية واجتماعية، دمشق، ١٩٩٩، ص ١٦٥.

(٤) ناجي علوش، الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ - ١٩٤٨، بيروت، ١٩٧٤، ص ٦٠.

فلسطين في البداية عدد قليل من المهاجرين، وكان من بينهم عدد من الطلاب الجامعيين الذين انتظموا في حركة بيلو^(١) التي تأسست في الآستانة في سنة ١٨٨٢ وهي الأحرف الأولى بالعبرية، لجملة في التوراة تقول: "يا بيت يعقوب تعال ودعنا نسير"، وكان من أهم نتائج حركة بيلو وحركة جمعية محبي صهيون، الشروع في إنشاء مستوطنات يهودية جديدة، كما شهدت فلسطين في أعقاب فشل الثورة الروسية في ١٩٠٥ موجة جديدة من الهجرة بسبب الاضطهاد الذي رافق فشل الثورة، وقد جاء المهاجرون إلى فلسطين يحدوهم الأمل والتصميم لبناء وطن لهم فيها، وتمكن هؤلاء في سنة ١٩٠٥ من تأسيس مستوطنة "دجانيا" بالقرب من طبرية. ويبين الجدول التالي تنظيم الهجرة اليهودية إلى فلسطين من تاريخ اغتيال القيصر الروسي إلى عام ١٩١٤: ^(٢)

الموجة	الفترة	عدد المهاجرين	جهة القدوم
الموجة الأولى	١٨٨١-١٩٠٣	٢٥٠٠٠	روسيا- بولندا- رومانيا
الموجة الثانية	١٩٠٤-١٩١٤	٣٤٠٠٠	روسيا- شرق أوروبا

وجدير بالذكر أن حياة اليهود في فلسطين عامة وفي القدس خاصة في تلك الفترة كانت تعكس ظلالاً قاتمة إذ هاجر إليها عدد كبير من كبار السن الذين يرغبون في قضاء آخر أيامهم في القدس وخير وصف لحياقتهم تلك ما جاء على لسان القنصل الأمريكي في القدس عام ١٨٧٨ إذ يقول: "ويهود القدس خاصة فقراء كسالى، ضعاف الأجسام، ويبدو أن القدس محطة يتلاقى فيها اليهود المتعصبون المشوهون والعجائز ليعيشوا هنا على الشحادة والإحسان، وليقضوا بقية العمر ينوحون أمام حائط المبكى" ^(٣)

٣- أوضاع اليهود في القدس:

حصل اليهود في القدس على نفس الحقوق التي حصل عليها المسيحيون وبفضل حماية انكلترا لهم واهتمامها بهم سكن أكثرهم في المدن التي يعتبرونها مقدسة عندهم وهي القدس وصفد وطبرية والخليل وسكنوا في هذه المدن في أحياء خاصة بهم عرفت في كل مدينة بـ "حارة اليهود" وقد انقسم اليهود في متصرفية القدس إلى طائفتين كبيرتين هما:

(١) جميل مدبك، موسوعة الأديان في العالم، بيروت، ٢٠٠٠، مج ٩، ص ٧٦.

(٢) نبيل السهلي، التحولات الديمغرافية للشعب الفلسطيني، صامد الاقتصادي، عُمان، العدد ١٢٠، ص ١٠٣.

(٣) السهلي، التحولات، العدد ١٢٠، ص ١٠٤.

أ- السفارديم:

اليهود الشرقيون وأصلهم من اسبانيا جاؤوا فلسطين بعد طردهم من اسبانيا^(١) في عهد فرديناند وايزابيلا في سنة ١٤٩٣ وكانت لغتهم خليطاً من الاسبانية والعبرية واستقر هؤلاء في مدن بلاد الشام كالقدس ودمشق وحلب وبيروت.

وكان معظم يهود القدس قبل ازدياد الهجرة اليهودية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من السفارديم. الذين عملوا في التجارة، وكان لهم حاخام يسهر على مصالحهم الطائفية اعترفت به الدولة وكان يتقدم بطلب تعمير الأماكن الدينية أو بناء أماكن للفقراء اليهود في الأراضي الأميرية مقابل مبالغ سنوية يدفعها بدلاً من العشر، ولم تكن علاقة السفارديم بالإرساليات الانكليزية وديةً فقطاعوها، بل رفضوا دفن المتعاونين معها من اليهود في مقابرهم، وعندما توسط القنصل الانكليزي لدى المتصرف في الموضوع رفض الأخير التدخل لأنه لا يستطيع تحمل مسؤولية إلزام الحاخامين بدفن اليهود المتعاملين مع الإرساليات الانكليزية في مقابر اليهود الشرقيين السفارديم^(٢)، كان اليهود القاطنون في القدس يستأجرون البيوت في الحارات التي أقاموا فيها من الملاك المسلمين، وفي وسط حارة اليهود يوجد الجامع العمري وفي عام ١٨٧٤ أقيم عشرات المباني بناحية باب العمود على مساحة ٢٥ ألف متر مربع وأسكن فيها ثلاثئة عائلة وألحقت بها أسواق ومحازن وكان لهذا الحي لجنة خاصة لإدارة الشؤون الخاصة به وهذا يدل على إدارة ذاتية لليهود في القدس، وإلى جانب اليهود السفارديم (الاسبان) وجدت في متصرفية القدس جماعات أخرى من اليهود الشرقيين مثل الإيرانيين واليمنيين والمغاربة بالإضافة إلى القرائين (القراونة) وهم جماعة يهودية صغيرة جداً لا تعتقد بالتلمود.

ب- الاشكنازيم:

بقيت طائفة الاشكنازيم دون اعتراف رسمي بها في حين اعترفت الدولة بطائفة السفارديم وكان معظم يهود القدس الاشكنازيم فقراء جاؤوا من ألمانيا وروسيا وبولونيا ورومانيا لدوافع دينية في أول الأمر. وكان حائط المبكى هو المكان الأكثر قداسة عندهم. وكان معظم سكان المستوطنات اليهودية في أواخر العهد العثماني من طائفة الاشكنازيم. ولم تلق هذه الطائفة احترام السكان العرب فكان فلاحو المتصرفية يلقبون الاشكنازي "بالسكناجي"

(١) أحمد راتب عرموش، موسوعة الأديان الميسرة، بيروت، ٢٠٠١، مج ٢، ص ١٠١. وانظر أيضاً: مروان درويش وآخرون، اليهود الشرقيون في إسرائيل، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٩.

(٢) رفيق شاكر التنتشة، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، عمان، ١٩٩١، ص ٢٩، وانظر أيضاً: يوسف نعيصة، يهود دمشق، دمشق، ١٩٩٤، ص ٨.

وكان مدلول الكلمة عند الفلاحين يعني احتقاراً وازدراءً كلياً لليهود الأجانب. وقد شكل يهود هذه الطائفة أكثرية السكان في القدس، على أن ذلك لم يكسبهم الحق في النفوذ لأن معظمهم كان من المهاجرين الأجانب.^(١) هذا وكانت أكثرية المهاجرين اليهود إلى فلسطين من الطبقة الفقيرة وعاشوا على المساعدات التي قدمتها مؤسسات الاحسان العديدة التي وجدت في القدس وضواحيها والتي كانت تتلقى المعونة من المحسنين ومن الجمعيات الخيرية في أوروبا من أجل إيواء وإغاثة اليهود والمعوذين، وقد شجع الحاخامون اليهود ذلك الوضع بفرض جمع التبرعات من أغنياء اليهود في أنحاء العالم، ولكن نظام الاستجداء "الحالوقا" - وتعني الصدقات - شجع على انتشار الكسل والنزاع بين اليهود كما زاد في عدد بيوت الاحسان التي يسكنونها.^(٢)

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا التدفق المنظم - مع تبلور الهدف الصهيوني ورعاية أوروبا للصهيونية - للأعداد الكبيرة من اللاجئين المعدمين إلى سوء أحوالهم المعيشية، لذلك رفعت التماسات كثيرة من قبل يهود القدس إلى أغنياء يهود العالم التماساً للمعونات والمساعدات، وكان البارون ادموند روتشليد أكثر هؤلاء كرماءً كما قدم مبالغ كبيرة من المال لتأسيس المستوطنات الزراعية اليهودية في فلسطين.^(٣)

٤- موقف الدولة العثمانية من هجرة اليهود إلى القدس:

بدأ اليهود بالهجرة إلى فلسطين بشكل منظم، إثر اغتيال قيصر روسيا في سنة ١٨٨١ وعارضت الدولة العثمانية تلك الهجرة منذ البداية فعندما طلبت "جمعية محبي صهيون" في نيسان ١٨٨٢ من القنصل العثماني العام في اوديسا منح المهاجرين اليهود سمات دخول إلى الامبراطورية العثمانية بغرض الاستيطان في فلسطين لفت عدد اليهود المهاجرين الكبير انتباه القنصل العثماني، فأبرق إلى الباب العالي سائلاً تعليماته حول الموضوع، فردت الحكومة العثمانية في ٢٨ نيسان ١٨٨٢ بعدم السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين، ولكن بإمكانهم الاستيطان في ولايات الدولة الأخرى، شريطة أن يكونوا رعايا عثمانيين وأن تطبق بحقهم القوانين العثمانية.

وعندما توسط السفير الأمريكي في الآستانة لليهود، وأجرى محادثة مع ناظر الخارجية في ١٢ حزيران ١٨٨٢ أجاب الأخير بأن الموضوع لا زال تحت نظر جلالة السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٩) وإن مجلس الوزراء

(١) الاشكنازيم: كلمة عبرية تعني ألمانيا، الباء للنسبة والميم للجمع، وينتسب لهذه الطائفة اليهود الألمان أو الذين ينحدرون من أصل ألماني وتتكلم "الايديش" وهي لغة اليهود الألمان وتكتب بالحروف العبرية. وكانت لغة التخاطب إلى جانب العبرية التي كانت لغة الكتابة والأدب. انظر: نجدة فتحي صفوة، اليهود والصهيونية في علاقة الدول الكبرى، بغداد، ١٩٦٧، ص ٩، وانظر أيضاً: درويش، اليهود الشرقيون...، ص ٨٨ - ٩٠.

(٢) نجيب نصار، الصهيونية، بيروت، ١٩٦٨، ص ٣٠.

(٣) نصار، الصهيونية، ص ١٦، وانظر أيضاً: فاروق محمد عز الدين، القدس تاريخياً وجغرافياً، القاهرة، ١٩٨١، ص ٤٠.

يسمح لليهود بالاستيطان في أي مكان من الدولة باستثناء فلسطين، فبإمكان اليهود الاستيطان حول حلب، وما بين النهرين في جماعات من ٢٠٠ - ٢٥٠ عائلة.

وبعد ذلك قامت الدولة العثمانية بتنفيذ قرار منع هجرة اليهود إلى فلسطين فأبرقت في ٢٩ حزيران ١٨٨٢ إلى متصرف القدس تطلب منه عدم السماح لليهود الذين يحملون جنسيات روسيا ورومانيا وبلغاريا من الدخول إلى المتصرفية ثم أبلغت البعثات الدبلوماسية لدى الباب العالي رسمياً بقرار مجلس الوكلاء العثماني القاضي بمنع اليهود الروس من استيطان فلسطين.

وقدمت الدولة العثمانية كثيراً من التبريرات لتوضيح قرار المنع لكن السببين الرئيسيين اللذين دفعا بالحكومة العثمانية لاتخاذ القرار هما: (١)

أ- خشية الدولة العثمانية من احتمال ظهور مشكلة قومية فيها تزيد في مشكلاتها التي لازمتها منذ بداية القرن التاسع عشر في حروبها مع اليونان والبلغار ورومانيا والشعوب الأخرى.

ب- إن روسيا القيصرية قد ضغطت على الباب العالي لمنع هجرة يهودها بالجملة إلى فلسطين بينما لم تتأثر من هجرة يهودها إلى أوروبا الغربية، لأنها أخذت تعارض أي تقوية أو تثبيت لوضع أي جماعة في فلسطين يمكنها فيما بعد من قلب التوازن الراهن حول الأماكن المقدسة ثم اتخذ مجلس النظار العثماني خطوات مباشرة أخرى، فحدد في سنة ١٨٨٤ زيارة اليهود لمتصرفية القدس لمدة ثلاثين يوماً، وعندما احتجت معظم الدول الأوروبية في سنة ١٨٨٧ ضدّ هذه القيود التي تتعارض مع الامتيازات الأجنبية، اتخذ الباب العالي قراراً رسمياً حددت بموجبه إقامة اليهود في فلسطين لثلاثة أشهر على أن تطبق هذه القيود بحق المهاجرين جملة، وكانت روسيا البلد الوحيد الذي يأتي منه اليهود بجماعات كبيرة، وهي التي طلبت من الباب العالي وضع القيود أمام يهودها. (٢)

وهكذا كان قرار الباب العالي في سنة ١٨٨٧ أول قرار تفرضه الدولة لوضع حد لتيار الهجرة اليهودية الذي بدأ يتدفق على فلسطين وجاء ذلك بعد أن تحقق الباب العالي من الخطر الذي يكمن وراء استيطان اليهود بأعداد كبيرة.

(١) Hyamsoh, Palestine. the rebith of ancient people, PP 50- 55.

(٢) العارف، تاريخ القدس، ص ٢٢٠.

وتماشياً مع هذه السياسة، وصلت أوامر الباب العالي إلى حكومة المتصرفية في شباط ١٨٨٧ بمنع جميع اليهود الأجانب من الإقامة في القدس خاصة وفي فلسطين عامة على أن يسمح لهم بدخول البلاد بقصد الحج لفترة محدودة ينبغي عليهم مغادرة البلاد بعدها.^(١)

شعر الفلاح العربي في القدس بخطورة هذه الهجرات لكنه لم يكن قادراً على استرداد أراضيه أو شرائها نظراً لأوضاعه الاقتصادية المتردية، ولعدم قدرته على سداد ديونه وفوائدها المتراكمة. وإزاء هذا الواقع أيقن الفلاح معنى سلب أراضيه، فبدأت الاحتكاكات بين الفلاحين العرب وبين اليهود. وتحاول المصادر اليهودية أن تبرر سبب العداوة والاضطرابات بين الفئتين بأنه لم يكن بسبب الهجرة اليهودية وإنما حدثت بسبب جهل اللغة وتقاليده وطباع العرب غير أن المقاومة العربية الأولى قامت ببادرة من الفلاحين العرب الذين كانوا يملكون أو يعملون في الأراضي الزراعية، بعد اقتناعهم بأن انتقال الأرض من أيديهم أو من الإقطاعي العربي إلى اليهودي كان يعني بالضرورة طردهم من الأرض، وطردها منها بالفعل، وقامت الاضطرابات حينما هاجم الفلاحون المطرودون من "الخضيرة" و"بتاح تكفا" قراهم المغتصبة التي أجلوها عنها رغم إرادتهم. ودفعت الاصطدامات الحكومة العثمانية في عام ١٨٨٧ إلى فرض قيود على هجرة المستوطنين اليهود الذين كانوا يدخلون كسياح.^(٢)

وفي حقيقة الأمر أن الهجرة اليهودية لم تشكل خطراً على الفلاحين فحسب وإنما شكلت خطراً اقتصادياً على من عمل بالصناعة أيضاً، وبذلك يكون الاستعمار الاستيطاني منذ البداية معادياً لا للاقطاعيين العرب كما يدعي زعماء اليهود، بل للفلاحين والعمال العرب.^(٣) ولا بد من الإشارة إلى أنه لم يكن معظم أهل فلسطين فلاحين، بل كان هناك من يعمل بمختلف الصناعات. ومن هنا كان تحالف القوى العاملة من فلاحين وصناع في فلسطين لمواجهة الهجرة اليهودية، ولا سيما بعد أن أثبتت التجارب صعوبة العمل الزراعي بالنسبة للمهاجرين اليهود فتحول عدد منهم إلى الميدان الصناعي، ومن أجل ذلك ظهرت منافسة جديدة في ميدان اقتصادي لا يستوعب عناصر جديدة، غير أن الطابع القومي والسياسي لردود الفعل العمالية والفلاحية لم يكن أقل حدة ونزعة من العامل الاقتصادي.

٥- مبررات الدولة العثمانية في قرار منع اليهود من الدخول إلى القدس:

بررت الحكومة العثمانية منعها لليهود من دخول القدس، بأن الأكثرية العظمى من اليهود الذين يأتون إلى القدس هم من الطبقات الفقيرة المعوزة ومن الشيوخ العاجزين والمقعدين والذين يأتون إلى القدس ليمضوا أيامهم الأخيرة

(١) العارف، تاريخ القدس، ص ٢٢٥.

(٢) اميل توما، جذور القضية الفلسطينية، بيروت، ١٩٧٣، ص ٦٥.

(٣) الكيالي، تاريخ فلسطين...، ص ٤٨.

في المدينة المقدسة وكل من هذين الصنفين لا تتوفر وسائل مالية لديه ويعيش في بؤس معتمداً على الصدقات والتبرعات الخيرية التي تجمع لهم في أوروبا. كما أدى تدفق المهاجرين اليهود إلى ازدحام الحي اليهودي في القدس وزاد في قذارته وسوء الحالة الصحية فيه.

ويذكر القنصل الانكليزي في القدس أن مثل هذه الحقائق التي تذرعت السلطات العثمانية بها لا يستطيع إنكارها، لكن إلى جانب الاعتبارات السابقة فإن شعوراً لا يستهان به من عدم الاطمئنان ينبغي أن يكون قد دخل تفكير السلطان بسبب هجرة اليهود الواسعة إلى فلسطين في غضون السنوات التي سبقت المنع وما يرافق تلك الهجرة من حقوق وامتيازات لليهود كرعيا أجنب لذللك كله رغبـت السلطات العثمانية في وقف تدفق الهجرة.^(١)

ولتنفيذ أوامر الباب العالي بشأن منع الهجرة اليهودية، أجرى متصرف القدس اتصالات مع قناصل الدول الأجنبية في آب ١٨٨٧ أبلغهم فيها شكوى سلطات الأمن في المتصرفية من عدم قيام القنصليات الأجنبية في القدس ووكالاتها في يافا بخطوات من جانبها لتسهيل مهمة إخراج اليهود الأجانب الذين انتهت مدة الإقامة الممنوحة لهم امتثالاً للأوامر التي وردت من الباب العالي وبناء على إرادة السلطان بمنع اليهود من الإقامة في فلسطين. وكان رد القناصل على المتصرف أنهم لن يقبلوا تنفيذ الأمر حتى يتلقوا تعليمات من سفاراتهم في استانبول، لكن الدولة العثمانية استمرت في إجراءات تقييد الهجرة اليهودية فأمرت في ربيع ١٨٨٨ بوجوب حمل اليهود الأجانب جوازات سفر توضح عقيدتهم اليهودية كي تمنحهم سلطات الميناء تصريحاً لزيارة المتصرفية لمدة ثلاثة أشهر،^(٢) كما رفضت السلطات العثمانية في ميناء يافا السماح بدخول اليهود الذين لم يحصلوا على سمات دخول من القناصل العثمانيين في بلادهم، وعندما اتخذ الباب العالي هذا القرار قدم تبريرات جديدة، تضمنت هذه المرة، خشية الدولة العثمانية على اليهود من التعصب الديني الذي ظهر بوضوح خلال مواسم الحج في القدس،^(٣) حيث يضطر اليهود إلى التزام بيوتهم لتجنب الاحتكاك مع الحجاج المسيحيين وأشار أيضاً إلى الأخبار التي انتشرت في الخارج والتي تفيد بأن اليهود في أنحاء العالم بدأوا يقوون أنفسهم في القدس وجوارها بهدف إعادة تأسيس مملكتهم القديمة ولكن انكلترا لم تقتنع بالإيضاحات التي قدمها الباب العالي واحتجت ضد القيود المفروضة على الهجرة فيما يتعلق برعاياها كما احتجت فرنسا أيضاً، أما روسيا وألمانيا فقد أيدتا الدولة العثمانية في أمر تقييد الهجرة، ولكن الدولة تراجعت إزاء ضغط انكلترا عليها فاضطرت إلى التصريح بأن التعليمات لن تطبق إلا بحق المهاجرين بأعداد كبيرة.

(١) الكيالي، تاريخ فلسطين...، ص ٢٨.

(٢) زير سلطان، تهويد القدس في البرنامج السياسي الصهيوني، مجلة الفكر السياسي دمشق، العدد ٣٦، ٢٠١٠، ص ٢٦.

(٣) مجلة فتح، العدد ٦٠٢، دمشق، ٢٠٠٩، ص ٧.

ثم أوضحت للسفارة الانكليزية في استانبول في تشرين الأول ١٨٨٨ أن إجراءات المنع لن تطبق إلا بحق اليهود الانكليز الذين يأتون فلسطين بأعداد كبيرة، وليس بحق الذين يأتون فرادى.^(١)

لكن الدولة العثمانية بقيت متشبثة بقرار المنع، ويعود ذلك إلى أنها ظلت تخشى أن تؤدي الأعداد الكبيرة المتزايدة للمستوطنين اليهود في فلسطين إلى تمكين اليهود في المستقبل من الادعاء بالحماية الأجنبية، ثم التصرف وفقاً لرغبتهم دون أن يكون للدولة سلطة عليهم.

ولكن بالرغم من تشبث الحكومة بقرار المنع استمرت الهجرة اليهودية ففي أوائل ١٨٩٢ وصلت ستون عائلة يهودية من إيران ونزلت في غزة ويافا، بهدف الاستقرار في جنوب فلسطين. ولكن السلطات المحلية أبلغتهم أن التعليمات الصادرة عن الباب العالي تفيد بأن هجرة اليهود بقصد الاستقرار في فلسطين غير مسموح بها. أما الذين يرغبون في زيارة البلاد كحجاج فسوف يسمح لهم بالإقامة لمدة تتراوح بين شهر أو شهرين ينبغي عليهم مغادرة البلاد بعدها لكن انكثرتا كانت تعرقل مساعي الدولة العثمانية في تقييد الهجرة، فقد بلغ عدد العائلات اليهودية التي منحت الحماية الانكليزية في العام التالي أكثر من مائتي عائلة وتشددت الدولة العثمانية في موقفها.^(٢)

نظراً لازدياد الهجرة اليهودية رغم قرارات المنع أرسلت الدولة العثمانية إلى متصرف القدس في آب ١٨٩٣ تعليمات جديدة بعدم السماح لأي من اليهود الأجانب بالبقاء في المتصرفية بعد انتهاء المدة المقررة للزيارة، وباشرت السلطات المحلية تطبيق هذه التعليمات، ووضعت سلطات الميناء صعوبات أمام اليهود المهاجرين من جميع الجنسيات بما فيهم اليهود الإنجليز. ولكن حدث موقف جديد في عام ١٨٩٦ عندما سعى هرتزل للاتصال بالسلطان عبد الحميد منذ أوائل آيار ١٨٩٦ محاولاً إيجاد تفاهم عثماني يهودي، يساعد السلطان بموجبه اليهود فيعطيه مساحة الأرض التي يريدونها مقابل استعداد اليهود لتدعيم مالية الدولة والتأثير على الرأي العام الأوروبي ليقف إلى جانب السلطان خصوصاً بعد مذابح الأرمن.^(٣)

٦- جهود هرتزل لدى السلطان العثماني عبد الحميد ١٨٩٦:

قدر هرتزل ثمن فلسطين بمبلغ عشرين مليون ليرة تركية وكلف صديقاً له - نيولنسكي - كان مقرباً من السلطان أن ينقل خبر العشرين مليون ليرة إلى السلطان قبل أن يذهب بنفسه - هرتزل - إلى الآستانة ليحري أول اتصال مباشر له مع المسؤولين العثمانيين وتلقى هرتزل رد السلطان على عرضه^(٤) - بواسطة نيولنسكي - في يونيو ١٨٩٦ "إذا

(١) محمود، مشاريع الاستيطان...، ص ٢٦٠.

(٢) أسعد رزوق، إسرائيل الكبرى دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني، بيروت، ١٩٦٨، ص ٣١٠.

(٣) فؤاد حسن حافظ، تاريخ الشعب الأرمني، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٥.

(٤) محمد حرب عبد الحميد، مذكرات السلطان عبد الحميد، القاهرة، ١٩٧٨، ط١، ص ٢٦.

كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي، فأنصحك أن لا يسير أبداً في هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد لأنها ليست لي بل لشعبي، لقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية بإقامة دمائهم، وقد فدوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا، الامبراطورية العثمانية ليست لي وإنما للشعب العثماني لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها ليحتفظ اليهود بملايينهم، فإذا ما قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل. إنما لن تقسم إلا جثتنا ولن أقبل بتشريح أجسادنا لأي غرض كان" ويذكر هرتزل أن صدور كتاب "الدولة اليهودية" في شباط ١٨٩٦ "سبب متاعباً للمستوطنين اليهود الذين وفدوا إلى فلسطين آنذاك".

غير أن هذا الرفض الصريح في بداية الاتصالات لم يمنع هرتزل من مواصلة جهوده لذلك قرر أن يستعمل وسيلتين أخريين للتعويض والاستمالة. أن يستميل السلطان بواسطة خدمته في القضية الأرمنية.

وأن يقدم له جزيرة قبرص مع مبلغ من المال مقابل فلسطين ولذلك قابل نيولنسكي السلطان عبد الحميد في ٢٦ تموز ١٨٩٦ وتحادث معه في موضوع فلسطين وبأن اليهود إذا لم يستطيعوا أخذ فلسطين فسوف يذهبون إلى الأرجنتين، وكان نيولنسكي يعتقد أن الأتراك راغبون في إعطاء فلسطين لليهود.

لكن السلطان تشبث بموقفه المعارض للهجرة اليهودية خصوصاً بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بال آب ١٨٩٧، وزاد من اهتمامه بشؤون متصرفية القدس فأخذ يعين لها متصرفين من سراي يلدز ليحكموا المتصرفية، بدلاً من المتصرفين الذين كانوا يوجهون إليها، بعد الخدمة في الولايات الأخرى، وكان توفيق بك - عين في تشرين الثاني ١٨٩٧ - أول المتصرفين الذين سبق لهم العمل في يلدز وقد أظهر إخلاصاً وحماسة في تطبيق قانون منع الهجرة، ونتيجة تشدده في المنع فإن المهاجرين اليهود وجمعيات الاستيطان اليهودي التي كانت تدعم المستوطنات حولت اهتمامها إلى لواء عكا التابع لولاية بيروت حيث كان الموظفون أقل تشدداً من موظفي المتصرفية.^(١)

لكن خلفاء توفيق بك الثلاثة الذين تبعوه لم يكونوا صادقين أو متحمسين مثله بل كان أحمد رشيد بك الذي عين متصرفاً للقدس في ١٩٠٤ يعطف صراحة على الهجرة اليهودية ولذلك عادت الاهتمامات اليهودية ثانية إلى متصرفية القدس. وبدا واضحاً أنه لا يمكن الحد من النشاط الصهيوني.^(٢)

(١) أسعد رزوق، المجلس الأمريكي لليهودية دراسة في البديل اليهودي للصهيونية، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٦٢.

(٢) عندما علم متصرف القدس أن ترتيبات تجري لعقد مؤتمر صهيوني في ميونخ بألمانيا في صيف ١٨٩٧ أجرى اتصالات مع القنصل الألماني الذي أكد له أن الدعوة إلى دولة يهودية خيالية لكنه ذكر أن تدفق اليهود على المتصرفية يكمن فيه خطر - سياسي وقام المتصرف بنقل هذه المعلومات إلى الباب العالي. انظر: N.Mandel , Turks , Arabs , and Jewish , Immigration into Palestine 1882- 1914.

ولكن بالرغم من ذلك بقيت الدولة متشبثة بموقفها لاسيما بعد أن أبرق السفير العثماني في واشنطن (نيسان ١٨٩٨) إلى سراي يلدز بأن هدف الصهيونية إحياء اليهودية في فلسطين وإقامة حكومة مستقلة فيها وإن بين يديه نشرة عبرية تبين مطامعهم وذكر أيضاً أن بعض اليهود في الولايات العثمانية موالون لهذه الفكرة.^(١) وكان السفير العثماني في واشنطن قد نشر في نيسان ١٨٩٨ بياناً في الصحف الأمريكية رداً على الضجة التي أثارها الصهيونيون في المدن الأمريكية حول المسألة اليهودية دافع فيه عن أوضاع اليهود في الدولة العثمانية. وزادت هذه الأنباء في مخاوف السلطان عبد الحميد فأصدرت الحكومة تعليمات جديدة في تموز ١٨٩٨ بمنع اليهود الأجانب من دخول المتصرفية ولما نتج عن هذا المنع شكاو كثيرة أبرق المتصرف إلى الباب العالي يسأله تعليمات دقيقة وواضحة حول الموضوع، وجاء الرد في آب ١٨٩٨ عندما تسلم متصرف القدس أمراً من الصدر الأعظم بتنفيذ تعليمات منع الهجرة بحق كل اليهود الأجانب دون تمييز بين جنسياتهم مع عدم السماح لهم بدخول المتصرفية ما لم يدفعوا تأميناً وتعهداً بالمغادرة خلال ثلاثين يوماً.

وتشددت سلطات الميناء عن تنفيذ التعليمات حتى منعت القنصل الانكليزي في إنطاكية من الدخول ما لم يقدم التعهد المطلوب باعتباره يهودياً.^(٢)

وعندما تشبث السلطان عبد الحميد بموقفه المناوئ للهجرة، عمل هرتزل على أن يوسط القيصر الألماني لإقناع السلطان بقبول مطالب الحركة الصهيونية وقد قرر ذلك بعد أن اطمأن إلى قوة مكانة القيصر عند السلطان. وعندما اجتمع هرتزل مع القيصر طلب منه "شركة قانونية تحت الحماية الألمانية" وفي القدس اجتماعاً ثانية وانتهت المقابلة دون أن يحصل هرتزل على أي وعد من القيصر، وبقيت هجرة اليهود مشروطة بإقامة قصيرة.^(٣)

حاولت الدولة العثمانية إخفاء الطابع الشرعي لإجراءات تقييد الهجرة اليهودية فسعت لدى الحكومة الانكليزية لتعديل بعض المواد المتعلقة بالتسهيلات الممنوحة للانكليز في معاهدة الامتيازات الانكليزية والتي تخص الإقامة والسفر إلى الممتلكات العثمانية. لكن وزارة الخارجية الانكليزية نبهت إلى ضرورة اتخاذ الاجراءات اللازمة والضرورية لتجنب الخطر على الصحة العامة نتيجة ازدحام فقراء اليهود في أماكن معينة، وإنه من غير المعقول

(١) ومع المؤتمر الصهيوني في بال عقد مؤتمراً آخر في مستوطنة "ذكرونة يعقوب" كان القصد منه أن يكون مصغراً لمؤتمر بال. قسمت فلسطين فيه إلى ستة أقسام إدارية، كما تقرر تشكيل هيئة عامة منتخبة تتألف من ٢٣ عضواً. انظر: نجيب، الصهيونية...، ص ٣٧.

(٢) أحمد طربين، محاضرات في تاريخ قضية فلسطين، منذ نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٥٥.

(٣) طربين، محاضرات...، ص ٦٠.

وضع تمييز بين الرعايا الانكليز مشيرة لما تذرعت به الدولة العثمانية من أن الهجرة اليهودية إلى القدس تهدد الصحة العامة في الحي اليهودي بالخطر.

ميزت الدولة العثمانية بين اليهود الأجانب الذين يأتون إلى فلسطين بقصد السياحة، والذين ينبغي عليهم دفع تأمين نقدي لقاء مغادرة البلاد خلال فترة محدودة، وبين أولئك الذين يرغبون في استيطان فلسطين. لكن انكلترا رفضت أي قيود على سفر رعاياها إلى فلسطين أو إلى ولايات الدولة الأخرى. وبالمقابل ظلت الحكومة العثمانية أيضاً ترفض دخول جميع اليهود الأجانب القادمين إلى فلسطين بقصد الاستيطان فيها ولاسيما بعد أن زادت حدة الشكوك التي ساورت السلطات المسؤولة عن مساعي الحركة الصهيونية لتأسيس كيان يهودي في فلسطين، مما جعل الباب العالي ينفذ بإحكام كبير التعليمات والقيود ضد هجرة اليهود. وطبق متصرف القدس التعليمات بحق اليهود الأجانب دون تمييز بين جنسياتهم وأوضاعهم المادية.^(١)

ثانياً: تبلور أطماع الحركة الصهيونية ١٨٩٩ :

أخذت تتوضح أهداف الحركة الصهيونية للعثمانيين شيئاً فشيئاً ولفت نشاطها انتباه السفير العثماني في واشنطن الذي عاود الكتابة إلى سراي يلدز في أوائل عام ١٨٩٩ حول الأفكار التي تراود اليهود في استيطان فلسطين. وجاء في رسالة له: "وبالرغم من أن هذه الأفكار تبدو مستحيلة، لكنهم - اليهود - يستعدون لتنفيذها بجمع النقود وتأمين النفوذ، ثم إنهم السفير الأمريكي شتراوس - في الآستانة - وهو يهودي ألماني الأصل بأنه من المروجين للحركة الصهيونية ويعمل من أجلها خفية".^(٢)

لم يغيّر الباب العالي موقفه من هجرة اليهود بل أرسل كتاباً في تموز ١٩٠٠ إلى جميع البعثات الأجنبية في العاصمة طالباً منها دعوة وكالات السفر المعتمدة لديها التعاون مع السلطات العثمانية لمنع هجرة اليهود إلى الإمبراطورية العثمانية وبعدها أرسل تعليمات جديدة إلى متصرفية القدس ألغى بموجبها مبلغ الخمسين ليرة كتأمين وألغى كذلك تحديد مدة الإقامة في فلسطين بـ ٣١ يوماً وبموجب التعليمات الجديدة سمح لكل يهودي أجنبي بإقامة قصيرة لا تتجاوز ثلاثة أشهر على أن يقدم جواز سفره أو هويته إلى سلطات الميناء في يافا ويتسلم منها وثيقة خاصة بدلاً منه يدفع قرشاً واحداً ثمناً لها عرفت هذه الوثيقة "بالورقة الحمراء" على أن يبعد اليهود الأجانب عن البلاد بعد ثلاثة أشهر ويكون ذلك بمعرفة القنصلية ذات العلاقة. وبهذا الشكل استمر النزاع قائماً بين السلطات المحلية في المتصرفية والقناصل حول تنفيذ قرارات الحكومة المركزية بمنع هجرة اليهود.

(١) سليمان البستاني، عبء وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، القاهرة، ١٩٠٨، ص ٧٥.

(٢) N.Azouri : le Reveil de la Nation Arabe dans I , Asie Turquie (Paris) 1905 . P

لكن هرتزل لم يئس من المحاولة وخاصة عندما لاحظ تشدد العثمانيين في تنفيذ قرارات منع الهجرة لذا فكر بإعادة المحاولة ثانية وقابل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠١، لكن السلطان استقبله على أساس أنه رئيس لليهود وصحفي وليس كصهيوني. ودار الحديث بينهما حول المشاكل الاقتصادية للدولة العثمانية وتصفية الدين العام وما يستطيع هرتزل أن يقدمه من مساعدات مالية، مقابل الحصول على تصريح لليهود في فلسطين، وهكذا انتهت المقابلة الأولى والأخيرة مع السلطان، أما الاتصالات بين هرتزل وعزت باشا العابد - سكرتير السلطان - وإبراهيم بك - ترجمان السلطان -^(١) فقد استمرت وتركزت المباحثات حول حاجة الدولة إلى أربعة ملايين جنيه خلال فترة قصيرة واستفسر السلطان بواسطة عزت / وإبراهيم عن جنسية اليهود الذين يريدون أن يقوموا بأعمال مع أو في داخل الدولة العثمانية بشكل أو بآخر.^(٢)

واشترط ممثل السلطان العثماني على اليهود أثناء دخولهم القدس أو أي نقطة في الدولة العثمانية أن يوافقوا على أن يصبحوا رعايا عثمانيين، فمثلاً إذا استعاد اليهود سندات الدين العام "فإن المساهمين يجب أن يصبحوا رعايا جلالته والشيء نفسه ينطبق على الذين يأتون كمستوطنين ليس فقط عليهم أن يصبحوا رعايا عثمانيين بل ينبغي عليهم أيضاً أن يتخلوا عن ولاءاتهم وزاد إبراهيم فقال: وعليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية إذا دعاهم جلالته إليها".

ثم قال عزت: تحت هذه الشروط قد نسمح بدخول اليهود ومن كل بلد..... وأمر آخر يجب أن لا يجرى الاستيطان بواسطة جماعات كبيرة بدلاً من ذلك لنقل خمس عائلات هنا وخمس عائلات هناك موزعين بدون اتصال..... ثم عرض هرتزل لأول مرة على ممثلي السلطان ما يريد وهو إنشاء شركة أراضي ضخمة تمنح المناطق غير المستغلة لتمكين من إسكان الناس فيها. ثم أضاف قائلاً: بالتأكيد يوجد في فلسطين أراضٍ كافية تصلح لاستخدامها لهذا الغرض، وإذا منحت شركة الأراضي العثمانية امتيازاً مناسباً فإنها سوف تصلح الأرض وتسكنها الناس وتدفع الضرائب وعلى حساب دخل الشركة يمكن اقتراض المال مقدماً. وعند هذا الحد انتهت المحادثات وأبلغ السلطان هرتزل - بالواسطة - بأنه في انتظار عروضه الحاسمة خلال شهر.

وبعد مضي أقل من عام على اللقاء الأول والأخير مع السلطان تلقى هرتزل دعوة من إبراهيم - ترجمان السلطان - لزيارة استانبول فوصلها في ١٥ شباط ١٩٠٢ وفي استانبول أبلغ إبراهيم هرتزل بأن تقريراً وصل إلى السلطان، يتضمن إعلان هرتزل في المؤتمر الصهيوني الخامس الذي عقد في بال كانون الأول ١٩٠١ بأن السلطان سمح لليهود

(١) شوفاني، الموجز في...، ص ٢٩٨.

(٢) شوفاني، الموجز في...، ص ٣٠٣.

بالمهجرة إلى فلسطين لتأسيس مملكة يهودية، ورد هرتزل على ذلك بأن قدم النص الحرفي لخطابه في المؤتمر وأضاف بأنه لم يقل إلا ما خوله السلطان في أيار ١٩٠١ أن يقوله، وهو لم يقل ذلك إلا بعد أن كتب إلى السلطان.^(١) بدأ عزت الكلام بخشونة: ماذا كان هدف زيارتك في أيار الماضي؟ فأجاب هرتزل بأنه قد ذكر السبب في حينه وهو "تقديم العون لتركية إذا كانت هي تقدم العون لليهود"، وأجاب عزت بأن "السلطان مستعد أن يفتح الامبراطورية أمام اللاجئين اليهود من جميع الدول بشرط أن يتعهدوا بأن يصبحوا رعايا عثمانيين بكل ما يفرضه ذلك عليهم من واجبات، وبهذه الطريقة يستطيعون سكنى أية مقاطعة في البلاد عدا فلسطين بادئ الأمر، مقابل ذلك يريدكم جلالة السلطان أن تؤلفوا وكالة لتصفية الدين العام وللقيام باستثمار مناجم ومعادن الامبراطورية كلها".^(٢)

١- موقف هرتزل من شروط السلطان:

ترث هرتزل بداية أمام هذه الشروط لكنه ما لبث أن طلب شيئاً ملموساً، فأبلغه عزت قراره غير المشجع وهو أن السلطان مستعد أن يفتح الامبراطورية لكل اليهود الذين يصبحون رعايا عثمانيين، أما المناطق التي ستسكنون فيها فإن الحكومة هي التي تعينها كل مرة على حدة، وستستثنى فلسطين منها، كذلك سيسمح للشركة العثمانية اليهودية للاستعمار بتوطين اليهود في ما بين النهرين وسورية والأناضول وأي مكان آخر باستثناء فلسطين، لكن هرتزل رفض أي وثيقة لا ذكر لفلسطين فيها وحاول عزت إقناعه بقبول وجهة نظر السلطان، لكن هرتزل أجاب بأنه لا يقبل إلا بالمهجرة غير المقيدة ورد السلطان عليه بعدم استطاعته السماح بالمهجرة غير المقيدة، ولما ذكر ابراهيم أن الحكومة تحتاج إلى مليون جنيه بصورة عاجلة أجاب هرتزل: أعطني الاستيطان غير المقيد وسوف تحصل على المليون في وقت قصير، أستطيع أن أعدك بذلك رأساً لأن من أجله جئت. ألح هرتزل على مواصلة الاتصال مع المسؤولين العثمانيين وبعد عام بعث بسلسلة من الرسائل إلى السلطان وإلى الصدر الأعظم وإلى كبار رجال الدولة العثمانية، واقترح على السلطان مقابل التنازل لاستيطان منطقة الجليل تأمين قرض يهودي قدره مليوني ليرة عثمانية لحزينة الدولة وأن يصبح المستوطنون رعايا عثمانيين وأن تبقى المستوطنات في المنطقة تحت الحكم العثماني، وكتب إلى عزت باشا بأنه لا يطلب الكثير فقط الاستيطان في لواء عكا مقابل إيجار سنوي قدره مائة ألف ليرة عثمانية،^(٣) ثم عاود الاتصال مع عزت باشا في حزيران ١٩٠٣ وأفاده بأن المؤتمر الصهيوني سيعقد خلال بضعة أسابيع فإذا لم يصله خبر حتى ذلك الوقت فهو مضطر أن يعلن أن لا أمل من الوصول إلى تسوية

(١) N.Sokolow , History of Zionism 1600- 1918, (London 1919), P 59.

(٢) حلاق، موقف الدولة...، ص ٥٥.

(٣) عقد المؤتمر الصهيوني السادس في بال ١٩٠٣ وتقرر فيه إرسال لجنة لدراسة أراضي شرق إفريقيا.

مع حكومة السلطان وسيضطر للبحث عن بلاد أخرى غير فلسطين.^(١) لكن هرتزل لم يجد أذنًا صاغية لمحاولاته. كما أن ما تبقى له من أيام لم تتح له المجال لمعاودة اتصالاته مع المسؤولين العثمانيين فقد مات في ٣ تموز ١٩٠٤. وكان هرتزل أثناء محادثاته واتصالاته مع المسؤولين العثمانيين يسعى للاتصال مع جهات أخرى لإيجاد حل للمشكلة اليهودية، فأجرى اتصالاً مع الحكومة الانكليزية عام ١٩٠٢ بشأن استيطان اليهود منطقة العريش وأجزاء من شبه جزيرة سيناء لذلك أرسل لجنة للتحري عن صلاحية المنطقة واختيار أماكن مناسبة، وكان هرتزل يظن أنه إذا استوطن اليهود العريش فسوف يتمكن من الحصول على قضاء حيفا بثمن أرخص فصرح في تشرين الأول ١٩٠٢ بأن انكلترا بمنحها سيناء والعريش للصهيونيين ستزيد في قوتها وتحصل على امتنان عشرة ملايين يهودي.

وعندما نوقش مشروع العريش مرة ثانية في نيسان ١٩٠٣ أخبر هرتزل تشمبرلن أن الحصول على فلسطين لن يكون بالاتفاق بين الدول الأوروبية بل بسبب تنافسها، وإذا استطاع اليهود الحصول على منطقة العريش بمساعدة انكلترا فإن فلسطين ستكون منطقة نفوذ انكليزية، ولكن المشروع الصهيوني لاستيطان العريش فشل لأن الحكومة المصرية رفضت مشاريع الاستيطان ثم اهتم هرتزل بمشروع استيطان قسم من أراضي افريقيا الشرقية فأرسل لجنة لدراسة صلاحية الأراضي للاستيطان، ولكن المشروع فشل في سنة ١٩٠٥ عندما أعلن أتباع هرتزل من الصهيونيين المتشددين التحلي عن فكرة الاستيطان في افريقيا والتشبت بمشروع استيطان فلسطين.^(٢)

وبعد تصفية المشروع توقفت الاتصالات بين زعماء الحركة الصهيونية والحكومة الانكليزية ولم تستأنف إلا في صيف ١٩١٢.

وهكذا ظلّ السلطان عبد الحميد الثاني طيلة سنوات حكمه عقبة كاداء في وجه المشاريع الصهيونية في فلسطين. ويبدو أن تأثير بعض رجال الحاشية المهمين من العرب، مثل عزت باشا وأبو الهدى الصيادي من ناحية وحرص السلطان على الترويج لسياسته الاسلاميه^(٣) من جهة أخرى وبنبغي أن نضيف إلى ذلك الشكوك التي ساورت

(١) بعث هرتزل إلى عزت باشا عدة رسائل جانبية كتب له فيها رسالة في يونيو "كم تريد لنفسك إذا نجح المشروع، اطلب ما تريد واذكر على ورقة غير موقعة الطريقة التي تريد أن ندفع بها وابعث بذلك إلي في مطروف مختوم عليه اسمي فقط" وفي كانون الأول ١٩٠٣ بعث له برسالة أخرى: اذا توصلنا إلى اتفاق فسوف أقدم لك عشرة آلاف جنيه في اليوم الذي توقع فيه الاتفاقية وأنا مستعد أن أكتب هذا المبلغ بأي صيغة قانونية تريد مثلاً باسم ابنك أو باسم أي شخص آخر. انظر جميع مراسلات هرتزل في الفترة السابقة. انظر كتاب الشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية في فلسطين، ص ٤٣٧.

(٢) يذكر وايزمن أن المؤتمر الصهيوني وافق على مشروع استيطان أوغندا بأقلية ضئيلة جداً وكان رأي وايزمن والذين رفضوا المشروع معه- أن أوغندا ليست فلسطين ولا يمكن أن تكون كذلك في يوم من الأيام. انظر شهادة وايزمن أمام لجنة التحقيق الملكية، ص ١٧.

(٣) Leonard Stein . Balfour Declartion , London , 1961 . P . 25 . (٣)

السلطان بشأن النوايا الصهيونية والتي كانت قوية جداً. فقد أدت هذه الأسباب مجتمعة لأن يرفض السلطان جميع إغراءات الصهاينة المالية.^(١)

وإذا فشلت محاولات الحركة الصهيونية مع السلطان عبد الحميد، فقد واصلت مساعيها مع جمعية الاتحاد والترقي التي جاءت إلى الحكم بعد ثورة ٢٣ تموز ١٩٠٨، وتمكنت من تحقيق قسط يعتد به من النجاح بفضل المساعي التي بذلتها عناصر في الحكم من يهود الدونمة^(٢) الذين تستروا بالإسلام ولعبوا دوراً بارزاً في الثورة على حكم السلطان عبد الحميد.

لذلك رحبت الأوساط الصهيونية بالثورة، وأصبح لها نفوذ في جمعية الاتحاد والترقي، وأسست مكتباً لها في الآستانة باسم، مكتب فلسطين وانتدبت فكتور جاكسون الروسي الأصل ومدير فرع الشركة الانكليزية الفلسطينية في بيروت رئيساً له، وتلخص نشاط المكتب في الحصول على امتيازات جديدة من الحكومة العثمانية وكسب تأييد عام للحركة الصهيونية، والتمهيد لعقد صفقات لشراء الأراضي من العرب.

وبدأ جاكسون نشاطه في استانبول فوراً. فاجتمع مع الحاخام باشي ومع الأعضاء اليهود في مجلس المبعوثان والأعيان، وأخذ موافقتهم على عدم معارضة المساعي الصهيونية في فلسطين، وأبدى البعض منهم تحفظات معينة وتطوع البعض الآخر بمساعدة النشاط الصهيوني ثم أخذ جاكسون يستطلع آراء زعماء تركيا الفتاة في الصهيونية وتبين له عدم عطفهم عليها كثيراً، لكنهم لم يعارضوا الهجرة اليهودية الواسعة إلى الدولة، ولما كانت لديهم معلومات عن حقيقة الصهيونية فإنهم ساووا بينها وبين الحركات القومية من حيث الانفصال عن الدولة لذلك ارتابوا في نواياها.

عادت جمعية الاتحاد والترقي بعد ثورة ١٩٠٩ إلى الحكم بسياسة جديدة تستهدف تزيك عناصر الدولة العثمانية لذلك أبدت تحفظاً إزاء الحركة الصهيونية، فعندما قام وفد من مجلس المبعوثان العثماني بزيارة لندن في صيف

(١) انتشرت إشاعة في عام ١٩٠٧ في صحف لندن تفيد أن السلطان عبد الحميد يميل لمنح امتياز لليهود في فلسطين وبأنه استدعى الحاخام الأكبر وعددًا من الممولين اليهود لمباحثتهم في الموضوع. ويعلق القنصل الانكليزي في القدس على الخبر بقوله أنه وفق المعلومات التي جمعها من القدس فإن للإشاعة بعض الأساس وعلل حافز السلطان لاتخاذ هذه الخطوة الرغبة في الحصول على مساعدة مالية من أغنياء اليهود.

(٢) الدونمة: كلمة تركية الأصل تعني "العودة" في حين فسرها اليهود بـ"المرتدين" وهي طائفة يهودية استقرت في استانبول وإزمير وسالونيك، اعتنقت الإسلام لأهداف سياسية محضة، وذلك إثر إعلان سبتاي زيفي أنه المسيح المنتظر، وقد أدى يهود الدونمة دوراً بارزاً في تفكيك أواصر الدولة العثمانية وذلك من خلال سيطرتهم على أمور القصر وخاصة دورهم البارز في خلع السلطان عبد الحميد الثاني. انظر: محمود عامر، تاريخ الماسونية ويهود الدونمة، دمشق، ٢٠٠٧، ص ٨٠. وانظر أيضاً: حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي - أطواره ومذاهبه، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٣٥ - ١٥١.

١٩٠٩ صرح طلعت باشا- ناظر الداخلية- وكان من أعضاء الوفد بأنه يرحب بالهجرة اليهودية إلى جميع أنحاء الدولة، لكنه حذر من أن أي نوايا انفصالية أو نزعات شريرة مغرضة سوف لا تنال عطفاً عليها. وقد طالب أحد مبعوثي القدس في مجلس المبعوثان بفعالية قرارات منع الهجرة اليهودية فأعيد العمل بالقيود التي فرضتها حكومة السلطان عبد الحميد في تشرين الثاني ١٩٠٠ ووضعت موضع التنفيذ من جديد في أيلول ١٩٠٩.^(١)

أما في فلسطين فقد كان من نتائج ثورة نيسان ١٩٠٩ ضدّ جمعية الاتحاد والترقي أن خشى قائمقام طبرية من انتهاز بعض العناصر في القضاء فرصة عدم الاستقرار السياسي في العاصمة فتهاجم المستوطنات اليهودية في المنطقة التابعة له، فسمح لليهود المستوطنات بتشكيل وحدة حراسة للدفاع عن أنفسهم، فكانت مستوطنة الشجرة (تأسست عام ١٩٠٠) في قضاء طبرية أول مستوطنة يهودية في فلسطين يتولى اليهود حراستها،^(٢) إذ كانت قبل ذلك تعتمد على حراس من الشركس والعرب والأترك. وكان دافيد جرين الصهيوني (بن غوريون فيما بعد وهو أول رئيس وزراء لإسرائيل) يرى أن الأمة اليهودية التي ستوجد نفسها من جديد في فلسطين لا تستطيع الاعتماد على بنادق المرتزقة الذين سيتخلون عن حماية اليهود وقت الخطر بل ربما انقلبوا ضدهم ولذلك أصر على أن يتولى اليهود الدفاع عن أنفسهم، لكن سكان المستوطنات رفضوا طلبه لاعتقادهم أن تسليح اليهود سوف يقودهم عاجلاً أم آجلاً إلى صدام مع العرب. وعندما بدأ الصدام العربي الصهيوني في مستوطنة الشجرة في نيسان ١٩٠٩ تمكن بن غوريون من فرض وجهة نظره بحتمية الصدام العربي- اليهودي على قادة المستوطنات.^(٣) ولكن المبعوثين العرب استمروا في مقاومة الحركة الصهيونية والاتحاديين لتواطئهم معها، أما في متصرفية القدس فقد قام المتصرف مهدي بك الألباني الأصل بجولة في المستوطنات اليهودية في قضاء يافا حيث ألقى في إحداها خطاباً باللغة الفرنسية في اجتماع ضم كبار المستوطنين اليهود في آب ١٩١٢ جاء فيه أن الحكومة العثمانية مستعدة لمعاملة الصهاينة معاملة حسنة ومنحهم استقلالاً إدارياً في مستوطناتهم وحق تنظيم قوات أمن خاصة بهم، وتشكيل مجالس بلدية لهم وقد استاء عرب فلسطين من خطاب المتصرف، ولما كان مهدي بك قد تكلم دون تصريح من الحكومة أدرك فداحة الخطأ الذي وقع فيه فتراجع وسحب جميع ما قال.

(١) . Mandel . op . cit . P . 94 .

(٢) . Mandel . op . cit . P . 93 .

(٣) حسن علي مصطفى خاطر، موسوعة القدس والمسجد الأقصى، القدس، ٢٠٠٤، ط١، ص ٢١-٢٦.

ثم أصدر أمراً إلى قائمقامي أفضية المتصرفية سمح بموجبه لليهود العثمانيين بتملك الأرض بشرط أن يكون ذلك في غير الأراضي الزراعية، ومنع اليهود الأجانب من تملك العقارات والأراضي سواء كان ذلك في المدن والقرى أو في خارجها.

وبهذا الشكل نرى كيف استمرت عمليات شراء الأراضي من قبل اليهود لاسيما من أصحاب الأملاك المقيمين خارج فلسطين في عهد حزب الحرية والائتلاف على الرغم من نيته تأييد معظم المبعوثين العرب. بل على الرغم من أن أعضاء الحزب كانوا يعيرون على الاتحاديين انتقال الأراضي إلى اليهود ويتهمونهم بالتواطؤ مع الصهيونيين، وعلق نجيب نصار- محرر جريدة الكرمل- على ذلك الوضع بقوله: ^(١)

"لعمري أن الاتحاديين ما كانوا يتظاهرون علناً مع الصهيونيين واتهم الائتلافيين بأنه بعد بلوغهم أمانهم السياسية لم يهتموا بموضوع الهجرة اليهودية". وأشار إلى نشاط المساعي الصهيونية في عهدهم قائلاً: "وهكذا بينما كان الائتلافيون ينادون على المنابر الرسمية بخطر الصهيونية ويتهمون الاتحاديين بالميل إليها جرت في عهد الوزارة الائتلافية بيع للصهيونيين خلال ثلاثة أشهر أكثر من البيوع التي تسامح فيها الموظفون الاتحاديون في ثلاثة سنين رغم أن وزارة كامل باشا كانت أقل ميلاً للصهيونية من الوزارات الاتحادية التي سبقتها، فإن البيوع للصهيونيين في عهدها على قصره كانت أكثر من التي جرت في عهد سابقتها". ^(٢)

٢- موقف حكومة الحرية والائتلاف من الحركة الصهيونية ومبرراتها:

تساهلت حكومة الحرية والائتلاف مع الحركة الصهيونية ويعود ذلك لحاجتها الماسة إلى الأموال لتدعيم خزانةها بعد حروبها مع دول البلقان، لذلك كانت تطمح بالحصول على الأموال اليهودية. فأجرت مفاوضات سرية مع الحركة الصهيونية لبيع الأراضي الأميرية في فلسطين وسورية لها وفي منتصف المحادثات قام أنور باشا بانقلاب كانون الثاني ١٩١٣ الذي أسقط حكومة حزب الحرية والائتلاف، وأعاد جمعية الاتحاد والترقي إلى الحكم واستمرت المفاوضات التي بدأتها حكومة الحرية والائتلاف مع الحركة الصهيونية وإزاء إلحاح أنور وطلعت ^(٣) في طلب الأموال كان رد الحركة الصهيونية عليه أنه ما دامت القيود مفروضة على الهجرة وامتلاك الأراضي فلا ينبغي للمسؤولين العثمانيين توقع الحصول على قروض من أغنياء اليهود. ^(٤)

(١) الكرمل: العدد ٢٩٠ في ١٠ كانون الأول ١٩١٢ نقلاً عن عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٥٧.

(٢) خاطر، موسوعة القدس، ص ٢٥.

(٣) أنور وطلعت: أعضاء في حكومة حزب الحرية والائتلاف، أنجيلينا الحلو، عوامل تكوين إسرائيل السياسية والعسكرية والاقتصادية، بيروت، ١٩٦٧، ص ٥٧.

(٤) Hyamson : The British Consulate in Jerusalem in Relation To The Jews in (٤) . P . 160 . (London 1939 – 1941) . 2 Vols . (Palestine 1838 – 1914) .

٣- تغير الموقف العثماني إزاء الحركة الصهيونية:

شنت الصحف العربية حملة انتقادات عنيفة ضدّ المفاوضات التي جرت بين الاتحاديين والصهيونيين واتهمتهم بعقد قروض صغيرة مع الحركة الصهيونية، وإن بعض رجالهم أو أنصارهم هم من معتمدي الجمعية الصهيونية وإن الوزارة الاتحادية الجديدة تميل إلى الصهيونية. وبعدها وجه الحاخام الأكبر لليهود إلى الصدر الأعظم ملاحظتين بشأن إلغاء الورقة الحمراء وإلغاء قيود التملك لمساحات واسعة خارج المدن والقرى في فلسطين وقيود تملك الأراضي داخل المدن بالنسبة لليهود غير العثمانيين، ووصف الحاخام الأكبر نظام الورقة الحمراء وقيود التملك بأنها "جرح عميق للملة اليهودية وكرامتها الدينية"، وفي يونيو صرح حازم بك والي بيروت، بأن مهاجرة اليهود إلى سورية نافعة للسلطنة العثمانية ومساعدة على ترقية البلاد وإسعادها.^(١)

في تلك الأثناء بدأت السلطات العثمانية تستجيب لرغبات الحركة الصهيونية تحت وطأة حاجة الخزينة الماسة إلى الأموال، فوصلت تعليمات الآستانة إلى السلطات المحلية في المتصرفية تفيد بوقف العمل بنظام الورقة الحمراء بدعوى إن هذا النظام أفسح المجال أمام إساءة الاستعمال، كما أنه فشل في تحقيق هدفه: وهو تقييد الهجرة اليهودية وأمرت التعليمات بتشكيل لجنة أهلية محلية للاشتراك مع السلطات في المتصرفية للنظر في اتخاذ اجراءات أكثر فعالية لمنع اليهود من البقاء في البلاد أكثر من ثلاثة أشهر، وعلى هذا الموضوع علق نائب القنصل الانكليزي في يافا على تشكيل اللجنة بقوله: "وبطبيعة الحال فإن الجزء الأخير من هذه الأوامر سيبقى حرفاً ميتاً ويعزى الأمر ببساطة إلى النفوذ اليهودي في دوائر الحكم العليا".^(٢)

وفي عام ١٩١٤ في شهر آذار ألغيت القيود المفروضة على تملك اليهود للأراضي في فلسطين وبذلك اختفت تماماً القيود التي فرضتها حكومة السلطان عبد الحميد للوقوف في وجه الهجرة اليهودية مما يدل على استمرار مساهمة السلطات الحاكمة للصهيونية وكان النفوذ الصهيوني في الدوائر الاتحادية قد بلغ أوجه في شباط ١٩١٤ عندما طالبت الحركة الصهيونية بتعيين قائممقاميين يهوديين في المدن التي أصبح فيها أكثرية يهودية كيافا وحيفا.

واستمر عطف الاتحاديين على الحركة الصهيونية، فأمرت وزارة الداخلية بتعطيل جريدة فلسطين في يافا بسبب مقال هاجمت فيه الصهيونية. وأمرت بإحالتها إلى المحاكمة بتهمة التفريق بين العناصر.^(٣)

أما موقف تركيا الفتاة التي قامت بثورة تموز ١٩٠٨ من الحركة الصهيونية فكان يختلف عن موقف السلطان عبد الحميد، فقد كانت تشك بنوايا الحركة الصهيونية لكنها لم تصدق إن الصهيونية خطر على الدولة العثمانية وتهدد

(١) الخلو، عوامل تكوين.....، ص ٥٩.

(٢) الخلو، عوامل تكوين...، ص ٦٠.

(٣) الخلو، عوامل تكوين...، ص ٦٢.

لكيائها، وعندما عادت جمعية الاتحاد والترقي إلى الحكم بعد ثورة نيسان ١٩٠٩ كانت تعتقد أن سياسة تتركب العناصر غير التركية ستحمي الدولة من الحركة القومية الانفصالية لذلك عندما لفت المبعوثون العرب نظر الحكومة المركزية إلى المسألة الصهيونية في منتصف عام ١٩٠٩ وفيما بعد في مجلس المبعوثان أبدى المجلس اهتماماً مؤقتاً بسبب انشغاله في مشاكل أخرى نجمت عن حرب الدولة في أوروبا وبسبب حاجة الاتحاديين إلى المال ألغيت القيود عن الهجرة والتملك في فترة ١٩١٣-١٩١٤ لكن موقف الاتحاديين من الحركة الصهيونية تغير في أثناء الحرب العالمية الأولى بسبب انحيازها إلى جانب الحلفاء فأصدر جمال باشا بوصفه قائد الجيش الرابع أمراً في ٢٥ كانون الثاني ١٩١٦ منع بموجبه رفع العلم الصهيوني كما منع رفع أي لافتة باللغة العبرية وصادر جميع الطوابع والأوراق المالية التي تخص الحركة الصهيونية، وألغى جميع المؤسسات اليهودية في فلسطين وحرد حرس المستوطنات اليهودية من السلاح وجاء في البيان أيضاً أن الحكومة فعلت ذلك بناء على ما لديها من معلومات تثبت أن بعض العناصر تتآمر باسم الصهيونية لإقامة مملكة يهودية في فلسطين فاضطر كثير من اليهود للهجرة إلى مصر. وبهذا الشكل نرى أن السلطان عبد الحميد تخوف من خطر الصهيونية على الدولة العثمانية، لذلك قاومها وفرض قيوداً على الهجرة، وإذا لم تكن تلك القيود ناجعة تماماً للأسباب التي أشرت إليها سابقاً، فإن ذلك لم يكن بسبب تحول السلطان عن رأيه تجاه الخطر الصهيوني الذي استمر يخشاه حتى عزله في نيسان ١٩٠٩، وإذا كان السلطان قد اضطر تحت وطأة الدين ومشاكل الدولة المالية للدخول في مفاوضات طويلة استمرت من (١٨٩٦-١٩٠٣) مع هرتزل لكنها انتهت بالفشل بسبب تشبث السلطان في موقفه المعارض لفكرة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وبلغ من حقن الصهيونية أن فكرت في استعمال العنف مع السلطان عبد الحميد بعزله وتولية محمد رشاد بدلاً منه بعد المساومة على فلسطين.^(١)

ثالثاً: مراحل استقرار اليهود في القدس:

جاء اليهود إلى القدس على شكل جماعات قليلة في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي الربع الأخير منه حدث تحول خطير في عدد ونوعية المهاجرين- كما رأينا في الفصل السابق- ذلك أن نسبة لا بأس بها من

(١) يذكر هرتزل في يومياته أن القنصل العام للدولة العثمانية في فيينا (علي نوري بك) قدم له مشروعاً غريباً بالحصول على مبتغى الصهيونية بالقوة وهو الإبحار إلى البوسفور في باخرتين ونسف يلدز وإتاحة الفرصة للسلطان عبد الحميد بالهرب أو القبض عليه وتعيين سلطان آخر بدلاً منه ولكن قبل ذلك يقيمون حكومة مؤقتة تعطيهم امتياز الاستيطان في فلسطين ورغم غرابة القصة فقد درسها هرتزل وقدر تكاليفها وفكر بعواقب فشلها وقد طرحت الفكرة في ٢٤ شباط ١٩٠٤ وقرر هرتزل اللجوء إليها إذا فشلت مساعيه الأخيرة السلمية في استانبول لكنه أبرق إلى نوري بك في ١٩ نيسان ١٩٠٤ معترداً عن قبول الاقتراح بسبب خشية هرتزل من قيام مذبة هائلة يبنى بها اليهود في الدولة العثمانية إذا فشل المشروع. انظر: يوميات هرتزل، إعداد أنيس صايغ، ترجمة هلدا شعبان صايغ، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٠٦.

المهاجرين كانت من الصهاينة المثقفين ثقافة عالية، وكانت الأكثرية منهم يملأ جوانحها الشعور القومي، فقد كانوا يعتبرون أنفسهم بناء الوطن القومي أو معيدي بنائه. وبهذا الشكل حاول اليهود تحويل فلسطين إلى وطن يهودي عن طريق امتلاك الأراضي وإنشاء المستوطنات عليها وإحياء اللغة والثقافة العبرية وهذا الاستقرار في القدس مرّ بمرحلتين هما:

١- الاستيطان غير المنتظم وينتهي بسنة ١٩٠٠.^(١)

٢- الاستيطان المنظم ويبدأ بسنة ١٩٠٠. وفي هذا العام يتخلى البارون ادمون دي روتشيلد^(٢) عن ادارة المستوطنات التي أسهم في تمويلها ودعمها وتنزل عنها إلى جمعية الاستعمار اليهودي.

jewish colonization on Association أو I . C . A أيكا.

١- مرحلة الاستيطان العشوائي:

تميزت هذه المرحلة بسيطرة مشاريع الاستيطان الشخصية أو الفردية التي تمثلت بالجهود والمساعدات التي بذلها رواد الحركة الصهيونية من اليهود واتخذت شكلاً خيراً وكان الهدف منها العطف على فقراء اليهود ومد يد العون والمساعدة لهم ولم تكن هذه الجهود منظمة، حيث لم يكن هناك من شيء يربط بينها سوى العطف على اليهود. ومن أهم هذه المشاريع الفردية:

أ- مشروع مونتيفوري:

يتلخص هذا المشروع بمحاولة موسى مونتيفوري شراء أراضي مئة أو مئتي قرية من محمد علي بشروط معينة لكن المحاولة باءت بالفشل. أما عندما عادت بلاد الشام ثانية للحكم العثماني ١٨٤٠ جدد مونتيفوري جهوده لهذا المشروع واستطاع الحصول على فرمان من السلطان عبد الحميد عام ١٨٥٦ بالإذن بشراء قطع من الأرض بالقرب من القدس ويافا فأنشأ فيها بساتين وأسكنها عائلات قليلة من المستوطنين اليهود، لكن مشروع مونتيفوري لم يلق نجاحاً رغم اهتمامه به وزيارته فلسطين أكثر من سبع مرات، حيث أبقت السلطات العثمانية مشروعه مجمداً. وهكذا نرى كيف تحفظت الدولة العثمانية إزاء مشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين، وكانت قد رفضت من قبل مشروع بالمرستون الذي حثّ فيه السلطان العثماني على تشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين.

(١) Esco Foundation for Palestine . P . 52 .

(٢) ادموند دي روتشيلد: أحد أغنياء اليهود المشهورين من أسرة روتشيلد في باريس قدم مساعدات مالية جمة للمستوطنات اليهودية في فلسطين. فاشترى لها الأراضي وبنى البيوت فيها وأرسل المدرسين الزراعيين لتعليمهم الفلاحة....، انظر رفيق وبهجت، ولاية بيروت، ص ٣١.

وقبل محاولة مونتفيوري أي في عام ١٨٥٠ وصل إلى القدس ثلاثون عائلة من اليهود المغاربة واستقروا في شفا عمر قرب الناصرة واشتغلوا بزراعة الحبوب، وتلقوا المساعدات من انكلترا لكن هذه العائلات لم تنجح في الزراعة وانتقلت إل حيفا حيث اشتغلت بالتجارة ويعود فشلها بالزراعة لكونها لم تعد الأعمال الزراعية من قبل.^(١)

ب- مشروع لورانس أوليفانت:

سمي هذا المشروع باسم صاحبه لورانس أوليفانت^(٢) وهو عضو البرلمان الانجليزي في سنة ١٨٧٩ الذي تقدم بملاحظات للباب العالي حول إسكان المهاجرين اليهود في جوار القدس بدعوى أن المقصود في ذلك إعمار البلاد والقيام بخدمة سياسية للدولة وإتاحة الفرصة أمام الحكومة العثمانية لإظهار ما تكنه من عطف لطائفة اليهود التي لاقت الاضطهاد في كل مكان، وفكرت بالبحث عن ملجأ آمن، وقد وجدته في الأراضي العثمانية، ولا شك في أنها ستحمل معها الثروات الطائلة وستحيل المكان الصحراوي القاحل في فترة وجيزة من الزمن إلى أراضٍ عامرة تكون بدورها وسيلة لإعمار ما حولها، وبذلك يتسنى للدولة أن تثبت للعالم نواياها الإصلاحية وأنها تغتنم كل فرصة لتحقيق الإصلاح الذي يرجع القصور في تطبيقه إلى الضيق المالي فقط.

تقدم أوليفانت بهذا المشروع بعد أن وضع بعض الملاحظات عليه، وخلص إلى القول بأنه يطلب السماح لجماعة من اليهود العثمانيين لإنشاء شركة عثمانية خالصة تقوم بإعمار لواء القدس وتطوير صناعته وتجارته وزراعته أيضاً وهذا كله يخدم سياسة الحكومة العثمانية أمام الدول الأجنبية وخلاصة مشروع أوليفانت كما وصفه في كتاب أرض جلعاد^(٣) تتضمن فصل البلقاء عن لواء نابلس، ليتسنى لليهود من رعايا السلطان استغلال أراضي البلقاء بواسطة الأموال والخبرات والصناعات التي سيحضرونها معهم. وستبيع الدولة الأراضي هناك بشمنها وستأخذ مبالغ ضريبية في كل عام وستبعد اليهود عن المنطقة وتباشر نفوذها الفعلي في المناطق الصحراوية المجاورة، بالإضافة إلى إعمار البلاد وعطف العثمانيين على اليهود، لكن هذا المشروع أخفق بسبب فشله في نيل موافقة السلطان عبد الحميد.

وإلى جانب هذه الجهود الفردية وجدت جمعيات يهودية في أوروبا، فقد تشكل الاتحاد الإسرائيلي العالمي "الأليانس" في باريس عام ١٨٦٠ وهو عبارة عن منظمة يهودية عالمية لحماية وتحسين أحوال اليهود. واستطاع في

(١) مخطوط: القول الصادق في الأستاذ نعيم فائق، تأليف الكونت فيليب دي طرزي، مصنف تحت الرقم ١٢٨ في المكتبة الظاهرية، ص ١١١.

(٢) كان لورنس أوليفانت سياسياً ومبشراً وصحفيّاً ونائباً في آن واحد، كرس جزءاً من حياته للتعرف على العالم وأخى رحلاته بالإقامة في حيفا. وقد وجد ضالته في الصهيونية كوسيلة لتطوير واستغلال الأراضي في فلسطين بأموال يهودية عالمية وكأداة لترسيخ النفوذ الانكليزي على طريق الهند. انظر: أنيس الصايغ، الهاشميون وقضية فلسطين، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٨-١٩.

(٣) Oliphant , Laurance . The I and . of Gilead . P . 504 .

عام ١٨٧٠ افتتح أول مدرسة زراعية بالقرب من يافا سميت مكفا إسرائيل. وفي سنة ١٨٧١ تأسست في لندن مؤسسة مماثلة للاليانس سميت الاتحاد اليهودي الانكليزي.^(١)

لقد أسس يهود روسيا "جمعية محبي صهيون" كما تأسست جمعيات ومنظمات أخرى في سائر المدن الأوروبية. وقد تنافست هذه الجمعيات في تأسيس فروع لها بهدف جمع الأموال لمساعدة اليهود على الاستيطان في فلسطين وبذلت هذه المؤسسات اليهودية جهوداً كبيرة لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين عن طريق تأسيس المستوطنات والمدارس الصناعية والزراعية.

يذكر وليم فهمي في كتابه الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة أن الدعم الأقوى والأكبر جاء من البارون ادموند روتشيلد الذي أسس على نفقته الخاصة سبع مستوطنات كانت من أوائل المستوطنات اليهودية في فلسطين كما أنشأ صندوقاً للتوسع في أعمال الاستيطان وزوده بعشرة ملايين دولاراً إضافية للاستمرار في تنفيذ المشروع.^(٢) وهكذا نرى أن البارون روتشيلد وابنه جيمس قدما مساعدات سخية شملت مستوطنات بتاح تكفاريشون زيون، زكرون يعقوب وروشينا ومستوطنات أخرى. وسنتحدث عن بعض المستوطنات اليهودية في متصرفية القدس التي تأسست في المرحلة الأولى للاستيطان اليهودي.

١ - مستوطنة مكفا إسرائيل (١٨٧٠) ^(٣):

وصل اقتراح شارل بيتر للسفارة العثمانية باسم الاتحاد الإسرائيلي العالمي لإنشاء مدرسة زراعية في لواء القدس، وبعد مباحثات طويلة بين الباب العالي ووالي سوريا الذي كان موجوداً في استانبول آنذاك بخصوص الأراضي والإعفاءات المطلوبة، وبعد البحث والمذاكرة مع بيتر تبين للجنة المختصة المشكلة من مجلس شورى الدولة أن المدرسة تستهدف ترقية الزراعة في البلاد وفق الأساليب الحديثة لذا تم الترخيص للمدرسة باشغال ٢٦٠٠ دونم تؤجر للجمعية مع إعفائها من العشر لمدة عشر سنوات، على أن لا يتجاوز البناء الحد الذي يحتاجه طلاب المدرسة وهو ستون طالباً، وعلى أن تكون المدرسة تحت إشراف نظارة المعارف العثمانية وقدرت الدولة ثمن الأراضي بمبلغ ٨٠ ألف قرش ومدة الامتياز ٢٥ عاماً مع إعفاء الأدوات والكتب واللوازم الأخرى من الرسوم الجمركية على أن يتم إنشاء المدرسة خلال سنتين من تاريخ صدور الإرادة ٢ صفر ١٢٨٦ / ١٨٦٩ وألا تعتبر الدولة الاتفاق لاغياً وتم تنفيذ المشروع، وفي التسمية إشارة واضحة لمطامع اليهود في ذلك العهد المبكر نسبياً،

(١) مخطوط القول الصادق في الأستاذ نعيم الفائق، ص ١١٤.

(٢) وليم فهمي، الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، القاهرة، ١٩٧١، ص ٥٣.

(٣) مكفا إسرائيل وتعني بالعبرية أمل إسرائيل، انظر: عبد الوهاب المسيري، الموسوعة اليهودية، مصر، ١٩٩٩، ج ٣، ص ٣٦.

لكن المدرسة أخلّت بهذه الشروط في آخر العهد العثماني وحصرت القبول في اليهود الاشكنازيم أما اليهود السفارديم فلم يستفيدوا منها إلا في حالات نادرة.^(١)

كان الهدف من تأسيس "مكفا إسرائيل" تزويد المستوطنين اليهود بالخبرة الزراعية وتقديم التسهيلات لهم. وتعليم شباب اليهود المهن الزراعية.

يعتبر المؤرخون اليهود مكفا إسرائيل أول مستوطنة رسمية زراعية يهودية في فلسطين وفي هذه المستوطنة تم استخدام فلاحين عرب في الأعمال الزراعية ولكنها بنفس الوقت لاقت معارضة الفلاحين في القرى المجاورة الذين لم يرحبوا بها، وحدثت مشاكل حول حدود الأراضي،^(٢) كما اعتدى الفلاحون على مزروعات المستوطنة وأتلفوا قسمًا منها. ويبدو أن الفلاحين لم يرحبوا بوجود مؤسسة أجنبية تتوسط قراهم.

٢- مستوطنة بتاح تكفا (١٨٧٨)^(٣) وتعني بالعبرية "باب الأمل":

اشترى جماعة من اليهود الذين سكنوا القدس قطعة أرض شمال يافا. وذلك بعد ثماني سنوات من تأسيس مكفا إسرائيل، وأسسوا فيها مستوطنة بتاح تكفا التي كانت من أنجح المستوطنات اليهودية في فلسطين، رغم تعرض أوائل المستوطنين لحمى الملاريا ومرورها بأزمات متعددة تمكنت من تجاوزها بفعل المساعدات المالية التي وصلتها في أعقاب زيارة حاخام اليهود الأكبر في لندن، وزيارة مندوب "جمعية محبي صهيون" فقد سجلت الزيارتان مرحلة جديدة في مستقبل هذه المستوطنة.

إنّ الحديث عن الاستيطان غير المنظم يتطلب الإشارة إلى الجهود التي بذلت من قبل "جمعية محبي صهيون" التي انبثقت عن اجتماع يهودي عام عقد في مدينة "كوتز" في ألمانيا بالقرب من الحدود مع روسيا، حيث تقابل عدد من اليهود يمثلون جميع الفئات اليهودية في مختلف الأقطار وقرروا استيطان فلسطين زراعياً ونظموا جمعيات جديدة واستعانوا بالأموال ليشتروا في فلسطين أرضاً وليؤسسوا لأنفسهم فيها مستوطنة نشيطة.^(٤)

لقد تبنت هذه الجمعية فكرة استيطان فلسطين وإحياء اللغة العبرية فيها، وبذلك نبتت أولى بذور الصهيونية السياسية. لقد عرفت هذه الجمعية باسم "جمعية مساعدة المزارعين والمهنيين اليهود في فلسطين وسورية" وكانت برئاسة "ليون بنسكر" وتمثل نشاط جمعية محبي صهيون في فلسطين بإقامة مستوطنة "ريشون ليتسيون"^(٥) - الأولى في صهيون - قرب يافا في سنة ١٨٨٢ ثم أسست في نفس العام مستوطنتي، زكرون يعقوب - تذكاري يعقوب - إلى

(١) مخطوط القول الصادق، ص ١١٦.

(٢) قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي، ص ١٩.

(٣) بتاح تكفا وتعني بالعبرية: باب الأمل، انظر المسيري، الموسوعة اليهودية، ج ٣، ص ٣٩.

(٤) تايلر، تاريخ الحركة...، ص ١٤.

(٥) ريشون ليتسيون: وتعني القادمون الأوائل، المسيري، الموسوعة اليهودية، ج ٢، ص ٢١٦.

الجنوب الشرقي من حيفا "روشبينا" -حجر الزاوية- في الطريق بين طبرية وصفد^(١) وكان سكان "زكرون يعقوب وروشبينا" من يهود رومانيا. وهكذا تمكن اليهود في القرن التاسع عشر من إيجاد ثماني مستوطنات زراعية في فلسطين، خمسة منها في متصرفية القدس وثلاثة في لواء عكا التابع لولاية بيروت. وقد عانت هذه المستوطنات لاسيما التي في ضواحي يافا من صعوبات محلية ومن المعارضة القوية للسلطات العثمانية وتلقى معظمها مساعدات مالية من البارون ادمونددي روتشيلد الذي اهتم بها منذ البداية لدوافع دينية وخيرية. فقد كان عدد المستوطنات المكتفية ذاتياً والتي لا تتلقى مساعدات حتى عام ١٨٩٣ لا يزيد عن مستوطنتين.^(٢)

٢- مرحلة الاستيطان المنظم:

قررت الحركة الصهيونية في مؤتمر بال عام ١٨٩٧ تطوير عملها، وإعطائه طابعاً سياسياً والأخذ ببرنامج عمل استيطاني أكثر تنظيماً، ويحظى بتأييد اليهود وذلك رغبة منها في تقوية وتثبيت المسوطنات الزراعية في القدس.^(٣) وفي سبيل الإسراع بالاستيطان المنظم عملت الحركة الصهيونية على إيجاد الأجهزة والأدوات التي كان الهدف منها تعميم عملية الاستيطان وتمويلها، والإشراف عليها والتأكد من أنها لن تلاقى مصير التجارب التي سبقتها، ولتحقيق هدف الحركة الصهيونية وهو- كما عبر عنه المؤتمر الصهيوني الأول في بال آب ١٨٩٧- السعي لإيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام اتخذ المؤتمر القرارات التالية:

١- توطين عدد مناسب من اليهود في فلسطين يختارون من بين الزراع والصناع ورجال الأعمال.

٢- تنظيم اليهود محلياً ودولياً وفقاً لقوانين كل دولة.

٣- تنمية الوعي القومي اليهودي وتقويته.

٤- الحصول على الموافقات الحكومية الضرورية.

انشغل هرتزل باتصالاته مع السلطان عبد الحميد من ناحية ولم يستقر رأي الحركة الصهيونية في عهد هرتزل على استيطان فلسطين من ناحية أخرى فقد ظهر مشروع استيطان العريش وسيناء ثم مشروع أوغندا لذا تأخر تنفيذ هذا المشروع بعض الوقت وكان هرتزل يرى أن الاستيطان اليهودي لفلسطين على نطاق واسع ومنظم يجب أن

(١) مخطوط أعظم المآثر السلطانية السكة الحديدية الحجازية- الشامية، محمد عارف الحسيني عام ١٣١٨هـ، مصنف تحت الرقم ١٠٨١٠ في المكتبة الظاهرية، ص ٩.

(٢) مخطوط أعظم المآثر السلطانية السكة الحديدية الحجازية، ص ١١.

(٣) فايز صايغ، الاستعمار الصهيوني في فلسطين، تعريب عبد الوهاب الكيالي، بيروت، ١٩٦٥، ص ٩-١١.

يعتمد على دعامتين: الأولى وهي موافقة السلطان، والثانية الاستيطان التدريجي وإنشاء الوطن القومي على مراحل زمنية قد تستغرق ٣٠-٤٠ عاماً.^(١)

وبعد وفاة هرتزل الذي أسس للصهيونية السياسية التي كانت ترى عدم الشروع في استيطان فلسطين قبل الحصول على براءة من السلطان العثماني تأذن به وتعترف صراحة بأنه يهدف إلى خلق كيان سياسي قائم بذاته، عملت جمعية الاستيطان اليهودي على تقديم المساعدة للمدارس اليهودية الصناعية والزراعية، كما قامت الجمعية في بعض الأحيان بطرد بعض المستوطنين الذين لا يلتزمون بنظام المستوطنة، وقد عملت هذه الجمعية على توسيع أراضي المستوطنات وتنظيم إدارتها بحيث تكتفي ذاتياً ونتيجة للإجراءات السابقة سخط كثير من المستوطنين اليهود على الإدارة الجديدة وهاجروا إلى استراليا وأمريكا.^(٢)

نالت هذه الجمعية معاضدة انكلترا، فأصدرت سفارتها في استانبول تعليمات سريعة بالاستمرار بتقديم الحماية الانكليزية إلى مشاريع الجمعية الواقعة ضمن دائرة اختصاص القنصلية الانكليزية في القدس، وقد وضعت تحت تصرف هذه الجمعية الأموال اللازمة كما وتفرغت عنها مؤسسات زراعية، وكان من المهام التي أنيطت بالجمعية شراء الأراضي وتدريب القادمين الجدد من اليهود على الفلاحة، وإدخال الطرق الزراعية الحديثة إلى المستوطنات.

رابعاً: أجهزة الاستيطان الصهيوني:

١- الوكالة اليهودية:

وهي الجهاز الذي يشرف على حركة الاستيطان في الجمعية الصهيونية، وتُعنى باسكان المهاجرين اليهود في المستوطنات الصهيونية ومن المبادئ التي سارت الوكالة عليها، اشتغال المزارع بنفسه، ومعنى ذلك أن لا يعطى المزارع من الأرض زيادة عما يستطيع زراعته هو وعائلته فقط دون أن يتلقى مساعدة في العمل من الخارج، وكانت الطلائع "الحالوتسيم" تتلقى تدريباً على الأساليب الزراعية قبل قدومها إلى فلسطين. ورغم ذلك لم تكن مستوطنات الوكالة اليهودية مكتفية ذاتياً، كما لم يكن بينها حتى عام ١٩٣٠ من دفعت شيئاً إزاء المبالغ التي انقضت عليها من صندوق رأس المال القومي اليهودي "الكارن كايمت".^(٣)

(١) صايغ، الاستعمار الصهيوني...، ص ١٥.

(٢) جون هوب سمبسون، فلسطين، تقرير عن الهجرة ومشاريع الاستيطان والعمران، القدس، ١٩٣٠، ص ٥٧-٥٨.

(٣) جامعة الدول العربية: الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ص ٧.

٢- الصندوق القومي اليهودي: الكارن كايمت:

اتخذ المؤتمر الصهيوني الأول في بال ١٨٩٧ قراراً بإنشاء مصرف قومي يهودي، وتمت الموافقة على ذلك في المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن ١٩٠٠ وذلك لشراء الأراضي في فلسطين، وقد سجل المصرف في لندن باسم "كارن كايمت" في سنة ١٩٠٤^(١) واستطاع الصندوق تملك حوالي ١٥ ألف دونم من الأراضي في منطقة يافا والجليل في سنة ١٩٠٥ وكان من واجبات الصندوق تزويد المهاجرين الجدد بقطع مناسبة من الأراضي للسكن والاستثمار. اشترط الكارن الكايمت في عقود الإيجار استخدام اليهود فقط، وأن لا يستلم الأرض أحد من غير اليهود ولم يعط المزارع اليهودي المستأجر من "الكارن كايمت" مستندات تؤمن له الزراعة أو تبين له شروط الإيجار وعلى أي حال فإنه لم يكن بحاجة لتشريع يضمن له حق البقاء في الأرض.^(٢)

ويتبين من سياسة الصندوق القومي اليهودي أنه حرص عند ابتياع الأراضي على اعتبارها ملكاً جماعياً للشعب اليهودي، واستهدفت الحركة الصهيونية من ذلك إظهار اليهود بمظهر الأمة الواحدة ذات الملكية الواحدة لأن مبدأ الملكية الجماعية يقوي التضامن بين الأفراد ولأن الملكية الخاصة التي تقوم على حافز الربح قد تغري اليهودي ببيع أملاكه إلى غير اليهود أو استخدام الطاقة العمالية غير اليهودية لرخصتها وكل ذلك يتناقض مع المخطط الصهيوني الذي يرى أن الفلاح اليهودي هو الذي يجعل الأرض يهودية، بل إن الصندوق القومي اليهودي لم يكتف بابتياع الأرض باسمه بل سعى لإقناع أصحاب الملكيات الخاصة من اليهود بتحويل ملكياتهم الخاصة إلى ملكية عامة. أو على الأقل الامتناع عن استخدام العمال العرب، لذلك اشترط على المستفيدين من خدماته أن يقصر الإقراض والمساعدة الفنية على الفلاح اليهودي الذي يستخدم العمال اليهود فقط في أرضه. وكانت مستوطنة دجانيا التي تأسست عام ١٩٠٩ على بعد أميال من جنوب بحيرة طبرية أول مستوطنة صهيونية "كبتوس" طبقت فيها سياسة الصندوق القومي.^(٣)

٣- الصندوق التأسيسي اليهودي: الكارن هايسود:

اختص الكارن كايمت بشراء الأراضي أما الكارن هايسود فقد اختص بالخدمات العامة وبتأخذ الوسائل العملية للاستيطان، وكانت نفقات الصندوق الأساسية كثيرة جداً، وزاد رأس المال المصروف في كل مستوطنة على قيمتها ونصت المادة السابعة من عقود الصندوق، بأن يتعهد المستوطن، ما دام لم يسدد السلفيات المعطاة له بأن يقيم

(١) سمبسون، فلسطين...، ص ٦٢.

(٢) نصار، الصهيونية، ص ٤٥.

(٣) مخطوط سلاطين آل عثمان، الجزء ٢٣ الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني، مجهول المؤلف، مصنف تحت رقم ١٠٧٠٤ في المكتبة الظاهرية، ص ٢٠.

في الأرض الزراعية، وأن يقوم بذاته أو بمساعدة عائلته بجميع أشغال الفلاحة اللازمة في مزرعته، ويتعهد أيضاً بأن يستأجر عمالاً من اليهود فقط.

أنفق الكارن هايسود في سنة ١٩١٤ ما يعادل ١٤٤,٦٤٢ جنيهًا فلسطينياً منها ٢٨,٧٠٤ للأراضي الزراعية و٢,٧٦٩ لإستصلاح الأراضي و٩١٢ لأراضي البناء و٢٥,١٢٤ أبنية للمزارع و٢٣,٢٣٠ غراس وأحراش و٣,٣٨٢ ماكينات وآلات جر المياه و١٢,٨٨١ أبنية في المدن و٣٦,٢١٨ سلفيات و١١,٣٩٢ سلفيات زراعية.^(١)

٤- الشركة الانكليزية الفلسطينية:

أسس اليهود في لندن عام ١٩٠٢ الشركة الانكليزية الفلسطينية التي كان رأس مالها (١٢٠) ألف جنيه استرليني ومركزها الرئيسي في يافا ولها فروع في القدس والخليل لم تهدف هذه الشركة إلى الربح المادي بل هدفت إلى البحث عن الامتيازات لمشروعات اقتصادية، وحرصت على مساعدة الحكومة العثمانية بقروض مقابل الحصول على امتيازات للحركة الصهيونية في فلسطين وإزالة القيود عن الهجرة اليهودية.

بذلت هذه الشركة قصارى جهدها لدعم اليهود الذين هاجروا من أوروبا الشرقية إلى القدس ودفعهم ليكونوا نواة يهودية في فلسطين قادرة في المستقبل على التزود بالقيم والتقاليد اليهودية، والنهوض بفلسطين كي تحتل مكاناً يليق بالشعب اليهودي وعندما طلبت الشركة منحها ترخيصاً للعمل في يافا باعتبارها مؤسسة تجارية في أيلول ١٩٠٧ رفض رئيس المحكمة التجارية في يافا طلبها. فتدخل القنصل الانكليزي في القدس لدى المتصرف الذي أوعز بدوره إلى قائمقام يافا ليقوم بإبلاغ رئيس المحكمة بتحميله مسؤولية تأخير تسجيل الشركة باعتبار أن ذلك يفسح المجال أمام المداخلات الأجنبية، لكن العرب رفضوا التعامل مع هذه الشركة وفي أوائل عام ١٩١٦ أوقفها جمال باشا عن العمل.^(٢)

٥- شركة تطوير الأراضي الفلسطينية المحدودة:

تمت الموافقة على تأسيس هذه الشركة في المؤتمر الصهيوني الثامن في لاهاي ١٩٠٧ وهدفت إلى استيطان اليهود في فلسطين بشراء قطع من الأراضي وإعدادها للزراعة وقد تعاونت بعد ذلك مع أجهزة الاستيطان الأخرى. فكانت تعمل على استصلاح الأراضي لحساب الصندوق القومي اليهودي "الكارن كايمت" ثم تسلمها له عند الطلب ويسلمها بدوره إلى الصندوق التأسيسي اليهودي "الكارن هايسود" لإسكان المهاجرين اليهود فيها.^(٣)

(١) مخطوط سلاطين آل عثمان، الجزء ٢٣، ص ٢٢.

(٢) هاني الهندي، حول الصهيونية وإسرائيل، بيروت، ١٩٧١، ص ٣٨ - ٤٢.

(٣) رزوق، إسرائيل...، ص ٦٦ - ٧١.

خامساً: سياسة الحركة الصهيونية في إدارة المستوطنات اليهودية:

اختلفت أساليب إدارة المستوطنات اليهودية باختلاف أنظمة الاستيطان اليهودي في فلسطين، واختلاف مصادر المهاجرين، فكان هنالك "بيارات للبرتقال يمتلكها أفراد، ومستوطنات تعاونية يكون العمل فيها مشتركاً عند البعض وفردياً عند البعض الآخر ومستوطنات اشتراكية قليلة لا يتقاضى فيها العامل"^(١) أجراً بل توزع فيها الأعمال والحاجيات حسب المفهوم الاشتراكي. ويعود التنوع في أساليب إدارة المستوطنات إلى أن عدداً من اليهود جاؤوا إلى فلسطين بوسائلهم الخاصة فاستغلوا المزارع التي اشتروها بأموالهم دون مساعدة خارجية.

كما وجدت مستوطنات فيها مستوطنون يمتلكون الأرض ويدفعون أقساطاً سنوية إلى الجمعية اليهودية صاحبة الأرض الأصلية.^(٢) وهناك مستوطنات أخرى تدار بموجب نظام تعاوني خاص فيما يتعلق بشراء الأدوات ووسائل الإنتاج وتسويق المنتجات، فمثلاً شكلت تعاونيات لتصدير البرتقال وبيعه، وكذلك كان مزارعو الكروم يرسلون إنتاجهم من العنب إلى مصانع الخمور الكبيرة في "ريشون لزيون". وقام بإدارة المستوطنات مجلس منتخب من أصحاب الأملاك تألف من سبعة أعضاء رأس أحدهم المجلس وتولى آخر الأمور الكتابية فيه وكانت وظيفة المجلس القيام بتلبية احتياجات المستوطنة، ووجد إلى جانب المجلس المختار وهو رئيس المستوطنة وتقاضى راتباً شهرياً، وتمتع بصلاحيات طرد الفلاحين ومعاقبتهم، ووصف أحد الكتاب العرب المعاصرين - محمد رفيق - المستوطنات اليهودية في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى بصلاحيات المختار بعد زيارته لمستوطنة بتاح تكفا "..... وهولا يرضى بأقل وسيلة أو سبب يخل بالشكل العبراني في ملابس - بتاح تكفا - فهو الحاكم والأمر والمالك الوحيد لهذه القسبة تحت اسم مستعار" ويتعذر على أي شخص غريب كان أن يعيش أو يتحرك في القسبة ما لم يكن بإذن المختار وعلى علم منه، وليست هذه الحالة خاصة بملبس وحدها بل هي عامة في جميع المستوطنات اليهودية.

وذهبت الحركة الصهيونية إلى أبعد من ذلك فكانت مستوطناتها شبه الحكومية لها دوائر للإدارة والمالية والزراعة والتعليم، كما كان للحركة الصهيونية في المستوطنات محاكم ومجالس اشتملت على القضاة والشهود وقوى التنفيذ والإدارة.^(٣)

أما بالنسبة لما يتعرض له المستوطنون اليهود من مشاكل فقد كانوا يحتكمون لدى هيئات الاستيطان التي مر ذكرها ولا يرجعون أبداً إلى الحكومة العثمانية في شيء من الخلافات التي تقع بينهم. وعندما شعر العرب في يافا بذلك

(١) فرانك مانويل، بين أمريكا وفلسطين، تعريب يوسف حنا، عمان، ١٩٦٧، ص ٣٢.

(٢) مخطوط سلاطين آل عثمان، الجزء ٢٣، ص ٢٦.

(٣) رفيق، وبمحت، ولاية بيروت - القسم الجنوبي - ، ص ٢٠٠.

أبرقوا إلى الصدر الأعظم عام ١٩١٤ يبلغونه أن الصهيونية في يافا "حكومة ضمن حكومة وهم يعتقلون الأهالي ويعاقبونهم بالضرب والسجن".^(١)

وهكذا كان سكان جميع المستوطنات من اليهود ولا أثر للموظفين العثمانيين أو أي مظهر إداري عثماني آخر فيها بل كان كل شيء فيها عبراني بحت فالمستوطنون لا يخاطبون ولا يستخدمون أحداً من غير اليهود ولهم بريدهم الخاص،^(٢) كما ظهرت السمات اليهودية في الأسواق والأحياء التي سكنها اليهود في مدن فلسطين.

١- أنواع المستوطنات الصهيونية في فلسطين:

اتخذت إدارة المستوطنات الصهيونية أشكالاً متعددة حسب نوع كل مستوطنة:

أ- مستوطنات تعمل بنظام أجر يومي:

عمل فيها المستوطنون اليهود بأجر يومي، وملكيتهما للحركة الصهيونية. وقد تولت الهيئات الصهيونية المختصة بمشاريع الاستيطان الإشراف على إدارتها لصالح الحركة الصهيونية. وهي التي تدفع جميع النفقات وتحصل على جميع الأرباح، ولا يعطى للعامل سوى الأجر اليومي مع توفير المسكن والخدمات الأخرى له.

ب- مزارع تعاونية أو جماعية "كيبوتزيم":^(٣)

وفي هذه المزارع يحصل العمال على أجورهم حسب إنتاجهم، إضافة لتوزيع جزء من الأرباح السنوية عليهم وأول مستوطنة طبقت فيها هذه السياسة هي مستوطنة الشجرة وذلك عام ١٩٠٨ عندما تسلم جماعة من العمال أرض المزرعة لاستثمارها مدة سنة واحدة ووزعت هذه الجماعة العمل بين أفرادها ونجحت هذه التجربة ثم قامت في العام التالي في مستوطنة دجانيا، رأت الحركة الصهيونية في المزارع الجماعية "الكيبوتز" وسيلة مثالية لاستقدام أعداد كبيرة من المهاجرين واستيعابهم بالأرض وبالتنظيمات العسكرية والعمالية الصهيونية ربطاً محكماً فتعدتها وشجعته.^(٤)

ت- قرى تعاونية أو جماعية "موشافيم":

وهي نوع جديد جمع بين نظام المزارع الجماعية ونظام المزارع الفردية ويقصد بها تحديداً "مستوطنات العمال" والتي تعمل على توطين بعض العمال الزراعيين في المناطق المجاورة للمستوطنات القائمة والتي بحاجة لأيدي زراعية

(١) رفيق، وبجحت، ولاية بيروت، ص ٢١٠.

(٢) فرانتس شايدل، إسرائيل دولة مفتعلة، تعريب محمد جديد، دمشق، ١٩٦٩، ص ٦٠.

(٣) كيبوتزيم: "جمع كيبوتز" وتعني جماعة، انظر: عبد الوهاب الكيالي، الكيبوتز أو المزارع الجماعية في إسرائيل، بيروت، ١٩٦٦، ص ٨٢.

(٤) كيالي، الكيبوتز...، ص ٦٧.

عاملة، وتم ذلك أولاً في بئر يعقوب ١٩٠٧ ثم في عين غانم ١٩٠٨ ونجالات يهوذا ١٩٠٨ وكان القصد من حركة الموشافيم: إقامة أحياء عمالية يقوم فيها العمال الزراعيون ببعض الأعمال الزراعية الخاصة بهم ويعملون أيضاً بأجر في المستوطنات المجاورة، لكن التجربة أثبتت قصورها لأن أسلوب المزارع الصغيرة التي كانت مصدر رزق ثانوي للأعضاء العاملين بأجر في المستوطنات القريبة كان غير كاف اقتصادياً إلا إذا منح كل عضو قطعة من الأرض تكفيه لكسب عيشه، ففي مستوطنة عين غانم وزعت حصص الأرض بالتساوي بين جميع الأعضاء بغض النظر عن قدراتهم المالية وقد شجعت الحركة الصهيونية "الموشافيم" لإيجاد ارتباط كامل بين اليهودي والأرض بالعمل فيها، وسعيًا لأن تصبح كل مستوطنة مستقلة ومكتفية ذاتياً كتعاونة للمنتجين الزراعيين.^(١)

٢- الصعوبات التي واجهتها المستوطنات اليهودية:

١- تنبه العرب في فلسطين عامة إلى مخاطر الصهيونية مما زاد في حسهم القومي وارتباطهم بأرضهم وتمسكهم بها، فبينما استطاع اليهود المهاجرون الأوائل من الذين سكنوا المدن وخاصة القدس والخليل التعايش مع السكان العرب في الوقت الذي رفض الصهايون من سكان المستوطنات الزراعية فكرة التعايش مع السكان أو الاندماج في المجتمع، وذلك لأنهم حملوا معهم فكرة جديدة، تلخصت بتأسيس مجتمع يهودي يتخذونه وسيلة لإحياء الثقافة العبرية،^(٢) وهكذا جاء المستوطنون الصهايون إلى فلسطين بدافع تأسيس وطن خاص بهم يمهّد لإقامة دولة يهودية تحتذب مع الزمن جميع يهود العالم، لذلك لم يستسيغوا فكرة التعايش الدائم مع السكان لأنهم يريدون أن تكون فلسطين خالصة لهم وحدهم.

٢- القيود التي فرضتها السلطات العثمانية ضدّ استيطان اليهود في جزء هام من أراضيها، لذلك حاولت الحدّ من الهجرة اليهودية من خلال منعهم من تملك الأراضي في لواء القدس أيام الحكم المصري،^(٣) وظلّ الحظر معمولاً به حتى عام ١٩١٣، غير أنه بوسائل أهمها الرشوة والتحايل على القوانين، تمكن اليهود من شراء قسم من أراضي المتصرفية والحصول على فرمانات من السلطان بتملك قطع من الأراضي، ولكن معظم الأراضي التي اشتراها اليهود في عهد السلطان عبد الحميد كانت بطرق غير مشروعة وهذا ما دفع بحكومة السلطان إلى التشدد في

(١) ابراهيم العابد، الموشاف، "القرى التعاوانية في إسرائيل"، بيروت، ١٩٦٠، ص ١٠-١٢.

(٢) رستم، الأصول...، مج ٣، ص ٥٥.

(٣) أصدر مجلس الإدارة في القدس قرار بمنع اليهود من شراء الأراضي وتملكها، وكان وكيل طائفة الاشكنازيم، قد تقدم بمعرضه إلى مجلس القدس استعلم فيه عن الترخيص لهم بشراء الأملاك والأراضي القابلة للزراعة مقابل دفع الميري اسوة بالرعايا الآخرين فأجاب المجلس بأن ذلك لم يسبق له مثيل. وأن الشرع لا يجيز مثل ذلك لأن الأراضي في القدس ميرية ووقفية. ولكن بإمكانهم تعاطي التجارة. وصدرت الموافقة على هذا القرار من قبل المسؤولين في مصر. انظر: رستم، الأصول...، مج ٣، ص ٦٥.

تنفيذ قراراتها بمنع اليهود من تملك الأراضي في المتصرفية، ففي عام ١٨٩٣ شكوا اليهود الانجليز في القدس من القوانين العثمانية التي أصدرها الباب العالي بمنع اليهود من ابتياع العقارات الثابتة (الأبنية والأراضي) أو نقل ملكيتها من يهودي لآخر. وحاول القنصل الانكليزي في القدس بحث المسألة مع المتصرف الذي أفاده، بأن التعليمات التي وصلته واضحة، ولذلك جعل التقييد شاملاً لكل اليهود دون تمييز بين جنسياتهم، ولكن تحت ضغط الحكومة الانكليزية على الدولة العثمانية بواسطة سفيرها في الآستانة غصّت سلطات المتصرفية الطرف عن إجراء بعض العمليات.

وفي عام ١٨٩٣ أجازت الدولة العثمانية لليهود تملك العقارات الثابتة لكنها تشبّثت بقرارها بعدم السماح للشركات اليهودية في خارج فلسطين بشراء الأراضي أو إجراء معاملات نقل الملكية إليها. ثم عادت الحكومة العثمانية في عام ١٩٠٤ فتمسكت بقرار منع بيع الأراضي والعقارات في فلسطين إلى اليهود من جميع الجنسيات، لأن معظم اليهود الأجانب كانوا يأتون إلى فلسطين بغرض شراء الأراضي والإقامة الدائمة وفي آخر عهد السلطان عبد الحميد وضعت سلطات المتصرفية عراقيل وصعوبات أمام تملك رعايا الدول الأجنبية ومنع انتقال الأراضي إلى الأجانب حتى ولو كان البائع أجنبياً وعزى السبب في ذلك إلى رغبة الدولة في منع إقامة المستوطنات اليهودية في فلسطين.^(١)

أما بالنسبة للحركة الصهيونية التي تدير هذه المستوطنات فقد اتبعت سياسة قاسية جداً تجاه السكان العرب فقد نزع منهم الأراضي وتخلصت من الفلاحين بغاية السرية وأبعدتهم عن أرضهم عن طريق توفير فرص عمل لهم خارج فلسطين وإغلاق مجالات العمل أمامهم في فلسطين حتى يضطروا للنزوح عنها. ولا يفكروا بالعودة إليها ثانية أبداً. وكان هرتزل يرى أنه لا بأس إذا اعتقد أصحاب الأرض العرب أنهم يغشون الحركة الصهيونية ببيعهم الأراضي بأسعار أكثر من قيمتها الحقيقية، فإن الأرض لن تعود إليهم مرة ثانية.

رغم القيود التي فرضتها الدولة العثمانية على تملك الأراضي استولى اليهود في آخر العهد العثماني على مرج ابن عامر، بعد ذلك أخذت الحركة الصهيونية تسعى للاستيلاء على غور الأردن وبئر السبع مستغلة "عدم قدرة أصحابها من عرب "الوحدات" تسديد قروض البنك الزراعي بسبب سوء المواسم الزراعية وعرض الأراضي للبيع بالمزاد العلني، لكنهم فشلوا في ذلك، ليس هذا فحسب بل عملت الحركة الصهيونية على منع انتقال الأراضي للمؤسسات المسيحية.^(٢)

(١) رستم، الأصول...، مج ٢، ص ٧٢.

(٢) صلاح، فلسطين...، ص ٤٥ - ٤٦.

ونلاحظ العلاقة الواضحة بين ازدياد عدد المستوطنات ونشاط الهجرة اليهودية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من خلال الإطلاع على عدد المستوطنات وزيادة عدد السكان فيها ففي عام ١٨٨٢ وجد في فلسطين خمس مستوطنات ضمت ٥٠٠ يهودي وارتفع العدد في عام ١٩٠٠ إلى ٢٢ مستوطنة ضمت ٥٢١٠ من اليهود ثم تضاعفت في عام ١٩١٤ فبلغت ٤٧ مستوطنة موزعة على النحو التالي:

(٦) مستوطنات في الغور (٥) مستوطنات في الجليل الأعلى وحوض الحولة (٤) مستوطنات في منطقة الكرمل، (٢) مستوطنة في جبال القدس (٢٢) مستوطنة في السهل الساحلي (٧) مستوطنات في الجنوبي، وقد ضمت هذه المستوطنات (١١,٩٩٠) يهودياً وقد بلغت مساحة المستوطنات اليهودية في قضائي يافا والقدس في عام ١٩١٤ (١١٣,٤١٦) دونماً وبلغ عدد المشتغلين فيها حوالي (٧٣٠٠) نسمة.^(١)

ما يتضح لنا بعد هذا العرض هو استمرار ازدياد عدد المستوطنات في فلسطين بالرغم من عدم شرعية وجودها، فقد كان الترخيص بالإقامة وامتلاك الأرض أو السماح بالبناء يناله اليهود بطرق غير مشروعة كالرشوة والتحايل على القوانين العثمانية.

٣- انتشار الأمراض الفتاكة كالمalaria، والذي كان من أشدّ الصعوبات التي واجهت المستوطنين الأوائل، ففي البداية لم تتخذ الإجراءات اللازمة لتجنب الإصابة بهذا المرض، لكن فيما بعد تم تطهير المستنقعات وتخفيفها وزراعة أشجار الكينا بكثرة وتزويد المستوطنات بأطباء متجولين وتأسيس الصيدليات.^(٢)

٤- لم يستطع المستوطنون الأوائل القيام بالأعمال الزراعية على أكمل وجه بل فضلوا استخدام العامل العربي الذي اتصف بالجلد والخبرة وقلة الأجر على العامل اليهودي الذي لم يتصف بما اتصف به الفلاح العربي، لكن القائمين على تنظيم أمور الزراعة تغلبوا على هذه المشكلة واهتموا بالأساليب الزراعية الحديثة وراعوا أنواع التربة ففي القدس زرعوا الأشجار المثمرة لاسيما الكروم التي أتقن اليهود زراعتها وأصبحت قوام صناعة الخمر اليهودية، وقد بلغ إنتاجها قبل- الحرب العالمية الأولى- مليون جالون تقريباً، وينتج عن ذلك تجارة خمور مزدهرة مع أوروبا كما شكلت شركات من أجل تسويق المنتوجات الزراعية، وهكذا كان نصف مستوطنات متصرفية القدس مخصصاً لزراعة الأشجار المثمرة وأهمها البرتقال والعنب واللوز والزيتون أما النصف الآخر فكان مخصصاً لزراعة الحبوب.

٥- لم تستطع الحركة الصهيونية تحقيق ما سعت إليه تماماً كما تريد فقد فشلت في الحصول على تسهيلات حكومية و ضمانات دولية لاستيطان فلسطين ومع بداية الحرب العالمية الأولى لم تحقق إلا نجاحاً محدوداً. حيث بقي الصهيونيون يشكلون أقلية ضعيلة من يهود العالم لم تتجاوز ١ %، كما أن جميع اليهود في فلسطين لم

(١) صايغ، الاستعمار...، ص ١٤-١٥.

(٢) عزيز عزمي، اعترافات جولداماير، بيروت، ١٩٨٨، ص ٧٤-٧٧.

يشكلوا أكثر من ٨ ٪ من مجموع السكان ولم يتجاوز ما يملكه اليهود ٢,٥ ٪ من أراضي فلسطين. وبقيت الحركة الصهيونية عاجزة عن الحصول على اعتراف سياسي بها سواء كان ذلك من السلطات العثمانية أو من أي دولة أوروبية.^(١)

سادساً: مؤتمر كامبل بانرمان وانعكاساته على القدس:

وجهت الدول الأوروبية أنظارها إلى البلاد الخاضعة للدولة العثمانية وذلك لموقعها الاستراتيجي وأهميتها الاقتصادية إضافة للتنافس فيما بينها على مناطق عديدة من دول افريقيا وآسيا. دعا حزب المحافظين في لندن عام ١٩٠٥ إلى عقد مؤتمر وبشكل رسمي وسري وقدم توصياته إلى حكومة الأحرار التي يرأسها سير "هنري كامبل بانرمان" Sir H. Campbell Bannerman هدف المحافظون من عقد هذا المؤتمر إقناع رئيس الوزراء الجديد بالعمل على تشكيل جبهة استعمارية من الدول الأوروبية وهي: إنجلترا، فرنسا، إيطاليا، إسبانيا، البرتغال، بلجيكا، هولندا، وذلك لمواجهة التوسع الاستعماري الألماني ولتحقيق بعض الأهداف التوسعية في افريقيا وآسيا.^(٢)

اجتمعت في لندن عام ١٩٠٧ لجنة مختصة في الشؤون الاستعمارية ضمت جماعة من كبار علماء التاريخ والاجتماع والاقتصاد والزراعة والجغرافية والبترول. وتوصل المؤتمر إلى ضرورة توطيد الاستعمار في المناطق التي تسيطر عليها الامبراطوريات المشتركة في المؤتمر، فأيد المؤتمر بذلك توطيد سيطرة انكلترا في افريقيا والهند، وإيطاليا في ليبيا، وإسبانيا في المغرب وانتهى المؤتمر إلى قرارات تقضي بضرورة التوسع في مناطق أخرى أسيوية وإفريقية،^(٣) وأن مصدر الخطر الحقيقي على الدول الاستعمارية إنما يكمن في المناطق العربية من الدولة العثمانية، لاسيما بعد أن أظهرت شعوبها يقظة سياسية ووعياً قومياً ضد التدخل الأجنبي والهجرة اليهودية والحكم العثماني. وأوضح المؤتمر الأهمية الكبرى للمنطقة العربية باعتبارها نقطة التقاء بين الشرق والغرب، وما زاد هذه الأهمية وجود قناة السويس كأهم ممر مائي لأوروبا، ورأى المؤتمر خطورة الشعب العربي على المصالح الاستعمارية نظراً لتوافر عدة عوامل يملكها: وحدة التاريخ واللغة والثقافة والهدف والآمال، واحتمال تزايد عدده من ٣٥ مليون نسمة إلى مئة مليون نسمة خلال قرن من الزمن،^(٤) ثم إن إمكانية وعوامل الوحدة وانتشار التقدم العلمي والفني والثقافي متوفر لدى الشعب العربي، وفي الوقت الذي ستم فيه هذه الاحتمالات ستحل الضربة القاضية على الامبراطوريات

(١) صايغ، الاستعمار...، ص ١٩ - ٢٠. وانظر أيضاً: صلاح، فلسطين...، ص ٤٧.

(٢) حسن صبري الخولي، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، ج ١، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٠٩.

(٣) Andre' Chouraqui : Theodor Herzl Inventeur l'Etat d'Israel (Paris – 1960) P.70.

(٤) Chouraqui : L' Alliance Israe'ite universelle et la Renaissance Juive Contemporaine 1860 – 1960 (Paris 1965) P 176 .

الاستعمارية وأخيراً انتقل التقرير إلى الوسائل لدرد الخطر المحتمل من المنطقة العربية، والعمل على إيجاد التفكك والتجزئة والانقسام وإنشاء دويلات مصطنعة تابعة لتلك الدول وخاضعة لسيطرتها وأوصى التقرير بشكل خاص على محاربة اتحاد هذه الجماهير العربية أو ارتباطها بأي نوع من أنواع الاتحاد الفكري أو الروحي أو التاريخي، وبضرورة إيجاد الوسائل العلمية القوية لفصلها بعضها عن بعض ما استطاع الاستعمار إلى ذلك سبيلاً.^(١)

أكد المؤتمر على ضرورة فصل الجزء الأفريقي من المنطقة العربية عن جزئها الآسيوي وضرورة إقامة "الدولة العازلة" (Buffer State) إذ أن إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ويربطهما بالمتوسط بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة عدوة لشعب المنطقة وصديقة للدول الأوروبية ومصالحها هو التنفيذ العملي العاجل للوسائل والسبل المقترحة.^(٢) وما يحدث الآن هو استمرار لتلك الأعمال الآثمة بحق الشعب العربي إذ أن تجزئة الوطن العربي والحروب التي تعيشها الأمة العربية ليست إلا هدفاً أساسياً للاستعمار وهذا يعني أموراً كثيرة أهمها:

- ١- إن تقرير مؤتمر لندن عام ١٩٠٧ كان بمثابة "الضوء الأخضر" للسياسة الانكليزية والحركة الصهيونية في انتزاع فلسطين عن سائر الوطن العربي لخلق نواة استعمارية تؤمن استمرارية النفوذ الاستعماري في المنطقة.
- ٢- لم يكتفِ التقرير بضرورة إيجاد "الدولة اليهودية" في فلسطين بل رأى أن الضمانة الأكيدة لاستمرار النفوذ الاستعماري في المنطقة العربية هو ضرورة إيجاد ظروف التقسيم والتفكك والتناحر بين الشعب العربي.
- ٣- إن الإشارة إلى زرع شعب غريب في شرقي قناة السويس أي في سيناء وفلسطين باعتبارهما منطقتين وحيدتين يمكن أن تفصلاً عن آسيا عن غرب إفريقيا، وهذه الإشارة تعني مباشرة الشعب اليهودي.^(٣)
- ٤- إن تقرير المؤتمر الاستعماري يعني حتمية الصراع بين مجموعة الدول التي اشتركت في المؤتمر من جهة وبين ألمانيا والدولة العثمانية من جهة أخرى ذلك لأن النتائج التي توصل إليها خبراء اللجنة العليا، أوضحت أنه لا يمكن الوصول إلى تجزئة العالم العربي وتقسيمه إلا بعد إقامة دولة عنصرية غربية في المنطقة، ولا يتم ذلك أيضاً إلا بعد تصفية الدولة العثمانية، للحصول على وعد بلفور الألماني. وقد واصل الصهيونيون جهودهم مع الألمان لتحقيق هذا الوعد.^(٤)

(١) الخولي، سياسة الاستعمار...، ص ١١٥، ١١٦.

(٢) فهمي، الهجرة اليهودية...، ص ١٦٢. وانظر أيضاً: توفيق برو، العرب والترك ١٩٠٨-١٩١٤، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٧٠.

(٣) أرنست رامزور، تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨، ترجمة صالح أحمد العلي، قدم له وراجعته نقولا زيادة بيروت ١٩٦٠.

(٤) الخازن، مجموعة المحررات...، ص ٢٨٤.

اتبع المؤتمرون أسلوباً صهيونياً قاسياً وسرياً يقضي باستعمار فلسطين عن طريق التغلغل الاقتصادي وتكرس ذلك عام ١٩٠٨ عندما شجعت الدوائر الصهيونية الحكومة الألمانية على مساعدة الحركة الصهيونية لما فيه منافع لأوروبا وألمانيا بالذات على اعتبار أن الاستعمار الاقتصادي امتداد لسياسة أوروبا في الخارج، ويمكن تطبيق هذه السياسة في نطاق المصالح اليهودية. ولكن الدولة العثمانية لم تكن تتغاضى عن هذه السياسة الأوروبية- الصهيونية، إذ أنها كانت تقابل النشاط الأجنبي الموسع في الأراضي المقدسة بحقد وغيظ وخصوصاً الاستيطان اليهودي في فلسطين.^(١)

اهتمت الدولة العثمانية بمتصرفية القدس بعد هذا المؤتمر اهتماماً كبيراً فقد أظهر اليهود رغبتهم الشديدة بها وأطماعهم الكبيرة بأراضيها، فقامت بإصدار العديد من "الفرمانات السلطانية" لتثبيت السلطة العثمانية في تلك المناطق كتحويل مسؤولية بعض القائمقاميات إلى معاون المتصرف كما حدث في "بئر السبع" التي عين عليها عبد الكريم أفندي مدير معارف القدس مع منحه رتبة إضافية، ونقل نائب يافا إلى بئر السبع مع ترفيعه رتبة أعلى وهذا ما حدث أيضاً في منطقة "الحضري" التابعة لمتصرفية القدس حيث أصبحت قائممقامية، وعين نابي أفندي مدير المكتب الإعدادي بالقدس قائمقاماً لقضاء الحضري.^(٢)

وفي حقيقة الأمر أن هناك قرارات أكثر فعالية وأهمية اتخذها السلطان "عبد الحميد الثاني" فأوعز إلى متصرف القدس بضرورة الاهتمام بأهالي المتصرفية من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والقيام بجولات استطلاعية لإعلام الأهالي بمشاريع السلطان الزراعية والمالية، وذلك لمواجهة المستثمرين والمرايين اليهود والاقطاع على السواء.

قام متصرف القدس في نيسان ١٩٠٨ بجولات استطلاعية للتعرف على أوضاع الفلاحين وصل بها إلى "بئر السبع" وألقى خطاباً أمام أهالي المنطقة قال فيه: "من المعلوم أنكم بأقل همّة وجد وسعي تستخرجون ذخائر كافية ليس فقط لأهل بئر السبع، بل وتعم أهالي لواء القدس بل وأهالي سوريا بأجمعهم..... وأما مزروعاتكم فهي كالزمرّد في احضرارها" وبدأ يذكر مشاريع الدولة بأنه "سينشئ مكتب كبير في مركز بئر السبع لتعليم دروس الزراعة..... وسأنشئ لكم في مركز بئر السبع برج ساعة..... وفي بئر السبع لا طواحين لكم وسيصير إن شاء الله طواحين لطحن حبوبكم..... أنتم جميعكم أهل زراعة والزراعة هي روحكم ومداد حياتكم..... انظروا أيضاً كيف أمر حضرة سيدنا ومولانا الخليفة الأعظم بالأشياء الخيرية لكم فإنه سينشئ في بئر السبع شعبة بنك زراعي..... سيصير اقراضكم الدراهم بكمال السهولة، فتخلصون من أيدي المحتكرين والصرافين وتجلّبون بذاركم

(١) . 227 . P . Rene' Pinon : L'Europe et L'Empire ottoman (Paris – 1909) .

(٢) لويس شيخو، السر المصون في شيعة الفرمايون، مجلة المشرق، العدد ٥ و٨، بيروت، ١٩١١، ص ٥٠.

ومؤنثكم وذخائركم وأدواتكم الزراعية بكل سهولة، وأيضاً سيحلب لكم بواسطة الحكومة ماكنات وآلات زراعية من الجنس الذي استعمل بـ -يافا- فتحثون بها أراضيكم وتبذرون عليها بذاركم....." (١).

نستنتج من سياسة السلطان عبد الحميد الاقتصادية مدى الإهمال الحكومي للفلاحين الفلسطينيين وللشؤون الزراعية، وقد تكون جولة متصرف القدس بمثابة سياسة دعائية لحكم السلطان لكي يستميل الأهالي، وهي على كل حال مشاريع لم تخرج إلى حيز الوجود، وبالرغم من ذلك فإنه مما لا شك فيه أن السلطان كان معارضاً شديداً للهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة، وما تعذر على الحركة الصهيونية القيام به في عهده، لم يتعذر عليها تحقيقه بعد ثورة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ حيث أظهر الحكم الجديد تأييداً رسمياً للنشاط الصهيوني في فلسطين مما أدى إلى مضاعفة الاحتجاجات وردود الفعل العربية للهجرة اليهودية.

إن ما سبق ذكره لا يعني أن الاستيطان اليهودي لم يستطع إرساء قواعد وأسس حياة قومية يهودية صهيونية، فقد كانت مستوطناتهم منظمة وتشتمل على مؤسسات ثقافية، ولهم مدارسهم الخاصة وجرائدهم الخاصة ونشيدهم الخاص، فالتعليم بالنسبة لليهود أحد المقومات الأساسية لإبراز الشخصية اليهودية، وهذا يتطلب إعطاء فكرة عن تطور التعليم عند اليهود في متصرفية القدس.

أنشأ اليهود مدارس متعددة في القدس وفي أنحاء كثيرة من فلسطين حيث مستوطناتهم وكانت هذه المدارس حديثة في أساليبها وموضوعاتها، وجاء مدرسوهم من فرنسا وانكلترا وألمانيا وعلموا باللغات الفرنسية والانكليزية والألمانية ويعود الفضل في إنشاء هذه المدارس للأليانس الإسرائيلي العالمي الذي تأسس في باريس ١٨٦٠ والجمعية الانكليزية اليهودية التي تأسست في لندن في سنة ١٨٧١.

كانت مدرسة مكفا إسرائيل الزراعية أول مدرسة يهودية في فلسطين علمت اللغة العبرية والعربية والفرنسية والزراعة، واكتفت ذاتياً عن طريق استغلال أراضيها الزراعية الواسعة وضمت المدرسة ١٠٠ طالب خصص لهم ١٥ مدرساً. (٢) ورغم ذلك كانت حالة التعليم عند يهود القدس متخلفة وكل ما لديهم من مدن القدس ويافا والخليل ٨٨ مدرسة ضمت ١٩٢٤ طالباً و ٣٦٠ طالبة، أما مواضيع الدراسة فاشتملت على دراسة التوراة والتلمود وشروحاتهم مع تعليم بعض مبادئ العربية والفرنسية والحساب، أما أهم المدارس اليهودية في متصرفية القدس مدرسة دار الأيتام الألمانية اليهودية، وكان فيها ١٦ طالباً داخلياً و ١٨ طالباً خارجياً والتعليم فيها ابتدائياً وتعلم اللغة العبرية والعربية والألمانية. (٣)

(١) بعض سندات بيع الأراضي في فلسطين. القسم الخاص في دار الوثائق التاريخية في دمشق، وهي غير مصنفة.

(٢) رستم باز، مذكرات رستم باز ١٨٩٧ - ١٩٠٢. حققها وعلق عليها فؤاد افرام البستاني، بيروت، ١٩٥٥، ص ١٧١.

(٣) محمد روجي الخالدي، أسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة، المنار، ١١م، ج ١١، ١٩٠٨، ص ١٧.

تلقت المدارس اليهودية مساعدات متنوعة من أوروبا من إعانات وجبايات، واهتمت هذه المدارس بتعليم مبادئ اللغة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لكنها فشلت قبل ذلك في مدارس طائفة الاشكنازيم عندما رغبت بعض المؤسسات الانكليزية في تعليمها للأطفال اليهود، حيث لم يستطع حاخام طائفة الاشكنازيم إكمال هذا المشروع بسبب وجود جماعة تعارض الفكرة بحجة تأثيره على تعليم اللغة العربية رغم اقتناع الحاخام بأن تعليم اللغة العربية والتركية سيكون مهماً لهم مستقبلاً لكن اليهود اقتنعوا بعد ذلك بأهمية تدريس العربية في مدارسهم لدوافع استعمارية.^(١)

وفي أوائل القرن العشرين أخذت النزعة العربية تقوى في المدارس اليهودية تغذيها المنظمات الصهيونية، مثل "جمعية محبي صهيون" التي كانت تصر على التدريس باللغة العربية، لكنها لم تتمكن من تعميم اللغة العربية كلغة وحيدة لتدريس كل الموضوعات، غير أنها استطاعت أن تفعل ذلك بالتدريج وبعد أن كانت تقوم بدفع رواتب مدرسي اللغة العربية في مدارس الاليناس الإسرائيلي تمكنت في عام ١٩٠٣ من افتتاح مدرسة عالية للغة العربية،^(٢) ثم شكلت نقابة للمدرسين أصبح لها فيما بعد سيطرة ونفوذاً على توجيه التعليم اليهودي في القدس. وكان عدد المدارس التي تستعمل اللغة العربية كلغة وحيدة في التعليم قد وصل في آخر العهد العثماني إلى ستين مدرسة ضمت ٢٦٠٠ طالباً. وتشتمل على جميع المدارس الابتدائية في المستوطنات وست مدارس ابتدائية في المدن ومدرستين ثانويتين في يافا والقدس ومدرسة للفنون في القدس أيضاً، فقد تأثرت جميع هذه المدارس بفكرة إحياء اللغة العربية واستعمالها في التعليم. كما كانت متحدة في الإطار العام لمناهج الدروس، وفي المؤتمر الصهيوني الحادي عشر في فينا أيلول ١٩١٣ اتخذ قرار مشروع الجامعة العربية وشكلت لجنة لمتابعة المشروع تمكنت من اختيار موقعها في ضواحي القدس ثم أرسى وايزمن حجر الأساس في بنائها في يونية ١٩١٨.^(٣)

سابعاً: التنبّه القومي وردود الفعل العربية ضدّ النشاط الصهيوني:

بدأ الوعي القومي العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أي بعد انتشار أفكار الثورة الفرنسية مع حملات نابليون للمنطقة وما رافقها من وسائل حديثة للطباعة وانتشارها باللغة العربية، إضافة للدور الذي أدته المعاهد والمدارس المحلية في بلورة الفكر العربي في إطاره الصحيح لاسيما في بلاد الشام ومصر. تعد "الجمعية السورية العلمية" أول من أطلقت شعار "تنبهوا واستفيقوا أيها العرب" وقد تأسست عام ١٨٦٨ ويشكل سري للغاية إلى أن ظهرت بشكل واضح وعلني في عام ١٨٧٥.

(١) مؤلف مجهول، الإسرائيلية في جمعية الاتحاد والترقي، نهضة العرب، باريس، ١٩٠٩، ص ١٥٣.

(٢) مؤلف مجهول، الإسرائيلية...، ص ١٥٦.

(٣) باز، مذكرات...، ص ١٨٠.

إن وعي ونشاط الحركة العربية دفع بها للمطالبة بالتححر واليقظة وتمثل ذلك بالاجتماعات وتوزيع المنشورات كما كان يحدث في بيروت مثلاً. انتشرت الفكرة القومية سرّاً في عهد السلطان "عبد الحميد الثاني" ولم يعلنها إلا العرب المغتربون في أوروبا وأمريكا.

وفي عام ١٨٧٨- في أواخر أيام "مدحت باشا"- قامت الجمعية الخيرية في دمشق وكان لها دورٌ مهمٌ في تطور التعليم وظهور النهضة الأدبية الحديثة ومن أهم أعضائها: الشيخ "طاهر الجزائري" ورفيق العظم والشيخ سليم البخاري، والشيخ جمال القاسمي، وعطا الكيلاني والأمير شكيب أرسلان، ومحمد كرد علي وغيرهم. وكانت هناك شخصيات على قدر من المسؤولية ولها دور كبير في الحياة السياسية واليقظة القومية في بلاد الشام، وأجرت اتصالات فيما بعد مع أعضاء تركيا الفتاة، ومن بين هذه الشخصيات: أسعد درويش الطرابلسي وسليم بك الجزائري، وشكري العسلي، وفارس الخوري.^(١)

لم تكن فلسطين عامة والقدس خاصة بمنأى عن هذه التيارات السياسية والفكرية بل تفاعلت معها تفاعلاً تاماً وأثرت فيها، وقد أكد القنصل الانكليزي في القدس في تقاريره إلى حكومته عام ١٨٨٢، من أن شعب فلسطين وقف مؤيداً ثورة عرابي في أعقاب الغزو الانكليزي، وحدثت اضطرابات في القدس استمرت لفترات طويلة، وأكد هذا القنصل تكرار هذه المظاهر والتجارب والتفاعل أثناء ثورة المهدي ١٨٨١- ١٨٨٤ باعتباره عربياً ويناضل من أجل عرويته ضدّ السيطرة العثمانية وسوء الحكم العثماني.^(٢)

تزايد الوعي القومي عند أبناء القدس وبرز منهم رجالات أثروا في الحياة السياسية والدستورية في الدولة العثمانية، أهمهم يوسف ضيا بك الخالدي نائب القدس الذي سبق وألقى خطاباً في مجلس المبعوثان دفع بالسلطان عبد الحميد إلى تعطيل المجلس إلى أجل غير مسمى، ثم نتيجة لزيادة المعارضة العربية أصدر السلطان أمره بنفي عشرة نواب من المعارضة خارج الآستانة، وكان من بينهم ممثل القدس الشريف.^(٣)

ومما يجدر ذكره على صعيد الحركة السياسية العربية فقد كانت هذه الحركة بمحملها حركة سرية تخشى كشف سرها من السلطات العثمانية، أما فيما يختص بمواجهتها للهجرة اليهودية إلى القدس فلم يخفِ عرب فلسطين شعورهم بخطورتها ورفضهم القبول بها، فقد أعلنوا- منذ البدء- معارضتهم لها، ولم يحاولوا كبت مطالبهم وأفكارهم حول هذه الهجرة.

(١) برو، العرب والترك...، ص ٢٥.

(٢) الكيالي، تاريخ فلسطين...، ص ٤٧.

(٣) برو، العرب والترك...، ص ٣١-٣٢.

إن ردود الفعل العربية والموقف العثماني حيال الهجرة اليهودية وامتلاك الأجانب للأراضي الفلسطينية، لم تبرز في أوائل القرن العشرين فحسب وإنما بدأت في منتصف القرن التاسع عشر، وهذا ما يؤكد "أسعد خياط" - القنصل الانكليزي في يافا - في تقرير له يظهر موقف العرب والدولة العثمانية من تملك الأجانب والإقامة في فلسطين. ويذكر "بأن الناس يعتقدون أن الحكومة المحلية هي التي تشجع مرتكبي الجرائم على إتيان هذه الفظائع المنكرة لغاية في النفس..... ومن ثم لما كانت جرائم أوروبية عدة قد جالت بعواطف بعض الأوروبيين والأمريكيين، وأظهرت رغبتهم في شراء الأملاك والإقامة في القدس وإنشاء مستوطنات صغيرة، وكانت جملة عيال قد جاءت وأقامت هنا..... فلا يبعد عن الصحة أن تكون الحكومة التركية أهملت الاهتمام بالجنائيات المذكورة [قتل المستر ديكسون والمسبوستينيك أصحاب مستوطنات في فلسطين] بقصد تخويف الأجانب.... ومنعهم من المجيء إلى هنا بكثرة والإقامة في تلك الأنحاء".^(١)

يعود السبب الرئيسي للموقف العثماني هذا إلى رغبتهم في تجنب تزايد النفوذ الأجنبي في الأراضي المقدسة. وتجنب هجرة اليهود وإقامتهم في فلسطين كأوروبيين أو أمريكيين، وذلك أن المهاجرين اليهود ظلوا محتفظين بجنسيتهم للاستفادة من الامتيازات الأجنبية^(٢).

لذلك غضت الدولة العثمانية طرفها عن ردود الفعل العربية ضدّ هجرة الأجانب بوجه عام، وإن كان ذلك يخالف نصوص ومعاهدات الامتيازات الأجنبية، ونستنتج من ذلك أن بداية ظهور الوعي السياسي واليقظة القومية والمطالبة بالتححر سابقة لبداية بروز الحركة الصهيونية في طورها التنظيمي.^(٣)

وكان واضحاً من دراسة ردود الفعل العربية الفلسطينية، أن هناك معارضة للهجرة اليهودية ولشراء الأراضي وإقامة المستوطنات الزراعية، لكن رجال الاقطاعية العربية لاسيما اللبنانية والسورية لعبوا دوراً مهماً في عملية بيع الأراضي لليهود بعد أن استطاعوا إغراء الملاكين الفلسطينيين والفلاحين الرازحين تحت وطأة الديون على بيع أراضيهم. واستطاع المتمولون اللبنانيون شراء مساحات كبيرة منها، وقام هؤلاء بدور "تجار أرض"، فباعوها بدورهم للمهاجرين اليهود بأسعار مرتفعة. وما يجدر ذكره أن بائعي الأراضي الفلسطينية كانوا يتألفون من الفئات التالية:

١ - الملاك الغائبون وأهمهم كامل الحسيني، والكثير من الأسر اللبنانية مثل: سرسق وتويني وتيان ومدور وغيرهم.

(١) الخازن، المحررات السياسية...، مج ١، ص ٢٩٠.

(٢) برو، العرب والترك.....، ص ٣٩.

(٣) الخازن، المحررات السياسية...، مج ١، ص ٢٩١.

٢- الحكومة العثمانية، وكانت تباع الأراضي عن طريق المزاد العلني حيث تباع فيه أراضي الفلاحين العاجزين عن دفع الضرائب المترتبة عليهم.

٣- الملاك الفلسطينيون، ومعظمهم من العائلات المسيحية مثل كسار، روك، خوري، حنا وغيرهم ولا يعني ذلك بأن بعض الاقطاعيين من المسلمين لم يبيعوا الأراضي، فقد حدث أن باع الأراضي كثير من كبار صفد والرملة.^(١)

١- دور العرب في القرارات العثمانية الخاصة بمنع الاستيطان في القدس:

كان لردود الفعل العربية الأثر الواضح في إصدار مجموعة من القرارات والقوانين العثمانية الخاصة بمنع المهاجرين اليهود من الاستيطان في فلسطين، فقد كانت الدولة العثمانية تواجه حركة معارضة عربية لسياستها في الولايات العربية المطالبة بالإصلاح والحرية، فجاءت ردود الفعل الفلسطينية ضدّ الهجرة اليهودية تؤجج نيران المعارضة، فخشيت الحكومة العثمانية من مضاعفاتها. وكان السلطان عبد الحميد يقدر أهمية البلاد العربية ويدرك أن اليوم الذي ينفصل فيه العرب عن امبراطوريته - وعددهم يقارب عشرة ملايين - سيكون نذيراً بانتهاء الامبراطورية، لأنهم يشكلون أساس دعائمها، ذلك أن بلادهم من أغنى المناطق العثمانية، وكما أثرت المعارضة العربية الفلسطينية على موقف الحكومة العثمانية فإنها أثرت أيضاً على المستوطنين اليهود، فقد زادت من مشكلة الأمن اليهودي كما زادت من حاجة المستوطنات إلى الحراسة،^(٢) ولقد ظهرت بوادر الحماسة والدفاع الذاتي اليهودي في البلاد منذ بدء الاستيطان، وعمدت الجمعيات الصهيونية إلى تزويد المستوطنات بالأسلحة المهربة، كما لجأت إلى السلطات المحلية العثمانية لتضليلها بأن الهجمات العربية هي خروج عن النظام ومثيرة للقلق في وجه "أصحاب الأرض الشرعيين"! وفي الفترة الممتدة بين عامي ١٨٩٠ - ١٨٩١، قدّم وفد من وجهاء القدس للصدر الأعظم عرائض احتجاج على متصرف القدس "رشاد باشا"، لأنه كان منحازاً لليهود، وفي طليعة المستفيدين من الرشاوى الصهيونية.^(٣)

وكانت هذه العرائض تعبّر عن حركة الوعي القومي واليقظة السياسية لفئات الشعب الفلسطيني ومدى الرفض للاستيطان اليهودي، وقد طالبوا بإصدار فرمان بمنع اليهود من دخول القدس وشراء الأراضي. وقد وقّع هذه

(١) الكيالي، تاريخ فلسطين...، ص ٥٨.

(٢) برو، العرب والترك...، ص ٣٣.

(٣) اسماعيل بولاك، إسرائيل أمة وتاريخها، تعريب، رسمي بيادسي، تحرير الياهو أغاسي، تل أبيب، ١٩٧١، ص ١٥٢، ١٥٣.

العرائض (٥٠٠) من الأهالي ذكروا فيها بأن اليهود قد سلبوا الأراضي من العرب وبدؤوا تدريجياً بالسيطرة على كل التجارة المحلية وجلب السلاح إلى فلسطين.^(١)

بعد انعقاد مؤتمر بال الصهيوني الأول عام ١٨٩٧، ازدادت الأطماع الصهيونية في فلسطين وتبلور العمل الاستيطاني اليهودي، ونتيجة لذلك ازدادت ردود الفعل العربية في عام ١٨٩٧، واتخذت المعارضة الفلسطينية طابعاً جديداً، فقد ترأس "محمد طاهر الحسيني" - مفتي القدس - هيئة عربية محلية هدفها الوقوف في وجه الاستيطان اليهودي، وكان من مهامها التدقيق في طلبات نقل الملكية في متصرفية القدس، فحال ذلك دون حصول اليهود على أراضٍ زراعية جديدة لسنوات عديدة.^(٢) وكان الحديث عن قيام مملكة يهودية وتشجيع انكلترا على تحقيق ذلك قد بعث الشك والريبة في قلوب العرب، فبدؤوا عملية الاحتجاج والاستنكار وطالبوا بوقف الهجرة ومنع شراء الأراضي، لأن المهاجرين اليهود وحركتهم الصهيونية كانت قوة ثانوية جلبت من خارج البلاد، ولم تفعل شيئاً إلا أن تعيق تقدم القوى الوطنية الأساسية للعروبة الأسبق منها.^(٣)

وكانت المعارضة من جانب عرب فلسطين للهجرة اليهودية محاولة مستميتة من أجل الحياة والأرض. أما بالنسبة إلى الزعامات العربية فلم تكن على مستوى الخطر الصهيوني، ولم تظهر أي ردود فعل ضدّ الهجرة اليهودية إلى فلسطين بغض النظر عن زعامات فلسطين السياسية والدينية التي استطاع بعضها إبداء تخوفه ومعارضته للأهداف الصهيونية. وعلى الرغم من النضوج السياسي لبعض الزعامات الشامية إلا أنها لم تستوعب خطر الحركة الصهيونية على مستقبل فلسطين،^(٤) واقتصر استيعابها ونضوجها على معارضة الحكم العثماني للتخلص منه. فقد كتب "أمين أرسلان" - وهو أحد الزعماء اللبنانيين - مقالاً في "المقطم" في ٢٣ تشرين الأول عام ١٨٩٧ بعنوان "مملكة صهيون" أرسله إليها من باريس يشير فيها إلى مؤتمر بال دون أن يبدي أية معارضة له ولأهدافه، وبعد أن تحدث عن مؤتمر بال قال إن من أهدافه شراء أرض فسيحة وقرى كثيرة في فلسطين بجوار أورشليم، وجعلها مملكة إسرائيلية عاصمتها القدس الشريف. وأضاف "أمين أرسلان" بأن المؤتمر ختم أعماله بما مفاده أن الحركة الصهيونية تعمل على إنشاء وطن للإسرائيليين في فلسطين تضمنه شرائع الدول. ولبلوغ هذه الغاية قررت الحركة الصهيونية مساعدة الفلاحين والصناع اليهود على الهجرة إلى فلسطين، وإلى إنشاء مصرف مالي لتحقيق هذا الهدف. وقد

(١) بولاك، إسرائيل أمة...، ص ١٥٥.

(٢) علوش، الحركة الوطنية...، ص ٩٠.

(٣) ج. م. ن. جفريز، فلسطين اليكم الحقيقة، تعريب: أحمد خليل الحاج، مراجعة: محمد أنيس، القاهرة، ١٩٧١، ص ٦١.

(٤) ج. م. ن. جفريز، فلسطين...، ص ٦٦.

بلغ سوء التقدير بالخطر الصهيوني أن جعل "أمين أرسالان" يستبعد تحقيق إنشاء مملكة إسرائيل لا لشيء إلا "لأن المسيحيين لا يرضون أن يبيت بيت المقدس في يد اليهود".^(١)

أضف إلى ذلك أن الصحافة العربية- في هذه الفترة- لم تكن أيضاً كلها على مستوى الأحداث، وإن تكن بعض الصحف قد عاجلت موضوع الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين مثل "المقتطف"، "المنار" و"النشرة الأسبوعية" وغيرها، ولكن هناك عدد آخر من الصحف كان يعرض الأخبار دون الاعتراض أو التنبيه إلى الخطر الصهيوني. ولكن استطاعت "النشرة الأسبوعية" ابتداء من كانون الأول عام ١٨٩٧ أن تعالج الحركة الصهيونية وتبين أهدافها بل اعترضت على اليهودية واليهود، وأظهرت فشلهم في الميادين الزراعية، بينما كان العرب مثلاً حسناً في اجتهداهم في عمران البلاد وتحسين الزراعة.^(٢)

وبالرغم من عدم وجود الوعي السياسي الكفيل بمواجهة الخطر الصهيوني على مستوى الصحافة العربية إلا أن صحيفة المنار كانت بمقالاتها تمثل أولى مظاهر وعي الصحافة العربية في تلك الفترة، فهي أول صحيفة طالبت بمواجهة الخطر الصهيوني، وبذلك لم تسبقها صحف عربية أخرى في هذا الصدد. ومن خلال مطالعة مقالات "المنار" يظهر لنا بعد نظر صاحبها ومحررها "رشيد رضا" مما لا يدع مجالاً للشك فيه بحيث يُعد أول من دعا العرب. بأسلوب واع إلى تفهم ودراسة الخطر الصهيوني، وقد ذهب في تعليقه على الحركة الصهيونية ليؤكد أمرين:

الأول: يدعو العرب إلى اليقظة القومية والتنبيه إلى الاستيطان اليهودي وخطورته، ويوجه نداءً بأسلوب ناقد لاذع عندما يقول: "فيا أيها القانعون بالخمول اقنعوا رؤوسكم (ارفعوها) وحدّثوا أبصاركم وانظروا ماذا تفعل الشعوب والأمم، اصحوا لما تتحدث به العوالم عنكم. أترضون أن يسجل في جرائد جميع الدول أن فقراء أضعف الشعوب- الذين تلفظهم جميع الحكومات من بلادها- هم من العلم والمعرفة بأساليب العمران وطرقه بحيث يقدرّون على امتلاك بلادكم واستعمارها وجعل أربابها أجراء وأغنيائها فقراء".^(٣)

الثاني: يدعو رشيد رضا إلى الثبّت والتحري عن أهداف الحركة الصهيونية، والعمل بجديّة لمواجهتها إن هي حقيقة واقعة والعمل على التناظر وعقد الاجتماعات والمؤتمرات بين العرب. ويتابع نداءه بالقول: "تفكروا في هذه المسألة واجعلوها موضوع محاورتكم لتبيّنوا هل هي حقّة أم باطلة، صادقة أم كاذبة. ثم إذا تبين لكم أنكم مقصرون في حقوق أوطانكم وخدمة أمتكم، فانظروا وتأملوا وتفكروا وتحاوروا وتناظروا في مثل هذا الأمر، فهو

(١) الكيالي، تاريخ فلسطين...، ص ٥٠ - ٥١.

(٢) عبد الله التل، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٤٦٣.

(٣) المنار، ٩ نيسان ١٨٩٨، ١٢، ح٢، ص ١٠٦.

أخلق بالنظر من اختلاق المصائب وانتحال المثالب والصاقها بالبراء وأحرى بالمحاورة من التحني على إخوانكم، فإن في الخير شغلاً عن الشر، وفي الجد مندوحة عن الباطل، وما يتذكر إلا من ينيب".^(١)

نلاحظ من دعوة رشيد رضا أنها أثرت في اتجاهات بعض الصحف العربية واهتمامها بنشر المقالات عن اليهود والحركة الصهيونية، بينما لم تلق هذه الدعوة أي تجاوب يذكر من الزعامات العربية في مختلف المناطق العربية غير أنه من المؤكد أن الشعب الفلسطيني -الفلاحين والصناع- هو الوحيد الذي أحسّ بخطورة الحركة الصهيونية على مستقبل بلاده بدليل أن ردود الفعل في المناطق العربية تكاد تكون معدومة في الوقت الذي كانت تتأجج بعوامل الرفض والمعارضة في فلسطين حتى أن بعض الزعامات الفلسطينية استطاعت التنبيه إلى الخطر الصهيوني وأبدت معارضتها لإنشاء وطن قومي لليهود، ففي مطلع آذار ١٨٩٩ أرسل "يوسف ضيا الخالدي" - ممثل القدس في مجلس المبعوثان - رسالة مطولة إلى حاخام فرنسا "صادوق خان" أكد فيها أن فلسطين جزء لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية وأن سكانها ليسوا من اليهود. لذا رأى الخالدي خطراً على مصير شعب فلسطين، لأن الهجرة اليهودية ممكن أن تؤدي إلى طرد الفلسطينيين من ديارهم. ولكن اليهود سيواجهون بالطبع حركة شعبية، من قبل السكان العرب لذا طلب الخالدي من الحاخام إفهام اليهود أنه من الأفضل لهم أن يذهبوا إلى مكان آخر غير فلسطين.^(٢)

وجه صادوق خان ما وصله إلى زعيم الصهيونية "تيودور هرتزل" الذي بادر على الفور إلى الرد عليها قائلاً "أن اليهود كانوا ومازالوا وسيبقوا من أحسن أصدقاء تركيا..... وأن الفكرة الصهيونية ليس لديها مشاعر العداء تجاه الحكومة العثمانية، بل على العكس من ذلك تماماً، فهذه الحركة مهتمة في إيجاد موارد جديدة للامبراطورية العثمانية عن طريق السماح لعدد محدود من اليهود بالهجرة..... ولهذا لا يوجد شيء على الإطلاق يثير الخوف من هجرتهم....." أما بالنسبة لشعب فلسطين فإنهم "سيكسبون إخوة أذكاء كما سيكسب السلطان مخلصين..... لقد قدمت لجناب السلطان بعض المطالب العامة وأنا سعيد لاعتقادي بأن ذكائه الحاد سيجعله يقبل الفكرة من حيث المبدأ..... وإذا رفضها سنبحث وثق بأننا سنجد ما نبتغيه في مكان آخر.....".^(٣)

كانت المعارضة العربية للهجرة اليهودية وبيع الأراضي متواصلة ومؤثرة بحيث استطاعت أن تشكل قوة ضاغطة على الحكومة العثمانية لوضع حد لبيع الأراضي وبدعم من مفتي فلسطين امتنعت السلطات العثمانية في متصرفية القدس في عام ١٩٠٠ عن السماح بانتقال الأراضي لليهود. وكانت ردود الفعل العربية وحركة الاحتجاجات قد

(١) المنار، ٩ نيسان ١٨٩٨، ١٢، ح٢، ص ١٠٨.

(٢) لوران غاسبار، تاريخ فلسطين، تعريب: ابراهيم ميخائيل خوري، دمشق، ١٩٦٩، ص ٢٣٣.

(٣) شايدل، إسرائيل...، ص ٩٦.

أثرت منذ فترة بعيدة على الحكومة العثمانية بإصدارها قوانين خاصة بالهجرة اليهودية، نتيجة لذلك وبسبب تشدد السلطات في الموانئ الفلسطينية اتجه عدد كبير من المهاجرين اليهود إلى مرفئ ولاية بيروت الجنوبية ليتم تهريبهم إلى داخل فلسطين، وذهب عدد آخر إلى مصر حيث رأوا أن باستطاعة إنجلترا حمايتهم وهي المسيطرة هناك. واستطاع هؤلاء المهاجرون التعاون مع الحركة الصهيونية والجمعيات اليهودية المصرية، وذلك قبل عام ١٨٩٧ أي قبل انعقاد مؤتمر بال الأول.

بدأ النشاط العربي منذ أوائل القرن العشرين بالتطور لمواجهة الحركة الصهيونية والاستعمارية ليس عن طريق القوى العاملة فحسب وإنما عن طريق بعض المفكرين وكبار الموظفين العرب في الدولة العثمانية ففي عام ١٩٠٥ تمكن عدد من القوميين العرب والمناوئين للصهيونية من لفت انتباه الصحافة الأوروبية ومؤيدي الحركة الصهيونية إلى حركة القومية العربية. وكان في مقدمة هؤلاء نجيب عازوري حيث كان يعمل موظفاً في إدارة متصرفية القدس (١٨٩٨-١٩٠٤) إلى أن نفي إلى باريس بعد معارضته للمتصرف العثماني "رشيد باشا" الذي كان مثلاً سيئاً في تطبيق القوانين الخاصة بالهجرة اليهودية في خلال أكثر من سنتين من توليه المتصرفية (١٩٠٤-١٩٠٦).^(١)

بدأت حملة عازوري (N-Azouri) عندما أسس جمعية عرفت باسم "عصبة الوطن العربي" (La Ligue de La Patrie Arabe) التي ينص برنامجها على تكوين امبراطورية عربية تمتد من دجلة والفرات إلى قناة السويس ومن البحر المتوسط إلى الخليج العربي، ويكون أسلوب الحكم فيها دستورياً مبنياً على المساواة لكل المواطنين أمام القانون، وقد تسربت بضعة منشورات من عصبته إلى فلسطين في عام ١٩٠٥ وكانت تحت عنوان "بلاد العرب للعرب" وانتشرت لدرجة اضطرت السلطات العثمانية إلى اعتقال بعض أعيان العرب في يافا وغيرها من المدن والقيام بتفتيش منازلهم وأوراقهم.

وفي عام ١٩٠٥ أصدر "نجيب عازوري" كتاب "يقظة الأمة العربية في آسيا التركية" عبر فيه بفكر ثاقب عن واقع الأمة العربية وخطر الحركة الصهيونية وطالب فيه بتأسيس امبراطورية عربية مستقلة من النيل إلى الفرات، وحذر من خطر تحقيق المشروع الذي تنادي به الحركة الصهيونية، وهدفها البعيد - حسبما أورده عازوري - كان إحياء الدولة اليهودية القديمة بحدودها القديمة.^(٢)

والواقع أن أهالي القدس عبروا عن معارضتهم للاستيطان اليهودي بأشكال عديدة ومختلفة ومنها المعارضة السياسية والحرب الاقتصادية، حيث شكلوا لجاناً شعبية مهمتها التضيق على اليهود ومؤسساتهم في القدس وفي كافة المناطق الفلسطينية، فكان أعضاء هذه اللجان يوزعون أنفسهم في مختلف المناطق لتنفيذ مخططاتهم في تخريب

(١) محمود صالح منسي، تصريح بلفور، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٢.

(٢) علوش، الحركة الوطنية، ص ٩٤.

وحرقت المؤسسات الأجنبية والصهيونية، ويذكر مراسل صحيفة "ثمرات الفنون" عام ١٩٠٨ من أنه قد "بلغنا من أخبار القدس أنه حدث فيها حريق هائل التهم محل الكريدي ليونه،^(١) والبوسطة العثمانية وسبب خسائر باهظة. جرى ذلك عند منتصف ليل الأربعاء الواقع ٢٢ نيسان وأول شبوب النار كانت في قهوة نقولا تنكجي الواقعة في الجناح الأيمن من أول السوق الذي عند باب الخليل، ثم اندلعت ألسن اللهب وامتدت إلى ما يجاور القهوة فالتهمت بيت الخواجة خريستاكى ثم اتصلت ببيت مدير بنك الكريدي ليونه فأحرقتة أيضاً، فإدارة التلغراف العثمانية، فمخزن الخواجة اينلندز".^(٢)

وبعد ثورة الاتحاديين عام ١٩٠٨ ازدادت ردود الفعل العربية بعد أن شعر العرب بتأييد اليهود المثير لهذه الثورة تحت ستار الولاء للعثمانية والعمل لمنفعة الدولة ونفي الهدف السياسي، ولكن هذا لم يمنع الصهيونية من أن تبقي الهدف الأساسي لمشروع هرتزل بإنشاء الدولة اليهودية كامناً في تحركاتها ونشاطاتها.

نلاحظ مما تقدم أن العهد الاتحادي قد أتاح لليهود ممارسة نشاطهم بحرية أكثر من ذي قبل، ففي هذه الفترة واصل مجموعة من المهاجرين في الجليل نشاطهم مع بن غوريون، وبدأوا بتجفيف المستنقعات واستصلاح الأراضي الجبلية وتحويلها إلى أراض زراعية، وكانت تلك الأراضي قد اشترت من مال "صندوق الإدخار القومي اليهودي"، من بعض الإقطاعيين الفلسطينيين واللبنانيين، لذا كانت التقارير المتوفرة في عام ١٩٠٨ تدل على أن الفلاحين في القدس يضمرون العداء نحو اليهود ونحو الإقطاعيين العرب أصحاب الأراضي الشاسعة أمثال: مصطفى باشا، فؤاد سعد، الياس سرسق، الذين سهلوا الاستيطان اليهودي ببيعهم تلك الأراضي، ويتضح بعد ذلك أن الاستيطان اليهودي في فلسطين لم يثر فئة من الناس دون غيرها بل على العكس إن الشعور بالخطر الصهيوني كان من جملة العوامل التي قربت بين المسيحيين والمسلمين. وقد ذكر نجيب نصار^(٣) -وكان مراسلاً لصحيفة "ثمرات الفنون" في القدس قبل تأسيسه صحيفة الكرمل- تقريراً عن ردود الفعل العربية للاستيطان اليهودي، أكد فيه تكرار حوادث القتل والاحتكاك بين الجانبين وذكر أنه "جرت مشاجرة من نحو عشرين يوماً ما بين أهالي قرية معذر..... وأهالي مسمه من اليهود، انتهت بجرح واحد من كل فئة بالرصاص، ومن ثلاثة أيام أصيب أحد اليهود برصاصة بجنبه وشُجَّ رأسه بضربة سيف، ويقال بأن حالته تنذر بالخطر والحكومة لآن لم تقبض على أحد من الفاعلين".

توالت المظاهرات في أواخر عام ١٩٠٨ في فلسطين- وفي القدس على وجه الخصوص- لفضح المؤامرات الصهيونية، وبيان خطر بيع الأراضي لليهود، وتوالت هجمات العرب على مستوطنات اليهود لتدميرها، كما دعا

(١) الكريدي ليونه، مؤسسة مصرفية صهيونية، انظر الموسوعة اليهودية، مصر، ١٩٩٩، ج١، ص ٤١١.

(٢) غاسبار، تاريخ فلسطين...، ص ٢٣٦.

(٣) ثمرات الفنون، العدد ١٦٧٩، بيروت، ٧ أيلول ١٩٠٨، ص ٣.

الوطنيون إلى مكافحة الصهيونية عن طريق خلق وعي قومي ثقافي فأسسوا معهدين علميين وطنيين في القدس^(١): الدستورية والروضة وكان من أهم أهداف هذين المعهدين الدعوة لوقف بيع الأراضي لليهود ووقف تدفقهم إلى القدس، وأخذ النواب العرب في مجلس المبعوثان يدرسون أوضاع فلسطين منذ عام ١٩٠٩، حتى أجبروا رئيس الحكومة على إعلان أنه لن يسمح لليهود باستيطان فلسطين. وكان نواب القدس الشريف، قد واصلوا جهودهم لدى الدوائر الحكومية العثمانية للعمل لوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، لأن اليهود باتوا يشكلون خطراً على المواطن الفلسطيني، ويذكر "صالح بوبصير"^(٢) أن فرصة دخول العرب إلى مجلس المبعوثان لم تكن هي التي حمت فلسطين من تغلغل اليهود وتسلطهم في فلسطين، فإن التاريخ يثبت قبل ذلك أن السلطان عبد الحميد أشهر سلاطين بني عثمان قوة وانفراداً بالحكم، لم ينصع لإغراءات اليهود واتصالاتهم العديدة،^(٣) غير أن "بوراث" (Porath) - المؤرخ الصهيوني - يؤكد بأن إدخال الحياة البرلمانية في الامبراطورية العثمانية، قد هيأ منصة هامة للتعبير عما هو ضد الفكرة الصهيونية، وأشهر من قدم هذا المثال اثنان هما: سعيد الحسيني وروحي الخالدي، وهما اثنان من ثلاثة ممثلين عن متصرفية القدس في البرلمان العثماني من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٢. ويضيف "بوراث" بأن هذين الشخصين استغلا هذه المنصة لتوضيح أخطار الصهيونية وضرورة تفادي إنجازاتها في فلسطين.^(٤)

ازداد تطور الحركة العربية في متصرفية القدس في العهد الدستوري بشكل كبير وتمثل ذلك باشتراك متنويرها في الجمعيات العربية المختلفة وفي مجلس المبعوثان، وقد ساهمت سياسة الاتحاديين العدائية للحركة العربية في تشكيل العلاقات العربية العثمانية على نحو جديد أعطى الحركة العربية أبعاداً جديدة لم تكن معروفة من قبل.

ففي عام ١٩٠٩ تم تأسيس المنتدى الأدبي الذي شارك فيه جميل الحسيني من القدس وقد عاش هذا المنتدى حتى عام ١٩١٥ عندما أغلقته الحكومة.

وقد نادى هذا المنتدى بما نادى به الجمعيات العربية الأخرى إضافة للأحزاب التي أسست في تلك الفترة كحزب اللامركزية في القاهرة في أواخر عام ١٩١٢ والذي اشترك فيه من متصرفية القدس حافظ السعيد أما رئيس الحزب فكان رفيق العظم وقد جاء تأسيس هذا الحزب محاولة من العرب لتنظيم جهودهم وقد قام حزب اللامركزية بدور هام في المؤتمر العربي، وكان مبعوثا القدس روجي الخالدي وسعيد الحسيني قد اشتركا مع فريق من المبعوثين العرب في تأليف كتلة نيابية عربية في آذار ١٩١١ تولت الدفاع عن حقوق العرب في الدولة العثمانية.

(١) منسي، تصريح بلفور، ص ٤٣، وانظر أيضاً: البرغوثي، وطوطح، تاريخ فلسطين، ص ٢٧.

(٢) صالح بوبصير، جهاد شعب فلسطين، بيروت، ١٩٦٧، ص ٣٠.

(٣) بوبصير، جهاد...، ص ٣٠.

(٤) Y.Porath : The political Awakening of The Palestinian Arabs ... P 33 .

أما الجمعية القحطانية التي تأسست في أواخر ١٩٠٩ فقد شارك فيها من القدس علي النشاشيبي كما ضمت الجمعية عدداً من الضباط العرب في الجيش العثماني وبعض مؤسسي المنتدى الأدبي، وتعود أهمية هذه الجمعية إلى محاولتها ضم كل الضباط العرب إلى الحركة العربية، ولكن الجمعية لم تستمر طويلاً في عملها وخاصة بعد افتضاح أمرها وخلفتها جمعية العهد في أوائل عام ١٩١٤ لتحقيق أهدافها وكان جميع أعضاء العهد من الضباط العرب ولما كان العنصر العراقي أكثر العرب عدداً في الجيش العثماني فقد لعب دوراً مهماً في الجمعية وأنشأ فروعاً لها في بغداد والموصل، واشترك الضابط علي النشاشيبي من القدس في جمعية العهد أيضاً.^(١)

- جمعية العربية الفتاة: تأسست في باريس ١٩١١ من قبل سبعة من الطلاب العرب الذين كانوا يواصلون دراستهم العالية في باريس وكانت أهداف هذه الجمعية السعي لاستقلال البلاد العربية وتحريرها من السيطرة العثمانية أو الأجنبية، وبقي مركز الجمعية في باريس حتى عام ١٩١٣ حيث نقل إلى بيروت ثم إلى دمشق في عام ١٩١٤ وكان من بين أعضائها رشدي الإمام الحسيني من القدس ورشدي الشوا من غزة وفي عام ١٩١٥ اتصلت جمعية العهد بجمعية العربية الفتاة في دمشق ووحدتا وسائلهما معاً لاشعال الثورة العربية.

وإزاء ازدياد نشاط الجمعيات العربية، أخذت حكومة الاتحاد والترقي في ربيع ١٩١٣ تتقرب من العرب في صحنها لقطع الطريق على حركة القومية العربية، فبعثت بأوامرها إلى مراكز الولايات العربية بقبول العرائض وإجراء المحاكمات باللغة العربية وجعلها لغة التعليم الابتدائي والإعدادي مع بقاء التعليم في المكاتب السلطانية باللغة التركية.

وكانت فكرة الدعوة لعقد مؤتمر عربي يعقد في دمشق أو بيروت ويضم أعضاء من جميع الولايات العربية العثمانية للتداول في الاصلاحات المتعلقة بما قد دعى لها شكري بك العسلي في كانون الثاني ١٩١٣ ثم ظهرت الفكرة ثانية في شباط في أوساط الطلاب العرب المقيمين في باريس لمطالبة الاتحاديين برعاية حقوق الأمة العربية والاهتمام بمطالبها الاصلاحية، وشهدت الشهور التالية تحضيراً لعقد المؤتمر ولتنظيم جدول الأعمال، وأخيراً عقد المؤتمر العربي الأول في باريس (١٨-٢٣) حزيران ١٩١٣ فكان أول صدام علني وأول صراع مكشوف بين العرب والعثمانيين أما المناقشات التي دارت في المؤتمر فكانت تتجه للاتجاهات السياسية التي بدأت عند الجمعيات العربية السابقة لكنها كانت خطوة هامة في توضيح الحركة العربية فقد أكد المؤتمر على أمرين هما:^(٢)

١- أن العرب أمة واحدة تربط بينها وحدة اللغة والتاريخ والآمال والمصالح.

(١) هنري كتن، فلسطين في ضوء الحق والعدل، تعريب: وديع فلسطين، بيروت، ١٩٧٠، ص ٨.

(٢) أسعد داغر، ثورة العرب، القاهرة، ١٩١٦، ص ٧٦، ٧٧.

٢- المطالبة بنظام اللامركزية في الحكم لاعتبارات متعددة منها خطر الوقوع تحت سيطرة الدول الأوروبية وعكس بذلك الأهداف العامة للجمعيات والأحزاب العربية المختلفة التي طالبت بمزيد من اللامركزية في الحكم وبالاعتراف بأمة عربية واحدة ذات كيان قومي.^(١)

كان رد الفعل في الأوساط الحاكمة قوياً فعملت الصحف الاتحادية بعنف على المؤتمر وعلى القائمين به، ولما فشلت حكومة الاتحاد والترقي في الحيلولة دون انعقاد المؤتمر اتبعت أسلوب التفاهم والاتفاق وجرّت المفاوضات بين الطرفين وتظاهرت الحكومة الاتحادية بالإخلاص للعرب، أخذت تسوف وتماطل في تنفيذ وعودها، وهكذا بقي موقف الاتحاديين من العرب قائماً على الخداع والمراوغة حتى أعلنت الحرب العالمية الأولى وزجت الدولة العثمانية فيها، وعيّن جمال باشا قائداً عاماً للجيش الرابع المتمركز في بلاد الشام ففضى زعماء التفاهم والاتفاق (الزهرابي والخليل وغيرهم من المشتغلين بالحركة العربية من بينهم ثلاثة من متصرفية القدس هم: أحمد عارف الحسيني وولده مصطفى وعلي النشاشيبي) على أعواد المشانق في أيار ١٩١٦ بقرار من الديوان العرفي الذي شكله جمال باشا في عاليه، ثم كانت الثورة العربية في تموز ١٩١٦ وبذلك أسدل الستار نهائياً على محاولات التفاهم والاتفاق، باستثناء محاولة فاشلة قام بها جمال باشا في تشرين الثاني ١٩١٧ للتوصل إلى صلح مع الشريف حسين، بعد أن قامت الثورة الشيوعية بفضح اتفاقية سايكس-بيكو.^(٢)

ازداد الشعور بالخطر الصهيوني بين شباب القدس في الخارج في صيف ١٩١٤ فتوسعوا في إنشاء الجمعيات المختلفة في بيروت والقاهرة والآستانة وقامت الشبيبة في القدس بإنشاء الجمعيات مثل "جمعية الإخاء والعفاف" و"شركة الاقتصاد الفلسطيني العربي" و"شركة التجارة الوطنية الاقتصادية"، لكن هذه الجمعيات على كثرتها كان يعوزها التنظيم، ولم يكن ثمة رابطة بينها، فقد كان الحافز لتأسيسها إحساس الأفراد والجماعات بالخطر الصهيوني ومحاولة إثبات الوجود العربي في فلسطين.^(٣)

ومهما يكن من أمر فقد أوجد نصّار- رئيس تحرير جريدة الكرمل- بحمله لواء مناهضة الصهيونية اتجاهاً معادياً لها في أوساط الشبيبة الفلسطينية، أما الأعيان وأصحاب الأملاك فقد أدى تقيّعه المستمر لهم إلى عدم المبالاة بنتائج التشهير بهم، ونستطيع أن نلمس الأثر الذي أوجده نصّار في الرأي العام الفلسطيني على صفحات جريدة الكرمل حيث كان ينشر رسائل القراء المشجعة والمثبّطة على حد سواء وكان بعضها يطلب منه الاستمرار في

(١) أنيس الصايغ، تطور المفهوم القومي عند العرب، بيروت، ١٩٦١، ص ٦٦-٧٠.

(٢) مخطوط: صراخ البري في بوق الحرية ١٨٩٠-١٨٩١، تأليف حبيب فارس مصنف تحت الرقم ٦٥٢، (معلومات وآراء غير منشورة في الكتاب المطبوع في مصر ١٨٩١، ثلاثة أجزاء، ج١، تحت عنوان صراخ البري في بوق الحرية والذبايح التلمودية) ص ٥٦.

(٣) مخطوط صراخ البري، ص ٦٠.

مناهضة الصهيونية وخدمه وطنه والبعض الآخر يعرض عن ذلك بسبب اتهام البعض له بالسعي للحصول على أموال من الصهيونيين ثمناً لسكوته، وينصحه بإغلاق الجريدة وبيع المطبعة والرحيل عن بلاد لا ناقة له فيها ولا جمل، وآخرون يذكرون له أن حملاته على الصهيونية جاءت بنتائج عكسية فقد شجعت حركة بيع الأراضي لليهود علنا بعد أن كانت تتم سراً وأن دعوته لتشكيل الجمعيات لم تلق استجابة من أحد، ويفلسفون ذلك بأن الفقراء وهم الكثرة لا يستطيعون والمتوسطين يتوسطون لبيع الأراضي والأغنياء يبيعون^(١).

لذلك فمن الأفضل أن يدع نصار الفلاحين يبيعون لليهود رأساً ليتخلصوا من المبالغ التي يدفعونها للسماسة. ولعل من الجدير بالذكر أن نتعرف على رأي نصار في النتائج التي توصل إليها بعد سنوات من مناهضة الصهيونية" صار لنا خمس سنين ونحن نبههم إلى خطر الصهيونية العظيم وهم لا يسمعون ولا يعون بل هم لاهون في إشباع شهواتهم وفي منازعاتهم ومشاحناتهم وغافلون عما يحذر بهم من الأخطار، دعوناهم إلى تأليف مؤتمر لا صهيوني فما سمعنا لدعوتنا إلا أصداء ضعيفة أشبه بأنات العليل".

وفي النصف الثاني من عام ١٩٠٩ وجهت جريدة الأهرام هجوماً مباشراً للحركة الصهيونية لأطماعها السياسية في فلسطين. فتحدثت في المقالات التي نشرتها عن مؤتمرات الصهيونية، وعن بحث الإسرائيليين عن وطن لهم في فلسطين، وفي أحد المقالات - بقلم يوسف جريس فروجي من القدس - أشارت إلى طمع الصهيونيين بالاستقلال في فلسطين، وكيف أن المستوطنات الصهيونية أشبه بولايات مستقلة لا تخضع لقوانين الدولة وأنظمتها بدعوى أنها أجنبية. وطالبت الحكومة العثمانية بوضع حد للأطماع الصهيونية في فلسطين.^(٢)

أما جريدة "المقتبس" فقد حثت مجلس المبعوثان ليقف بحزم في وجه الهجرة اليهودية إلى فلسطين والتي نشطت بعد إعلان الدستور وأنحت باللائمة على الأمة التي تسهل للحركة الصهيونية الوصول إلى أهدافها، ثم دعت المبعوثين العرب في مايو لاستيضاح الحكومة عن أسباب توسع حركة الاستيطان اليهودي، ومطالبتها باتخاذ الوسائل لايقافه، وعزت نجاح الحركة الصهيونية إلى جهل الوطنيين وغفلتهم وفقرهم وإلى خيانة بعض الموظفين والسماسة وشرعت في نشر سلسلة من المقالات بعنوان "الاستعمار الصهيوني" نهت فيها إلى الأضرار التي لحقت بالبلاد من جراء النشاط الصهيوني في فلسطين.

ثم نشرت هذه الجريدة بعد ذلك خطاباً مفتوحاً - بقلم عبد الله مخلص - أوضحت فيه استيلاء الحركة الصهيونية على أجزاء كبيرة من أفضية طبريا وصفد والقدس بأسماء الرعايا العثمانيين وبواسطة السماسة الذين يعدون

(١) ذكرت جولدماير في كتابها أن نسبة الأراضي المملوكة من قبل إسرائيل حتى عام ١٩٤٥ لا تتجاوز ٥,٦% من مجموع أراضي

فلسطين رغم الأسعار الباهضة التي كان اليهود يعرضونها لشراء الأراضي، عزمي، اعترافات جولدماير، ص ٣٧.

(٢) الأهرام، العدد ٩٥٤٣ في ٦ آب ١٩٠٩.

أنفسهم من الأعيان، ولفتت الانتباه إلى أن الحركة الصهيونية لها عملها وبريدها الخاص وتعمل على تكديس السلاح، واستدلت بذلك على شروعها في تنفيذ مخططاتها السياسية، وأهابت بالنواب والحكومة أن تضع حداً للأطماع الصهيونية قبل أن تصبح فلسطين ملكاً لليهود.^(١)

وعندما جرت الانتخابات النيابية في كانون الثاني ١٩١١ انتخب شكري العسلي نائباً عن دمشق، فقاد حملة ضدّ الحركة الصهيونية في مجلس المبعوثان العثماني حيث أخذت المسألة الصهيونية أبعاداً جديدة ففي شباط ١٩١١ واجه طلعت بك- ناظر الداخلية- مناقشة مريرة في المجلس بشأن الهجرة اليهودية لحملة على الاستقالة وفي آذار انتقد جاويد بك- وزير المالية- بقسوة لتعاطفه مع الحركة الصهيونية فقد كان من يهود الدونمة- بإيعاز من شكري بك العسلي- وما لبث جاويد بك أن استقال مع عدد من زملائه.^(٢)

وفي أيار ١٩١١ وخلال مناقشة الموازنة، أثار المبعوثان العرب المسألة الصهيونية من جديد لكن التوقيت كان سيئاً، كما أن المبعوثين العثمانيين الذين أبدوا اهتماماً بالحركة الصهيونية قبل شهرين فتر اهتمامهم بعد استقالة جاويد بك لذلك عندما ألقى روجي بك الخالدي مبعوث القدس مقدمة تاريخية طويلة عن الصهيونية مستعيناً بفقرات من التوراة تلقى المبعوثان العرب تعهداً أدبياً بأن الحكومة ستنظر بعناية لتنفيذ القيود المفروضة على الهجرة، وفي هذه الأثناء تشكل في يافا الحزب الوطني، وكان هدفه الحيلولة دون تقدم الحركة الصهيونية في فلسطين بمنع التعامل مع المؤسسات الصهيونية وحظر بيع الأراضي لها.

أوضح سليمان التاجي من الرملة في صيف ١٩١١ أن سكوت الأمة عن خطرها استفز غيرة الشبيبة فأسست حزباً وطنياً للعمل على مناهضة الحركة الصهيونية، وأهاب بالأمة أن تستيقظ من غفلتها وتطالب الحكومة بمابلي:

١- سد باب الهجرة وذلك بتطبيق قانون الجواز الأحمر- الورقة الحمراء.

٢- منع بيع الأراضي مع إحصاء نفوس اليهود وبدقة، وإعطاء العثمانيين منهم تذاكر نفوس تتضمن أسماءهم الحقيقية.

٣- تطبيق نظام المعارف على المدارس اليهودية.

٤- عدم جواز عقد الاجتماعات الخاصة إلا بعد إعلام الحكومة.

٥- إحصاء الأملاك وأراضي المستوطنات واستيفاء الأموال الأميرية منهم لصالح الخزينة.^(٣)

(١) المقتبس، العدد ٣٢٩ في ٢٨ أيار ١٩١٠.

(٢) مخطوط صراخ البري، ص ٦٤.

(٣) Mandel . op . cit . PP . 98 – 100 .

وعندما عاد روجي الخالدي إلى القدس في صيف ١٩١١ حثّ الموظفين العرب في المتصرفية العمل على منع انتقال الأراضي لليهود. وفي كانون الأول ١٩١١ شرعت شورى الدولة بالبحث لسن قانون يمنع اليهود الأجانب الهجرة إلى بلاد الشام بما فيها فلسطين تنفيذاً للوعد الذي قطعتة الحكومة على نفسها للمبعوثين العرب.^(١)

اهتمت الصحف المعادية للحركة الصهيونية (الكرمل - فلسطين - المقتبس) بمسألة الأراضي المدورة التي كان لها دوراً مهماً في العهد الدستوري، فقاومت والمبعوثين العرب مشروع الأصفر - مشروع بيع الأراضي بالمزاد العلني - مما جعل الحكومة المركزية تردد في الأخذ به وصرف النظر عنه، فاستمر المشروع معلقاً فترة طويلة ونشبت الحرب العالمية الأولى^(٢) ولم ييت فيه. ويمكن القول أن مشروع الأصفر كان من بين الأسباب التي عملت على توحيد الجهد الفلسطيني لمواجهة الخطر الصهيوني، فعندما تخّنت الحكومة في صيف ١٩١٣ إلى نيتها بالأخذ بالمشروع، تنادى السكان العرب في لواء نابلس فعقدوا اجتماعاً كبيراً في نابلس في آب ١٩١٤ للمطالبة بصرف النظر نهائياً عن مشروع بيع الأراضي بالمزاد العلني وإعطائها ببديل المثل وبالتقسيم للمزارعين العرب الذين نزعت ملكية الأرض من أيديهم بوسائل استبدادية وغير مشروعة.^(٣)

ولما اشتدت وطأة الحركة الصهيونية على عرب فلسطين استغاث الأعيان في القدس ويافا في نيسان ١٩١٤ بالمنتدى الأدبي في الآستانة وناشدوه العمل بحزم ضدّ التيار الصهيوني الجارف الذي هدد الموارد الاقتصادية للفلاح والتاجر، ولفتوا الانتباه إلى نفوذ الحركة الصهيونية في دوائر الحكم في المتصرفية وإن حكومة إسرائيلية قد تأسست بينهم، تقاصص وتجازي وأوضحوا أنه إذا كانت الحاجة إلى الإصلاح شديدة فإن الحاجة إلى دفع الخطر الصهيوني أشدّ ثم ناشدوا المنتدى باسم الوطنية أن يستعمل كل ما لديه من الوسائل المشروعة لينبه الحكومة إلى الخطر الصهيوني.

وفي آذار ١٩١٤ قامت جريدة فلسطين باستطلاع آراء بعض المشتغلين في الحركة العربية في متصرفية القدس في موضوع الحركة الصهيونية، ولعله من المفيد أن نتعرف على وجهات النظر التي كانت سائدة في أوساط مستنيري المتصرفية الذين تفاعلوا مع الأحداث في تلك الفترة الحاسمة التي سبقت إعلان الحرب العالمية الأولى وفي الوقت

(١) المفيد، العدد ٧٧٠ في ١٩ آب ١٩١١.

(٢) الكرمل، العدد ٣٥٥ في آب ١٩١٣.

(٣) حاول قادة اليهود وزعمائهم السيطرة على كامل أراضي القدس وأهمهم جولدامائير التي أكدت أن القدس أصبحت بأحسن أحوالها بعد سيطرة اليهود على مساحات واسعة من الأراضي وذلك لتوسيع ساحة حائط المبكى فأصبح أمامهم ميدان فسيح بدل من شارع ضيق عرضه أربع أمتار. عزمي، اعترافات جولدامائير، ص ٤٣-٤٤. وأيضاً المقتبس، العدد ١٢٤٧ في ١٩ تموز ١٩١٣.

الذي جرت فيه محاولات للتفاهم والاتفاق بين الاصلاحيين العرب والحركة الصهيونية وكان حزب اللامركزية- كما سيأتي- صاحب فكرة الاتفاق.^(١)

كان رأي حافظ السعيد- مبعوث يافا وأحد أعيانها وعضو حزب اللامركزية ومن أنصار حزب الحرية والائتلاف- وهو هنا يتبنى رأي حزب اللامركزية في موضوع الهجرة (.....) إنني أرى أن الهجرة الصهيونية قد تكون مضرّة وقد تكون غير مضرّة فإن كانت مربوطة بقيود وشروط تتكفل بدفع الضرر فلا بأس منها كأن تنظر الحكومة لمقدار نفوس فلسطين سيما لواء القدس فيها ومقدار سعة الأراضي، وتنظر لمقدار الزايد فيها من كفاية السكان..... فتسمح ببيعه للمهاجرين الذين يدخلون في التبعية العثمانية..... وأما إن كان حبل الاستعمار ملقى على غارب المستوطن في الهجرة والعدد والمقدار فلا يبعد والحالة هذه أن يستولى المستوطنون وهم متلبسون بأجنبتهم على أكثر الأراضي والتجارة..... فالظن إذا بأنهم- الأهالي- يستفيدون بمجرد النظر لأعمال جيرانهم الصهيونيين هو في رأيي ظن لا يتحقق وكلام لا معنى له).^(٢)

أما خليل أفندي السكاكيني -مدير المدرسة الدستورية في القدس ومن أقطاب النهضة الارثوذكسية في المتصرفية- فيرى: "..... الصهيونيون يريدون أن يملكوا فلسطين وهي قلب البلاد العربية ويقسموا الأمة العربية إلى قسمين يصعب معها اتحادها وتضامنها"،^(٣) أما فيض الله العلمي -مبعوث المتصرفية ومن أعيان القدس- فقد وصف الواقع المؤلم آنذاك بقوله: "..... إذا دمنا على حالنا فلا بد أن يأتي يوم يصبحون فيه أهل البلاد ونحن غرباء عنها".

أما جميل الحسيني -من أعيان القدس المقيمين في الآستانة والمشتغلين في الحركة العربية- فكان من المعارضين للحركة الصهيونية ومن الداعين لمقاومتها "..... المسألة الصهيونية من أمهات المسائل التي يجب علينا أن نقاومها ونحاربها والحكومة تشد أزرها والأهلون جهلاء بسطاء".^(٤)

وليزيد من الإيضاح نضيف إلى ما سبق رأي جرجي زيدان -صاحب مجلة الهلال- في الحركة الصهيونية في أعقاب رحلة شاملة لفلسطين قام بها في عام ١٩١٤ وعان على الطبيعة الآثار السيئة التي ألحقتها الصهيونية بالفلاحين العرب، "..... وما لا شك فيه حول مستقبل تلك البلاد إذ ظلت على ذلك واليهود عاملون على ابتياع الأرض واستعمارها وأهلها غافلون أو متجاهلون وحكومته ساكته أو مشغولة فلا يمحض زمن طويل حتى تصير كلها

(١) فلسطين: العدد ٣٢٣، ١١ نيسان ١٩١٤.

(٢) انظر محاولات التفاهم والاتفاق في الصفحات التالية.

(٣) Thauraud , Je'rome et Jean , L'Histoire des Juifs , Paris 1927 , P 229 .

(٤) فلسطين: العدد ٣٢١، ٤ نيسان ١٩١٤.

لليهود". ويرى جرجي زيدان أيضاً أنه لا يمكن تلافي الخطر الصهيوني إلا بالنسيج على منواله من حيث استغلال الأرض بالوسائل الحديثة وإنقاذ الفلاح من المرابين ثم يقول: "..... وفي وسع الحكومة أن تفعل ذلك لكنها مشغولة مضطربة أما أعيان البلاد فممنصرفون إلى المسائل السياسية والتنازع على الوظائف والنيابات أو المطالبة بالإصلاح، ولو صرفوا المهمة والجهد إلى الناحية الاقتصادية لكان ذلك أقرب إلى الوطنية والاستقلال".^(١) ومهما يكن من أمر فقد اتحد عرب فلسطين -مسلمون ومسيحيون- في العهد الدستوري وعملوا معاً في قضية مشتركة واحدة ضدّ الصهيوينيين بل إن المسيحيين قادوا حملة عنيفة ضدّ الصهيونية والمجرة اليهودية في صحفهم فلسطين في يافا والكرمل في حيفا.

ويبدو أن لإقامة المسيحيين العرب في المدن علاقة بمعارضة المجرة اليهودية فقد كانوا أكثر تأثراً من المسلمين العرب بالمنافسة اليهودية في مجالات التجارة والصناعة اليدوية^(٢) كما ضاعف وجود عدد كبير من رجال الدين والإرساليات الأجنبية في فلسطين في تقوية المعارضة المسيحية للمجرة اليهودية، خوفاً من أن تؤدي المجرة المتزايدة إلى المساس بالأماكن المقدسة وبالتالي إلى وقف تدفق الزوار المسيحيين التي تعتمد الإرساليات والمسيحيون العرب على ما ينفقون من أموال .

يتبين لنا مما سبق استمرار عرب فلسطين في مقاومة الغزو الصهيوني بوسائلهم المحدودة وبالرغم من فشل السلطان عبد الحميد في إيقاف تدفق المجرة اليهودية إلى فلسطين بسبب مداخلات السفراء الأجانب، وبسبب تواطؤ بعض المسؤولين في الإدارة والشرطة مع الصهيوينيين بفضل الرشوة وبالرغم من مساعدة الاتحاديين للصهيوينيين ومن نجاح المتنفيين اليهود في إقصاء بعض المتنصرين أو عزل بعض الموظفين المعارضين لهم.^(٣)

بهذا الشكل اتخذ عرب فلسطين موقفاً حاسماً من الحركة الصهيونية، فأسسوا جمعيات عدة لمكافحة وقاموا بأعمال العنف المسلح، وفرضوا على مرشحيهم لمجلس المبعوثان العمل على إزالة خطرهما مقابل التصويت لهم، لكن اشتداد العداء بين الفلسطينيين واليهود لم يمنع الاصلاحيين العرب والحركة الصهيونية من القيام بمحاولات للتفاهم والاتفاق قبيل الحرب العالمية الأولى، بل لعله كان أحد الأسباب الرئيسية التي عجّلت في محاولات التوصل إلى تفاهم بين الطرفين.

(١) الهلال: العدد ٧، نيسان ١٩١٤.

(٢) نصار، الصهيونية، ص ١٧.

(٣) فلسطين، العدد ٢٢١، ١٥ آذار ١٩١٣.

٢- محاولات التفاهم والاتفاق بين العرب والحركة الصهيونية:

أخذت الحركة العربية بعد اختلافها مع جمعية الاتحاد والترقي تبحث عن حلفاء أو مساعدين لهم لدراسة أوضاع عرب فلسطين، فقام شكري العسلي عضو الجمعية القحطانية بالاشتراك مع الدكتور أيوب ثابت في سنة ١٩١١ بالتقرب من الوطنيين المصريين. كما التمس جماعة من الدروز في لبنان ودمشق في شتاء ١٩١٢ من القنصل الانكليزي في بيروت مساعدة بلاده لهم في نزاعهم مع العثمانيين وفي الوقت نفسه قام وفد من السوريين في مصر بمقابلة اللورد Kitchner المندوب السامي في مصر، والتمسوا منه مساعدة انكلترا للاحاق سورية بمصر ومنح سورية استقلالاً إدارياً.^(١)

ولذلك فإن الاتصالات التي بدأها حزب اللامركزية مع الحركة الصهيونية في ربيع ١٩١٣ كانت ضمن محاولات الإصلاحيين العرب البحث عن حلفاء لهم ضدّ العثمانيين.^(٢)

ومما شجع على إجراء الاتصالات بين الطرفين إحساس المسؤولين في الحركة الصهيونية بخطورة رد الفعل العربي، وكان شرجنبرغ وهو روسي الأصل أول من تنبه لذلك أثناء زيارته التي قام بها للقدس في عام ١٨٩١ بدعوة من جمعية "محبي صهيون" وحذر الصهيونيون من ثورة عربية قومية ضدّ مستوطناتهم، وعندما عقد المؤتمر الصهيوني السابع في بال في آب ١٩٠٥ حذر ماكس نوردا- وهو الصديق الشخصي لهرتزل- من وجود يقظة عربية واسعة الانتشار وكانت الحركة الصهيونية قد كلفت مدراء فروع الشركة الانكليزية- الفلسطينية بموافاتها بكل ما يمت للحركة العربية بصلة، وقد زاد اهتمامها في عام ١٩٠٨ فسارعت إلى افتتاح مكتب فلسطين في يافا وآخر في الآستانة للإشراف على عمليات الاستيطان والسعي للتقرب من الزعماء العرب للوقوف على نواياهم تجاه الحكم العثماني.^(٣)

كما سبقت اتصالات حزب اللامركزية بالحركة الصهيونية مناظرات مهمة أسهم فيها أعضاء حزب اللامركزية في القاهرة حول تواطؤ جمعية الاتحاد والترقي مع الحركة الصهيونية بسبب الأزمة المالية، وأثر ذلك التواطؤ على فلسطين، وقد دلت المناظرات على أن أهم ما كان يشغل بال الإصلاحيين العرب انذاك هو الخوف من تواطؤ الاتحاديين مع الصهيونيين على حساب المصالح العربية في فلسطين، ومما زاد في قلقهم التغلغل الصهيوني في صفوف الاتحاديين واستلامهم مناصب هامة في الدولة. وخوفاً من أن يؤدي الاتفاق الاتحادي- الصهيوني إلى الإجحاف بحقوق العرب في فلسطين وسورية رغب الإصلاحيون العرب أن يتم الاتفاق مع الصهيونيين بمعرفتهم

(١) Mandel . op . cit . P . 102 .

(٢) طرين، محاضرات...، ص ١٨ .

(٣) صايغ، تطور المفهوم...، ص ٤٥ .

على الأقل وليس من ورائهم، ومما شجع الإصلاحيين العرب على التحمس للفكرة ظنهم أن بالاتفاق مع الحركة الصهيونية يستطيعون تحقيق ما يريدونه من حكم لامركزي في الولايات العربية وتوظيف للأموال اليهودية للنهوض باقتصاديات البلاد ولذلك أوضحوا للحركة الصهيونية رغبتهم في التفاهم والاتفاق معها وقد أوضح داوود بركات- محرر الأهرام- وعضو حزب اللامركزية أن السوريين لا يكرهون التفاهم مع الإسرائيلين ولكن الذي يؤلم السوريين أن يتفق على أرضهم دون علمهم أو رأيهم، وما على الفريقين إلا أن يتفاهما ليتحابا ويتفقا،^(١) ثم كرر حقي العظم- سكرتير حزب اللامركزية- عندما أنكر أن جميع السوريين يعارضون الصهيونيين لأن السوريين يعرفون بأن أراضيهم بحاجة إلى رأس المال لتتقدم وأن اليهود أكثر ملائمة من غيرهم للوصول لهذا الهدف ثم استدرك قائلاً بأن معارضة قسم من السوريين والفلسطينيين للمستوطنين اليهود ترجع إلى السببين التاليين:

١- احتفاظ معظم المهاجرين اليهود بجنسياتهم الأجنبية بعد الإقامة في فلسطين أو التظاهر بالانتماء إلى الجنسية العثمانية.

٢- تأييد المهاجرين اليهود والعثمانيين للسياسة التخريبية لجمعية الاتحاد والترقي.^(٢) وأبدى استعداد العرب لفتح بلادهم أمام المهاجرين اليهود بالشروط الآتية:

- ١- تبني اللغة العربية.
- ٢- الاقلاع عن الاستئثار باقتصاد البلاد وحصر منافعها باليهود وحدهم دون الالتفات إلى أهالي فلسطين.
- ٣- أن يصبحوا رعايا عثمانيين حقيقيين.
- ٤- تجنب الاشتغال بالسياسة.
- ٥- أن يأخذوا بعين الاعتبار الأمة العربية التي لا بد من نهضتها في الحاضر والمستقبل.

وهكذا دلت المناظرات التي جرت عام ١٩١٣ والتي قام بها حزب اللامركزية لاستطلاع رأي الحركة الصهيونية في موضوع التفاهم على أن الظرف ملائم لاجراء اتصالات بين الطرفين في محاولة لايجاد تفاهم قد يؤدي إلى اتفاق بينهما وجاءت المبادرة من حزب اللامركزية عندما كتب سليم نجار^(٣) -عضو اللامركزية- في أوائل نيسان ١٩١٣ رسالة إلى سامي هوتشبرغ^(٤) محرر جريدة Le Jeun-Turc "تركيا الفتاة"- تضمنت دعوة الحركة الصهيونية

(١) الأهرام: العدد ١٠٦٢١، شباط ١٩١٣.

(٢) الأهرام: العدد ١٠٧٣٧، شباط ١٩١٣.

(٣) سليم نجار: صحفي سوري كان عضواً في حزب اللامركزية وقد سبق له أن اشتغل في جريدة الجون ترك ولذلك كان يعرف هوتشبرغ جيداً. Mandel, op . cit , P 239.

(٤) سامي هوتشبرغ: صحفي يهودي، عمل محرراً لجريدة "الجون ترك" وكان مقرباً من اللجنة التنفيذية للحركة الصهيونية منذ مولت جريدته بالأموال الصهيونية وقد وقع الاختيار عليه بالرغم من أنه لم يكن يشغل منصباً رسمياً في الحركة الصهيونية كي لا -

لإجراء تفاهم مع حزب اللامركزية ونقل هوتشبرغ مضمون الرسالة إلى الدكتور فكتور جاكيسون Dr.V.Jacobson ممثل الحركة الصهيونية في الآستانة الذي أرسله بدوره إلى رئاسة الحركة الصهيونية في برلين مع اقتراح بتكليف هوتشبرغ بالسفر إلى القاهرة وبيروت.

أوضح هوتشبرغ في التقرير الذي رفعه للحركة الصهيونية أنه قابل عشرين عضواً من حزب اللامركزية وجمعية بيروت الاصلاحية وأنه خرج بوجهات النظر التالية:

- ١- إن أربعة من المسيحيين العرب الذين اجتمع بهم أبدوا عطفهم على الهجرة اليهودية.
 - ٢- إن المسلمين الذين قابلهم لم يتفقوا على رأي موحد بشأن الهجرة، بعضهم رغب في السماح للهجرة دون تحفظ، والبعض الآخر وافق بشروط معينة كتحديد عدد المهاجرين سنوياً ومنع انتقال الأرض لهم.
 - ٣- إن عضوين مسلمين من بين العشرين الذين اجتمع بهم أبدوا معارضتهما للهجرة اليهودية لأنهما يريان فيها اعتداء على وحدة لغة العرب وعاداتهم.^(١)
- وبعد سفر هوتشبرغ إلى الآستانة، أخذ رفيق بك العظم وسليم نجار يروجان لفكرة الاتفاق العربي- الصهيوني، فأشادا بالفوائد التي ستجنيها البلاد من رأس المال اليهودي والتطور السريع الذي ستشهده الولايات السورية بفضل الطاقة البشرية والذكاء اليهودي، وجاراهما في ذلك رزق الله أرقش عضو جمعية بيروت الاصلاحية وأكد حزب اللامركزية بأن اليهود العثمانيين متساوون في الحقوق والواجبات في ظل الإدارة اللامركزية وأعلن الشيخ أحمد طيارة ضمان حقوق اليهود العثمانيين في برنامج جمعية بيروت الاصلاحية.^(٢)

٣- مؤتمر باريس ١٩١٣:

انعقد المؤتمر العربي الأول في باريس في حزيران ١٩١٣ وكان ترتيب موضوع المهاجرة من سوريا وإلى سوريا الأخير في جدول الأعمال الذي ضم أربع مسائل اتفق عليها لتكون أساساً للمذاكرة في المؤتمر وعهد بالحديث عن موضوع المهاجرة إلى الشيخ أحمد طيارة عضو الوفد البيروتي، لكنه اكتفى بالتلميح عن الهجرة اليهودية دون التصريح، فأشار إلى أن الرأي العام العربي كان ينقسم موقفه إلى فريق يستنكر هجرة غير العرب لتوجس ذلك

- تتخذ الاتصالات التي يقوم بها مع الاصلاحيين العرب طابعاً رسمياً أو تلزم الحركة الصهيونية بشيء، Mandel , op . cit ., P 244 .

(١) كان من بين الاصلاحيين العرب الذين اجتمع هوتشبرغ بهم. رفيق العظم، سليم نجار، أحمد أفندي، مختار بيهم، رزق الله أفندي أرقش، اسكندر عمون، حقي العظم. الشيخ أحمد طيارة، داوود بركات، خليل أفندي زنيه، انظر: عادل اسماعيل، واميل خوري، السياسة الدولية في الشرق العربي، بيروت، ١٩٦١، ص ٢٨٤.

(٢) يوسف هيكل، فلسطين قبل وبعد، بيروت، ١٩٧١، ص ١٨٦.

الفريق من امتزاج المقيم بالوافد فيفسد أخلاقه ويبدل طبائعه وربما اعتقد أن هناك محظورات سياسية أيضاً..... أما الفريق الآخر فلا يرى من الهجرة مانعاً أو محظوراً ثم خلاص إلى القول أنه يريد أن تكون البلاد ذات صدر رحب وقلب واسع وحب للقريب والبعيد ولذلك لا يرى بأساً من المهاجرة إذا كان لها نظام خاص.

ويتبين لنا مما دار في المؤتمر العربي الأول بشأن موضوع الهجرة، أن المؤتمرين العرب في باريس أملوا معاضدة الصهيونيين للمطالب العربية من الاتحاديين لذلك تجنبوا الاساءة إليهم في موضوع الهجرة واكتفوا بالتلميح لضرورة التفاوض مع العرب فيما يتعلق بمستقبل مشاريعهم في فلسطين حرصاً من المؤتمرين على إبقاء الباب مفتوحاً أمام التفاهم والاتفاق مع الصهيونيين ويعزز هذا الرأي عدم الإشارة بسوء إلى الهجرة الصهيونية والاكتفاء بمسّها مساً رقيقاً رغم وضوح مطامعها في فلسطين.

وبعد انتهاء المؤتمر العربي في باريس أخبر عبد الحميد الزهراوي- رئيس المؤتمر- وعبد الكريم الخليل- معتمد الشبيبة العربية- هوتشبرغ بأنهما من أنصار الرأي القائل بضرورة عقد اتفاق رسمي بين العرب والصهيونيين ثم أكد الزهراوي لهوتشبرغ في ٢٦ حزيران ١٩١٣ أنه وزملاءه يعتقدون بأن الهجرة اليهودية ينبغي أن تشجع بموجب شرطين:

١- أن يصبح المهاجرين رعايا عثمانيين.

٢- عدم طرد الفلاحين من الأراضي التي يبتاعها اليهود.

ولما قام معارضو الهجرة اليهودية بتنظيم حملة ضدّ الصهيونية أبدى بعض المؤتمرين رغبة في عقد اتفاق سري في باريس مع الزعماء الصهيونيين ولكن الاتفاق لم يتم لأن الحركة الصهيونية كانت ترغب في إيضاحات أكثر كما أن المؤتمرين العرب وقد أنهموا خلافتهم مع الاتحاديين لم يرغبوا في الذهاب إلى أبعد من ذلك،^(١) ثم توقفت الاتصالات بين الطرفين حتى أيلول ١٩١٣ حيث أبلغ الصدر الأعظم الحركة الصهيونية سراً أن مجلس الوكلاء العثماني يرغب في إبداء عطفه على اليهود لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك خوفاً من العرب لذلك ينبغي على الصهيونيين عقد اتفاق مع العرب أولاً ثم تستطيع الحكومة عمل ما تبقى بقصد إلغاء القيود المفروضة على الهجرة في فلسطين ولكن بالرغم من عدم توصل اليهود إلى مشروع اتفاق مع العرب فإن الحكومة العثمانية بدأت في خريف ١٩١٣ في رفع القيود عن الهجرة عندما ألغت العمل بالورقة الحمراء، أملاً في تدفق سيل الأموال اليهودية في أوروبا على خزينتها الخالية الوفاض وفي نيسان ١٩١٤ انتقد سليم نجار الحركة الصهيونية بعنف واتهمها بالسعي لدى الحكومة الاتحادية لتعديل حدود متصرفية القدس الادارية وإلحاق أقضية حيفا وطبرية وصفد التابعة لولاية بيروت بها للانفراد في شؤونها ووضع اللوم على السلطة فيها كما اتهم اليهود باتباع طرق خاصة في تسليف النقود

(١) زين زين، نشوء القومية العربية- مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية- التركية، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٢٣.

إلى غيرهم تستهدف التنازل عن العقار ثم أشار إلى تهديد اللغة العبرية للعربية في فلسطين وإلى خوف العرب من الأساليب الصهيونية.^(١)

وفي أواخر نيسان ١٩١٤ أجرى جاكيسون مباحثات متفرقة في الآستانة مع أحمد مختار بيهم وشكري الحسيني (من أعيان القدس) ومع مبعوثي متصرفية القدس وولاية بيروت، وقد تبين في تلك المحادثات تخوف الإصلاحيين العرب من خطر الحركة الصهيونية في المستقبل وتؤكد جاكيسون أن لا اتفاق في وجهات النظر بين الإصلاحيين العرب الذين ينتمون إلى جمعيات عربية مختلفة في موضوع الهجرة اليهودية كما تبين له أن المبعوثين العرب من أنصار الاتحاديين ليس لهم نفوذ في أوساط الإصلاحيين. ثم لخص جاكيسون مطالب العرب من الحركة الصهيونية بمايلي:

- ١ - مساعدة التعليم العربي بالأموال.
 - ٢ - إعطاء ضمانات بعدم طرد الفلاحين في المستقبل.
 - ٣ - إيجاد رأسمال كبير لتمويل المشاريع العامة وتطوير الولايات العربية.^(٢)
- وفي ٧ نيسان ١٩١٤ وصل إلى ميناء يافا ناحوم سوكولوف -أحد أعضاء الحركة الصهيونية البارزين- وصرح بأن المؤتمر الصهيوني قرر التفاهم مع العرب، وأن هجرة اليهود ناشئة عن الميل الشديد للإسرائيليين للعودة إلى وطنهم القديم -فلسطين- وأن على العرب واليهود أن يكونوا يداً واحدة في بناء تمدن فلسطين، ويكون ذلك بإحياء اللغة العبرية وفتح المدارس وإن الطريقة التي يفكر بها الصهيونيون للتفاهم مع العرب هي:
- ١ - تعليم اللغة العربية في المدارس الإسرائيلية والاعتناء بتعليمها عناية خاصة لاسيما الآداب العربية والتمدن العربي.
 - ٢ - تعيين أطباء متجولين مداواة العيون المصابة بمرض التراخوما المنتشر بكثرة ولاسيما في المدارس الأهلية الإسلامية.
 - ٣ - فتح تكايا وملاجئ عامة للفقراء والغرباء على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم ولاسيما العرب منهم.
 - ٤ - إنشاء فروع للشركة الانكليزية الفلسطينية في معظم مدن فلسطين لتسليف النقود للأهالي إلى آجال طويلة بفوائد زهيدة جداً.^(٣)

(١) زين، نشوء القومية...، ص ٢٣٠.

(٢) خيرى حماد، الصهيونية جذورها نشأتها وأهدافها، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٣١١.

(٣) حماد، الصهيونية...، ص ٣١٥، وانظر أيضاً: الخالدي، أسباب الانقلاب...، ص ٢٥.

رد رفيق العظم على ناحوم سوكولوف بالتأكيد على مقاومة الحركة الصهيونية وفضح مقاصدها وأطماعها التي انتشرت في أوساط الشبيبة العربية في فلسطين، وطلب من زعماء الحركة الصهيونية المبادرة إلى التعاون مع العرب على أساس الاندماج مع السكان ويكون ذلك في رأيه بتدريس العربية إلى جانب العبرية في المدارس اليهودية، وفتح أبواب الأخيرة أمام أبناء العرب من الوطنيين لنشر الألفة والتفاهم في مقاعد الدرس لأن اللغة أساس الوحدة ثم التجنس بالعثمانية ليتساووا مع السكان العرب في الحقوق والواجبات والبرهنة على حسن النية بالتعاون مع العرب عملاً لا قولاً.^(١)

ويذكر أسعد داغر في مذكراته استقرار الرأي على عقد مؤتمر في القاهرة يحضره النواب العرب والزعماء الصهيونيون للنظر في مسألة الهجرة اليهودية، لكن اندلاع الحرب جعلت الصهيونيين لا يعلقون كبير اهتمام على عقده لذلك صرفوا النظر عنه لاعتقادهم بتغير الأوضاع الدولية بعد الحرب.^(٢)

ومهما يكن من أمر فإن المساعي التي بذلها حزب اللامركزية منذ أوائل عام ١٩١٣ للتوصل إلى اتفاق قد فشلت بسبب عدم إخلاص القائمين بالحركة الصهيونية لمبدأ التفاهم والاتفاق لإدراكهم عدم قبول العرب بنواياهم العدوانية ولتفاوت وجهات النظر لدى الطرفين.

وإذا كانت محاولات حزب اللامركزية في التوصل إلى اتفاق مع الحركة الصهيونية قد فشلت، فقد قامت الحركة الصهيونية بمحاولة أخرى للتوصل إلى اتفاق مباشر مع الفلسطينيين من وراء حزب اللامركزية فبينما كان الحوار محتتماً في أيار بين رفيق العظم وجاكيسون، اجتمع ناحوم سوكولوف أثناء جولته في فلسطين بنظيف الخالدي- من أعيان القدس ورئيس مهندسي ولاية بيروت-، حيث قدمه صديقه حايم كالفاريسكي Haim Kalvarisky مدير مستوطنة روشينا قرب صفد إلى سوكولوف واجتمعوا في بيروت بعد ذلك مع بعض المشتغلين بالحركة العربية من بينهم محمد كرد علي، عبد الرحمن الشهبندر وجرجس بك فاخوري ولما وجد سوكولوف أن المجتمعين الإيجابيين لفكرة مواجهة عربية- صهيونية اقترح عقد الاجتماع في غضون شهر حزيران أو تموز وأخبره نظيف الخالدي أن الاجتماع سيستغرق وقتاً طويلاً من أجل إشراك عدد من أعيان فلسطين فيه وطلب من سوكولوف بالمقابل إشراك زعماء الحركة الصهيونية في أوروبا في الاجتماع.^(٣)

أما حزب اللامركزية الذي أفلت منه زمام المبادرة لعقد اتفاق مع الحركة الصهيونية فقد حاول الإمساك به من جديد، فأخبر نجيب شقير- عضواً اللامركزية- سوكولوف في الآستانة في حزيران ١٩١٤ رغبة حزب اللامركزية في

(١) القبس، العدد ٤٢ في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٣.

(٢) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، القاهرة، ١٩١٦، ص ٤٢-٤٣.

(٣) داغر، مذكراتي...، ص ٤٧، وانظر أيضاً: الخالدي، أسباب...، ص ٢٨.

الاجتماع بالصهيونيين في القاهرة حالا بعد أن علم بأن الاجتماع الذي يعد له نظيف الخالدي سيستغرق تنظيمه وقتاً طويلاً.

حاول المكتب الصهيوني في يافا الإسراع في عقد اجتماع مع قائمة نظيف الخالدي في تموز في برمانا بالقرب من بيروت لكن الأخير رفض الإفصاح عن أسماء المرشحين للمفاوضات لكنه صرح بأن محرري الكرمل وفلسطين سيكونان من بين المفاوضين، ولما كان نجيب نصار ويوسف العيسى قد شنّا لعدة سنوات حملة عنيفة ضدّ النشاط الصهيوني في فلسطين، فقد أعرب المكتب الصهيوني عن رغبته في الاجتماع وأصرّ على معرفة أسماء المفاوضين العرب مقدماً وقبيل الموعد المقرر للاجتماع صرح والي بيروت الذي عاد من الآستانة في أوائل تموز ١٩١٤ بأن الاجتماع العربي- غير ضروري وأن الحكومة المركزية أمرته بحماية اليهود واتهم الصحف العربية التي تهاجم الحركة الصهيونية بأخذ الرشوة وأنها لم تأخذ المسألة بجدية وأنكر على نظيف الخالدي وزملائه الكلام بدون تفويض من أحد. لذلك حرصت الحكومة على أن لا تستفيد الحركة العربية من تحالفها مع الصهيونيين ورأس المال المتخيل والذي كانت الحكومة الاتحادية في أمس الحاجة إليه.

زود نظيف الخالدي مندوب المكتب الصهيوني بأسماء المفاوضين العرب^(١) وجدول الأعمال المقترح الذي تضمن مايلي:

١- أن يبادر المندوبون الصهيونيون إلى شرح أهداف الصهيونية ووسائلها لاستيطان فلسطين مع إبرازهم الأدلة الوثائقية.

٢- بعد ذلك يصيغ العرب مطالبهم بعد أن يقرروا عما إذا كانت الحركة الصهيونية تشكل خطراً على العرب أم لا.

تقرر إرسال عدد قليل من المفاوضين لإجراء مشاورات تمهيدية لعقد الاجتماع ولكن إعلان الحرب العالمية الأولى في ٥ آب ١٩١٤ قطع الطريق على إجراء المشاورات ووضع حد للتفكير في عقد اجتماع بين العرب والصهيونيين. وبذلك أسدل الستار نهائياً على محاولات التفاهم والاتفاق التي جرت في أواخر العهد الدستوري.

(١) ضمت القائمة العربية ثلاثة من العرب الذين يفترض عطفهم على فكرة التفاهم العربي الصهيوني وهم أحمد بيهم، رزق الله أرقش ونظيف الخالدي. وضمت في المقابل ثلاثة من محرري الصحف المعارضين بشدة للحركة الصهيونية وهم محمد كرد علي (المقتبس) ويوسف العيسى (فلسطين)، وعبد الله مخلص (الكرمل) وضمت أيضاً اثنين من المعروفين بمناوئتهم للصهيونية وهم عبد الرحمن الشهبندر وجميل الحسيني، انظر: Mandel , op . cit . PP . 252-262 .

٤- موقف عرب فلسطين من محاولات التفاهم والاتفاق:

كان الشعور الشعبي في فلسطين شديد المناوأة للحركة الصهيونية، فقد أعربت صحف فلسطين عن استيائها من المؤتمر العربي في باريس واستنكرت تقصيره في اتخاذ موقف حازم من الصهيونية كما انتقدت صحيفتا الكرمل وفلسطين مواقف الذين حضروا المؤتمر واحتجت الكرمل بشدة على فكرة عقد الاتفاق المقترح. ثم عقيبت بعد ذلك على الاتفاق العربي- التركي وتساءلت عن حقيقة ما تم وأهميته لفلسطين وعما إذا كان الاتفاق قد تعرض للحد من نشاط الحركة الصهيونية أم تركها تعمل على إحياء اللغة العبرية والقومية اليهودية.^(١) أما جريدة فلسطين فقد سخرت في تموز ١٩١٣ من تجاهل الشيخ أحمد طيارة أخطار الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتساهل الحكومة العثمانية في تنفيذ قيود الهجرة، وما سينجم عن ذلك من مشاكل في المستقبل، وذكرت أن ما يهم الفلاح قبل كل شيء تسجيل الأراضي وتأسيس المصارف الزراعية وتخليصه من سلطة المتنفيذين عليه، وتوفير الأمن والعدل له.

وفي منتصف آب اقترح نجيب نصار عقد مؤتمر لا صهيوني في نابلس^(٢) رداً على عقد المؤتمر الصهيوني الحادي عشر الذي كان مزماً عقده في فيينا في أيلول ١٩١٣. وكان قد تشجع بنجاح الاجتماع الذي عقد في نابلس في آب سنة ١٩١٣ للاحتجاج ضد بيع الأراضي ومطالبة الحكومة بصرف النظر عن مشروع المزارع العلني وبيع الأراضي بالتقسيط للمزارعين. ووضع جدول أعمال له اشتمل على التداول في تأليف جمعيات تجمع كلمة الشعب وتهتم بتحسين حالة الفلاح والزراعة وتسعى لحفظ الأرض من التسرب لأيدي الغير وكان نصار يرى هذه الطرق والوسائل كفيلة بمحاربة الخطر الصهيوني.

ومما زاد في حدة موقف عرب فلسطين إزاء محاولات التفاهم مع الحركة الصهيونية إقدام الحكومة العثمانية في تشرين الأول ١٩١٣ على إلغاء القيود المفروضة على الهجرة اليهودية طمعاً في الحصول على الرأسمال اليهودي في أوروبا، وكانت السلطات العثمانية قد درجت منذ عام ١٩٠١، على منح اليهود إقامة مؤقتة لمدة ثلاثة أشهر وكانت جريدة الكرمل قد تنبّهت إلى ذلك قبل أن تتخذ الحكومة قرار الإلغاء. فقد لاحظت تساهل الحكومة الاتحادية في تنفيذ القيود، فنددت في أيار بموقف الحكومة وذكرت أنه إذا كان السلطان عبد الحميد قد استولى على قسم من الأراضي والمتنفذون على قسم آخر، فإن الحكومة الاتحادية تملكها للأجانب ذوي الأطماع السياسية وتساءلت عن أوامر الحكومة بالعمل بالورقة الحمراء ومنع تمليك الصهيونيين.^(٣)

(١) الكرمل، العدد، ٤٥٣، ٧ آب ١٩١٤.

(٢) الكرمل، العدد ٣٥٧، ١٢ آب ١٩١٣، وانظر أيضاً: شيخو، السر المصون...، ص ٥٦.

(٣) الكرمل، العدد ٣٣٥، ٢٣ أيار ١٩١٣.

لذلك ظلّ عرب فلسطين يرفضون محاولات التفاهم مع الحركة الصهيونية فقد كانوا يعتقدون أنها تريد ابتلاع فلسطين والاستقلال الإداري التام بها، بل إنها قامت بتنفيذ مخططاتها واستولت على قسم من البلاد، لذلك طالبوا الحكومة بتلبية دعوة السكان لايقاف الخطر الصهيوني قبل ضياع فلسطين.

ولما أخذت الحركة الصهيونية تغدق الوعود على الإصلاحيين العرب نهض عيسى داود العيسى - صاحب جريدة فلسطين - للرد على تضليلها للرأي العام العربي وأوضح الفرق الكبير بين تصريحات الزعماء الصهيونيين على صفحات الجرائد وبين القرارات التي يتخذونها في مؤتمراتهم، واستشهد بما يلحق بأهالي فلسطين من أفعالهم وأكد أن جميع التصريحات الصهيونية ما هي إلا تمويه وخداع كوسيلة لتضليل الرأي العام.

وعندما أبدى رفيق العظم في أول حزيران ١٩١٤ استعدادة للسعي لدى أعيان فلسطين لانتخاب ممثلين عنهم في المؤتمر المقترح عقده في القاهرة بين حزب اللامركزية والحركة الصهيونية عارض نجيب نصار هذا الاقتراح بشدة وذكر أن اتفاق العرب والصهيونيين مستحيل، وتعجب كيف يتم الاتفاق مع قوم يقررون في مؤتمراتهم العمل على إيجاد وطن يهودي في فلسطين، ثم هاجم بعنف كل من شبلي شميل ويعقوب صروف ونمر فارس ورفيق العظم لموقفهم المتخاذل من الحركة الصهيونية واتهمهم باهمال الواجب الوطني والسعي وراء المنافع الخاصة ومحاوله كم أفواه المعارضين للحركة الصهيونية.

وهكذا وقف عرب فلسطين موقفاً حاسماً من محاولات التفاهم والاتفاق فرفضوها وأنكروا على الإصلاحيين العرب سعيهم التوصل إلى اتفاق مع الحركة الصهيونية، فقد كان إحساسهم بالخطر الصهيوني عميقاً، بل إن ماندل يرى أنه حتى لو تم التوصل جدلاً إلى اتفاق فإن الشعور الشعبي في فلسطين والذي كان عدائياً جداً للصهيونية لا يسمح بتنفيذ مثل هذا الاتفاق، كما أن دوافع الإصلاحيين العرب الذين سعوا للإتفاق كانت - تكتيكية - ومتوقفة على سياسة محدودة الأهداف.^(١)

وحتى حزب اللامركزية الذي كان أكثر من غيره من الجمعيات العربية رغبة في التوصل إلى اتفاق كان قد انقسم على نفسه في أيار ١٩١٤ لخلاف في الرأي عما إذا كان الاتفاق مع الحركة الصهيونية أفضل وسيلة لمناوئة الاتحاديين أم لا.^(٢) لذلك أخذ سليم نجار صاحب الرسالة المشهورة إلى هوتشبرغ في مهاجمة الحركة الصهيونية كما أعلن محمد الحمصاني - عضو اللامركزية - في بيروت استحالة أي اتفاق مع الصهيونيين وفي ٢٠ حزيران ١٩١٤ كتب حقي العظم رسالة إلى محمد الحمصاني جاء فيها "..... فيما يتعلق بالاتفاق الذي كان قد اقترحه سوكولوف فإن رأيي يختلف عن رأي رفيق بك لأني مقتنع أن لا فائدة على الإطلاق من الاجتماع، وإذا

(١) Mandel . op . cit . P 416 ، وانظر أيضاً: شيخو، السر المصون...، ص ٥٩.

(٢) القبس، العدد ٣٧، ١٧ تشرين الثاني ١٩١٤.

لم أعارضه فالأني لا أرى فيه أذى اعلم يا أخي العزيز أن هؤلاء الناس يسيرون نحو هدفهم بسرعة شاكرين مساعدة الحكومة وعدم مبالاة الأهالي وأنا متأكد بأننا إذا لم نعمل شيئاً للتأثير في الوضع الراهن للصهيونيين فسيحققون هدفهم في فلسطين في سنوات قليلة حيث سيوجدون دولة يهودية وبعد ذلك يتجهون نحو سوريا والعراق. وهكذا سيفرغون من تحقيق برنامجهم السياسي^(١) ولكن باستخدام وسائل التهديد والاضطهاد وهذا الأسلوب الأخير هو الذي يجب أن نستخدمه فقط ويتمثل في حث السكان على تدمير مزارعهم وإشعال النار في مستوطناتهم وتشكيل العصابات لتنفيذ هذه المخططات. بعد ذلك ربما يهاجر الصهيونيون من فلسطين لإنقاذ حياتهم.

(١) الإصلاح، العدد ٣٥٢، ٥ تموز ١٩١٤.

خاتمة البحث

كانت القدس خلال الفترة الممتدة ١٨٣١ - ١٩١٤ تتبوأ مركزاً وأهمية خاصة تمثلت في إدارتها ومكانتها الدينية وأن هذه المكانة المتميزة كانت أحياناً وبالاً عليها وعلى أهلها ودفعت إلى السطح بقوة مآسٍ وآلام سيبقى الشعب المقدسي يتذكرها ويعاني منها حاضراً ومستقبلاً مثلما عانى منها بشدة على مدى التاريخ.

منذ بدء محمد علي أعماله السياسية أبدى اهتمامه بفلسطين عامة وبالقدس خاصة لأنها سرّة العرب، فبعد فشله في الحصول على سورية سلمياً وقانونياً، أخذ يستعد لغزوها وانتظر اللحظة الملائمة للقيام بذلك بالقوة وعلى الرغم من وجود عدة أسباب مباشرة وغير مباشرة لغزو فلسطين وسورية فإن محمد علي استخدم قضية الفلاحين حجة وذريعة مباشرة للغزو، ناهيك عن الأسباب الأخرى.

وجرت أول خطوة للتغلغل الأوروبي الممنهج في فلسطين ابتداءً من القدس في سياق التنافس الأوروبي بشأن المسألة الشرقية. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، تحولت القدس إلى نقطة جذب مركزية للقوى الأوروبية التي رفعت مستوى حمايتها للأقليات بهدف زيادة حضورها ونفوذها.

فقبل أشهر من مغادرة البعثة العسكرية المصرية إلى فلسطين، تعهد محمد علي للقناصل الأوروبيين بأنه سيعامل المسيحيين معاملة جيدة "بطريقة لم تحدث من قبل قط". ووفق ذلك، تعهد بإلغاء كل جباية غير نظامية، وإلغاء الجزية المفروضة على المسيحيين واليهود في سنحق القدس. وكان ذلك من أجل الحصول على الدعم الأوروبي، وضمان حياد الدول الأوروبية في إذا ما حصل الصدام مع الباب العالي.

ونتيجة لتلك السياسة الدينية، استاء المسلمون من فقدانهم الامتياز الذي اعتادوه جماعة أو فرادى، على أبناء الديانات الأخرى. وأدت تلك المساواة السياسية إلى إثارة الحقد والكراهية إلى انفجار أحداث ١٨٤٠ في بلاد الشام.

ولقد قاوم الفلسطينيون عامة وأهالي القدس على وجه الخصوص سياسة محمد علي وبخاصة المتعلقة بالتجنيد ونزع الأسلحة. فاندلعت الثورة وانتشرت في أرجاء فلسطين كلها ودامت نحو أربعة أشهر، وشاركت فيها قطاعات المجتمع كلها، وبلغت حدّاً من الخطورة دفعت بمحمد علي نفسه إلى التوجه إلى فلسطين على رأس قوة قوامها ١٥٠٠٠ جندي لمساعدة ابنه في إخمادها. وأجبرته للاحتفاظ بجيش كبير في سورية وفلسطين، وأصبح الإكراه هو سمة حكمه الرئيسية. وتزايدت أعمال العنف والتصرفات الاعتباطية، وخصوصاً في أثناء حملات التجنيد.

ومن جهة أخرى، لم تحدث السياسة المصرية تحولاً جذرياً في النظام السياسي، إذ قتل المصريون كل الزعماء الذين لم يتعاونوا معهم أو قاوموا سياسات التجنيد ونزع الأسلحة وأبعدوهم، لكن سمحوا للزعماء الآخرين الذين كانوا

على استعداد للتعاون معهم بالبقاء في مراكزهم. فتعززت، مثلاً، مكانة آل عبد الهادي ونفوذهم بفعل تعاونهم مع الحكومة المركزية بعد ثورة ١٨٣٤، كما سمح لهذه العائلة بالاحتفاظ بالمليشيا المحلية التابعة لها.

كان استغلال محمد علي لأملاك الأهالي مؤسساً على الإكراه والعنف. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أخذ الناس يعبرون عن معارضتهم لتعديلات النظام المصري على الموارد الاقتصادية والبشرية وصارت ردة فعل الدولة عنيفة، فبينما كان الظلم والاضطهاد في السابق سمة تنسب إلى الوكلاء المحليين للدولة، وليس إلى الدولة ذاتها، صار الظلم يبدو سياسة رسمية. وضمن هذا المعنى، يمكن تسمية الحكم المصري بأنه حديث، لكن وفقاً لرؤية أغلبية السكان، كانت تلك السمة من الحكم المصري أقصى تجسيد للظلم.

ومع أن العثمانيين كانوا مدركين في أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أن محمد علي لا يخطط لمهاجمة عبد الله باشا فقط بل يعد لاحتلال سورية أيضاً، إلا أنهم لم يقوموا باتخاذ إجراءات فعالة لمواجهة ذلك الخطر. وعلى الرغم من أن إبراهيم كسب الحروب ضدّ العثمانيين ونجح في القضاء على المعارضة الداخلية، فإنه في النهاية خسر فلسطين بأكملها وسورية، ولذا، عقد العثمانيون حلفاً مع القوى الأوروبية لأنهم لم يكونوا قادرين على إلحاق الهزيمة بقوات محمد علي بمفردهم. لذلك لا شك في أن العثمانيين أصبحوا مدينين باستعادة سيادتهم على سورية وفلسطين للقوى الأوروبية، وخصوصاً انكلترا والنمسا.

ومن الواضح أن سياسة محمد علي لم تكن مقبولة لدى قطاعات واسعة من السكان وخصوصاً لدى الطبقات الحاكمة التقليدية التي تعرضت مصالحها المكتسبة منذ مدة طويلة لمخاطر جديدة. لذلك لم يحصل محمد علي على دعمهم بل اعتمد على جيشه وأسطوله، ولم يكن ينتمي إلى طبقة متنفذة يستطيع الحصول على الدعم منها. لذلك فإن التحديث تم فرضه من الأعلى، شأن العديد من البرامج التي شهدتها القرن التاسع عشر، وضدّ ارادة السكان، ولا بد من الإشارة إلى أن السياسات المصرية ومتطلبات المصريين الكثيرة أدت ببعض حلفائهم السابقين إلى الانقلاب عليهم وحمل السلاح. بعد ذلك عادت القدس إلى قبضة الدولة العثمانية التي استطاعت رغم كل الصعوبات التي واجهتها تنفيذ جزء كبير من سياستها التنظيمية الجديدة في المتصرفية، بعد أن أخذت تسعى تدريجياً وباستمرار إلى تقوية قبضتها فأنتهت عهد المغامرين من أصحاب العصبيات المسلحة وأنشأت في المتصرفية الحكومة التي تهيمن العاصمة عليها في كل الأمور، وقد أدى ذلك إلى اتساع نطاق العمل الحكومي مما اقتضى تنظيم الجهاز الإداري وتحديد صلاحيات واختصاصات كل موظف فيه، وسنت أنظمة المجالس الإدارية والمحلية وأصلحت القضاء الشرعي القديم وأقامت إلى جانبه قضاء نظامياً جديداً. وكذلك حظي الجهاز العسكري وجهاز الأمن بعنايتها لكونهما أداة ترسيخ نفوذها وفرض سيطرتها على البلاد.

تابعت الدولة العثمانية سياسة إقرار المساواة التي انتهجها الحكم المصري وإلى جانب ذلك نظمت الشؤون الطائفية بغية الحد من التدخل الأجنبي الذي سعى لجعل القدس تحت سيطرة قوة صغيرة تكون مدعومة من القوى الكبرى وتشكل في النهاية محلاً لتنافس دول الغرب على السيطرة عليها، إضافةً إلى أن قوة مصطنعة كهذه تحقق هدفاً استراتيجياً بعيد المدى في الحيلولة دون اتحاد قوى المنطقة العربية وإبقائها في حالة ضعف مستمر أطول فترة ممكنة من الزمن.

فبعد انتهاء فترة حكم محمد علي وابنه إبراهيم للقدس بدأت مرحلة جديدة من تاريخ هذه المدينة وكانت هذه الفترة تمثل بداية تغلغل النفوذ الأجنبي في المنطقة وقد استغلت القوى الأجنبية تدخلها لصالح السلطان العثماني في صراعه ضد محمد علي كورقة ابتزاز قوية لمساعدتها على التسلل إلى المنطقة وبسط نفوذها فيها. لذا قام البحث بتسليط الضوء على هذه المرحلة الزمنية التي يعتقد أن القوى الغربية عموماً كان لها فيها دور كبير ليس فقط في مساعدة اليهود على الاستقرار في القدس وإنما أيضاً في ترزين هذه الفكرة واستثارة عواطف اليهود وأطماعهم في الأراضي المقدسة.

فأطماع الدول الغربية في القدس لم تكن خافية على العرب، وضمن هذا السياق أدرك علماء مصر وسورية، وبدون تنسيق مسبق بينهما -وحتى قبل مجيء محمد علي- أبعاد حملة نابليون وخطرها على القدس على وجه التحديد فسارعوا إلى تحذير أهل القدس من هذه الحملة، ومما ورد في رسالة علماء سورية إلى أهالي القدس قولهم: ".... فمن المعلوم أن القدس الشريف وما حوله من أماكن التشريف حرم مقصود، ونظر العدو إليه ممدود، بل هو الغاية القصوى لأهل الجحود.....".

وبعد أن تكشفت أسرار هذه الحملة، نجد أن ظن هؤلاء العلماء والقادة كان في محله وأن حملة نابليون كانت تبنت الكثير من المخططات والنوايا السيئة تجاه القدس وعموم البلاد العربية وأصبح من الثابت تاريخياً أن نابليون حاول استغلال اليهود في حملته، ودعاهم إلى الانضمام إليه والعودة من خلاله وعن طريقه إلى الأرض المقدسة، ورغم فشله الذريع في تحقيق ذلك إلا أن مبادرة على هذا المستوى من الرسمية كان لها دور كبير في توجيه أنظار اليهود إلى القدس وتحريك عواطفهم نحو بيت المقدس، وقد أعقبت هذه الحملة محاولات انكلترا على مستوى أكبر من المبادرة الفرنسية، تمثلت في دعم الحكومة الانكليزية لمشروع اليهودي موشي مونتيفيوري الداعي لتوطين واسع لليهود في فلسطين.

لقد لعبت القنصليات الأجنبية في القدس دوراً هاماً في هذا الموضوع إذ تولت وظائف محددة، حددتها الأنظمة المرعية من قبل الدول الأوروبية بحيث تمحورت مهمة القنصل بالحفاظ على مصالح رعايا الدولة في القطر الأجنبي.

وقد حاولت قنصليات الدول الأجنبية وضع خطوط عريضة لسياساتها في فلسطين عامةً والقدس خاصةً والتي تمثلت في أمرين هامين هما:

- حماية مصالح الرعايا الأجانب الاقتصادية والدينية والاجتماعية.
 - التدخل في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والمدنية في القطر الذي تعمل فيه لصالح دولتها.
- ومن المفيد هنا التأكيد على الدعم الأوروبي للحركة الصهيونية وتسهيل الهجرة إلى القدس والذي تجلّى في:
- ١- محاولة جون غارل أحد خبراء الاستيطان الزراعي في انكلترا الذي عرض مشروعاً لإقامة مستوطنات زراعية في فلسطين عام ١٨٥٢، لكن اليهود أحجموا عن الإسراع في ذلك.
 - ٢- نجح مولان يهوديان في شراء أراضي في فلسطين عام ١٨٦٠.
 - ٣- تم إنشاء العديد من المؤسسات والاتحادات اليهودية في دول أوروبا استهدفت تشجيع النشاط الاستيطاني في فلسطين عام ١٨٦٠.
 - ٤- أسس اليهود في فرنسا الاتحاد الإسرائيلي العالمي (الليانس: ALLiance) وكانت الغاية من إنشائه مساعدة اليهود على الهجرة إلى فلسطين، وبخاصة يهود الدول العربية، وقد نجح الاتحاد في الحصول على قرار سلطاني باستئجار ٢٦٠٠ دونم من الأراضي الواقعة قرب يافا لإقامة مدرسة زراعية، تخدم اليهود المقيمين في فلسطين.
 - ٥- وفي عام ١٨٥٥ أنشأ اليهود الانكليزيون صندوق استكشاف فلسطين، كانت الغاية منه إقامة نشاط زراعي تمهيداً لتشجيع هجرات استيطانية زراعية للإقامة في فلسطين.
 - ٦- وفي عام ١٨٦٨ نشطت جمعية الهيكل الألماني The German Temple Society في العمل لإقامة بعض المستوطنات في منطقتي يافا وحيفا.
 - ٧- ثم كان عام ١٨٨١ الذي شهد صراعات وقلاقل واسعة النطاق في روسيا التي تضم أكبر جالية يهودية في العالم، وتعرض اليهود هناك لمجازر واضطهاد، الأمر الذي حدا بجمعية أحباء صهيون برئاسة ليو بنسكر إلى تبني فكرة نقل اليهود إلى فلسطين.
- كل ذلك شكل حركة نشطة قامت بها الحركة الصهيونية للتمهيد لبدء الاستيطان المهاجر حيث بدأت حركة الهجرة اليهودية المنظمة إلى فلسطين استمرت حتى بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤.
- ويمكن القول إن الدول الأوروبية تنافست فيما بينها حول مجالات التدخل في الشؤون الداخلية لأهل فلسطين عامةً والقدس خاصةً، عبر ما قدمته من أموال وعتاد وأسلحة في محاولة منها لإذكاء نار الفتنة بينهم والاستفادة من هذا المناخ المضطرب من أجل حماية طلائع الهجرة اليهودية إلى القدس، من خلال عدد من اليهود الذين

وصلوا إلى فلسطين من دول فرنسا وانكلترا وروسيا، يحملون جنسياتها بهدف الاستثمار والاستقرار فيها، والتمهيد لبدء حملات منظمة للهجرة اليهودية.

ولا بد من التأكيد أن قنصل الدول الأوروبية وبخاصة القنصل الانكليز استطاعوا إحباط روح المقاومة ضد الحكم العثماني، ليس حباً في العثمانيين أو دعماً لهم وإنما في محاولة من هذه الدول الاستفادة من علاقاتها بالدولة العثمانية لزيادة تغلغلها في فلسطين وفي القدس على وجه الخصوص. وبالرغم من أن العثمانيين كانوا قد فرضوا قيوداً على هجرة اليهود إلى فلسطين إلا أنهم اضطروا إلى تخفيف تلك القيود استجابة لضغوط الدول الأوروبية التي كانت قد أخذت تبسط نفوذها وتدخلها حتى في شؤون الامبراطورية العثمانية وممتلكاتها. وفي تلك الأثناء حرص اليهود على التخطيط للاستيلاء على القدس ونجحوا في تحقيق إرادتهم من خلال مهاراتهم في توجيه السياسة الانكليزية نحو هذا الهدف مستفيدين بذلك من قنصل الدول الأوروبية الذين عيّنوا في القدس كمصادر معلومات دقيقة وكأدوات إعلامية خطيرة حيث كان في طليعتهم القنصل الانكليزي الأول وليم يونج (W.Young) الذي تولى مهامه عام ١٨٣٨، تلاه في مطلع الأربعينيات من القرن التاسع عشر دخول عدد آخر من قنصل الدول الأوروبية إلى القدس على التوالي.

في هذه الأجواء نشط هؤلاء القنصل في تكريس حضورهم وتدخلهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للسكان، ولعبوا دوراً بارزاً في تقويض نظام الحكم العثماني الرسمي لفلسطين وتوفير الأجواء المناسبة لتحقيق الرغبة اليهودية في الهجرة إليها، لكن ذلك لم يحدث ولم يبرز على السطح إلا في بدايات العقد الثامن من القرن التاسع عشر عندما بدأت موجات المهاجرين اليهود تتدفق إلى القدس، الأمر الذي يكشف بجلاء عن الدور الذي أدته هذه القنصليات لإنجاز مهمتها، والتي انسجمت مع أهدافها الدينية والاستعمارية، ومما لا شك فيه أن زعماء الحركة الصهيونية قد نجحوا في توظيف جهد القنصل لحماية اليهود، وحماية هجراتهم واستيطانهم وإنشاء تجمعاتهم السكانية على أرض القدس.

وإزاء تضارب المصالح والأطماع الأوروبية في القدس، والتدخل الأوروبي المباشر في العمل من أجل ضرب مصالح الدولة العثمانية وإضعافها، ومن ثم السيطرة على مقدرات الأرض المقدسة بدوافع استعمارية دينية واقتصادية من جهة، وإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين، لعبت القنصليات الأجنبية دوراً لافتاً في تعزيز الحركة الاستيطانية اليهودية في الفترة ما بين عامي ١٨٣١ - ١٩١٤.

ولكن طبيعة مجتمع المتصرفية متعدد الطوائف أفسحت المجال أمام القنصل الأجانب للتدخل المستمر في الشؤون الداخلية للمتصرفية ومهما يكن من أمر فقد تحسنت أوضاع الطوائف عما كانت عليه في العهد العثماني الأول فاشتركوا في عضوية مجالس الإدارة المحلية المختلفة، وكذلك في الخدمة العسكرية في العهد الدستوري وفي مجال

التعليم توسعت الدولة في إنشاء المدارس وأصبح لها نظام تعليم رسمي يقوم على تدريس اللغة التركية والعمل على نشرها وتعميمها.

لكن الحكومة المركزية في العاصمة والحكومة المحلية في القدس فشلتا في تنفيذ سياسة السلطان عبد الحميد في منع الهجرة اليهودية إلى المتصرفية، لأسباب بعضها خارج عن ارادتهما، فاستمر التسلل اليهودي الذي تمكن من إقامة مستوطنات زراعية نشيطة أصبحت نواة لوجود يهودي في البلاد، وقد رافق الهجرة اليهودية الكثيفة والتوسع في مشاريع الاستيطان اليهودي، ازدياد الإحساس بالخطر الصهيوني العنصري فنشطت المقاومة الفلسطينية للمخططات الصهيونية في العهد الدستوري (١٩٠٨ - ١٩١٤).

أولاً: المصادر والمراجع العربية المعتمدة في البحث

١. أبكاربوس، اسكندر، المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، بيروت، دون تاريخ.
٢. ابن آريه، يهوشوع، مدينة في مرآة العصر: القدس في القرن التاسع عشر ت: سليمان مصالحة، ج١، القدس، ١٩٧٧.
٣. أبو جابر، رؤوف سعد، الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، بيروت، ٢٠٠٤.
٤. أبو جبل، كميليا، يهود اليمن دراسة سياسية واقتصادية واجتماعية، دمشق، ١٩٩٩.
٥. أبو عز الدين، سليمان، ابراهيم باشا في سوريا، بيروت، ١٩٢٩.
٦. اسماعيل، عادل، وخوري، اميل، السياسة الدولية في الشرق العربي، بيروت، ١٩٦١.
٧. اسماعيل، منير وعادل، الصراع الدولي حول المشرق العربي، بيروت، ١٩٩٠.
٨. الاسكندري، كامل، ونخلة، صالح، تاريخ الكرسي الأورشليمي للأقباط الأرثوذكس، القدس، ١٩٤٧.
٩. البرغوثي، عمر صالح، تاريخ فلسطين، القدس، ١٩٢٣.
١٠. البستاني، سليمان، عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، القاهرة، ١٩٠٨.
١١. البيطار، عبد الرزاق، حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر، ٣ أجزاء، دمشق، ١٩٦٣.
١٢. التل، عبد الله، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، القاهرة، ١٩٦٥.
١٣. الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٣ أجزاء، بيروت دار الفارس.
١٤. الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، ط٢، ١٩٦٠.
١٥. الحكيم، يوسف، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، بيروت، ط١، ١٩٦٤.
١٦. الحكيم، يوسف، سورية والعهد العثماني، بيروت، ١٩٦٦.
١٧. الخازن، فيليب وفريد، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية على سوريا ولبنان ١٨٤٠ - ١٨٦٠، بيروت، ١٩١١.
١٨. الخالدي، روجي، المقدمة في المسألة الشرقية منذ نشأتها الأولى في الربع الثاني من القرن الثامن عشر القدس، ١٩٦٠.
١٩. الخالدي، مصطفى، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت، دون تاريخ.
٢٠. الخالدي، وليد، الحق العربي في حائط المبكى في القدس، بيروت، ١٩٢٣.
٢١. الخوري، شحادة ونقولا، تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية، القدس، ١٩٢٥.
٢٢. الدباغ، عثمان مصطفى، اتحاف الأعزة في تاريخ غزة، ٤ مجلدات، غزة، مطبعة اليازجي، ١٩٩٩.
٢٣. الدبس، يوسف، تاريخ سورية ولبنان، ١٠ مجلدات، بيروت، ١٩٩٤.
٢٤. الدمشقي، ميخائيل بريك، تاريخ الشام ١٧٢٠ - ١٧٨٢، بيروت، ١٩٣٠.

٢٥. الدمشقي، ميخائيل، تاريخ حوادث الشام ولبنان ١٧٨٢-١٨٤١، تحرير أحمد غسان سبانو، دمشق، ١٩٨١.
٢٦. الرافي، عبد الرحمن، عصر محمد علي، القاهرة، ١٩٥١.
٢٧. الشدياق، طنوس، كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، لبنان، مجلدان، مج ١، بيروت، ١٩٧٠.
٢٨. الشريف، عارف، روضة الأنس في فضائل الخليل والقدس، مطبعة اللواء، القدس، ١٩٤٦.
٢٩. الشماس، يوسف، خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية، صيدا، ١٩٤٧.
٣٠. الشهابي، أحمد حيدر، تاريخ أحمد باشا الجزار، ٣ أجزاء، بيروت، ١٩٥٥.
٣١. الشهابي، حيدر أحمد، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، ٣ أجزاء، بيروت، ١٩٣٣.
٣٢. الصايغ، أنيس، الهاشميون وقضية فلسطين، بيروت، ١٩٦٦.
٣٣. الصايغ، أنيس، تطور المفهوم القومي عند العرب، بيروت، ١٩٦١.
٣٤. الصباغ، عبود، الروض الزاهر في أخبار ضاهر، عمان، ١٩٦٥.
٣٥. الصباغ، ميخائيل، تاريخ الشيخ ضاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد، بيروت، دون تاريخ.
٣٦. العابد، ابراهيم، الموشاف، "القرى التعاونية في إسرائيل"، بيروت، ١٩٦٠.
٣٧. العابدي، محمود، قدسنا- معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، ١٩٧٢.
٣٨. العارف، عارف، المسيحية في القدس، القدس، ١٩٥١.
٣٩. العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، ط ٣، بيروت، ٢٠٠٥.
٤٠. العارف، عارف، تاريخ القدس، القاهرة، ١٩٥١.
٤١. العارف، عارف، تاريخ بئر السبع وقبائلها، القدس، ١٩٣٤.
٤٢. العسلي، كامل، القدس في التاريخ، عمان، ١٩٩٢.
٤٣. العسلي، كامل، معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، ١٩٨١.
٤٤. العسلي، كامل، مواسم النبي موسى في فلسطين: تاريخ المواسم والمقام، عمان، ١٩٩٠.
٤٥. العسلي، كامل، وثائق مقدسية تاريخية، الجزء الثالث، عمان، ١٩٨٩.
٤٦. العطار، نادر، تاريخ سورية في العصور الحديثة، مجلدان، مج ١، دمشق، ١٩٦٢.
٤٧. العقاد، أحمد خليل، تاريخ الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦-١٩٤٨، ج ١، دمشق، ١٩٦٦.
٤٨. العقيقي، نجيب، المستشرقون، القاهرة، ١٩٦٥.
٤٩. العورة، ابراهيم، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، صيدا، ١٩٣٦.
٥٠. الكيالي، عبد الوهاب، الكيبوتز أو المزارع الجماعية في إسرائيل، بيروت، ١٩٦٦.
٥١. الكيالي، عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، بيروت، ١٩٧٣.
٥٢. المبيض، سليم عرفات، غزة وقطاعها، القاهرة، ١٩٨٧.
٥٣. المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، القاهرة، ١٨٩٦.

٥٤. المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت، ١٩٧٧.
٥٥. المحي، أمين، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٤ مجلدات، بيروت، لا تاريخ.
٥٦. المدني، زياد عبد العزيز، مدينة القدس وجوارها خلال الفترة ١٨٠٠ - ١٨٣٠، عمان، ١٩٩٦.
٥٧. المر، دعبس، أحكام الأراضي المتبعة في البلاد العربية المنفصلة عن السلطنة العثمانية، القدس، ١٩٢٣.
٥٨. المعلوف، عيسى اسكندر، تاريخ الشيخ ضاهر العمر الزيداني، لبنان.
٥٩. المعلوف، عيسى اسكندر، دواني القطوف في تاريخ بني معلوف، لبنان، ١٩٠٨.
٦٠. النتشة، رفيق شاكر، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، عمان، ١٩٩١.
٦١. النعيمي، أحمد نوري، اليهود والدولة العثمانية، عمان، ١٩٩٦.
٦٢. النمر، إحسان، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، دمشق، ١٩٣٨.
٦٣. النمري، طاهر، واقع واحتياجات التعليم الفلسطيني في مدينة القدس، القدس، ٢٠٠١.
٦٤. الهندي، هاني، حول الصهيونية وإسرائيل، بيروت، ١٩٧١.
٦٥. آن سميث، بامبلا، فلسطين والفلسطينيون ١٨٧٦ - ١٩٨٣، ترجمة اهام بشارة الخوري، دمشق، ١٩٩١.
٦٦. أنيس، محمد، الدولة العثمانية والمشرق العربي، القاهرة، ١٩٦٢.
٦٧. اوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة محمود الأنصاري، استانبول، ١٩٨٨.
٦٨. بازيلي، قسطنطين، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، موسكو، ١٩٨٩.
٦٩. بركات، داود، البطل الفاتح ابراهيم وفتح الشام، القاهرة، ١٩٣٤.
٧٠. بهجت، محمد، والتميمي، رفيق، ولاية بيروت، ١٣٣٥هـ.
٧١. بولاك، اسماعيل، إسرائيل أمة وتاريخها، تعريب، رسمي بيادسي، تحرير الياهو أغاسي، تل أبيب، ١٩٧١.
٧٢. بوبصير، صالح، جهاد شعب فلسطين، بيروت، ١٩٦٧.
٧٣. بيات، فاضل مهدي، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق العثمانية، بيروت، ٢٠٠٣.
٧٤. بيك، فردريك، تاريخ شرق الأردن وقبائلها، تعريب، بهاء الدين طوقان، القدس، ١٩٦١.
٧٥. بيهم، محمد جميل، والترك في الصراع بين الشرق والغرب، بيروت.
٧٦. تايلور، الان، تاريخ الحركة الصهيونية، تحليل للدبلوماسية الصهيونية ١٨٩٧ - ١٩٤٧، ترجمة بسام أبو غزالة، بيروت، ١٩٦٦.
٧٧. تماري، سليم، القدس ١٩٤٨، الأحياء العربية ومصيرها في حرب ١٩٤٨، بيروت، ٢٠٠٢.
٧٨. توما، اميل، جذور القضية الفلسطينية، بيروت، ١٩٧٣.
٧٩. ثابت، كريم، محمد علي، القاهرة، ١٩٤٣.

٨٠. ج، هـ، جانس: الصهيونية وإسرائيل، ترجمة، راشد حميد، بيروت، ١٩٧٢.
٨١. ج. م. ن جفريز، فلسطين اليكم الحقيقة، تعريب: أحمد خليل الحاج، مراجعة: محمد أنيس، القاهرة، ١٩٧١.
٨٢. جاسر، شفيق، تاريخ القدس، عمان، ١٩٩٠.
٨٣. جقمان، عبد الله يوسف، جولة في تاريخ الأرض المقدسة من أقدم العصور حتى اليوم، بيت لحم، ١٩٩٦.
٨٤. حافظ، فؤاد حسن، تاريخ الشعب الأرمني، القاهرة، ١٩٨٦.
٨٥. حتي، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، بيروت، ١٩٥٩.
٨٦. حجار، جوزيف، عروبة فلسطين ومصير المشرق العربي، بيروت، ١٩٧٦.
٨٧. حشي، سالم، تاريخ الأمراء الشهابيين بأقلام أحد أمرائهم من وادي التيم، بيروت، ١٩٧١.
٨٨. حلاق، حسان، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧-١٩٠٩، بيروت، ١٩٩٩.
٨٩. حليم، إبراهيم، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، ط١، القاهرة، ١٩٠٥.
٩٠. حماد، خيرى، الصهيونية جذورها نشأتها وأهدافها، القاهرة، ١٩٦٨.
٩١. خضر، جورج، المسيحيون العرب، دراسات ومناقشات، بيروت، ١٩٨١.
٩٢. خوري، يوسف، نكران العدالة لسكان القدس العربية، القدس، ١٩٩٩.
٩٣. داغر، أسعد، ثورة العرب، القاهرة، ١٩١٦.
٩٤. داغر، أسعد، مذكراتي على هامش القضية العربية، القاهرة، ١٩١٦.
٩٥. دروزة، محمد عزة، "خمسة وتسعون عاماً في الحياة: مذكرات وتسجيلات". تحقيق علي الجرباوي وحسام الشخشير، ج١، القدس، ١٩٩٣.
٩٦. درويش، مروان، اليهود الشرقيون في إسرائيل، بيروت، ٢٠٠٣.
٩٧. ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، القاهرة، ١٩٤٦.
٩٨. رافق، عبد الكريم، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦-١٧٩٨، دمشق، ١٩٦٨.
٩٩. راهنر، كارل، وهربرت، فورغريلر، معجم اللاهوت الكاثوليكي، نقله إلى العربية عبده خليفة، بيروت، ١٩٨٦.
١٠٠. رزوق، أسعد، إسرائيل الكبرى دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني، بيروت، ١٩٦٨.
١٠١. رزوق، أسعد، المجلس الأمريكي لليهودية دراسة في البديل اليهودي للصهيونية، بيروت، ١٩٧٠.
١٠٢. رستم، أسد، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي، مج١، بيروت.
١٠٣. رستم، أسد، المحفوظات الملكية المصرية، ٤ أجزاء، بيروت، ١٩٤٠.
١٠٤. رفيق، فرح، تاريخ الكنيسة الأسقفية في مطرانية القدس ١٨٤١-١٩٩١، ١٩٩٥.
١٠٥. زكي، عبد الرحمن، حملة الشام الأولى والثانية، في: "ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا" ١٨٤٨-١٩٤٨، القاهرة، ١٩٩٠.
١٠٦. زيدان، جرجي، فلسطين، تاريخها وآثارها وسائر أحوالها، القدس، ١٩١٣.

١٠٧. زين، زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان، بيروت، ١٩٧١.
١٠٨. زين، زين، نشوء القومية العربية - مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية - التركية، بيروت، ١٩٦٨.
١٠٩. سالم، لطيفة، الحكم المصري في الشام ١٨٣١ - ١٨٤١، القاهرة، ١٩٩٠.
١١٠. سامي، أمين، تقويم النيل، ٣ مجلدات، القاهرة، ١٩٢٨.
١١١. سركيس، خليل بن خطار، تاريخ أورشلين، بيروت، ١٨٧٤.
١١٢. سرهنسك، اسماعيل، حقائق الأخبار في دول البحار، القاهرة، ١٩٩٨.
١١٣. سعادة، عمر، فلسطين في التاريخ الإسلامي، ط١، دمشق، ٢٠٠٨.
١١٤. سفيان، كمال، الوضع التعليمي في مدينة القدس، عمان، ١٩٩٣.
١١٥. سمبسون، جون هوب، فلسطين، تقرير عن الهجرة ومشروع الاستيطان والعمران، القدس، ١٩٣٠.
١١٦. سميليا نساكيا، ايرينا، سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ترجمة يوسف عطا الله، بيروت، ١٩٨٩.
١١٧. سوكلوف، ناحوم، تاريخ الصهيونية، لندن، ١٩٠٩.
١١٨. شايدل، فرانتس، إسرائيل دولة مفتعلة، تعريب محمد جديد، دمشق، ١٩٦٩.
١١٩. شكري، محمد، وآخرون، بناء دولة مصر، محمد علي: السياسة الداخلية، القاهرة، ١٩٤٨.
١٢٠. شوفاني، إلياس، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى ١٩٤٩، بيروت، ١٩٩٨.
١٢١. صالح، فايز، التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة، عمان، ١٩٨٩.
١٢٢. صالحة، محمد عيسى، مدينة القدس، السكان والأرض، بيروت، ٢٠٠٩.
١٢٣. صايغ، فايز، الاستعمار الصهيوني في فلسطين، تعريب عبد الوهاب الكيالي، بيروت، ١٩٦٥.
١٢٤. صفوة، نجدة فتحي، اليهود والصهيونية في علاقة الدول الكبرى، بغداد، ١٩٦٧.
١٢٥. صفوت، محمد مصطفى، المسألة الشرقية ومؤتمر باريس، جامعة الدول العربية، ١٩٥٨.
١٢٦. صلاح، حنا، فلسطين وتحديد حياتها، نيويورك، ١٩١٩.
١٢٧. ضو، بطرس، (الأب)، تاريخ الموازنة الديني والسياسي والحضاري من مار مارون إلى مار يوحنا مارون، بيروت، ١٩٧٠.
١٢٨. طرين، أحمد، محاضرات في تاريخ قضية فلسطين، منذ نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦، القاهرة، ١٩٥٩.
١٢٩. طوسون، عمر، صفحة من تاريخ مصر في عصر محمد علي: الجيش المصري البري والبحري، القاهرة، ١٩٩٠.
١٣٠. طوطح، خليل، وشحادة، بولص، تاريخ القدس ودليلها، القدس، ١٩٢٠.
١٣١. ظاظا، حسن، الفكر الديني الإسرائيلي - أطواره ومذاهبه، بيروت، ١٩٦٨.
١٣٢. غازوري، نجيب، يقظة الأمة العربية ١٩٥٢، تعريب وتقاسم أحمد أبو ملحم، بيروت، د.ت.

١٣٣. عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوروبا العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٥٨.
١٣٤. عامر، محمود، تاريخ الماسونية ويهود الدوغة، دمشق، ٢٠٠٧.
١٣٥. عبد الحميد، محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد، القاهرة، ١٩٧٨، ط١.
١٣٦. عبد الكريم، أحمد عزت، دراسات في تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٧٠.
١٣٧. عز الدين، فاروق محمد، القدس تاريخياً وجغرافياً، القاهرة، ١٩٨١.
١٣٨. علوش، ناجي، الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ - ١٩٤٨، بيروت، ١٩٧٤.
١٣٩. علي، محمد كرد، الحكومة المصرية في الشام، القاهرة، ١٩٢٥.
١٤٠. عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤، القاهرة، ١٩٦٩.
١٤١. غاسبار، لوران، تاريخ فلسطين، تعريب: ابراهيم ميخائيل خوري، دمشق، ١٩٦٩.
١٤٢. غرابية، عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠ - ١٨٧٦، القاهرة، ١٩٦١ - ١٩٦٢.
١٤٣. غي، هنري، بيروت ولبنان في نصف قرن، بيروت، ١٩٤٩.
١٤٤. فريديرك، كولونيل، تاريخ شرق الأردن وقبائلها، ترجمة بهاء الدين طوقان، القدس، ١٩٣٤.
١٤٥. قاسمية، خيرية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ - ١٩١٨، بيروت، ١٩٧٣.
١٤٦. قدامة، أحمد، معالم وأعلام، بيروت، ١٩٦٥.
١٤٧. قزاقيا، خليل ابراهيم، تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية، مصر، ١٩٢٠.
١٤٨. قطاوي، رينيه وجورج، محمد علي والعروبة، القاهرة، ١٩٥٢.
١٤٩. قهوجي، حبيب، استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة، دمشق، ١٩٧٨.
١٥٠. كتافكو، أنطون، فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسورية ١٨٣١ - ١٨٤١، حريصا لبنان، ١٩٣٧.
١٥١. كتن، هنري، فلسطين في ضوء الحق والعدل، تعريب: وديع فلسطين، بيروت، ١٩٧٠.
١٥٢. كرمل، ألكس، تاريخ حيفا في عهد الاتراك العثمانيين، حيفا، ١٩٧٩.
١٥٣. كريك، جورج، موجز تاريخ الشرق الأوسط، الناصرة، ١٩٧٧.
١٥٤. كنغليك، الكسندر ولیم، رحلة كنغليك إلى المشرق، ١٨٣٤ - ١٨٣٥. نقلها إلى العربية محمود عابدين، عمان، ١٩٧١.
١٥٥. كوثراني، وجيه، فرنسا وفلسطين والصهيونية في مطلع القرن العشرين، قراءة في وثائق الخارجية الفرنسية في المؤتمر الدولي الثالث، تاريخ بلاد الشام، فلسطين، عمان، مج٣، ١٩٨٣.
١٥٦. ليبب، حسين، تاريخ الأتراك العثمانيين، ح١، مصر، دون تاريخ.
١٥٧. لفوف، بيوتر، وصف سورية، بيروت، ١٩٨١.
١٥٨. لندمان، شمعون، أحياء أعيان القدس خارج أسوارها في القرن التاسع عشر، ترجمة سليمان مصالحة، تل أبيب، ١٩٨٤.

١٥٩. لنشوفسكي، جورج، الشرق الأوسط في الشؤون الدولية.
١٦٠. لوتسكي، فلاديمير، تاريخ الأقطار العربية الحديث، بيروت، ١٩٨٠.
١٦١. لورانس، هنري، بونابرت والدولة اليهودية، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، ١٩٩٨.
١٦٢. ماري سركو، دمشق فترة السلطان عبد الحميد الثاني من ١٢٩٣هـ - ١٣٢٥هـ / ١٨٧٦ - ١٩٠٨م، دمشق، ٢٠١٠.
١٦٣. مانويل، فرانك، بين أمريكا وفلسطين، تعريب يوسف حنا، عمان، ١٩٦٧.
١٦٤. محافظة، علي، العلاقات الألمانية - الفلسطينية: من إنشاء مطرانية القدس البروتستانتية وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ١٨٤١ - ١٩٤٥، بيروت، ١٩٨١.
١٦٥. محمود، أمين عبد الله، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، الكويت، ١٩٨٤.
١٦٦. مخزوم، محمد، أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة، بيروت، ١٩٨٦.
١٦٧. مراد، محمد، مسألة الأرض في المشرق العربي في ظل السلطنة العثمانية.
١٦٨. مشاققة، ميخائيل، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، القاهرة، ١٩٠٨.
١٦٩. مشاققة، ميخائيل، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحزاب، بيروت، ١٩٥٥.
١٧٠. معمر، توفيق، العمر، ضاهر، الناصرة، ط٢، ١٩٩٠.
١٧١. مناع، عادل، أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني، ١٨٠٠ - ١٩١٨، القدس، ١٩٨٦.
١٧٢. مناع، عادل، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني ١٧٠٠ - ١٩١٨ (قراءة جديدة)، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩.
١٧٣. منسي، محمود صالح، تصريح بلفور، القاهرة، ١٩٧٠.
١٧٤. منصور، أسعد، تاريخ الناصرة، القاهرة، ١٩٢٣.
١٧٥. مؤنس، حسين، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٣٨.
١٧٦. نافع، تيسير موسى، الامبريالية والصهيونية، القاهرة، ١٩٩٩.
١٧٧. نشوان، عمر جميل، التعليم في فلسطين منذ العهد العثماني وحتى السلطة الوطنية الفلسطينية، عمان، ٢٠٠٤.
١٧٨. نصار، نجيب، الصهيونية، بيروت، ١٩٦٨.
١٧٩. نصر الله، الياس، اليهود الشرقيون والصهيونية، بيروت، ١٩٧٦.
١٨٠. نعيصة، يوسف، يهود دمشق، دمشق، ١٩٩٤.
١٨١. نوفل، نوفل أفندي نعمة الله، الدستور العثماني، مج٢، بيروت، ١٣٠١هـ.
١٨٢. نوفل، نوفل، كشف اللثام عن محيا الحكومة والحكام في اقليمي مصر وبر الشام، تحرير ميشيل أبو فاضل وجان نخول، طرابلس، دون تاريخ.

١٨٣. هاملتون، جب، وبون، هارولد، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصر، ١٩٧٠.

١٨٤. هيكل، يوسف، فلسطين قبل وبعد، بيروت، ١٩٧١.

١٨٥. يتييم، ميشيل، وديك، اغناطيوس، تاريخ الكنيسة الشرقية وأهم أحداث الكنيسة الغربية، حلب، ١٩٦٣.

ثانياً: رسائل علمية وثائقية: (ماجستير ودكتوراه)

١. رامزور، أرنست: تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ترجمة صالح أحمد العلي قدم له وراجعته نقولا زيادة بيروت، ١٩٦٠.

٢. الحلو، انجلينا: عوامل تكوين إسرائيل السياسية والعسكرية والأقتصادية بيروت، ١٩٦٧.

٣. برو، توفيق: العرب والترك ١٩٠٨ - ١٩١٤ القاهرة، ١٩٦٠.

٤. الخولي، حسن صبري: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، ج١، القاهرة، ١٩٧٣.

٥. قاسمية، خيرية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ - ١٩١٨ القاهرة، ١٩٧٣.

٦. عوض، عبد العزيز: الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤ القاهرة، ١٩٦٩.

٧. فهمي، وليم: الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة القاهرة، ١٩٧١.

ثالثاً: المذكرات المنشورة

١. مذكرات رستم باز ١٨٩٧ - ١٩٠٢، حققها وعلق عليها فؤاد أفرام البستاني، بيروت ١٩٥٥.

٢. المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان: ١٨٤٠ - ١٨٦١، تقارير قنصلية وهي منقولة عن الكتاب الأصفر الفرنسي والكتاب الأزرق الانكليزي ومعاهدات الباب العالي لجامعة البارون دي تستا، تعريب فيليب وفريد الخازن، جونيه، لبنان، ١٩١٠ - ١٩١١.

٣. يوميات هرتزل، إعداد أنيس الصايغ، تعريب هيلدا الصايغ، بيروت، ١٩٧٣.

٤. وثائق الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، مجلد ٣ - ٤، الأوراق السياسية لسنة ١٢٥١ - ١٢٥٥ هـ، ١٨٣٥ - ١٨٤٠، جمعها وعلق عليها د. أسد رستم، بيروت، ١٩٣٤.

٥. مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب عبد الحميد، القاهرة، ١٩٧٨.

رابعاً: الموسوعات

١. الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠.
٢. موسوعة الأديان في العالم، جميل مدبك، بيروت، ٢٠٠٠، مج ٩.
٣. موسوعة الأديان الميسرة، أحمد راتب عرموش، بيروت، ٢٠٠١، مج ٢.
٤. موسوعة القدس والمسجد الأقصى، حسن علي مصطفى خاطر، القدس، ٢٠٠٤، ط ١.
٥. الموسوعة اليهودية، عبد الوهاب المسيري، مصر، ١٩٩٩.
٦. الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة، ١٩٦٥.

خامساً: الدوريات

١. مجلة الفكر السياسي، دمشق، العدد ٣٦، ٢٠١٠.
٢. مجلة فتح، دمشق، العدد ٦٠٢، ٢٠٠٩.
٣. مجلة الكرمل، حيفا، العدد ٢٩٠، ١٩١٢.
٤. مجلة المشرق، العدد ٥ و ٨، بيروت، ١٩١١.
٥. مجلة الهلال، مصر، الجزء الثالث، ١٩٠٨.
٦. مجلة نخضة العرب، باريس، ١٩٠٩، ص ١٥٣.
٧. مجلة المنار، القاهرة، ج ٦، ١٨٩٨.
٨. مجلة ثمرات الفنون، بيروت، العدد ١٦٧٩، ١٩٠٨.
٩. مجلة الأهرام، القاهرة، العدد ٩٥٤٣، ٦ آب ١٩٠٩.
١٠. مجلة المقتبس، دمشق، العدد ٣٢٩، ٢٨ أيار ١٩١٠.
١١. مجلة المفيد، بيروت، العدد ٧٧٠، ١٩ آب ١٩١١.
١٢. مجلة فلسطين، العدد ٣٢٣، ١١ نيسان ١٩١٤.
١٣. مجلة القبس، دمشق، العدد ٤٢، ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٣.
١٤. مجلة المقتطف، القاهرة، ١٨٩٩.
١٥. مجلة المسرة، العدد ١٩٥٠، ٣٦.
١٦. مجلة صامد الاقتصادي، عمان، العدد ١٢٠.

سادساً: مخطوطات المكتبة الظاهرية - دمشق

١. أعظم المآثر السلطانية السكة الحديدية الحجازية - الشامية، محمد عارف الحسيني عام ١٣١٨هـ، مصنف تحت الرقم ١٠٨١٠.
٢. سلاطين آل عثمان، الجزء ٢٣ الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني، مجهول المؤلف، مصنف تحت رقم ١٠٧٠٤.

سابعاً: وثائق دار الكتب الوطنية - بيروت

١. مخطوط: صراخ البري في بوق الحرية ١٨٩٠ - ١٨٩١، تأليف حبيب فارس، مصنف تحت الرقم ٦٥٢ (معلومات وآراء غير منشورة في الكتاب المطبوع في مصر ١٨٩١، ثلاثة أجزاء، تحت عنوان صراخ البري في بوق الحرية والذبائح التلمودية).
٢. مخطوط: القول الصادق في الأستاذ نعوم فائق، تأليف الكونت فيليب دي طرزي، مصنف تحت الرقم ١٢٨.

ثامناً: المواقع الالكترونية

١. www.lovely smile.com

٢. www.wikipedia.org

تاسعاً: المراجع الأجنبية

- 1) Abu – Manneh , Butrus (1990) . Jerusalem in the Tanzimat Period : The New ottoman Administration and the Notables . " Die Welt des Islams ". 30 .
- 2) Carmel, Alex (1985) . The Activities of The European powers in Palestine , 1799 – 1914 . Asian and African Studies , vol.19
- 3) Chouraqui, Andre' : L' Alliance Israe'ite universelle et la Renaissance Juive Contemporaine 1860 – 1960 (Paris 1965) .
- 4) Chouraqui, Andre' : Theodor Herzl Inventeur l'Etat d'Israel (P . a ris – 1960) .
- 5) Divine, Donna Robinson (1994) . Invasion and occupation : Egyptian Rule – 1831-1840 . In politics and society in ottoman Palestine : The Arab Struggle for survival and power. London.

- 6) Eliav, Mordechai (1975) . " German Interests and the Jewish Community in Nineteenth Century Palestine " . In studies on Palestine during the ottoman period . Edited by Moshe Maoz . Jerusalem .
- 7) Engelhard : La Turquie et le Tanzimat , Vol I .L.
- 8) Esco Foundation for Palestine .
- 9) Finn, James, Stirring peasantry, London, 1923, Vol I and Vol II .
- 10) Hirschfeld, Yair (1986) . " Some Findings on Prussian and ottoman – policies in Palestine During the 1940 Based on the Writing of Dr . Gustave . Schultz , the First Prussian vice – Consul to Jerusalem 1840 – 1851 " . In Palestine in the Late ottoman period : political , Social and Economic Transformation . Edited by David Kushner . Jerusalem.
- 11) Hopwood, Derek (1969) . the Russian presence in Syria and Palestine , 1843 – 1914 . oxford .
- 12) Hyamson : Palestine the rebirth of an ancient people .
- 13) Hyamson, Albert and others , eds . (1939) . The British , consulate in Jerusalem in Relation to the Jews of Palestine , 1838 – 1914 . London .
- 14) Hyamson, Albert M . Palestine old and new .
- 15) Marsot, Afaf Lutfi al – sayyid (1994) . Egypt in the Reign of Muhammad Ali – Cambridge .
- 16) Mendelsohn – Rood , Judith (1993) . Sacred Law in the Holy City : A Study in Theory and Practice of Government in Jerusalem under ottoman and Khedival Rule . chicago.
- 17) N. Azouri: le Reveil de la Nation Arabe dans l'Asie Turque (Paris) 1905 .
- 18) N. Mandel, Turks , Arabs , and Jewish , Immigration into Palestine 1882– 1914.
- 19) N. Sokolow, History of Zionism 1600– 1918, (London 1919).
- 20) Oliphant, Laurance . The Land of Gilead .
- 21) Pinon Rene': L'Europe et l'Empire ottoman (Paris – 1909) .

- 22) Ruth Michal , Roded (1987). Tradition and Changes in Syria during the Last Decades of ottoman – Rule : the urban Elite of Damascus , Aleppo , Homs and Hama , 1876–1918. Michigan .
- 23) Scholch, Alexander (1984) . " The Decline of local power in Palestine After 1856 . The case of Aqil Agha . " Die Weltdes Islams vol . xxiii – xxiv
- 24) Shamir, shimon , (1984) . Egyptian Rule (1839 – 1840) and the Beginning of the Modern period in the History of Palestin . in Egypt and Palestine : A Mil lennium of Association, 1868 – 1948 Edited by Annon cohen and Gabriel Baer . Jerusalem.
- 25) Spyridon , S.N.(1938) . " Annals of Palestine , 1821 – 1841" . The Journal of The Palestine oriental society .
- 26) Stein, Leonard . Balfour Declartion , London , 1961.
- 27) Stephens, John L.loyd (1970) . Incidents of Travel in Egypt , Arabia Petraea and the Holy Land. Oklahoma .
- 28) Thauraud, Je'rome et Jean , L'Histoire des Juifs , Paris 1927 .
- 29) Tibawi, A.L. (1961) . British interests in Palestine . 1800 – 1901 : A Study of Religious and Educational Enterprise . London .
- 30) Tibawi, Abdul Latif : American Interests to Syria, oxford 1960.
- 31) Tibawi: British interest in Palestine .
- 32) Verete, Mayir (24 June 1952) " palerston and the Levant Crisis Journal of Modern History.
- 33) Y.Porath: The political Awakening of The Palestinian Arabs .

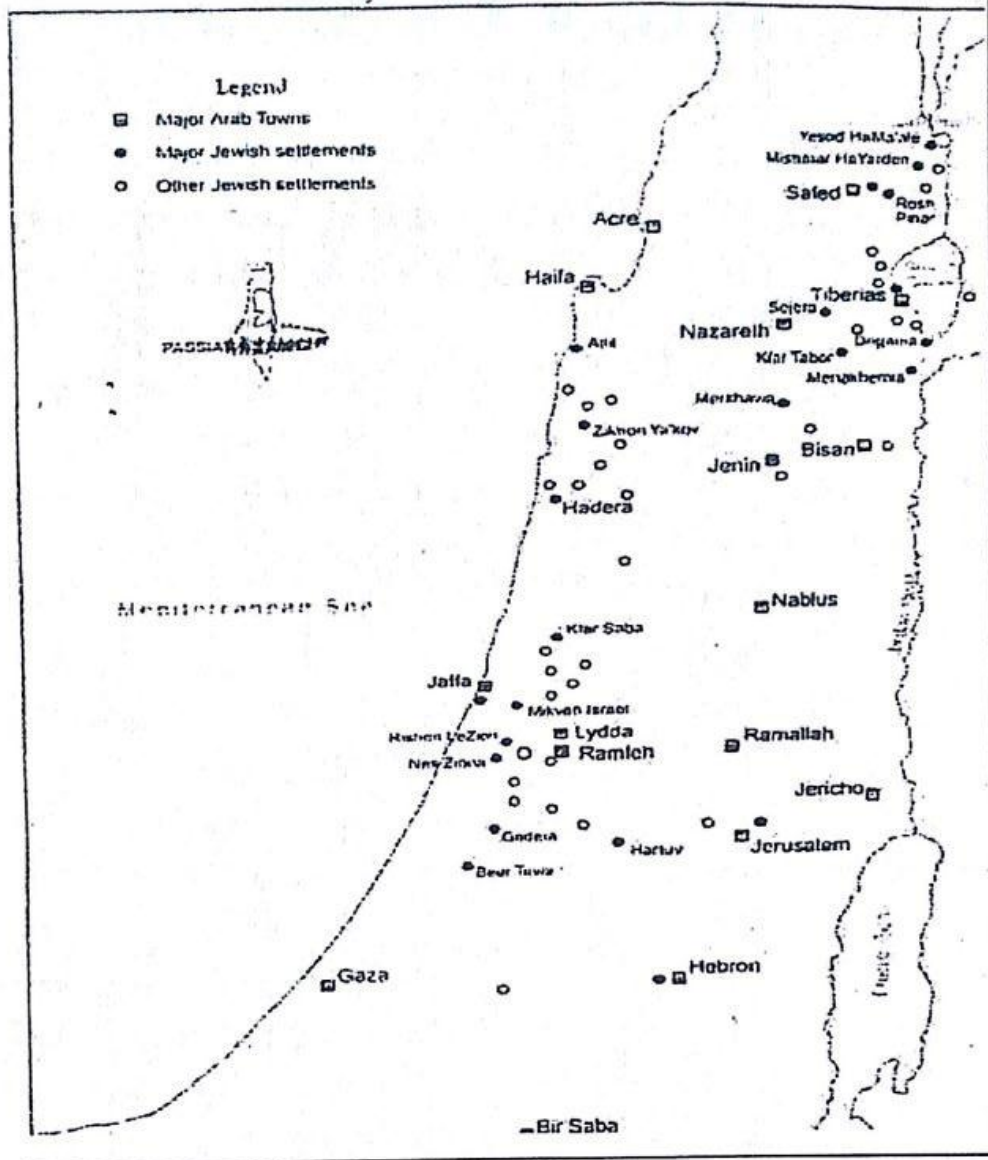
عاشراً: سجلات المحاكم الشرعية

١. سجل محكمة القدس الشرعية ، رقم ٣٢٥ .
٢. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٢٧ .
٣. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٢٧٩، في ٧ صفر ١٢١٣ هـ / ٢١ تموز ١٧٩٨ م .

٤. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣١٧.
٥. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٣٧.
٦. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣١٤.
٧. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٢٦.
٨. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٢٨.
٩. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٢٩.
١٠. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٣٠.
١١. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٤٣.
١٢. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٤٥.
١٣. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٤٦.
١٤. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٤٧.
١٥. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٤٨.
١٦. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٥٤.
١٧. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٨٧.
١٨. سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٣٩.
١٩. سجلات محكمة القدس الشرعية رقم ٣٢٣.
٢٠. سجلات محكمة القدس الشرعية، رقم ٣١٥.
٢١. سجلات محكمة القدس الشرعية، رقم ٣١٦.
٢٢. سجلات محكمة القدس الشرعية، رقم ٣١٩.
٢٣. سجلات محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٢١.
٢٤. سجلات محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٢٢.
٢٥. سجلات محكمة القدس الشرعية، رقم ٣٢٤.
٢٦. سجلات محكمة نابلس الشرعية، رقم ١١.
٢٧. سجلات محكمة نابلس الشرعية، رقم ٩.
٢٨. سجلات محكمة يافا الشرعية، رقم ٩.

ملحق رقم (١)

خريطة لفلسطين ١٨٨١-١٩١٤م



عن موقع الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشئون الدولية / القدس

www.passia.org

ملحق رقم (۲)

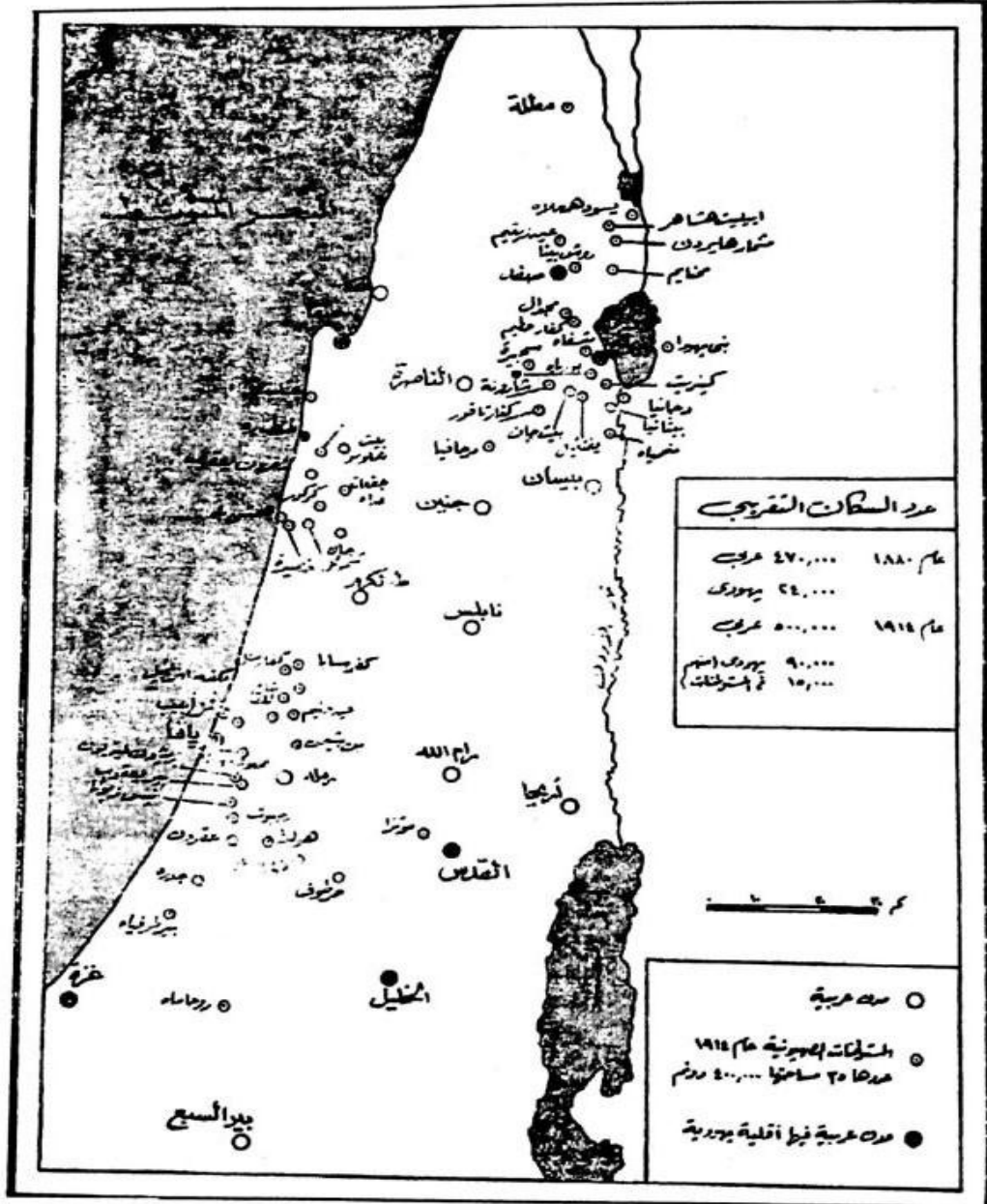
انظر الخريطة: مناطق كان يسكنها اليهود في مطلع القرن التاسع عشر



منقولة عن: الصراع العربي الإسرائيلي في خرائط، إعداد وإشراف الدكتورة خيرية قاسمية / معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٩م، القاهرة

ملحق رقم (٣)

انظر الخريطة: تبين مواقع المستوطنات الصهيونية حتى عام ١٩١٤م



منقولة عن: الصراع العربي الإسرائيلي في خرائط، إعداد وإشراف الدكتورة خيرية قاسمية / معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٩م، القاهرة

ملحق رقم (٤)

أسماء القناصل الفرنسيين في القدس^(١)

LISTE DES CONSULS DE FRANCE A JERUSALEM

1.	M. Gabriel de LANTIVY	1843-1844
2.	Edmond de Barrere, gerant du 1er decembre	1844 au 15 decembre 1845
3.	M. Joseph HELOUIS-JORELLE	1845-1848
4.	M. Paul-Emile BOTTA	1848-1855
5.	M. Edmond de BARRERE	1855-1871
6.	M. Ernest CRAMPON	1871-1873
7.	M. Salvator PATRIMONIO	1873-1881
8.	M. Adrien LANGLAIS	1881-1883 (deces) ⁽²⁾
9.	M. Charles DESTREES	1883-1885
10.	M. Lucien MONGE	1885
11.	M. Charles LEDOULX	1885-1893
12.	En 1893, le Consulat est eleve au rang de Consulat General	
13.	M. Charles LEDOULX	1893-1898 (deces) ⁽³⁾
14.	M. Ernest AUZEPY	1898-1901
15.	M. Honore DAUMAS	1902
16.	M. Auguste BOPPE	1902-1904
17.	M. Georges OUTREY	1905-1908
18.	M. Georges GUEYRAUD	1908-1914

^(١) قائمة بأسماء القناصل للفترة ما بين ١٨٤٠-١٩١٤ م

^(٢) توفي في القدس عام ١٨٨٣ م.

^(٣) توفي في القدس عام ١٨٨٩ م.

ملحق رقم (٥)

قائمة بأسماء القناصل البريطانيين في فلسطين ١٨٣٩-١٩١٤م

THE CONSULATE OVER THE COURSE OF TIME

During the seventy five years of its existence (April 1839-November 1914), the Consulate in Jerusalem was staffed by eight Consuls, one of whom served for twenty seven years, while the last held the post for only three months. Personal connections were instrumental in the appointment of the first two Consuls, who lacked prior diplomatic experience and served only in Jerusalem. All the others were professional diplomats, serving in a consular capacity in other postings both before and after their term in Jerusalem.

The terms in office of the Consuls were as follows: W. T. Young-1839-1845; J. Finn – 1846-1863; N. T. Moore – 1863-1890; J. Dickson – 1890-1906 ⁽¹⁾; E. C. Blech – 1906-1909; H. E. Satow – 1909-1912; P. J. C. McGregor – 1912-1914; W. Hough – 1914. Dickson was the only one to die in office, and was buried in Jerusalem. ⁽²⁾

⁽¹⁾ جاك ديكسون: القنصل البريطاني الوحيد الذي توفي في مكتبه عام ١٩٠٦م، ودفن في مدينة القدس.
⁽²⁾ لمزيد من التفاصيل عن القناصل البريطانيين أنظر ملفات القنصلية البريطانية المحفوظة في الأرشيف الصهيوني الجامعة العبرية. وانظر أيضاً:

Campel to young, 21 November 1838, FO 78/368, Hyamson, British Consulate, Encl. To No 3: Campbell to Palmeeston, 10 December 1838, FO 78/344.

ملحق رقم (٦)

قائمة بأسماء القناصل الألمان في القدس (١٨٤٠-١٩١٤م)

DIE JUDEN PALASTINAS IN DER DEUTSCHEN POLITIK 1842-1940^(١)

1. Ernest Gustav Schultz ^(٢)	1842 -1851
2. Dr. George Rose	1851-1866
3. Professor Heinrich Petermann	1866 -1867
4. Baron. Karl Viktor Van Alten	1867 -1873
5. Baron. Von Muenchhausen	1873 -1881
6. Dr. Julius Reitz	1881- 1885
7. Dr.PaulVonTischendorf	1885 -1899
8. Dr.FriedrichRosen	1899 -1902
9. Edmond Schmidt	1902 -1914

^(١) ولزيد من المعلومات حول القناصل الألمان ودورهم في فلسطين، أنظر كتاب مردخاي إيليايف مختارات من وثائق القنصلية الألمانية ، مكتبة تل أبيب ١٩٧٣ ص ٣ ، مركز الدراسات الفلسطينية بيروت.

^(٢) القنصل الألماني الأول إرنست جوستاف شولتز Ernst Schultz توفي في القدس في أكتوبر ١٨٥١م ودفن في مقبرة البروتستانت.

ملحق رقم (٧)

قائمة بأسماء القناصل الروس في القدس^(١)

1.	Mr Cyril	1858- Few Months
2.	Mr Dorogobuzhinov	1858- called back
3.	Mr Yousefovish	1858- 1860
4.	Mr Sokolov	1860- 1861
5.	Mr A.N. Karstov	1861 -1862
6.	Mr Kozhevnikov	1869 -1877
7.	Mr Leonid Kavelin	Two Months

^(١) Hopwood: The Russian presence in Syria and Palestine, 1843-1914 (London Oxford 1969) pp60-61

ملحق رقم (٨)

رسالة من وزارة الخارجية البريطانية إلى القنصل العام في القدس بالموافقة على طلب الحماية البريطانية
ليهود مغتربين يودون الإقامة في القدس رقم: 11 / 37005 لعام ١٩١١ م

No. 35 . Sir,
Treaty
(37005/11).

I have had under my consideration, in communication with
H.M. Sec. of State for the Colonies, 1.E:2 desp. No. 17, of this
series, of June 2nd last, resp. the request of certain persons
of the Jewish faith who, it is stated, have been naturalised in
S. Africa, Canada and Australia, and are now resident at J'lem,
to be accorded the official protection of H.M. Government.

I observe that of the 20 names attached to the petition to
H.M. Consul at J'lem the following, viz:-

Jacal Abramowitz
Moses David Awrutzer
H. Bausai
Ephraim Moed
William Wolfensohn and
S.M. Rabinowitz

claim to be "loyal naturalised Brit. Colonial subjects" on the
ground of various periods of residence in the Transvaal, in
some cases long prior to the annexation of that Colony.

Of these six persons, those who were actually within the
limits of the Transvaal on Sep. 1. 1900, became, ipso facto,
Brit. subjects by virtue of annexation, and are entitled to
be registered as such; and those who were not in the Transvaal
at that time but were burghers either by birth or naturalisation
are entitled to state in writing that they desire to be
treated as Brit. subjects, and on so doing, can be registered
His Excellency,

The Right Honourable,

Sir G. Lowther, G.C.M.G., C.B.,
etc., etc., etc.,

as

من ملفات القنصلية البريطانية المحفوظة في الأرشيف الصهيوني - الجامعة العبرية. رقم (F / 23 / 790)

ملحق رقم (٩)

شهادة إثبات رقم (374) من القنصلية البريطانية في القدس مفادها بأن حاملها هو
من رعايا دولة بريطانيا، ولتسهيل مهمته في التنقل في الدولة العثمانية



No. 374

His Britannic Majesty's
CONSULATE GE.



Certificate of Registration

For the Year 1910

I hereby Certify That Suleiman
Delli is duly registered in this Consulate
as a British Indian Subject
Dated this 14th day of July 1910

J. D. Dunlop Acting Consul GE.

Number.

Page in Foil.

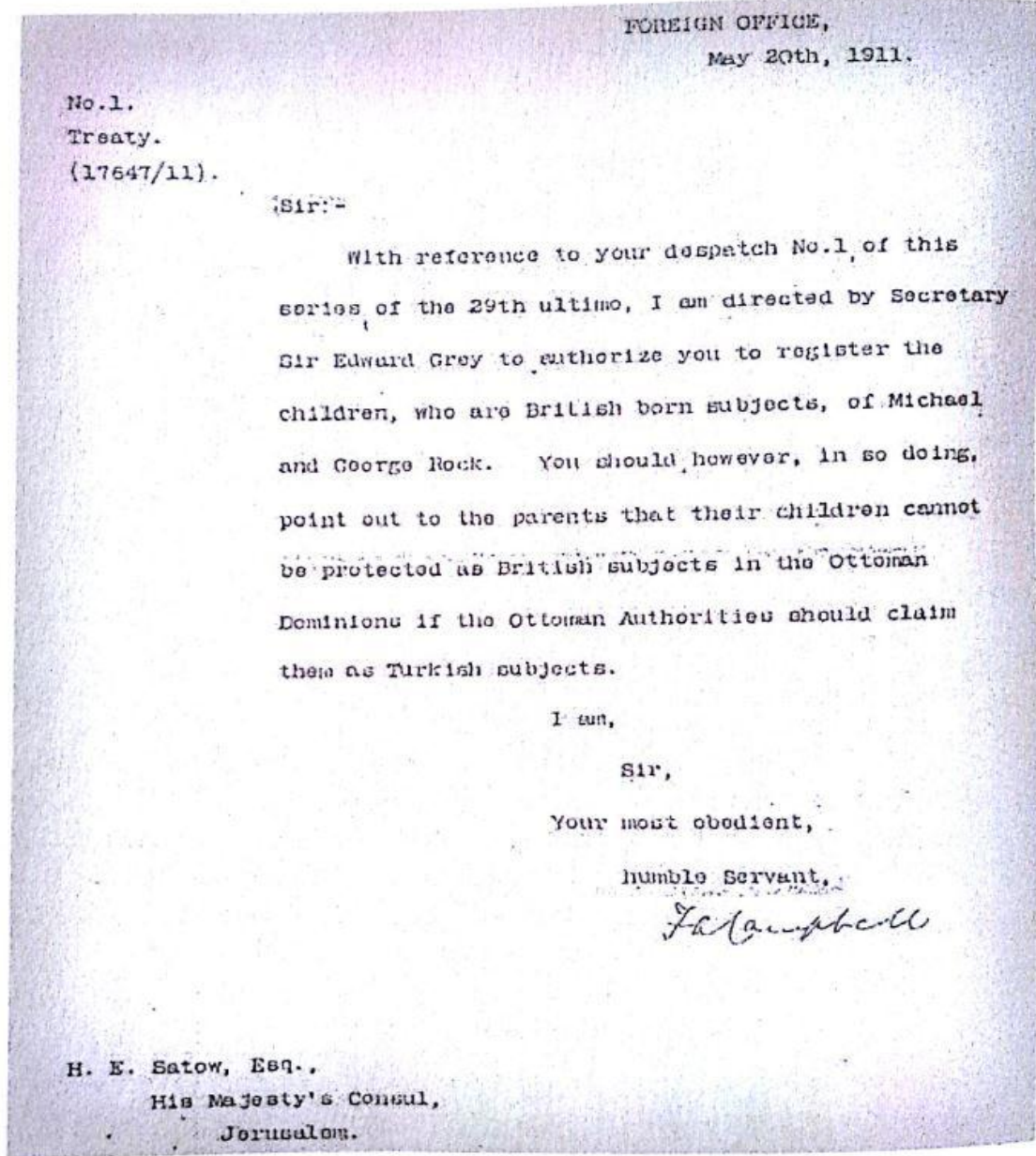
Signature of Duly registered.

NOTE.—This Certificate of Registration must be carefully kept by the party in whose favour it is issued, if he would avoid delay and inconvenience while resident or travelling in the Ottoman Empire.

وزارة الخارجية / ملفات القنصلية البريطانية، القدس. رقم (790/10/F 1910 N)

ملحق رقم (١٠)

رد من وزارة الخارجية البريطانية إلى القنصل العام في القدس السيد ساتو بتاريخ ٢٠ مايو ١٩١١م برفض إعطاء الحماية البريطانية لليهود يقيمون في مناطق تخضع للسلطة التركية



من ملفات القنصلية البريطانية / القدس المحفوظة في الأرشيف السري الصهيوني -
الجامعة العبرية. رقم (790 / 14 / F)

ملحق رقم (١١)

صورة عن جواز سفر مزور لمهاجر من رومانيا من اليهود المتمتعين بالحماية البريطانية

Jerusalem

Foil of
Certificate of Registration.

No. /.

2nd of Jan. 1914

1. Name Andrew J. Gregg
2. Country Ireland
3. Village or Town Ballymalina County Longford.
4. Father's Name and Residence } Deceased
5. Residence of Applicant } Jerusalem
6. Occupation —
7. Age —

Remarks of Registering Officer:—

See No. 1/13.
Passport by Mr. Consul
Genl. Milbanke, dated
Buda Pesth, Sep. 27, 1903;
No. 9.

Jerusalem

Duplicate Foil of
Certificate of Registration.

No. /.

2nd of January 1914.

1. Name Andrew J. Gregg
2. Country Ireland.
3. Village or Town Ballymalina County Longford.
4. Father's Name and Residence } Deceased.
5. Residence of Applicant } Jerusalem
6. Occupation —
7. Age —

Remarks of Registering Officer:—

See No. 1/13.
Passport by Mr. Consul
General, Milbanke, dated
Buda Pesth, September 27,
1903, No. 9.

من ملفات القنصلية البريطانية / القدس المحفوظة في الأرشيف السري الصهيوني - الجامعة

العربية. رقم (791 / 10 / F)

ملحق رقم (١٢)

صورة لجواز سفر مزور صادر عن القنصلية البريطانية في القدس ليهودي مغربي
يتمتع بالحماية البريطانية هو وعائلته

Page. 42 His Majesty's Consulate Jerusalem Foil of Certificate of Registration. No. 5 2nd of Jan'y 1914 1. Name <i>Jacob de Joseph Afriat</i> 2. Country <i>Morocco</i> 3. Village or Town <i>Mogador</i> 4. Father's Name } <i>—</i> and Residence } 5. Residence of } <i>Jerusalem</i> Applicant } 6. Occupation <i>Retired Merchant</i> 7. Age <i>68</i> Remarks of Registering Officer:— <i>see No. 15/13.</i> <i>Wife: Louisa</i> <i>Daughter: Rachel.</i> <i>Brit. Protected person, Registration Certificate from Consulate at Mogador, Morocco, No. 40 of March 16,</i>	Page. 42 His Majesty's Consulate Jerusalem Duplicate Foil of Certificate of Registration. No. 5. 2nd of January, 1914. 1. Name <i>Jacob de Joseph Afriat</i> 2. Country <i>Morocco</i> 3. Village or Town <i>Mogador</i> 4. Father's Name } <i>—</i> and Residence } 5. Residence of } <i>Jerusalem</i> Applicant } 6. Occupation <i>Retired merchant</i> 7. Age <i>68</i> Remarks of Registering Officer:— <i>See No. 15/13.</i> <i>Wife: Louisa</i> <i>Daughter: Rachel.</i> <i>British Protected Person, Registration Certificate from Consulate at Mogador, Morocco, No. 40 of</i>
---	--

من ملفات القنصلية البريطانية / القدس المحفوظة في الأرشيف السري
الصهيوني - الجامعة العبرية. رقم (791 / 10 / F)

ملحق رقم (١٣)

رسالة من السفارة البريطانية في استانبول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١١ م
رقم ٢٢ إلى القنصل البريطاني تتعلق بتسجيل اليهود كرعاء بريطانيين

CONSTANTINOPLE,

November 7th, 1911.

No. 22.

Sir,

I am directed by His Majesty's Ambassador to transmit to

*Trans No. 1137
Quail* you herewith a despatch received from the Foreign Office
relative to the registration as British Subject of certain
Jews resident at Jerusalem.

In the event of copies of the Foreign Office Circular,
referred to in the enclosed despatch, not being in your
possession, I will have copies of them sent from here at
hearing from you.

I am to request that you will return the enclosed document
when done with.

I am, Sir,

Your obedient Servant,

Arthur Mounsey

His Majesty's _____ Consul,
Jerusalem.

240791-17. & B. Ltd.-20062-200-1-06.

من ملفات القنصلية البريطانية/ القدس المحفوظة في الأرشيف السري الصهيوني - الجامعة العبرية.
رقم (790 / 22 / F 1882)

ملحق رقم (١٤)

رسالة من وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٩١٢م إلى المدعو إبراهيم أزولي اليهودي الأصل بالموافقة على منحه الحماية البريطانية

Copy

39757/12.

FOREIGN OFFICE,
September 25 1912.

Sir:-

I am directed by Secretary Sir E. Grey to acknowledge the receipt of your letter of the 13th. ultimo respecting your application to be registered as a British subject at His Majesty's Consulate at Jerusalem.

In reply I am to refer you to my letter of September 22nd, 1911, and to state that the decision then communicated to you, after full consideration of the case, must be maintained.

I am,

Sir,

Your most obedient,

humble servant,

Abraham Azulay, Esq.,
c/o Anglo-Palestine Company Limited,
Jerusalem.

من ملفات القنصلية البريطانية / القدس المحفوظة في الأرشيف السري الصهيوني -
الجامعة العبرية. رقم (790 / 10 / F 1882)

ملحق رقم (١٥)

مذكرة جلب لأحد الرعايا اليهود الممتنعين بالحماية البريطانية والمنتبهة مدة إقامتهم
بالبلاد وجاري البحث عنهم لترحيلهم بتاريخ ١٩ تموز (يوليو) ١٩٠٠ م

the renewed assurance of my
highest consideration.
(Signed) W. H. Kaye.

سأرسل لكم هذا لترتيب
ورد له الاذن من شقة معاليكم ورقم ٢٨ في برن في عدد ملفنا
بإرفاق مذكرة جلب الى راور اسد شوعا بلسه بما ان المذكور
منه الرئيس الذي انتدبته صماستهم الانجليزية في ابناء
هذه السنة الحالية انتم في افارة سفارتكم العنقية فريضه
مذكرة الجلب فتخذه في ١٩ تموز

(Signed) W. H. Kaye.

من ملفات القنصلية البريطانية / القدس المحفوظة في الأرشيف السري
الصهيوني - الجامعة العبرية. رقم (791 / 22 / F)

ملحق رقم (١٦)

رسالة من القنصل البريطاني في القدس إلى السلطات العثمانية
يطلب حماية يهودي تمت سرقة

*Veulley, agreei &c
(Signed) W.H. Kayat.*

N^o 31. *H. M. S. Consulate
Jerusalem, July 17/70*

Excellency, With reference to my
letters N^{os} 24 & 25 relative to the robbery
and plunder of M^r. W. Flinders Petrie,
of the Palestine Exploration Fund, in
the District of Hebron, and of the
negligence shown by the Local Autho-
rities at Hebron in refusing to attend
to the complaints of M^r. Petrie when
he

*His Excellency,
Richard Dasha
Governor General in Palestine
&c — &c — &c*

من ملفات القنصلية البريطانية/ المحفوظة نسخة منها في مركز التراث والبحوث
الإسلامية/ القدس رقم ٣٢ بتاريخ ١٩ تموز (يوليو) ١٩٠٠م

ملحق رقم (١٧)

رسالة من مفتش صحة بتاريخ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١١م يفيد بأن المهاجرين اليهود القادمين براً عن طريق مصر أحرار للتنقل ولا يحملون أمراض. وهذه الوثيقة تثبت تسرب المهاجرين اليهود براً إلى فلسطين عبر موانئ بلاد الشام ومصر

Reçu de l'Administration N° 131-1/ Aug. 2. 1911

C I R C U L A I R E N° 349

Constantinople, le 1er Août 1911.

Par décision du Conseil Supérieur de Santé,
les personnes provenant des Indes Anglaises ou des
Indes Néerlandaises et arrivant en Syrie, via Egypte,
y seront reçues en libre pratique après visite médi-
cale favorable si elles peuvent établir qu'elles
ne sont pas des pèlerins et que pareille ^{pratique} libre/leur
a déjà été accordée dans un port égyptien.

L'Inspecteur Général,

Signé: Dr. C. IZZEDDINE

من ملفات القنصلية البريطانية/ القدس المحفوظة في الأرشيف السري
الصهيوني - الجامعة العبرية. رقم (791 / 22 / F)

ملحق (١٨)

رسالة من مكتب السفارة البريطانية في استانبول لسعادة القنصل ساتو في القدس بتاريخ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١١م تفيد بأن "جمعية يهود لندن" في يافا معفاة من الرسوم

No. 23.

CONSTANTINOPLE,

November 11th, 1911.

Sir,

With reference to your despatch no. 48, of June 29th last, I have to inform you that the Ministry of Finance admits that the property of the London Jews Society at Jaffa is prima facie exempt from taxes, and wrote on October 19th, 1327, (No. 14109/56) to the Accountant General of Jerusalem to this effect, asking for an explanation of the attitude of the local authorities.

I enclose a poussola of this communication, and request you to follow the matter up and report the result to me.

I am,

Sir,

your obedient servant

Glenn Lowkin

H.E. Satow Esq.,

His Majesty's Consul, Jerusalem.

من ملفات القنصلية البريطانية/ القدس المحفوظة في الأرشيف السري الصهيوني -
الجامعة العبرية. رقم (23) (من مجموعة الدكتور محمد صالحية)

ملحق رقم (۱۹)

منشور الخطر الصهيوني في العام ١٩٠٠م، وهو منشور كتب بخط اليد ووزع على المواطنين في أنحاء فلسطين للتنبيه من الخطر الصهيوني



الوثيقة محفوظة في مركز إسعاف النشاشيبي / القدس

وثيقة رقم (١٢)

الوحدة الأرشيفية: محافظ الشام.

رقم الحفظ العام: ٠٠٠٦-٠٠٠٥٤٣-٠٠٠١.

تاريخ الوثيقة: في أوائل شهر رجب سنة ١٢٤٧ هـ / ديسمبر ١٨٣١ م.

مضمون الوثيقة: خطاب من السيد مصطفى القاضي بمحكمة القدس الشريف إلى حاخام طائفة اليهود القاطنين بالقدس الشريف بمحلته المخصصة بحارة اليهود يتضمن الإذن بترميم كنيس اليهود بناء على طلب ترجمان الحاخام الذي حضر إلى مقر المحكمة وطلب ترميم الكنيس لأن أخشابه سوست وأحجاره تساقطت وفي الشتاء يتساقط الماء عليهم، وقدم للقاضي فتوى شرعية بجواز ترميم الكنيس المذكور شرعاً. فحكم القاضي بترميم الكنيس المذكور.

ملحق رقم (٢١)

من وثائق القدس في الأرشيف المصري

٥٢

وثيقة رقم (١٩)

الوحدة الأرشيفية: محافظ الشام.

رقم الحفظ العام: ٠٠٠٦-٠٠٨٠٩٩-٠٠٠١.

تاريخ الوثيقة: ١١ رجب ١٢٤٧ هـ / ١٤ يناير ١٨٣٢ م.

مضمون الوثيقة: أمر كريم إلى منلا أفندي (قاضي) القدس الشريف، وشيخ الحرم القدسي، ونقيب الأشراف، ومتسلم القدس، برفع جميع التكاليف والمرتبات التي على جميع معابد وأديرة جميع طوائف النصارى الكائنة بالقدس الشريف من إفرنج وروم وأرمن وقبضة، وكذلك العوائد المرتبة على الملة الموسوية قديماً وحديثاً^(١).

ملحق رقم (٢١)

من وثائق القدس في الأرشيف المصري

بإذنه صدرت أوامر من سكرتير رسوم الخزانة أخذت من القديس الشريف منيخا أرم القديس ومفتي
أخذت من قسطنطين الشرف وهذا المسجد الأثري وكافة العسا والمخطبات والصوره بوجه العموم
وتمت أن القديس الشريف محتوي على معابد وأدبره وأثار ترد إلى ذيارتها جميع من كنيسا
والمدن وقرى من كل فج وسب وبقتصدونها في سائر أوقافه رجب تواجدت كان
عديم المسقات الباهضة لسبب الاغفار الموضوعة بالقرارات ولأن اجراء الرقي به

التي صدرت أوامرها لجميع التسمية الذين بابا باله صيدا وبالبو القديس الشريف منا بلس
وجنبه برفق هذه الاغفار من جميع الطقات والمنازل بوجه العموم ومن حيث ان الادبر
والكنائس الكاينة بمدينة القدس هي مقر الرهبان والتسبيبه وبها يتلون النجس ويحرق
طرايق اعتقادهم ولقوسهم فينبغي دفقا حمايتهم صيانته من كل الكلفات التي ترتبت
عديم بواسطه جميع السالفية ولذلك قد صدرت اراوتنا الادبر برفق جميع المرتبات
التي على جميع معابد وأدبره جميع طوايف النصارى الكاينة بالقديس الشريف من افرنج وروم
وادم وقبطه وكذلك العوايد المرتبة على ملقة المسموية قديرا وصديرا خدمه المرتبات
ان كانت من قرايين ومجوديات ومعتادات عايدته خزينة الدولة الوزير النصف
اول القضاة اول التسمية اولاد باب القضاة وذوي القضاة والكتتاب اول القديس الشريف جميعها
امرنا برفعها ومنعها وابعد لها وصدر امرنا ايضا برفع القضاة المجمعين على العيسا
عند دخولهم القمامه والقضاة الذي عند مور الشريف التي به الادودون وصدرنا اليهم
امرنا هذا بهذا الخصوص لكي يوقفهم على ضرورة حاله تقابلهم بالخدمة والاستال برفق
جميع هذه العبوديات والمرتبات والمقتنيات عن جميع الادبره والمعابد الكاينة بالقديس
الشريف المنفقه جميع طوايف العيسا وبه المسموية ورفق القضاة المذكورين ايضا لاد
هذه المرتبات جميعها لا توافق وجهها شرعيا وبعد صدور امرنا هذا نحن بدي منه
مخالفة او كلف المذكورين ورفق القضاة يقع تحت الملام وان بنا على ذلك أصدرنا
هذا المرسوم من جوان مسرعا ليرجع ويحلوا مخالفة ويعتدو غاية الاعتماد وقد
نور وأرسل

ملحق رقم (٢٢)

من وثائق القدس في الأرشيف المصري

٦٢

وثيقة رقم (٢٤)

الوحدة الأرشيفية : محافظ الشام

رقم الحفظ العام : ٠٠٠٨٧٥٧-٠٠٠٦

تاريخ الوثيقة : ١٦ رجب ١٢٥٥ هـ / ٢٤ أكتوبر ١٨٣٩ م.

مضمون الوثيقة : مكاتبة من السيد عمر أفندي مفتي السادة الشافعية بدمشق الى مجلس القدس الشريف بشأن انتخاب بعض الذوات من أرباب مجلس شورى الشام للتوجه إلى القدس الشريف للتحقيق في ثلاثة أمور أولها ما أحدثه اليهود في الكنائس ، وثانيهما الكشف على حساب السيد محمد المهتدي متولي وقف الحرم الشريف القدسي والحرم الشريف الإبراهيمي و ثالثهما التحقيق في أعمال السيد عبد الرحمن شيخ جبل الجليل لارتكابه أعمال غير مرضية ، ومرفق بالوثيقة ما يتعلق بالتحقيق في تلك الأمور الثلاث المذكورة .

ملحق رقم (٢٢)

٦٣

من وثائق القدس في الأرشيف المصري

مخطوط رقم ٢٥٩ عابدين
صبيحة الوثيقة رقم ٢٩
تاريخ ١٦ رجب سنة ١٢٩٩

في ٩ رجب سنة ١٢٩٩ حضر فقهاء السيد عمر اخذ في القرى فقي إلى دار السيد
برشوعه الشهم لمجلس القدس الشريف وقرر انه يعقضي الامر الكريم
المنداري الكبار في امركم سر عيسى بانتخاب زعماء الزوات من
ارباب مجلس شورى الشهم العالي قد صدر الامر الكريم المنداري
لهذا الداعي بالتوجه الى القدس الشريف للاهل رؤيه تتولاه اشيا بمجلس
القدس الشريف الاول يعقضي الملقوم الضادو منه مجلس القدس
الشريف يتاح به طائفة المهود منهم قضاة والمجاهم باش قد اعدوا
في بيوتهم الناس للاوجود الى في ايامه فصدر الامر الكريم المنداري
الوامع بالكلف على والوقوف على حقيقة امرها الى الثاني - انه
متمرر عن مال حسان السيد محمود الهندي متولى الوقف الحرم الشريف
القدس والحرم الشريف الابراهيم وانه لهذا الخزان غير موافق
على ما يعقضي الاصول منه حيث الوقوف على الحيات بالوصف
الحرم الشريف للاصول الشئ الثالث فصوله عند الرحلة عمر
شيخ جبل الجليل وانه المذكور سابقا حاصل من امور غير مرصيه
وتحمر عند بولاق في السطحة ثم بعد ما تممرر عن حيا
حالة وصداقاته في المدايات المده تم بعد ما تممرر عن حيا
غير مرصيه حيث وقع لهذا الاضغلات انقض صدور الامر الكريم المنداري
عسكره بانتخاب زعماء الزوات من مجلس شورى الشهم لرؤيه
لهذه الاشيا الثلاث فصدر امركم عيسى لهذا الداعي بالتحضر
الى القدس الشريف ورؤيه ذمج بوجه الطوه فالتى يعقضي انه يكون
بمعرفة الشيخ الشريف يتجرر - اعلام شهم ويعرضه لاقتاب دولة
والذى يعقضي انه يكون بمعرفة المجلس يتجرر بمعرفة صرنال ويعرضهم
اذا لا يقتضيه على الثالث المحدثه منه طائفة المهود في بيوت المجاهم
المجاو وعنده المجاهم باش ويكونه ذلك ففصله فقهاء ناظر اخذ في
المجلس ونائب قاض الشيعه وميشم اذا وكل طائفة المهود
الخواجج رليفنو وبعد اعلم تصبوا لك الصلح - يصدر الشريف
في بقية المصنف والاى حضركم
تقرر ناظر اخذ في



من أقوال ومواقف.

السلطان عبد الحميد الثاني

(إنصحوا الدكتور هرقل بألا يتخذ خطوات جديدة في
هذا الموضوع ، فإني لا أستطيع أن أخطئ عن شبر
واحد من أرض فلسطين ... فهي ليست ملك يمني
... بل ملك الأمة الإسلامية .. لقد جاهد شعبي
فبillet هذه الأرض ورواها بدمه .. فليحتفظ اليهود
علايهم ... وإذا منفتت دولة الخلافة يوم أفانهم
يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ..
أما وأنا حتى فإن عمل الموضع في بدني لأهون علي
من أن أرى فلسطين قد بترت من دولة الخلافة وهذا
أمر لا يكو . إني لا أستطيع الموافقة على تشريع
أجسادنا ونحن على قيد الحياة).

السلطان عبد الحميد الثاني
أستانبول ١٩٠١م

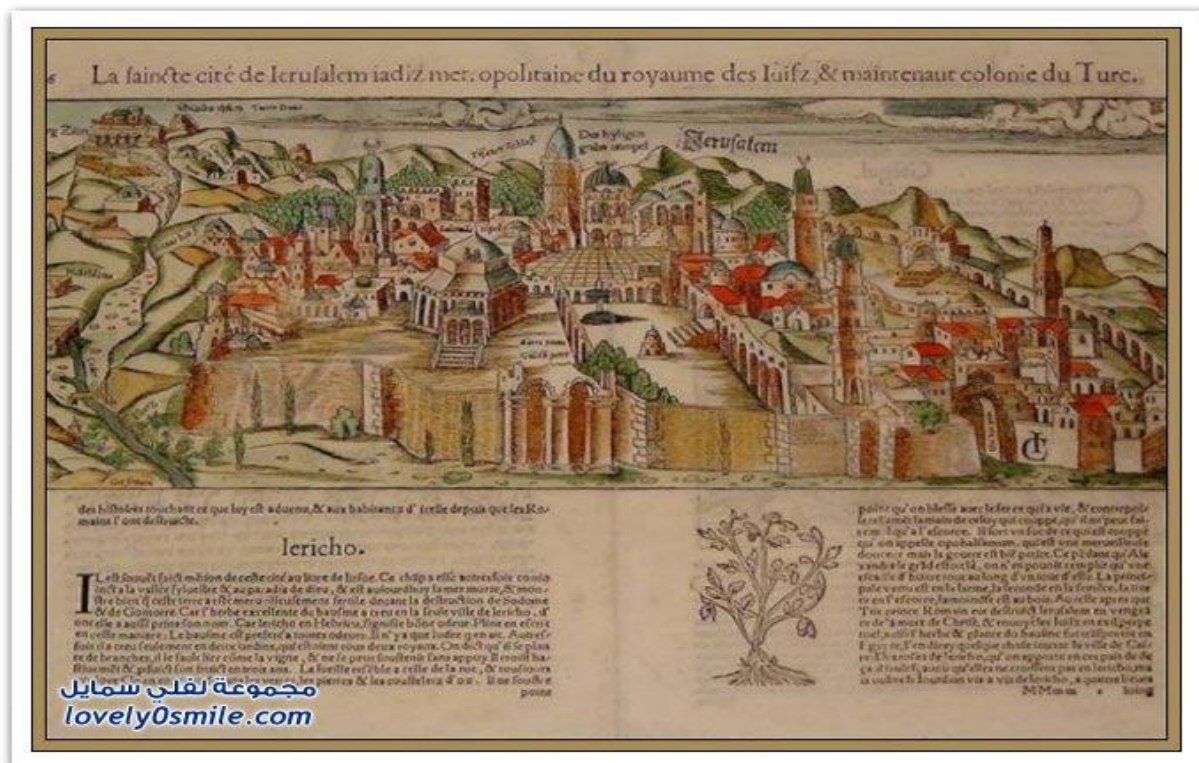
الصورة الأولى: مدينة القدس عام ١٥٢٠ ميلادية ٩٢٧ هجرية



الصورة الثانية: السلطان مع مجموعة من حاشيته في مدينة القدس



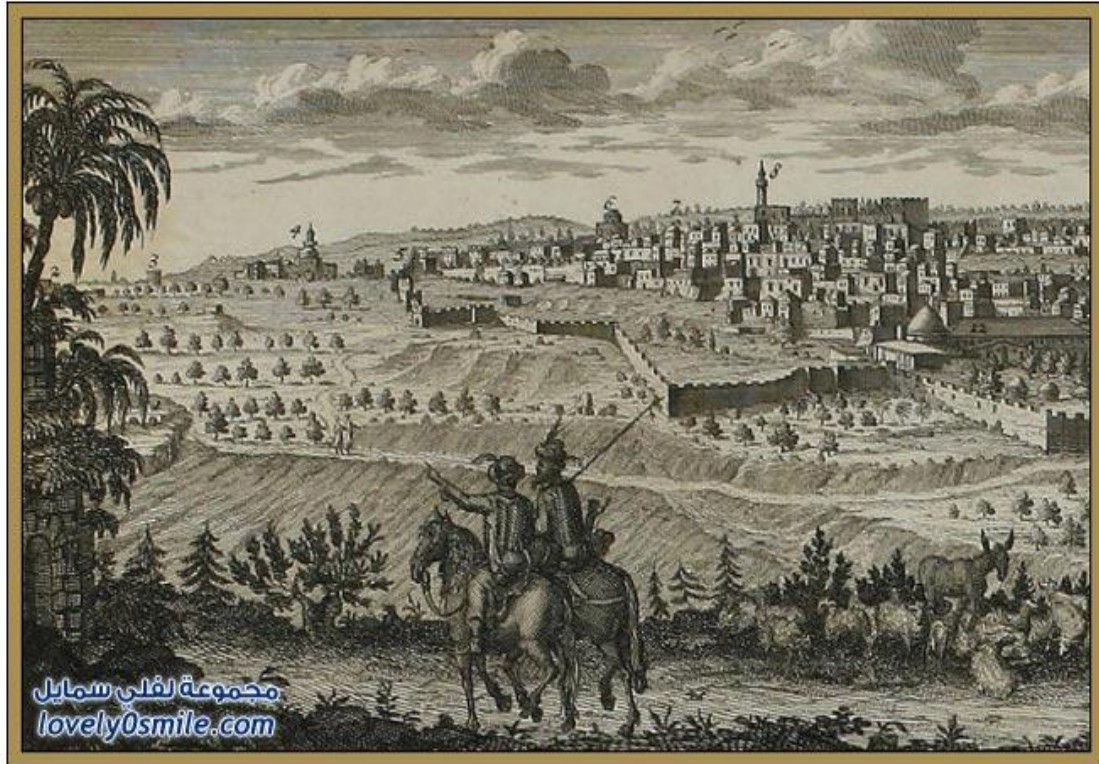
الصورة الثالثة: القدس في العهد العثماني



الصورة الرابعة: مدينة القدس



الصورة الخامسة: مدينة القدس



الصورة السادسة: اليهود يمارسون طقوسهم الدينية بحرية في القدس



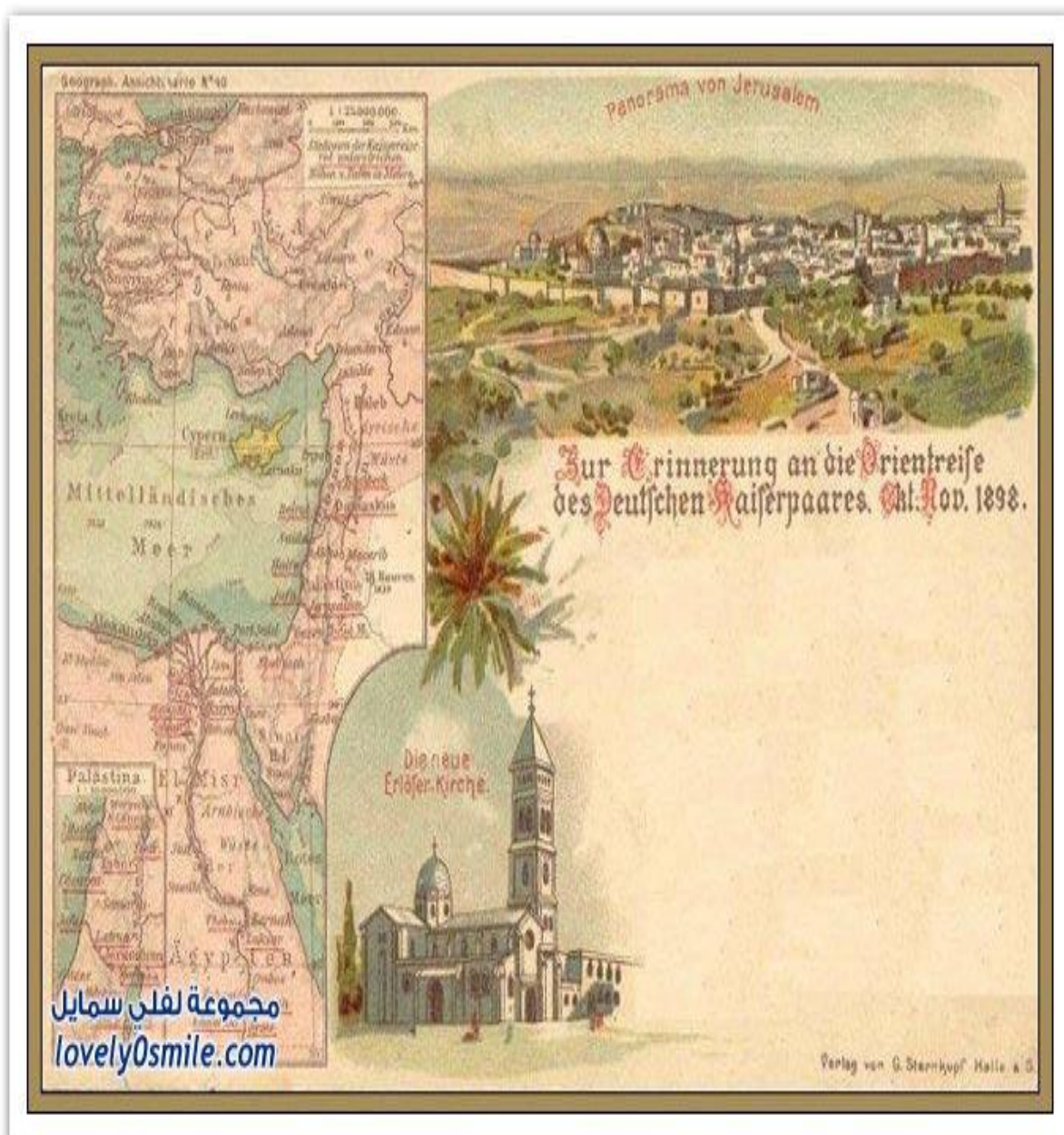
الصورة السابعة: المسيحيون يمارسون طقوسهم الدينية بحرية في القدس



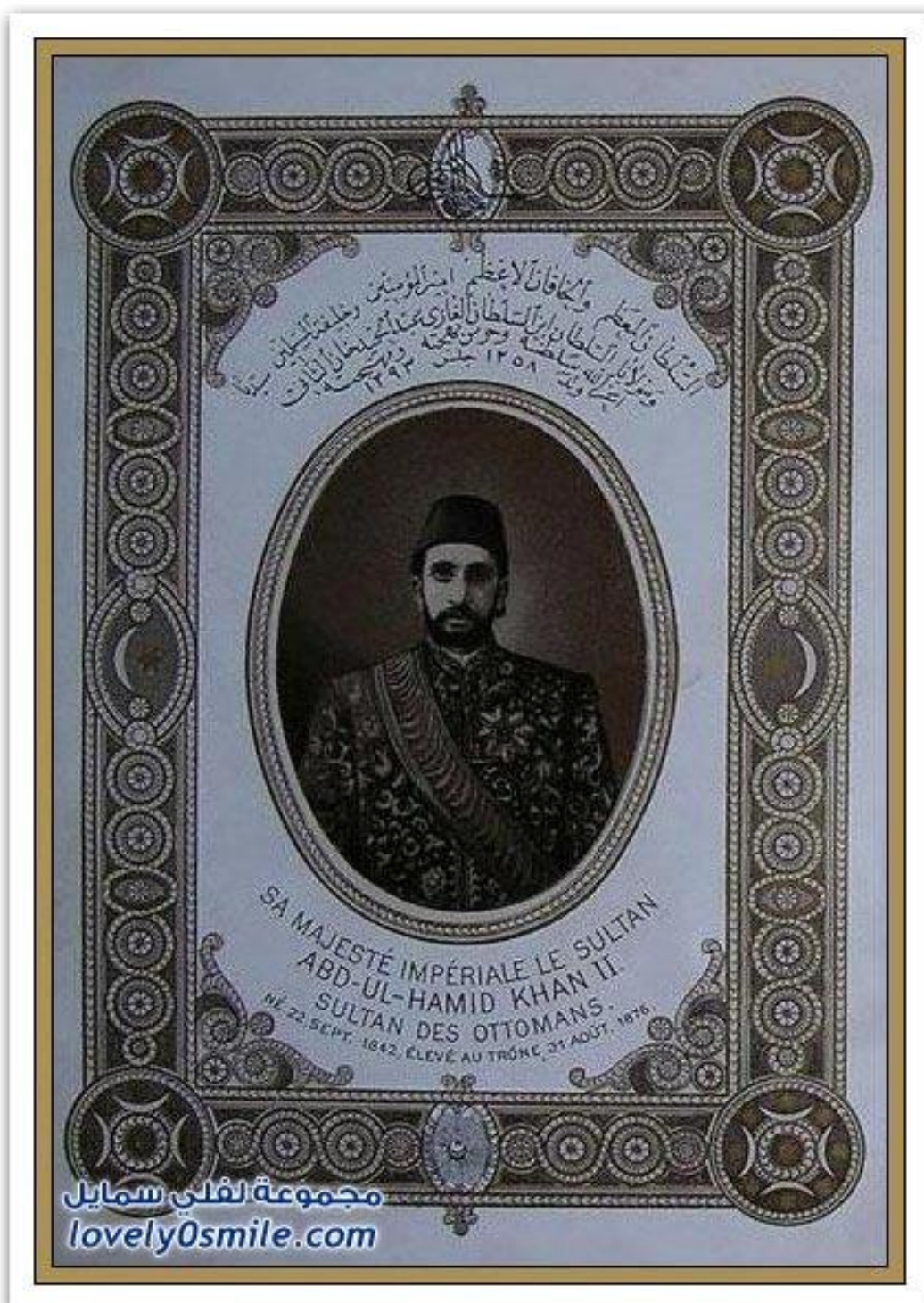
Jérusalem, Cérémonie au Jeudi Saint.

مجموعة ليلي سمايل
lovely0smile.com

الصورة الثامنة: القدس عام ١٨٩٨ وخارطة العهد العثماني



الصورة التاسعة: السلطان عبد الحميد الثاني



الصورة العاشرة:

غضب السلطان الكبير عبد الحميد الثاني أمام المنظمات اليهودية حينما طلبوا منه السماح للاستيطان اليهودي في فلسطين، حيث سجنهم السلطان في سجن مجلس الرابطة، ثم بعد ذلك أصدر أوامر مشددة في اعتقال المهاجرين اليهود غير القانونيين داخل الدولة العثمانية بتاريخ ١٩١١/٩/٧ كما مدون في الوثائق العثمانية.



الصورة الحادية عشر: العثمانيين في القدس عام ١٥٣٠-١٥٣٧ وهم يقومون باعمال اعادة
بناء ابواب وقبب في بيت المقدس.



الصورة الثانية عشر : العثمانيين في مدينة القدس .



الصورة الثالثة عشر : مدينة القدس



الصورة الرابعة عشر: الاحتفال بمولد السلطان العثماني - مدينة القدس ١٩١٧



الصورة الخامسة عشر: العسكر التركي - القدس



الصورة السادسة عشر: الشعب الفلسطيني والطائرات التركية



الصورة السابعة عشر: مجندين للجهاد قرب طبريا عام ١٩١٤ فلسطين



الصورة الثامنة عشر: الهلال العثماني - فلسطين



الصورة التاسعة عشر: طيارين اترك في القدس



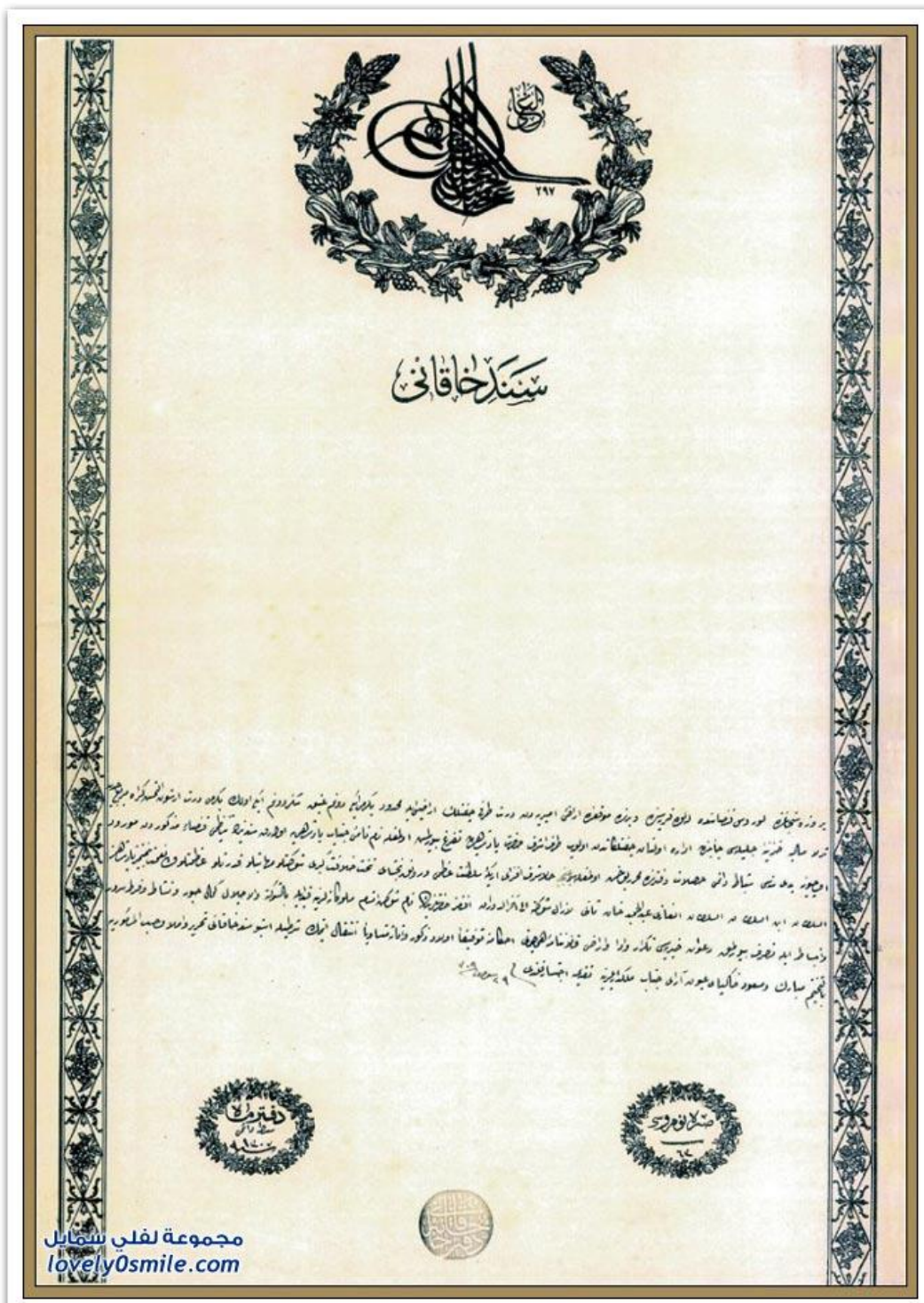
الصورة العشرون: الاتراك والفلسطينيين في شارع داوود في القدس عام ١٨٩٨



الصورة الحادية والعشرون: بريد فلسطين

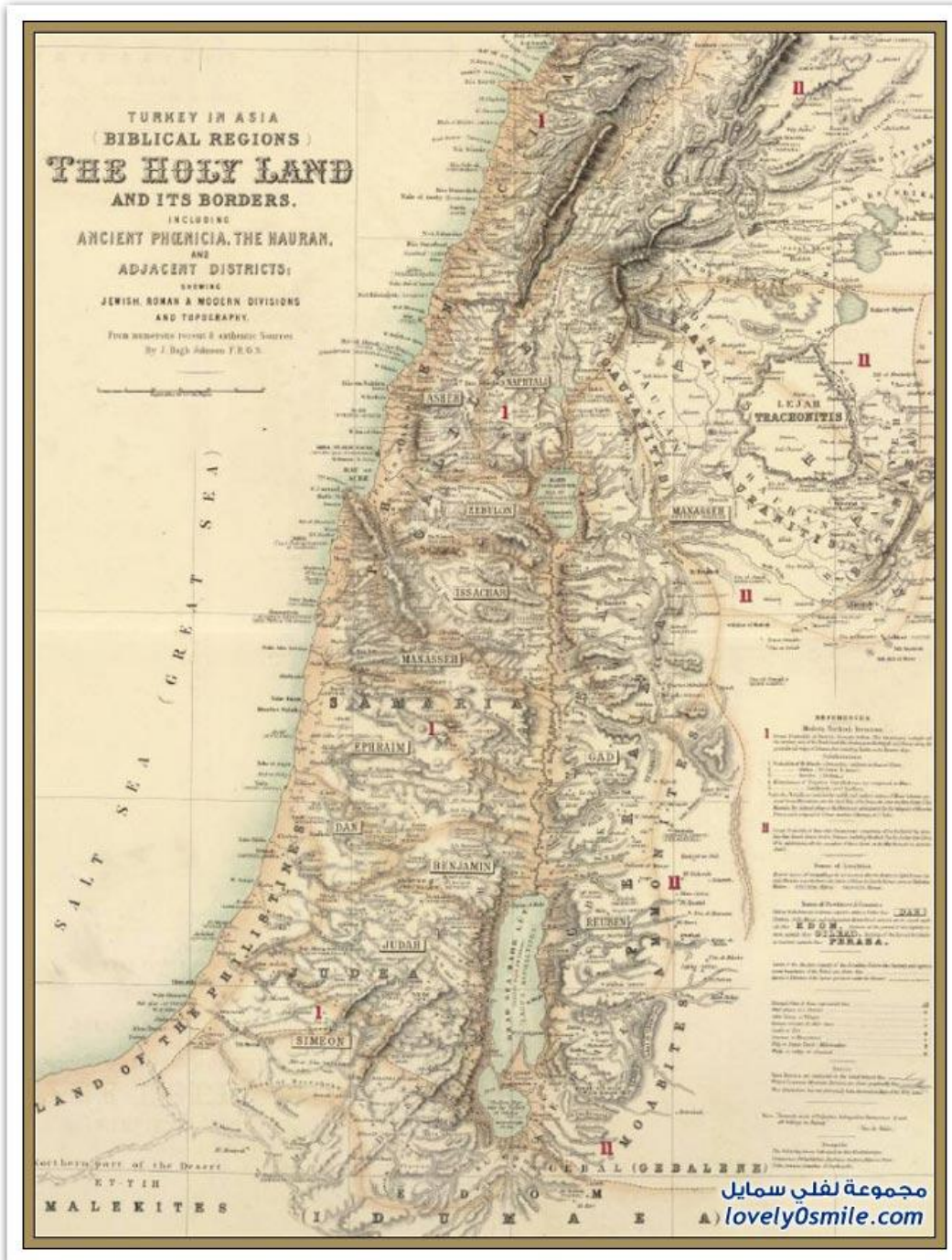


الصورة الثانية والعشرون: وثيقة تعود للسلطان الكبير عبد الحميد الثاني لوقف الاستيطان اليهودي في فلسطين



الصورة الثالثة والعشرون:

خريطة: تركيا والأراضي المقدسة تحت عنوان (تركيا- الأراضي المقدسة) كتبت الخريطة.



الصورة الرابعة والعشرون: حفل افتتاح محطة القطارات في القدس



الصورة الخامسة والعشرون: كنيسة المهد



الصورة السادسة والعشرون: الكنيسة الروسية في القدس



الصورة السابعة والعشرون: حي من أحياء القدس يجمع فيه أماكن مقدسة مسلمة ومسيحية



الصورة الثامنة والعشرون: القدس ومقدساتها المسيحية والإسلامية



الصورة التاسعة والعشرون: أعمدة كنيسة القيامة



La conclusion

les quatre Seasons de la recherche ont basé sur la vérité fixé et confirmé:

Jérusalem a occupé une position et une importance particulière représentés dans son histoire et son statut religieux qui étaient un désastre sur elle et sur ses habitants et ils ont poussé à la surface des tragidies et des douleurs dont les Palestiniens se souviendrent et souffreront dans le present et a l'avenir ,et comme sa souffrance à travers l'histoire

Muhammad Ali a montré l'intérêt public en Palestine et en particulier à Jérusalem depuis le début de sa politique . Après avoir échoué à prendre la Syrie pacifiquement et légalement, Il se préparait à l'invasion et pris la Syrie par la force. Bien qu'il existe plusieurs raisons directement et indirectement Muhammad Ali a utilisé la question des paysans comme un prétexte pour l'invasion .La majorité des Palestiniens sont accueillis à Abraham Pacha, et les dirigeants locaux lui ont donné une loyauté même avant il a saisi Akka . Pendant la première phase qui a duré une année il n' ya pas des changements majeurs dans la règle administrative en Palestine, où la présence des alliés locaux a été assez pour maintenir l'ordre dans le pays.

Cela a aidé Ibrahim Pacha avec la plus grande partie de son armée sur les progrès vers les forces de Sultan.

Ainsi, les dirigeants de la Palestine sont arrivés à la hauteur de leur pouvoir et ils étaient les dirigeants réels du pays à la fin de 1831-1832 surtout dans les mois qui ont suivi l' occupation de Akka. Mais après l'arrivée de Sheriff Beck le gouverneur civil de la Syrie au debut de l'année 1833 la situation a changé

les Egyptiens ont essayé de trouver une sort de sécurité traditionnelle contre les Bédouin qui menaçaient les propriétés des paysans,mais après un certain temps les habitants et leurs enfants , propriétés, animaux et crops sont devenus moins sécurisés par les mesures du

gouvernement , et un sentiment d'insécurité est répandu parmi toutes les classes

Mohammad Ali avait encouragé la pénétration européenne dans la culture, la politique et la religion. En conséquence, Il a ouvert des consulats à Jérusalem afin de satisfaire les Européens et d'assurer la paix avec eux, surtout l'Angleterre . Cette politique a conduit à l'expansion et le renforcement des institutions religieuses . Pendant la quarantaine de la dix-neuvième siècle et jusqu'à la guerre de Crimée, Angleterre était le premier concurrent religieusement et politiquement à Jérusalem.

La première étape pour la pénétration européenne a commencé à Jérusalem dans les trentains de la dix-neuvième siècle

Jérusalem est devenu un point central pour attirer les puissances européennes qui ont protégé les minorités afin d'augmenter leur influence.

Il ya quelques mois du départ de la mission militaire égyptienne en Palestine, Muhammad Ali a promis les consulats européens un bon et nouvel traitement pour les chrétiens , où il a annulé l' hommage irrégulière et les taxes imposées aux chrétiens et les juifs à Jérusalem. Cette politique a été d'assurer la neutralité des Nations européennes dans l'affrontement inévitable avec la Porte haute.

En raison de la politique religieuse les égyptienne musulmans ont perdu leur supériorité sur les autres religions, et ils sont devenus détesté le gouvernement.

Quatre mois après le déclenchement de la révolution qui a éclaté en Palestine contre la politique égyptienne, et en particulier la politique de recrutement et de désarmement et qui incluait tous les secteurs de la société, Muhammad Ali a été dirigé vers la Palestine à la tête de la force composée de 15.000 soldats pour éteindre la révolution

Et puis les Egyptiens ont gardé une grande armée en Syrie et en Egypte, et la violence a augmenté en particulier pendant les campagnes de recrutement

D'autre part, la politique égyptienne n'a pas changé le système politique radicalement où ils ont tué des dirigeants qui ne coopéraient

pas avec eux et Ils ont gardé les dirigeants fidèles. Par exemple, la position et l'influence de la famille Abd Alhadi ont été renforcées, et il a aussi gardé ses forces en raison de leur coopération avec le gouvernement central après la révolution de 1834.

Muhammad Ali a utilisé la violence et la haine pour exploiter les propriétés des habitants. Et pendant la trentaine de la dix-neuvième siècle, les gens ont opposé aux empiétements du régime égyptien sur les ressources économiques et humaines. Et l'État a répondu violemment. L'injustice et l'oppression sont devenues une politique officielle dans le pays. On peut dire que la règle égyptienne est moderne, mais elle exprimait l'injustice.

Malgré les Ottomans savaient que Muhammad veut attaquer Abdullah Basha et occuper la Syrie, mais ils ne font pas des mesures efficaces. Pour confronter cette menace,

Et bien que Ibrahim a triomphé les guerres contre les Ottomans mais et il a réussi à exterminer l'opposition interne, mais à la fin il a perdu toute la Palestine et la Syrie. Les Ottomans ont allié avec les puissances européennes contre les Egyptiens, et ils ont regagné leur souveraineté en Syrie et en Egypte grâce à des Européens, notamment l'Angleterre et l'Autriche. Il était clair que des larges secteurs de la population n'ont pas accepté la politique égyptienne et surtout les classes dirigeantes traditionnelles dont leurs intérêts ont mis en danger. Il y a longtemps. Donc Muhammad Ali a gagné le soutien de son armée seulement, et il n'a pas appartenu à la classe influente afin de recevoir un soutien. En conséquence, la modernisation et plusieurs programmes du XIXe siècle sont imposées par le haut. Il doit être noté que la politique égyptienne et les besoins des Egyptiens étaient la raison pour porter des armes. Jérusalem est ensuite retournée à l'influence des Ottomans qui malgré les difficultés ont eu effectué la majeure partie de la nouvelle politique réglementaire dans la colonie, où ils ont mis fin à la période des groupes armés, ont établi le gouvernement dominé par la capitale, ont élargi l'action du gouvernement, ont organisé le système administratif, ont identifié les spécialités des employés, ont mis des systèmes de

conseils locaux , ont réparé l'ancien système judiciaire religieuse , ont établie a son côtés un système judiciaire nouveau ,et ils ont pris soin de cadre militaire et sécurité pour contrôler le pays.

Bien que l'Empire ottoman a suivi la politique de l'égalité sectaire , l'amélioration de la situation des minorités a été en raison de l'intervention des consulats européens où ils ont participé à des conseils d'administration et dans le service militaire.

Dans le domaine de l'éducation, l'Etat a augmenté le nombre d'écoles et elle a imposé enseigner la langue turque.

Le gouvernement central dans la capitale et le gouvernement local ont échoué à réduire l'infiltration juive qui ont établi des colonies agricoles actives.

La résistance palestinienne a été actif contre les planificatrices sionistes dans l' époque constitutionnel(1908-1914) en raison d'un sentiment de danger de la densité de l'immigration juive et l'expansion des projets de colonisation sionistes.